

كلود كاهن

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية



ترجمة: أحمد الشيخ

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية

الشرق والغرب
زمن الحروب الصليبية

الكتاب : الشرق والغرب
زمن الحروب الصليبية
الكاتب : كلود كاهن
ترجمة : أحمد الشيخ
الطبعة الأولى ١٩٩٥

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سينا للنشر
المدير المسؤول : روية عبد العظيم

١٨ ش ضريح سعد - القصر العيني -
القاهرة - جمهورية مصر العربية -
تليفون / فاكس : ٢٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢

هذه ترجمة لكتاب :
Orient et Occident au temps
des Croisades.

تأليف :

Claude Cahen

الناشر :

Aubier - Montaigne

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة



الغلاف : عماد حليم
الاخراج الداخلي : إيناس حسني
الطبع : سينا للنشر


كلود كاهن

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية

ترجمة: أحمد الشيخ

كتيب رقم ١٧٩٩
رقم التسجيل ١-٧٨٩٩

مينا
للنشر



تقديم المترجم

عندما يصدر كتاب جديد عن الحروب الصليبية بعد تسعة قرون على اندلاعها فإن أول ما يتبادر إلى الذهن مباشرة تساؤلات مشروعة : ما الذى يمكن أن يضيفه هذا الكتاب ؟ وما الذى لم يتم ذكره، بعدُ، فى هذا الشأن ؟ أو ما هى القراءة المعاصرة لهذا الحدث، ونحن نعيش اليوم كثيراً من الأحداث التى تجعلنا لا نعرف كيف نميز بين الماضى والحاضر ؟ وهل الماضى مضى وانتهى، أم أن آثاره مازالت تخيم بظلها على الحاضر ؟ وأية مفارقة تلك التى يحتل فيها الحدث الماضى قلب الحاضر بصورة أشد عنفاً ودماراً من لحظة بدايته الأولى ؟ وأى تقدم هذا الذى يسير فيه التاريخ البشرى، الذى لم يعد تاريخ ارتقاء الإنسان وتأكيد إنسانيته بل هذا التاريخ الذى يُفضى إلى «التطهير العرقى» والمذابح الجماعية والاغتصابات المبرمجة، ثم الصمت واللامبالاة من قِبَل دول الحضارة الغربية إزاء بشائر الصليبية الجديدة، التى بدأت فى اليوسفة ولا نعرف أين ستنتهى ؟ ١

والمفارقة الأكثر غرابة أننا نجد بعض الكتاب والمؤرخين والدبلوماسيين الغربيين يندهشون إزاء تأثر العرب والمسلمين بفترة الحروب الصليبية، ويأحدث يفترض أن أجلها قد انتهى منذ قرون. وليس ما يثير دهشتنا أنهم يستشهدون ببعض القادة العرب والمسلمين^(١) المتأثرين بشخصية القائد صلاح الدين الأيوبي، أو ببعض المسؤولين السياسيين والدينيين فى العالم العربى والإسلامى الذين يتحدثون عن استعادة القدس، ويشبهون إسرائيل بدولة صليبية جديدة، وإنما دهشتنا وحيرتنا تكمن فى أن هذا الوعى الغربى التعيس لا يشاهد فى نفسه ما يقوم بإسقاطه على الآخرين، حيرتنا مصدرها أنهم لا ينظرون كيف يعولون من جديد إلى منطق الحروب الصليبية، كما أنهم لا يكتشفون - أو يتجاهلون بتعبير أدق - استمرار وتعمق الفكرة الصليبية فى الوعى والممارسة السياسية والثقافية داخل بلدان الحضارة الصناعية الغربية ١ ١

فى الحقيقة دهشتنا أكبر إزاء عودة أوروبا التقدم والعلم والتكنولوجيا إلى مناخ العصور الوسطى، تلك العودة التى تكشف عن نفسها فى ميادين شتى من السياسة إلى

(١) انظر : جان كلود جيبو - على طريق الحروب الصليبية - دار نشر أورليا - ١٩٩٢ - ص ١٦.

الثقافة إلى الفن والموسيقى ومروراً بالسلسلات التلفزيونية^(١)، وبحيث قد لا يكون من قبيل المبالغة القول بأن هناك في نهاية القرن العشرين اتجاهات تعمل في أوروبا على استعادة منطق العصور الوسطى^(٢)، حيث يتم تعطيل العقل أو قَصْر نشاطه على دول الحضارة الغربية، أما أبعد من ذلك فإن قوانين العقل لا يمكن تطبيقها، ويتم الكيل بمكيالين في السياسة والحروب، كما في الثقافة، في قرارات مجلس الأمن، كما في البحوث العلمية، فماذا نجد لو حللنا الوعي الأوروبي المعاصر الذي يتهم العرب والمسلمين بالتأثر بالحروب الصليبية ؟ ستزداد الدهشة والحيرة عندما نعرف أن مضمون هذا الوعي إزاء العرب والمسلمين لم يختلف كثيراً عما كان سائداً في العصور الوسطى، وذلك على الرغم من تقدم التاريخ، وتقدم أدوات الاتصال والتواصل بين الشعوب والأمم ! فماذا يعرفون حقاً في أوروبا عن العرب والمسلمين ؟ أو بتعبير آخر ما هي تلك الصور والآراء التي يذيعونها عن المجتمعات العربية والإسلامية ؟ في الواقع لن يجد المرء مشقة كبيرة في التعرف على مظاهر هذا الوعي البائس التي تفصح عن نفسها بلا حياء أو خجل، فما الذي يخيف أوروبا اليوم أمام مجتمعات عربية وإسلامية تُثقلها الأزمات والهموم ! إننا نجد ملامح هذا «الخوف في الغرب» الذي كان سائداً في العصور الوسطى دون أن يكون له ما يبرره في ميزان القوى السائد اليوم ! كما نجد استمراراً لهذا الوعي البائس في الأحكام والصور المشوهة التي تعود إلى العصور الوسطى عن العرب والمسلمين ورمز الإسلام الأول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بينما نجد - وهذه مفارقة أخرى - أن وعي العرب والمسلمين بالغرب وثقافته أفضل بكثير من وعي الغربيين بثقافات العرب والمسلمين^(٣)، وأن أغلب النخب العربية والإسلامية لازالت تؤمن بالقيم الإنسانية وبالعلمية، وبأن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس، وبضرورة الانفتاح والتواصل مع الحضارات الأخرى !! وأنه عندما يحدث تطرف أحياناً في بعض بلدان الشرق الإسلامي فإنه لا يعدو أن يكون رد فعل لا أكثر.

(١) عرض التلفزيون الفرنسي مؤخراً مسلسلاً مكوناً من ثلاث حلقات عن شارلمان، ولم يتطرق المسلسل من قريب أو بعيد إلى ازدهار العلاقات بين شارلمان والقادة المسلمين، والأدهى من ذلك انتهاء المسلسل بتعبير يُعلن أن إمبراطورية جديدة للغرب المسيحي في طريقها للنشوء، ولا يعرف المشاهد إذا كان الحديث يشير إلى الماضي أم الحاضر !

(٢) انظر : الآن منك القرون الوسطى الجديدة - دار نشر جاليمار - ١٩٩٣.

(٣) انظر : ميشيل لولونج - الكنيسة الكاثوليكية والإسلام - داء ميزون نوف، لاروس ١٩٩٣.

الشيء المؤكد لنا أن هناك رغبة متواصلة في تأكيد الذات الغربية في مواجهة الشرق والعرب والمسلمين والعالم الثالث، وأن العودة في الغرب - على نقيض المظاهر الخادعة - إلى هوية ومنطق العصور الوسطى أقوى بكثير مما يوجد عليه الأمر في بعض بلدان الشرق الإسلامي.

وقد تزايدت معدلات العودة أكثر فأكثر بعد زوال المعسكر الاشتراكي، وبرز حاجة دول الحضارة الغربية إلى خصم جديد، تتهرب من خلاله عن حل مشاكلها المزمنة، وبالطبع ليس أمام هذا الغرب من خصم نموذجي، تتوافر فيه كافة المواصفات، أفضل من العرب والمسلمين عامة، ومن ثم ليس من قبيل المصادفة انتشار الكتابات والدراسات عن «الحروب بين الثقافات» أو «الصدام بين الحضارات» في الأونة الأخيرة، وحيث تفتعل معارك، كقضية سلمان رشدي والحجاب وغيرها، من أجل إظهار الاختلاف بين الثقافات والحضارات، ومن ثم تكون هذه الاختلافات، كما يقول أحد مؤلفي هذه الدراسات^(١)، هي خطوط المعارك في المستقبل، وذلك لأن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية، كما أن خصائصها أقل قابلية للتبديل والحلول الوسط من نظيرتها السياسية والاقتصادية، وأن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً واقتصادياً في المحل الأول بل ثقافياً وحضارياً. وتعود بنا هذه الفرضية - دون أن تفصح عن ذلك مباشرة - إلى الجذور التاريخية لهذا الصراع القديم بين الشرق والغرب، والذي ظهر أولاً بين الفرس واليونانيين، ثم بين الفرس والروم، حيث كان صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين في الحياة متباعدين، كما يذهب بعض المؤرخين الغربيين^(٢)، وأن هذا الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً حتى كانت نهاية القرن الحادي عشر، فاشتد غليانه وثوراته، وعندئذ وجد متنفساً في الحرب الصليبية التي عمقت الجذور التاريخية للخلاف بين الشرق والغرب، بإضافة الخلاف الديني بين المسيحية والإسلام لهذا الصراع، فإذا كان الصراع بين الشرق والغرب هو صراع أجناس وثقافات قبل العصور

(١) سمويل ب. هانيتفون، الصدام بين الحضارات - مجلة الشؤون الخارجية - مجلد ٧ رقم ٢ (١٩٩٣) دراسة مترجمة إلى العربية في شؤون الأوساط - فبراير ١٩٩٤.

(٢) نجد تعبيراً واضحاً عن وجهة النظر هذه لدى كل من عزيز سوريال عطية وسعيد عبد الفتاح عاشور، وهما من كبار المتخصصين في هذه الفترة.

الوسطى، فإنه قد صار معها صراع أديان، ومع تقدم البشرية هل ينتهى الصراع الراهن بين الشرق والغرب إلى صراع أجناس وثقافات وأديان أيضاً ؟

لم يكن غريباً إذن أن يبدأ كلود كاهن كتابه «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية» باستباق دهشة القارئ من صدور كتاب جديد فى هذا الشأن، غير أنه يقدم مبررات محضه لصدور كتابه بالإشارة إلى أن نسبة الكتب القيمة ضئيلة ضمن هذا العدد الهائل من الكتابات المكرّسة للحروب الصليبية وتاريخها، وأن أغلب هذه الكتابات لا تتوافر بها الشروط العلمية الدقيقة للتأليف العلمى، حيث صدرت فى أغلبها فى مناخ غلبت فيه الأهواء، وبالتالي ثمة حاجة ملحة لمزيد من الأبحاث الجديدة لتصويب الدراسات السابقة، ولإضاءة بعض الجوانب المعتمدة فى تاريخ هذه الفترة، الأمر الذى يسمح بعقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهاً لوجه ومن أجل أن تكون هناك نظرة متبادلة من كلا الطرفين لدراسة أوجه الالتقاء والتأثير انطلاقاً من نظرة شاملة للتاريخ، ومع أن دراسة كاهن هى دراسة أكاديمية عن تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة الحروب الصليبية - وليست عن تأثير هذه الحروب فى التاريخ الحديث والمعاصر - وهو ميدان ظهرت فى نطاقه العديد من الكتب المهمة فى الآونة الأخيرة - فإن المرء لا يمكنه النظر إليها بمعزل عن السياق السياسى والثقافى الذى ظهرت به، فالكتاب لم يصدر فى بيئة علمية خالصة ليطلع عليه نخبة من العلماء والباحثين فقط فالطبعة الأولى قد صدرت عام ١٩٨٣ والطبعة الثانية ١٩٩٢ أى فى فترات شهدت توتراً ملحوظاً فى العلاقات بين الشرق والغرب بعد اندلاع الثورة الإيرانية التى أيقظت الشياطين القديمة فى الغرب، والتى يبدو أنها لم تنم منذ قرون فسنحت لها الفرصة لتطل برأسها من جديد، كما صاحب هذا الحدث السياسى العديد من الأحداث الثقافية التى ساعدت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تأجيج وبلورة الصراع الثقافى بين الشرق والغرب، وكان أهمها كتاب الباحث الفلسطينى إدوارد سعيد المقيم فى أمريكا عن الاستشراق ١٩٧٨م، وما صدر فى أعقابها من كتب ودراسات لعل أهمها كتاب برنارد لويس كيف اكتشف المسلمون أوروبا ١٩٨٢م، فإذا كان إدوارد سعيد ينتقد الاستشراق، أى الطريقة التى أدرك بها الغرب الشرق، فإن برنارد لويس ينتقد الاستغراب، أى الطريق التى أدرك بها المسلمون الغرب، ويأتى كاهن فى كتابه هذا ١٩٨٢م ليجتنب ضمن موضوعات عديدة، قضية الوعى المتبادل وحدوده بين الشرق والغرب وإذا كان كاهن قد اقتصر فى معالجته لهذه القضية على

فترة العصور الوسطى، فإن بونارد لويس قد جعلها محوراً شاملاً لكتابه الذى يمتد حتى حدود القرن التاسع عشر، وهو الكتاب الذى كان له صدى كبير، واستخدم فى مواجهة نقد الاستشراق المتصاعد... فى هذا السياق إذا - وهو سياق له دلالة - ظهر كتاب كاهن عن «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية». فما هى أولا هذه الحروب الصليبية التى يؤرخ كاهن من خلالها للشرق والغرب ؟ قد تبدو الإجابة بديهية لأول وهلة، غير أن تعريف الحروب الصليبية لم يكن موضع اتفاق، إذ أن بعضهم لا يقصرها على الحروب التى شنها الفرنجة ضد الإسلام والمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى إبان العصور الوسطى، فوليام الصورى يصف حروب هرقل بأنها حروب صليبية، مع أنها حدثت قبل خمسة قرون من الحروب الصليبية بالمعنى التاريخى المحدد للكلمة، كما أن بعضهم الآخر قد وصف الحملات الموجهة ضد مسحيين هراطقة بأنها حروب صليبية أيضاً، ولدى المؤرخين العرب المعاصرين نجد من يرفض استخدام مصطلح الحروب الصليبية لأنه مصطلح دخيل، ولم يكن مستخدماً لدى مؤرخينا القدامى، الذين استخدموا مصطلح الحروب الفرنجية، ولأنه فى النهاية تعبير يسيء إلى المسيحيين الشرقيين^(١)، وإذا رجعنا إلى أحد أبرز المتخصصين فى هذه الفترة وهو عزيز سوريال عطية لا نجد لديه حرجاً - رغم أنه من المسيحيين الشرقيين - فى تعريف الحروب الصليبية بأنها كانت «صراع الأمم المتحدة المسيحية فى العصور الوسطى ضد كل قوى الإسلام، حيث تركز النزاع حول أورشليم وأرض الميعاد التى يدعى كل من الشرق والغرب لنفسه من امتلاكها»^(٢).

يتوزع كتاب كاهن بين مقدمة وسبعة عشر فصلاً وإحدى وعشرين وثيقة تاريخية، ومن خلالها يؤرخ كاهن لأوضاع الشرق والغرب عشية الحروب الصليبية، وعلاقات الغرب بالشرق فى تلك الفترات واصفاً دخول الصليبيين إلى آسيا، والاتصالات الأولى، ثم تأسيس الدويلات الفرنجية، وأوضاعها السياسية حتى الحملة الصليبية الثانية، كما يبحث المؤلف أوضاع التجارة والتطور الروحى، كذلك يخصص فصلاً يتطرق فيه إلى شخصية صلاح الدين، فمؤسسات الشرق اللاتينى، والسكان المحليين، والجيش فالفترة الأيوبية ثم الفترة المغولية

(١) هذا موقف قاسم عبده قاسم فى كتابه : ماهية الحروب الصليبية - دار السلاسل - الكويت - طبعة ٢ - ١٩٩٣ ص ١٥.

(٢) عزيز سوريال عطية - العلاقات بين الشرق والغرب - تجارية - ثقافية - صليبية - دار الثقافة المسيحية طبعة ١ - ١٩٧٢ - القاهرة - ص ١١.

فالخاتمة، وفي هذا الوصف أو التاريخ تجنب المؤلف تكرار الإشارة إلى الأحداث والوقائع المعروفة لدى دارسى هذه الفترة، وإن كان سياق التاريخ قد فرض ذلك على المؤلف في أحيان كثيرة، فالكتاب يؤرخ لفترة تاريخية من علاقات الشرق بالغرب في شتى جوانبها السياسية والثقافية والتجارية والعسكرية، وذلك استناداً لقراءة فاحصة ومدققة لأرشيفات تلك الفترة، ومن خلال هذا التاريخ نجد العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة الدائمة بينهما سائدة عبر صفحات الكتاب، فالمؤلف يبحث في طبيعة هذه العلاقة على أكثر من صعيد غير أنه يركز بشكل أساسى على نوعية الوعي المتوفر لدى كل طرف عن الآخر، ومصادر هذا الوعي، والتأثير والتأثر بينهما وشروط ذلك والمناطق التى تم عبرها هذا التبادل، كما لا يفوت المؤلف أن يقارن بين القدرات العسكرية وإجراءات المعركة لدى الطرفين، ويلاحظ أن المؤلف قد انشغل كثيراً في هذا الكتاب بدراسة الدويلات الفرنجية - الشرق اللاتينى - وهو فى ذلك يكمل ما بدأه فى أطروحته الجامعية عن سوريا الشمالية وإمارة أنطاكية ١٩٤٠، والتي استعاد كثيراً منها فى كتابه هذا مع دراسة الدويلات الفرنجية الأخرى التى لم يتناولها فى أطروحة وهى إمارة طرابلس وعكا ومملكة بيت المقدس.

ما الذى يمكن أن يخرج به المرء من قراءة هذا الكتاب ؟ لا نريد أن نصادر على حق القارئ فى الوصول إلى قراءة ممتعة ومثيرة إلا أننا نود أن نشير إلى أن مفاجآت هذا الكتاب كثيرة ومتنوعة، منها ما قد يروق للقارئ العربى ومنها ما قد لا يروقه، وأقل هذه المفاجآت إثارة أن الحروب الصليبية لم تمنع التفاعل بين الشرق والغرب وأنها لم تؤثر تأثيراً كبيراً على التجارة الغربية بالشرق بل أن بعض المدن التجارية الإيطالية كانت تحصل على امتيازات أفضل من قبل بعض الدول الإسلامية، وذلك فى عنفوان فترة الحروب الصليبية بل يرى المؤلف أن الحروب الصليبية ساعدت على نمو التجارة من عدة نواحٍ والمفاجأة الأخرى تكمن فى ما يقوله المؤلف عن الشرقيين الذين نادراً ما حاولوا الاقتباس أو التعليم من أوروبا حيث ينظرون إليها على أنها بلد بربرى لا يمكن أن يقتبس عنه أى شىء وهنا يشارك كاهن وجهة نظر برنارد لويس الذى يصف العرب والمسلمين بأنهم يفتقدون الرغبة أو التطلع لمعرفة الآخر.

على أنه من حقنا أن ننبه القارئ إلى أن مؤلف الكتاب باحث غربى، وأنه يكتب لأقرانه فى بيئة ثقافية مغايرة لنا، ولها سماتها الخاصة، ومن ثم لا ينبغى أن يتوقع منه ما ينتظر من مؤرخ عربى مسلم، ومع ذلك فقد كشف المؤلف عن تعاطف عميق تجاه تاريخ المنطقة العربية الإسلامية فى العصر الوسيط ، وربما أحياناً بصورة أفضل من بعض المؤرخين العرب

والمسلمين فى بعض المواقف ا غير أنه يكتب فى النهاية من منظور غربى له خصائصه الخاصة، وحدوده التى لا يمكن تجاوزها، وهو ما يبدو جلياً منذ بداية الكتاب حيث يقول المؤلف، (وفى النهاية فإن كل ما كتب فى هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية، من المؤكد أن الحروب الصليبية لا مجال لعرضها من منظور شرقى، ومع ذلك فهى تندرج بشكل ما داخل سياق شرقى، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهاً لوجه)، ويمثل هذا الرأى أوضح معالم النزعة الأوروبية المركزية، وإن كان كاهن لا يمثلها إلا نادراً وهو هنا يحاور أقرانه ويسعى إلى إقناعهم بأن من حق الشرقيين أيضاً أن يدرسوا هذه الفترة، وأنه إذا كانت الحروب الصليبية مبادرة أوروبية نمت وانطلقت من الغرب وإذا كان منطقياً أن الغرب فى هذه الحالة هو الأقدر على دراستها فإنه فى اللحظة التى وصلت فيها هذه الحملات الصليبية إلى الشرق يصير من المنطقى أيضاً أن يقوم الشرقيون بدراستها، فالمؤلف لا يرفض مبدأ قيام الشرق بدراسة أوجه الحضارة الغربية بشكل عام، فبالأحرى أن يدرس الشرق تلك الفترات التى حدث خلالها صراع أو التقاء مع منتجات الحضارة الغربية، لكن المؤلف لا يسمى فى كثير من الأحيان محاوريه، وهو ما ينشأ عنه بعض اللبس والغموض، كما أن من خصائص هذا المنظور الغربى - الذى أرخ كاهن لهذه الفترة من خلاله - أنه يتحدث عن الإسلام بشكل عام وغامض، وبدون التمييز بين الإسلام كدين وكجغرافيا وكمسلمين، فأحياناً يتحدث المؤلف عن تغلب الصليبيين على الإسلام والمقصود بالطبع المسلمين، وكذلك من خصائص هذا المنظور الغربى فى الكتابة عن تاريخ هذه الفترة أنه يكشف بصورة لا تدع مجالاً للشك عن عقلية التوسع الاستعماري الأوروبى، والنموذج البارز فى هذا الكتاب نجده فى تعبير الشرق اللاتينى، فإذا كان الغرب اللاتينى الكاثوليكي قد أسس بعض الدويلات أو الإمارات الصغيرة فى الشرق أثناء فترة الحملات الصليبية فإن هذه الدويلات صارت شرقاً لاتينياً امتداداً للغرب اللاتينى، بل نجد جمعية علمية تحمل اسم جمعية الشرق اللاتينى ظهرت فى نهاية عام ١٨٧٥، للاهتمام بأرشيافات هذا الشرق اللاتينى، وإصدار مجلة علمية تحمل اسمه، وصحيح أن كاهن قد حذر أكثر من مرة فى كتابه من الإفراط فى استخدام هذا التعبير إلا أنه فى النهاية اعتمده طوال الكتاب مثله مثل أقرانه من الباحثين، بل الأغرب من ذلك أن مؤلفنا يعزو للشرق اللاتينى صفات استقلالية إزاء الحملات الصليبية التالية للحملة الأولى، ففى بداية الفصل السادس نجد تعبيراً غريباً يقول «من العبث أن نجد كلمة واحدة عن الحرب الصليبية للشرق اللاتينى»، فإذا كان الشرق اللاتينى هو وليد

الحملة الصليبية الأولى، فإنه كف بعد ذلك عن أن يكون صليبيًا، وربما أزعجته الحملات الصليبية اللاحقة، كما يرى كاهن، وهو أمر بالنسبة لنا يحتاج إلى مراجعة وتدقيق أكثر، وكان يمكننا التغافل عن استخدام تعبير الشرق اللاتيني لو أن استعماله كان عابراً أو مجازياً، لكن الحقيقة غير ذلك وتزداد حيرتنا أكثر عندما يدرك كاهن كباحث وعالم حدود هذا التعبير في حوار مع أقرانه ثم لا يسلك وفقاً لهذه القناعة. ومن ملامح هذا المنظور الغربى أن لا نجد اهتماماً كافياً بالقادة المسلمين الذين نهضوا لمقاومة الغزو الصليبي للمنطقة، وأحياناً نجد قليلاً من شأن انتصاراتهم، ففي الفصل الذى يتحدث فيه المؤلف عن صلاح الدين يدور الحديث فى الأغلب عن أمور أخرى غير صلاح الدين وانتصاراته العسكرية التى لا تحظى بتقدير كافٍ من المؤلف تتلائم وقيمتها الحقيقية، وليس المعنوية فقط. وربما يجد القارئ التاريخ يضىء الحاضر فى قضية محورية بالكتاب وهى طبيعة مدينة القدس إذ يقول المؤلف : «أجل لقد كانت القدس مدينة مقدسة، غير أن ذلك لم يكن يستتبع أن تكون تحت سلطة المسيحيين فقط، أن سيادة المدينة على الصعيد الدينى لم تكن قد امتدت بعد فى شكل التزام سياسى».

بعد إطالة التفكير كثيراً فى ترجمة هذا الكتاب من قبل السيد ريشار جكمون، بدت الحيرة ماجدوى ترجمة كتاب عن الحروب الصليبية أو حرب الخليج، أو «الجواف» كما يسمونها فى فرنسا، لم تخدم نيرانها بعد، وما عساه يكون صدق الكتاب لدى القارئ العربى فى مثل هذه الظروف، وقد ساعدنى على حسم الأمر أن الكتاب رغم أن مؤلفه غربى إلا أن طريقته فى معالجة تاريخ تلك الفترة اتسمت بقدر كبير من الموضوعية، التى تفتقر لها أغلب الكتابات المرتبطة بالحروب الصليبية، وبعد الشرع فى الترجمة ظهر أنه كتاب ليس مثل الكتب الأخرى، فهو كتاب متعدد المنايع، ويكشف عن جهد موسوعى يتطرق إلى ميادين شتى من التاريخ إلى الجغرافيا والأديان وعالم الجيوش والتجارة والثقافة، وهو أمر يتطلب من المترجم بدوره أن يرتفع إلى مستوى هذا الكتاب الأكاديمى، وأن يصل إلى قدر من المعرفة بهذه الميادين لا يكون مقتصرًا على المعرفة المتوافرة لدينا عن الحروب الصليبية كرواية تروى بأسلوب شيق وسلس... وكانت المفاجأة أعظم بعد إمعان النظر فى الأسلوب الذى استخدمه مؤلف الكتاب، إذ لا يوجد أسلوب بالغ الدقة والتكثيف والصعوبة، بحيث سطر أو جملة إلا وهى محملة بأكثر قدر ممكن من المعانى، فالمؤلف من الباحثين المدققين، يعقت السهولة والخفة التى تبدو فى كتابات كثير من الباحثين الغربيين، وربما لهذا السبب لم يثل الاهتمام الذى يستحقه مثل غيره من الباحثين

الذين جمعوا بين البحث العلمى الأكاديمى والعمل السياسى والإعلامى، كان الطموح فى البداية محاولة جريئة فى ترجمة هذا الأسلوب فى الكتابة إلى اللغة العربية، وكانت أولى الصعوبات التى واجهت هذا الطموح أن أسلوب كاهن لا يمثل أسلوباً نموذجياً للغة الفرنسية، وربما كانت الأصول السامية للمؤلف قد جعلت تراكيب لغته أقرب أحياناً إلى اللغة العربية منها إلى اللغة الفرنسية، فأسلوب كاهن يتميز بجمل ذات نفس طويل، بحيث تصل بعض الجمل إلى عشرة أسطر أحياناً يتخللها جمل اعتراضية كثيرة، وكانت المجموعة الثانية من هذه الصعوبات ترجع إلى أن المحافظة على بنية أسلوب كاهن فى الترجمة العربية قد يؤدى إلى اختلالات فى المعنى، نظراً لتكثيف النص الفرنسى، بحيث من الصعب أن يدرك المرء على من تعود الضمائر فى بعض الفقرات نظراً لعدم توافق التأخير والتقديم من النص الفرنسى إلى النص العربى. ثم واجهتنا صعوبة ثالثة تكمن فى غموض بعض المعانى، والتى نحتاج - فى أضعف الأحوال - إلى شرح، وهو أمر مختلف إلى حد بعيد عن الترجمة، ثم كانت المجموعة الرابعة من الصعوبات مصدرها دار النشر الفرنسية أوبييه فى الطبعة الأولى، وفلاماريون فى الطبعة الثانية، حيث صدر الكتاب وبه مجموعة من الأخطاء المطبعية أشرنا إلى بعضها ولم يتم تلافيها فى الطبعة الثانية كما ورد بالصفحات ٩٩، ١٠٣، ١٢٠، ١٤٥، ١٧٤، ٢٠١ من النص الفرنسى بالإضافة إلى الأخطاء الواردة فى الملاحق بصدد الإحالات إلى نصوص توراتية وغيرها، وإذا كان من الشائع - وإن كان غير مقبول - أن تصدر الطبعة الأولى وبها بعض الأخطاء فمن غير المقبول أن تصدر الطبعة الثانية عن دار كبرى مثل فلاماريون وبها ذات الأخطاء، الأمر الذى يفصح عن خفة وعدم شعور بالمسؤولية إزاء الأعمال العلمية الجادة، والتى يستغرق إعدادها سنوات، وقد أشار كاهن فى تقديمه للكتاب إلى الصعوبات الصحية التى كان يعانى منها وضعف نظره إلا أن دار النشر الأولى والثانية يبدو أنها لم تضع ذلك فى اهتمامها رغم أنه من صميم عمل دار النشر مراجعة النص قبل الطباعة وبعدها ١

وبرغم من أن هذه الصعوبات مجتمعة كانت تمثل عائقاً كبيراً أمام الترجمة، إلا أن التحدى كان وارداً بشرط الوفاء للنص الفرنسى، وأسلوب الكاتب وتقديم من خلال اللغة العربية أسلوباً أكاديمياً يتفق فى الرصانة ودقة الألفاظ مع أسلوب الكاتب، ودون الإغراق فى التعابير القاموسية المنفرة، أو التعابير الرائجة الانتشار، والربط بين الفقرات خاصة أن المؤلف فى النص الفرنسى كان يؤرخ ويصف ويحلل من خلال جمل متراسة دون اهتمام كبير

بأسلوب الربط المنطقي، بالرغم من عدم التوفيق أحياناً كثيرة في تحقيق هذا الترابط بين
الجميل المتراسة، وإذا كان مؤلف الكتاب قد تمنى إلا يصدر القارئ أحكاماً قاسية بحقه بعد
قراءة الكتاب، فالرجاء ألا يصدر القارئ مثل تلك الأحكام بحق الترجمة التي تم إنجازها في
ظروف بالغة الصعوبة، وإن كان مثل هذا العمل العسير لا نهاية لتحسينه وإكماله لذلك تفيد
ملاحظات القراء وتصويباتهم في حالة إصدار طبعة ثانية للكتاب.

أحمد الشيخ

الحى اللاتينى - باريس

١٩٩٤ م - ١٤١٤ هـ

شكر وتقدير

فى النهاية لا يفوتنى فى هذا المقام توجيه الشكر للزملاء والأصدقاء الذين قدموا لى يد
العون والمساعدة من أجل صدور هذه الترجمة وأخص بالشكر منهم أحمد المطيلى وعمر المزي
وبولس الكارمى وأمين معلوف ومحمود القبعى وعمر حلمى إبراهيم وراتب حورانى وميشيل
لولونج والهادى جبنون ومجيد النصر ونبيل حبيقة ومحمد سيف وإيهاب مصطفى داود ومحمد
ناجى ومحمد بن حمودة وأحمد شليلات وجورج ساسين وسعيد اللاوندى والصادق سلام
وإسماعيل صبرى وسليمان زعيدور وصلاح الشيخ ووالدى الشيخ عبد العاطى الشيخ كما
أتوجه بالشكر إلى ريشار جكمون الذى سعى أولاً وأخيراً نحو صدور هذه الترجمة
ودار سينما التى احتملت التأخير فى صدور الكتاب إدراكاً منها لقيمة الترجمة وما تتطلبه
من جهد ووقت فإلى كل هؤلاء أتوجه بمشاعر التقدير والامتنان.

تقديم

قد يتساءل المرء هل نحن بحاجة إلى كتاب جديد عن الحروب الصليبية، كما لو لم تكن هناك عشرات الكتب التي تناولت هذا الموضوع، فضلاً عن آلاف المقالات^(١)؟ وأقول مجازفاً، مع ما قد يبدو في ذلك من إسراف في الاعتداد بالرأى - إن قيمة هذه الكتابات لا تتناسب - في الغالب - مع كميتها الوفيرة، وإن الأسباب التي أدت إلى تكاثرها والأثر الذي تركته على البحث العلمي أفضى - نسبياً - إلى نوع من الزيغ بل الابتعاد عن روح العلم ومنهجه، سواء أدرك ذلك المختصون في هذه الدراسات أم لا، فالحروب الصليبية وامتداداتها في ما سمي - بعد ذلك - بالشرق اللاتيني^(٢) لم تكن موضوعاً دراسياً بالنسبة للمؤرخ فحسب؛ بل كانت جزءاً من التصور الذهني لدى الإنسان الغربي، الذي هو على درجة ما من الثقافة، وينطبق هذا بشكل خاص على فرنسا، وإن كان غير مقصور عليها.

إن هذه الكتابات التي أنجزت منذ عهد الحروب الصليبية ذاتها قد صدرت في مناخ سيطرت عليه الأهواء التي لا تتوافق - بداهة - مع البحث الموضوعي الخالص؛ إذ اصطبغت في العصر الوسيط - كما في أيامنا هذه - بأفكار ومشاعر نابغة من نفوس أصحابها، كتاباً وقراءً ولا صلة لها بصانعي ذلك التاريخ، فالمؤرخ المتخصص يخضع - أحب أم كره - كغيره من الناس لتأثير بعض الأفكار الشائعة داخل مجتمعه. لقد ظلت الحروب الصليبية لفترة طويلة إحدى الظواهر التاريخية التي أحاط بها كثير من الجهل، ومهما كانت المفارقة التي تتبدى في هذا التأكيد لا تزال الحروب الصليبية في حاجة إلى مزيد من الأبحاث الجديدة على الرغم من التقدم المهم حدث في الآونة الأخيرة.

ومن المفيد في هذا الصدد أن نتفحص تاريخ التأريخ للحروب الصليبية^(٣) - ذلك التاريخ الذي ظل - منذ البداية - حكرًا على الأوساط الإقطاعية والكنسية؛ وكُتِبَ - طوال عدة قرون - بغرض تمجيد الكنيسة والعقيدة، فجاء رد الفعل في العصور الحديثة من أوساط

(*) الشرق اللاتيني: تسمية أطلقت على الدويلات التي أسسها الصليبيون في الشرق العربي لمدة قرنين من الزمان، هي فترة الحروب الصليبية، وكانت تضم: مملكة بيت المقدس وإمارة الرها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس. (المترجم).

العلمانيين، أو من البروتستانتين غير الفرنسيين، مشهوراً بما انتهجته الحروب الصليبية من تعصب وجهالة وسياسة بابوية توسعية.

ومنذ أن أخذ التاريخ يهتم بالشعوب - نظراً لانتشار الديمقراطية - وليس بقادتها العسكريين والدينيين فحسب، قام المؤرخون بالاحتفاء بحركة الحماس الشعبى التحررى العظيم بشكل رومانسى، أو على النقيض من ذلك أخذوا ينددون بجشع الإقطاعيين وعقلية الاستغلال لدى التجار، وتعطش الجماهير لإراقة الدماء. وأخيراً صارت الحروب الصليبية مناسبة للإشادة بالأشكال الاجتماعية العتيقة وأفضلية السلطة الملكية على الفوضى بكافة أشكالها، كما تم تفسيرها على أنها تمثل أول مظهر لحملة استعمارية، أو فى أضعف الأحوال، بداية للتأثير الثقافى الذى مارسه فرنسا فى الشرق منذ ما يقرب من قرنين. ومن ثم لا داعى للسخرية مما حدث منذ فترة قصيرة حيث استضافت الأكاديمية الفرنسية أحد مؤلفى هذه الكتب «الجيدة» عن الحروب الصليبية^(٣). أما خارج فرنسا، ووفقاً للبلدان أو المعتقدات، فقد تمثلت فى الحروب الصليبية - لدى بعضهم - عظمة الروح التبشيرية، ويقظة المشاعر الأوروبية المتألفة، وارتقاء الرأسمالية فى أشكالها الأولى بفضل الإيطاليين... إلخ. وفى الفترة المعاصرة اتخذ الإسرائيليون من الصليبيين رواداً لتحقيق مشروعهم القومى، بينما ينشد العرب من كفاح أسلافهم - لاستعادة الوطن من الصليبيين - حافزاً لإرادتهم المعادية للصهيونية.

وبطبيعة الحال فإن كل هذه الاعتبارات خارجة - بمعنى ما - عن روح العلم، رغم ما أنجز من دراسات لها صلاحيتها التامة، فى إطار المؤلفات التى ظهرت فى مثل هذه الأجواء بل بفضلها. وحتى الأبحاث العلمية الحقة ذاتها شهدت تطوراً هائلاً ما بين القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مقارنة مع غيرها من الدراسات التى ظهرت فى النصف الثانى من هذا القرن. لقد تم النظر إلى الحروب الصليبية والشرق اللاتينى - وقد أُعتبروا لفترة طويلة امتداداً للغرب - من خلال ثلاث وجهات متناقضة فى ظاهرها، لكنها متفقة فى حقيقتها. لقد تم النظر إليها، إما بمعزل عن غيرها - وذلك بوصفها إنجازاً فريداً من نوعه لا مثيل له - وليس له علاقة فعلية بأوجه التاريخ الأخرى - وإما بوصفها حدثاً تاريخياً له من الأهمية ما جعله محوراً لكل ما جرى خلال تلك الفترة، وإما بوصفها أخيراً مظهراً للحضارة الغربية فى مجملها، بحيث لا يتم أى تمييز بداخلها. ومن خلال هذه الوجهة الأخيرة برع رجال القانون، إبان القرن التاسع عشر فى تأليف صورة عن المؤسسات الإقطاعية المتألفة، وقد بدت لهم

«قوانين مملكة بيت المقدس» (*) أفضل تعبير عن تلك المؤسسات، بحيث أنه في الوقت الذي نعثر فيه على أوجه النقص أو الغموض في تلك القوانين، فإن من الممكن استكمالها أو تفسيرها من خلال أعراف غربية أخرى. وسواء تم النظر إلى الحروب الصليبية من خلال هذه الواجهة أو كظاهرة قائمة بذاتها فالنتيجة واحدة، إذ كان لابد من انتظار مجيء الجيل الحالي - تقريباً - لكي تبدأ الدراسة المقارنة للشرق اللاتيني والغرب، وكذلك الدراسة المقارنة لمختلف إمارات الشرق اللاتيني (٤).

كان هناك تداخل بين الحروب الصليبية وأشياء أخرى كثيرة، لا تمت لها بصلة، لاسيما تاريخ العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، وكذلك المسائل السياسية والثقافية وغيرها. لاشك أن مسألة تحديد المفاهيم تتدخل في تعيين خطوط الالتقاء بين هذه الأشياء؛ فقد نُعتت بعض المؤسسات بالصليبية نظراً لظهورها أو تطورها تحت رعاية الحملة الصليبية أو في فترة مواكبة لها، غير أن إطلاق اسم من الأسماء على ظاهرة ما أمر لا يخلو من الأهمية، حينما يؤدي ذلك إلى تحويل النظر إلى اتجاه خاطئ أو إضفاء هالة من التقدير لا علاقة لها بالواقع الحقيقي للظاهرة. لقد تمت دراسة «تجارة بلدان الشرق»، وليس من الإنصاف أن نقول إن الذين قاموا بهذا العمل كانوا يجهلون الشرق اللاتيني، أو أن مؤرخيه لم يشغلوا أنفسهم قط بدراسة قضية التجارة. إلا أنه في الحالة الثانية يتعلق الأمر في غالب الأحيان بالملاحق أو الفصول المستقلة، ولا يجوز أن يقال إن الذين أنجزوا هذه الأعمال قد سعوا لعقد الصلة بين مختلف القضايا بشكل عميق. وقد نتج عن ذلك - بالأخص - عدم الاكتراث بالتسلسل الزمني لكل ما ليس حدثاً تاريخياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وأنا أعرف أن تلك كانت قاعدة ذائعة الانتشار، بيد أن اعتمادها على هذا النحو أضاع علينا فهم عدد كبير من الأشياء.

وفي النهاية فإن كل ما كتب في هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية. من المؤكد أن

(*) قوانين مملكة بيت المقدس: اسم أطلق على مجموعة من النصوص القانونية، كانت قد أعدت في اجتماعات قادة الحروب الصليبية بالقدس، وقد صيغت صياغة مشبعة بروح الأعراف والقوانين الإقطاعية. وقد رأينا ترجمتها بقوانين ملتقيات مملكة بيت المقدس، لأن الترجمة المباشرة «ملتقيات أو مؤتمرات بيت المقدس» لا توضح المعنى المقصود. وقد سبقنا إلى ترجمتها على هذا النحو د. محمد مصطفى زيادة في كتاب «أوروبا العصور الوسطى» لـ هـ. ا. ل. فشر، ود. السيد الباز العريني في ترجمته لكتاب أرنست باركر عن الحروب الصليبية. كما يميل د. قاسم عبده قاسم إلى ترجمتها بـ : مراسيم مملكة بيت المقدس. (المترجم)

الحروب الصليبية ظاهرة غربية لا مجال لعرضها من منظور شرقي، ومع ذلك فهي تندرج بشكل ما داخل سياق شرقي، وقد يكون من المفيد عقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجها لوجه. فقد حدث - في بعض الأحيان ولو بصورة سطحية للغاية - أن جرى الحديث عن تأثير الشرق على الغرب بواسطة الحروب الصليبية، كما لو كانت الطريق الوحيد والرئيسي لذلك التأثير. ولقد أهمل التأثير المعاكس للشرق اللاتيني - كما يسمونه - على السكان المحليين وهم الأغلبية الساحقة من السكان. إن القرنين اللذين مر بهما الشرق اللاتيني ليسا أقل من مرحلة في تاريخ سوريا وفلسطين، ولذا يجب إفساح المجال للنظر إلى التفاعل بين عالم البحر المتوسط والشرق الأدنى والأوسط، نظرة متبادلة من كلا الطرفين. ولست أتجاهل المحاولات التي تمت في هذا الاتجاه، ولو أنها تكاد تقتصر على الوقائع السياسية والعسكرية، وهي محاولات - وهذا أمر لا بد أن يقال - مبنية على معرفة بسيطة بالشرق، إن لم تكن في - غالب الأحيان - قائمة على جهل كامل بلغاته. ومن البدهي أن دراسة أوجه الالتقاء والتأثير لا بد أن تتم من جميع وجهات النظر على أساس نظرة شاملة للتاريخ، ولا يعقل أن يزعم أحد أنه بالإمكان تحقيق ضروب من التقدم الجدّي في هذا المجال، بدون معرفة اللغات التي قد لا تُيسرّها الحواجز الجامعية بين فروع المعرفة، لكن لا بد للمؤرخ من أن يتمكن منها بنفسه (٥). وما نقوله هنا ينطبق بالمقدار نفسه على الوضع الوسيط لبيزنطة، وإن كانت الدراسات المنصبة حولها تجعلنا في موقع أفضل.

وما ذكرناه يحدد التوجهات التي قمنا من خلالها بتأليف هذا الكتاب. لقد حاولنا وضع الحروب الصليبية في علاقة مع ما لا صلة له بهذه الحروب في نطاق البحر المتوسط، وحتى الغرب، مع التشديد بصفة خاصة على تاريخ التجارة. وفي الوقت نفسه سعينا إلى تقديم تاريخ ما يسمونه الشرق اللاتيني، بوصفه مرحلة من تاريخ الشرق العام. ولا ندعى أن عملنا يزيد عن تقديم بعض التوجهات في مجال، إذ لا يستطيع المرء أن يحيط علماً بكل شيء، لا يزال بكرة حتى الآن، ولا يمكن أن نطمح بأكثر من القيام بعملٍ مُجدٍ يمهد السبيل أمام الباحثين وإن كان يعتوره بعض النقص.

لم نتبين لي فائدة أن أعيد سرد ما يمكن للقارئ أن يجده دون مشقة في مخزونه الثقافي الخاص، أو في المراجع الأساسية التي في حوزته (انظر فهرسة المراجع) وبالطبع فقد ترتب عن ذلك عدم التناسب بين بعض الفقرات، التي بدا لي أنها تستحق الشرح أكثر من غيرها، بسبب تناولها لوقائع غير معروفة، أو أسوأ فهمها - بحسب رأيي - وبين فقرات

أخرى، لم تحظ إلا بإشارات بسيطة - بغض النظر عما تخللها من ثغرات غير مقصودة - ولست أتجاهل هنا المساوئ الناشئة عن هذا الموقف الذى أتحيز له، ولو انتهجت موقفاً غير هذا لكان على أن أضعاف حجم هذا الكتاب دون فائدة تذكر.

لقد بدأت بتحرير هذا الكتاب قبل ثلاثين عاماً. وبالطبع فإن أعمالاً كثيرة قد ظهرت، منذ ذلك التاريخ، وأنا نفسى قد أدخلت تغييرات على مواقفى الأولى، فحاولت سبك كل المعطيات فى صيغة جديدة مغايرة، وانتهزت فترة التقاعد عن العمل لتدقيق كتابة النص، وتقديمه بصورة أفضل، بيد أن ما حصل لى من متاعب فى الرؤية حدث من إمكانياتى، واستجابةً لنصيحة أستاذ قديم، فقد ظهر لى - ربما بلا تواضع من جانبى - أنه من الأفضل أن أقدم ما لدى، وأنا فى هذه السن ودون انتظار ما يمكننى تقديمه. وإنى لمدين بالشكر إلى السيد ليميرل على ما تجشمه كذلك من عناء فى مراجعة النص، ودار أوبييه للنشر التى قبلت النص كما هو، وأمل ألا يُصدر القارئ فى حقى أحكاماً قاسية. ويسرنى أن أقول بأنه ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، لولا المساعدة المتفانية من زوجتى، ومن الأنسة تيريز نود من المركز القومى للبحث العلمى.

الفصل الأول

الشرق حتى بداية القرن الحادي عشر

تبدو الحملة الصليبية من الناحية التاريخية بمثابة رد متأخر على الفتوحات العربية - الإسلامية. ففي بداية القرن السابع قام في غرب الجزيرة العربية بمكة والمدينة رجل هو محمد بتبليغ رسالة أصبحت - فيما بعد - قاعدة لديانة جديدة هي الإسلام. وقد حقق - من جهة أخرى، انطلاقاً منها، أول وحدة سياسية شملت كل العرب تقريباً. وما إن توفى عام ٦٣٢م حتى قام أتباعه بفتوحات تدفعنا إلى الاعتراف بأن التاريخ لم يشهد لها مثيلاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع رقعتها وطابعها النهائي. ففي بضع سنوات قام العرب المسلمون باحتلال سوريا باسم الجهاد، وهو شكل من أشكال «الحرب المقدسة» كما سنتكلم عنها لاحقاً، وبلاد ما بين النهرين والعراق ومصر وإيران، وأضافوا إليها في أقل من قرن بلاد المغرب وإسبانيا كلها تقريباً من جهة، وآسيا الوسطى حتى نهر سيرداريا (*) من جهة أخرى، وزيادة على ذلك أكملوا فتوحاتهم إبان القرن التاسع، ولو لمدة قصيرة، بالاستيلاء على صقلية وأجزاء أخرى من حوض البحر المتوسط^(١) (هذا بغض النظر عن المكتسبات الأخرى في أوروبا وآسيا القصوى وإفريقيا السوداء، وهي مكتسبات تحققت في العصور، وإن لم يكتمل إدماجها). ولنلاحظ أن الاستيلاء على القدس - في تلك الفترة - لم يتم اعتباره - فيما يبدو - إضراراً بالعالم المسيحي، هذا العالم الذي لم يكن قد اكتمل وعيه بذاته، وهو على أية حال لم يكن يربط قداسة المدينة بضرورة السيادة السياسية.

أوشكت بيزنطة - وريثة الإمبراطورية الرومانية في الشرق - على الانهيار، وإذا كانت قد حافظت على الجزء الأساسي من آسيا الصغرى، فإن هذه المنطقة قد لحقها الخراب، كما فقدت بيزنطة أغنى مقاطعاتها في آسيا وأفريقيا؛ وقد تزامن ذلك مع الفترة التي قام فيها الصقالبة باجتياح ممتلكاتها في البلقان. أما في الغرب فقد أبدت الدولة الكارولنجية الفتية مقاومة حسنة، وذلك بفضل عامل البعد وكذلك المناخ، بالإضافة إلى شيمها الذاتية، أما الإسبان - القوطيون الغربيون فلم يبق لهم من آثار، سوى مقاطعات مفتتة عالقة بجبال الشمال.

ويرغم أنه لم يتحول إلى الإسلام كل أهالي البلدان التي وصلها الفتح، إذ لم تتوفر لذلك جميع الشروط، فقد كان الإسلام سائداً في جميع الأصقاع. وبدأت عملية الدخول إلى الإسلام تتزايد، مما أدى بعد بضعة أجيال إلى ظهور أبهى الحضارات وأغناها في بداية العصور

(*) سيرداريا : نهر في جنوب غرب الاتحاد السوفياتي، يصب في بحيرة آرال، وهو يكسرت القديم. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

الوسطى. وكانت أغلبية أهالى هذه البلدان - حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام - قد تبناوا اللغة العربية كلغة مشتركة فيما بينهم باستثناء إيران. وبطبيعة الحال سرعان ما تفككت هذه الوحدة على الصعيد السياسى، ورغم أن الرغبة فى تلك الوحدة مازالت قائمة إلى يومنا هذا. أما على الصعيد الاجتماعى والثقافى فإنه من السهل التحقق اليوم من السمة المستقرة للتحويلات التى لحقت بهذه البلاد.

ومع أن التجزئة السياسية لم تسفر عن تجزئة اجتماعية ثقافية معادلة، فإنه لا بد - لكى نفهم تاريخ الحروب الصليبية. أن تكون لنا عن هذا التاريخ - حتى القرن الحادى عشر - نظرة أكثر وضوحاً من النظرة التى كونها الصليبيون أنفسهم، ومن نظرة أغلب المؤرخين المحدثين كذلك. وإذا تركنا - مؤقتاً - الغرب جانباً، فإن قلب الشرق الإسلامى كان بغداد بالعراق، حيث كانت فى أوج ازدهارها، ومقرّاً للخليفة الذى هو لدى غالبية المسلمين مصدر لكل شرعية على الرغم من أن نفوذه قد تقلص - فعلاً - منذ القرن العاشر. وقامت إمارات عديدة فى الأراضى التى كانت خاضعة - فيما مضى - إلى سلطة الخلافة مباشرة، وتمكنت واحدة منها، وهى إمارة البويهيين، من وضع الخليفة فى بغداد تحت سيطرتها. وفى بداية القرن الحادى عشر، وحلت أسرة السامانيين - وهى سلالة إيرانية حاكمة بآسيا - محل أسرة الغزنويين(*)، وهى سلالة تركية قامت باستئناف حروب الفتوحات، وشرعت فى نشر الإسلام بالهند. وكان القسم الأكبر من وسط بلاد فارس وغربها، إضافة إلى العراق، بيد البويهيين الأنفى الذكر، وهم فى الأصل قادة لجنود مرتزقة ديلميين(**) ينحدرون من سكان الجبال نوى الطباع الخشنة بشمال إيران، ولكن أصبحت لديهم الآن حياة كاملة لثقافة أخرى مختلفة عن ثقافتهم الأصلية. أما الأكراد فكانوا يسيطرون على الشمال الغربى من إيران على حدود أرمينيا، وكان الاعتماد على غير الأهالى من السكان فى تكوين الجيش، ومن ثم السلطة السياسية سمة مشتركة بين مختلف هذه الدول، وقد قبل الأهالى المحليون المغلوبون على أمرهم بذلك على أساس أن هؤلاء كانوا مسلمين، ولكنهم كانوا يشعرون - فى الوقت نفسه بأنهم - غرباء تقريباً، وكان هذا الشعور ناتجاً من جراء تزايد حجم العناصر التركية فى الجيش.

(*) الغزنويون: اسم سلالة الممالك الأتراك التى حكمت شرق إيران وأفغانستان والبنجاب ٩٦٢ - ١١٨٧. أسسها ألب تكين، أحد ولاة السامانيين، ورسخها صهره سبكتكين عام ٩٧٧. سيطر الغزنويون طوال قرنين، واتخذوا غزنة عاصمة لهم. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) الديلم: القسم الجبلى من بلاد جيلان شمال بلاد قزوين. اعتنق بعض سكانه الإسلام عام ٩١٢، وخدموا فى جيش الخلفاء. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

أما البلاد العربية - بالمعنى الحقيقي للكلمة - التي كانت واقعة بآسيا فكانت تحت سيطرة أسر حاكمة صغرى شبه بدوية، مثل بنى مرداس فى حلب، وذلك بعد فترة قصيرة من التآلق أيام الحمدانيين، كما سيأتى ذكرهم لاحقاً. وأخيراً استولى الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩م، وهم أسرة مالكة من أصل شرقى، لكنها ترعرت - قبل ذلك - بالمغرب، وظلت مصر تحت سيطرتهم حتى سنة ١١٧١، وكذلك شأن بعض الملحقات السورية قبل الحروب الصليبية، بقيت اليمن فى حوزتهم لمدة أطول، حيث حاولوا أن يصلوا منها إلى الهند، وقد ظل الفاطميون حتى منتصف القرن الحادى عشر أكبر قوة فى الشرق الأوسط.

لن يكتمل مغزى هذا السرد السياسى إذا لم نضف إليه نشأة الفرق الدينية المتنافسة لدى المسلمين منذ تكون الإسلام ذاته، وعدم الانتماء الرسمى لتلك الدول إلى فرقة دينية واحدة، ولهذا الأمر أهمية خاصة فى الإسلام، حيث أن الدين والسياسة لا ينفصلان عن بعضهما بعضاً، كما أن الانضمام إلى هذه الطائفة أو تلك الأسرة الروحية يفضى للخليفة ببغداد بوصفه مصدرًا للشرعية إلى الاعتراف بها أو رفضها. لقد كانت الخلافة ببغداد فى أيدي الأسرة العباسية المنحدرة من العباس عم النبى محمد، يساندها هؤلاء المسلمون الذين أطلق عليهم اسم أهل السنة، وهم بالتاكيد الأغلبية، بينما كان البويهيون ينتسبون إلى الشيعة، أو على وجه الدقة، إلى أحد فروعها، وهى فرقة (الأثنا عشرية) (*)، التى تؤمن بوجود مرشد نظرى للأمة، وهو إمام غائب من نسل على بن عم النبى، ومن ابنته فاطمة، وبانتظار ظهور الإمام من جديد كان ثمة تسامح تجاه الخليفة العباسى حتى يرضى عنهم أهل السنة، لكنهم لم يتركوا له أية سلطة. أما بخصوص الفاطميين فكانت هناك شبكة من الدعاة تعمل بصورة سرية تقريباً لنشر العقيدة الإسماعيلية، وهى كيان ثقافى مركب كان يعارض الخلافة العباسية، على الصعيد السياسى، عبر خلافة مضادة فى القاهرة. وتطورت فى الأوساط الغزنوية فكرة أن خلاص الخلافة العباسية «الأرثوذكسية»(**) سيأتى من الشرق، لكن تحقيق

(*) الأثنا عشرية أو الإمامية، اسم يطلق على أحد فروع الشيعة لقولهم باثنى عشر إماماً، أولهم على بن أبى طالب زوج فاطمة... وآخرهم محمد المهدي. أصبحت الأثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران منذ عهد الصفويين، وانتشرت فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) يستخدم المؤلف كلمة الأرثوذكسية هنا بمعناها العام - أى الطريق المستقيم للعقيدة - كما يستخدمها فى مواقع أخرى عبر الكتاب بمعناها التاريخى المحدد للدلالة على الكنائس المسيحية الشرقية وأتباعها فى منطقة الشرق الأدنى وأوروبا الشرقية الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة العقيدة الصحيحة وأنهم يتبعون العقيدة المسيحية كما ورثوها من الآباء الأوائل للكنيسة. وذلك فى مواجهة الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية (المترجم).

ذلك كان موكولا لغيرهم. وقد صاحب هذا التوزيع الجديد للأدوار السياسية والدينية نوع من التحول في عالم التجارة. إننا لم نشدد في هذا المقام على أهمية العلاقات البحرية بين الشرق الأقصى والأدنى في القرن التاسع والعاشر، كانت بغداد هي مركز الجذب، وكان الوصول إليها يتم عبر الخليج الفارسي ومنها كانت بعض البضائع تتابع مسيرتها نحو الموانئ السورية، ولاسيما نحو العاصمة الكبرى الأخرى وهي القسطنطينية. وقد أدت أسباب عديدة، منها نشاط الدولة الفاطمية، إلى تحويل طريق التجارة نحو القاهرة عبر اليمن والبحر الأحمر^(٣).

ما يهمنا - بصفة خاصة هنا - هو أن التفتت الديني في سوريا كان واضحاً بشكل ملحوظ. ولم تكن العقيدة الإسماعيلية قد كسبت كثيراً من الأتباع في سوريا أو في مصر، حتى بين رعايا الدولة الفاطمية ذاتها، غير أن الشيعة الاثني عشرية تمكنت من اجتذاب قبائل عربية عديدة في الشمال، خاصة قبيلة بني كلاب سيدة حلب إبان حكم أسرة بني مرداس، في حين كانت أغلب قبائل الجنوب ودمشق من أهل السنة. وانضمت مجموعتان من السكان ثوى أصل اجتماعي وثقافي غير واضح إلى مذاهب أخرى، فالمذهب النصيري الذي ظهر في العراق ومارس أهم نشاطاته - فيما يبدو - في ظل الحمدانيين، ثم بعد سقوطهم انسحب أفراد هذا المذهب إلى الجبال الواقعة بشمال سوريا على طرفي الحدود الإسلامية والبيزنطية. وكانوا قد اكتسبوا خصائص جديدة ورثوها من تقاليد السكان المحليين وكان عدد المسلمين والمسيحيين حتى هذه الفترة يمثلون نسبة قليلة منهم، من المستحيل تقريباً كتابة تاريخ هذه الطائفة نظراً للغموض الذي يحيط به النصيريون أنفسهم، إلا أن تجذرهم الراسخ في الأراضي التي سيغزوها الصليبيون - فيما بعد - لم يكن موضع شك. أما المذهب الآخر وهو مذهب الدروز، الذين كانوا يؤلهون الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، فقد استوطن في منطقة وادي التيم في جنوب لبنان، وقلما برحوها قبل العصور الحديثة. ويلاحظ أنه قد انضاف إليها في وقت لاحق فرع آخر للعقيدة الإسماعيلية، يسمى «الحشاشون». لقد وُجد طبعاً بها المسيحيون واليهود

(*) وادي التيم : منطقة في لبنان ينتهي عندها غرباً جبل الشيخ، من أهم قصباتها راشيا - المنجد في اللغة والأعلام - (المترجم).

(**) الحشاشون : لقب أطلق على الإسماعيليين النزاريين أتباع الحسن بن الصباح وخلفائه والتسمي مأخوذة من الكلمة الفرنجية وهي بمعنى فاك، أطلقها عليهم الصليبيون لاشتغالهم بالاعتقال.. عُرِفَ رئيسهم بـ «شيخ الجبل»، قضى عليهم المغول ١٢٥٦ - ١٢٦٠ ووجه إليهم بيبرس الضربة القاتلة عام ١٢٧٢ - المنجد في اللغة والأعلام - (المترجم).

الذين كانوا بالمثل منقسمين على أنفسهم، وهو ما سنأتى على ذكره. ولا نستغرب فى هذا المناخ أن تخامر نزعة من نزعات الريبة والشك بعض المفكرين، وأشهرهم الشاعر الضرير أبو العلاء المعرى، لكن لا ينبغى أن نقع كذلك فى التعميم؛ فإذا كانت هناك خلافات بل عدوات بين الناس فقد كانت هناك - أيضاً - مظاهر للتقارب مماثلة بين مختلف الطوائف.

ولم تكن الطوائف المسيحية فى الشرق الأوسط أقل تشرذماً من الطوائف المسلمة، إذ كان هناك كثير من الكنائس التى كان انفصالها عن بعضها بعضاً يعود إلى النزاعات اللاهوتية فى القرون الأخيرة السابقة على ظهور الإسلام. بيد أن هذا الانفصال كان يخفى فى واقع الأمر فوارق عرقية ولغوية. لقد توزعت الطوائف السامية، التى كانت الآرامية السريانية لغتها الدينية، بين الانتماء إلى الكنيسة النسطورية - التى أواها الساسانيون فى العراق وآسيا الوسطى قبل مجىء الإسلام - وبين اليعاقبة المونوفيزيين(*) والذين ظلوا مستقرين داخل الحدود البيزنطية قبل الإسلام. وقد اعتنقت تقريباً الكنيسة القومية الأرمنية والكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الأثيوبية المذهب المونوفيزى ولكنها كانت مستقلة بذاتها، وكان للكنيسة الجورجية استقلالها كذلك غير أنها كانت وفية لأرثوذكسية القسطنطينية. ولم يكن بعد للموارنة الذين توارثوا مذهب المونوتيلية(**) شأنٌ سوى فى الجبل اللبناني.

وكان لا يزال هناك عدد معين من المسيحيين ذوى المذهب البيزنطى، غير أنهم كانوا داخل سوريا ينتمون إلى بطريركيات مستقلة (أنطاكية والقدس) أما فى مصر فكانوا ينتمون إلى بطريركية الإسكندرية، ولقد تعربوا لغوياً بسرعة، وعُرفوا فى العالم السريانى والإسلامى باسم المَلِكِين(***).

حسبنا أن نذكر بإيجاز أن الزرادشتية كعقيدة قومية فى إيران وجدت فى مواجهتها أشكالاً مختلفة من المانوية تجاوزت حدودها الجغرافية. كما ظلت هناك بعض الطوائف التى

(*) المونوفيزية: بدعة مسيحية ظهرت فى القرن الخامس وقالت بطبيعة واحدة فى المسيح. أهم قادتها : أوطيخا فى القسطنطينية، وديوسقورس فى الإسكندرية. حرّمها المجمع الخلقيدونى. أدخل عليها سايروس الأنطاكيّ تعديلات مهمة. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) المونوتيلية: أو أصحاب المشيئة الواحدة. بدعة مسيحية ظهرت فى القرن السابع حرّمها المجمع القسطنطينى الثانى عام ٦٨١ - المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

(***) الملكيون: هو الاسم الذى أطلقه العرب على مسيحيى سوريا الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدونى ٤٥١... انضم فرع منهم إلى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الثامن عشر والفرع الثانى هم الروم الأرثوذكس. لغتهم الطقسية اليونانية والعربية. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

عاودت الظهور مع الأزمنة الحديثة، برغم أننا لم نسمع عنها شيئاً. كل هذا يقدم لنا صورة متعددة الجوانب، فبرغم تفوقهم العددي على المسلمين فى القرون الأولى، فإنهم لم يتمكنوا من تكوين جبهة مشتركة فى مواجهتهم، أضف إلى ذلك أن الأحقاد ظلت موجهة نحو البيزنطيين أكثر منها ضد المسلمين القادمين حديثاً.

تميز اليهود عن المسيحيين فى كونهم كانوا يشكلون مجموعات إقليمية كبيرة، بل توزعوا فى كل مكان تقريباً ولاسيما فى المدن حيث كانوا يمارسون مهناً حرفية أو يشتغلون بالتجارة على امتداد الطرق التى تقطعها القوافل الدولية^(٤). ومع أنهم انقسموا إلى طائفتين دينيتين : الربانيين^(*) والقرائين^(**)، فقد حافظوا بشكل ما على العلاقات مع إخوانهم فى الدين فى أماكن بعيدة وحتى فى أوروبا المسيحية أحياناً (بصرف النظر عن قضية الخزر^(٥) بروسيا الجنوبية). كان مركزهم الثقافى الرئيسى فى بغداد غير أن دورهم ظهر أكثر أهمية فى القيروان وجنوب إيطاليا. وفى فترة الفتوحات العربية كانوا متذمرين من البيزنطيين والقوطيين الغربيين إذ كانوا يعتبرون أنفسهم رعايا أوفياء للدول الإسلامية. ويتآلفهم مع الحضارة العربية الإسلامية استطاعوا أن يحققوا أعلى درجة من الازدهار الثقافى فى العصور الوسطى.

حسبنا أن نذكر هنا باقتضاب - على أن نعود لذلك فيما بعد - أن الشرق الأوسط، على الأقل فى مناطقه الحيوية، كان يختلف اجتماعياً عن الشعوب المجاورة له بارتفاع نسبة تحضره، وبالنشاط المكثف للحرفيين ولتجارته القومية والدولية. ومن المؤكد أن نشاط أغلبية السكان ظل نشاطاً فلاحياً، لقد كانوا أحراراً من حيث المبدأ ولكنهم كانوا خاضعين فى الواقع للأرستقراطية البرجوازية العسكرية. وكان ازدهار البرجوازية (فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، والرابع الهجرى / العاشر الميلادى) ذا شأن كبير، ولو لم يصل إلى الحد الذى يمنع فيه الأرستقراطية العسكرية من الاستيلاء الفعلى على الحكومة والبلاد.

ولنذكر فى الختام بإيجاز أن المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى كان مجتمعاً

(*) الربانيون: هذه التسمية تحريف للكلمة العبرية «ربانيم» التى تعنى الإمام أو الحبر أو الفقيه، ويعود سبب هذه التسمية إلى أنهم أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود وعلمائهم التى تضمنها التلمود والمشناة، وقد ذكر عنهم أنهم قبلوا تأويل نصوص التوراة، وقد شبههم بعضهم بالمعتزلة (المترجم).

(**) القرائون: هى طائفة يهودية اشتق اسمها من الكلمة العبرية التى تعنى «قرأ» وذلك لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التى يمكنهم قراءتها، وبالتالي لم يعترفوا بما جاء فى التلمود، أو غيره من الكتب التى اعترف بها الربانيون، (المترجم)

قائماً على الرق بشكل مستمرٍ وأشدّ مما كان عليه الأمر بأوروبا، وينطبق هذا حتى على أوروبا في جزئها المطل على البحر الأبيض المتوسط، وذلك في بداية العصر الوسيط، لكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن الاسترقاق المذكور كان حاصلًا في البيوت، وميدان الحرف - وداخل الحضر، ولم يرتبط قط بالعمل في الحقول، باستثناء الاسترقاق العسكري الذي اقتصر داخل الشرق على العنصر التركي وحده تقريباً، ولهذا الاستثناء أهمية. أما بالنسبة للعبيد المدنيين فكانت أغليبيتهم من السود أو الصقالبة، وهؤلاء كانوا يحتلون كذلك وظائف عسكرية داخل الغرب الإسلامي.

شهد القرن العاشر والحادي عشر في كل منطقة الشرق الأوسط ظهور عملية انتشار البداوة التي قد لا تعنى زيادة في النسبة العددية للبو ولا في دورهم الاقتصادي، وإنما تعنى تعاظم دورهم السياسى والعسكرى، فكان أن تعذر على الأمراء الصغار أمر تكوين جيوش إضافية. أما حمدانيو الموصل و حلب فقد كانوا في منزلة وسطى خلال القرن العاشر، وكان بنو مرادس في حلب والعقيليون في الموصل رحلاً بالفعل في القرن الحادى عشر. في هذا المناخ تأسست - في أغلب المدن - كتائب محلية تسمى «الأحداث» وكان لرئيسها سلطة مستقلة تقريباً في مواجهة الأمير أو الحاكم، وستقود هذه الاستقلالية، فيما بعد، إلى صراعات علنية في ظل الأتراك على نحو ما سنتعرف عليها لاحقاً.

أما الغرب الإسلامي، وعلى الرغم من وجود روابط ثقافية واقتصادية مع الشرق، فقد كان يتمتع بحياة سياسية مختلفة اختلافاً كبيراً عنه، إذ شهد في إسبانيا فترة كان فيها قوياً في ظل الخلافة في قرطبة، غير أنه في نهاية القرن الحادى عشر تفرق إلى طوائف متنافسة فيما بينها. وكانت منطقة شرق المغرب العربى قد توحدت على يد الفاطميين والمغرب الأقصى على يد الأدارسة، لكن منذ انتقال الفاطميين إلى مصر عادت التجزئة إلى الظهور في هذه المنطقة، وبشكل أشد في منطقة المغرب الأقصى. وعلى الصعيد الدينى كان الزييريون(*) الذين أقطعهم الفاطميون قطعاً أرضية لقاء تعهدهم بخدمتهم قد قطعوا علاقتهم معهم بعد فترة من الوقت، وللانتقام منهم أرسلت حكومة القاهرة إلى المغرب بدواً مقاتلين هم الهلاليون الذى أدى تدخلهم، بالإضافة إلى عوامل أخرى، إلى بداية مرحلة الانحطاط الاقتصادي والسياسى

(*) الزييريون: هم بنو زيرى (٩٧١ - ١١٦٧) بربر من (قبيلة صنهاجة) استخلفهم الفاطميون في حكم أفريقية في عهد المعز لدين الله الفاطمى. أولهم زيرى بن مناد. ظل بنوه يتوالون على إمارة أفريقية تابعين للفاطميين حتى ولاية المعز بن باديس الذى استقل عنهم وأعلن الخطبة للعباسيين. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

أو اشتداده وتسارعه. وكانت صقلية متروكة لحالها عملياً، إن الدعاية المنظمة حول الحروب الصليبية منذ بدايتها والجزء الأكبر من الوثائق التاريخية الحديثة التي انبنت على هذه الأخيرة قامت بتشكيل صورة يظهر فيها اضطهاد الإسلام للمسيحية، وقد نقلت إلينا هذه الصورة كحقيقة ضمنية تكاد تكون بديهية. ولا يتعلق الأمر بمناقشة ما إذا كانت تلك حقاً هي قناعة الرجال الذين حملوا الصليب بعد مجمع كليرمون، بيد أن صدقهم لا يكفي لإثبات أنهم لم يرتكبوا أى خطأ، فمن واجب المؤرخ الحديث حينما يظهر له خطأ رؤية من عايش الأحداث أن يفسر أسباب هذا التشويه.

ولا أعرف إذا كان هناك دين لا يعتبره أتباعه أسمى من غيره من الأديان بحيث يتطلب منهم العمل على نصرته. وإذا كانت المسيحية فى بداياتها لم تستخدم إلا الموعظة فإن المسيحية الظاهرة فى العصور الوسطى لم تجد صعوبات فى اللجوء إلى الحروب الدفاعية أو حتى الهجومية (منذ شارلمان مع الساكسون) من أجل الحفاظ على الأراضى التى يملكها أصحاب الدين الحق وتوسيعها. وبناء عليه لا يوجد شىء يسمُ الإسلام بسمة خاصة إذا ما تم تقديمه منذ البداية على أنه دين مقاتل جعل من الحرب المقدسة «الجهاد» فرضاً واجباً. ليس المطلوب فيما يتعلق بهذا المبدأ كما بالنسبة لمبادئ أخرى أن نشير إليه؛ بل دراسة الكيفية التى تمت بها ممارسة هذا المبدأ عبر التاريخ.

لقد نشأ محمد نبي الإسلام، فى أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع، فى وسط إنسانى يشبه الجزيرة العربية تشرب أفكاراً يهودية ومسيحية فى أشكال شعبية. وعندما سمع كلام الله لم يشك فى أن من تحدث إليه هو إله إبراهيم وموسى وعيسى. فاعتبر أن وحيه إجمالاً هو ذاته الذى تلقاه الأنبياء من قبله (ومن بينهم عيسى) وأنه وحده فقط الذى تلقى الرواية النهائية المكتملة والخالصة من التحريفات التى ألحقها اليهود والمسيحيون بكتبهم المنزلة. فأدرك بصورة فطرية أنه آخر الأنبياء لدين واحد أبدى ولم يعتبر نفسه مبشراً بدين جديد. صحيح أنه عندما رفض اليهود والمسيحيون الإقرار له بذلك وجد أنه أقام فى وجههم ديناً جديداً بالفعل. ومع ذلك لم تغب أبداً عن الإسلام فكرة أن «كتاب» اليهود والمسيحيين كتاب بالغ الصلاحية وأن دينهم يشارك فى الدين الحق كما يحق لمعتنقيه أن يكونوا محط احترام لا يستحقه غير المؤمنين كلية. ولا ريب أن النبي حينما أراد فى البداية أن يكون قاعدة اجتماعية متناغمة فى يثرب (المدينة) قام بطرد أو تقتيل اليهود الذين رفضوا الاعتراف برسالته وتعاونوا مع خصومه. لكن الإسلام لم يعتبر قط هذا الحادث بمثابة سابقة

يمكن الاستناد إليها خارج «دار الحرب»، بل على العكس أقر الإسلام الاتفاقات التي وقعها النبي محمد ذاته بعد ذلك خارج يثرب مع يهود خيبر ومسيحيي نجران الذين ارتضوا أن تكون له السيادة. وكان مضمون هذه الاتفاقات يجعل للسكان الحق في الاختيار بين الإسلام وبين ديانتهم القديمة ؛ فإذا بقوا على دينهم فقد وجب عليهم الإقرار بالسيادة السياسية للإسلام ولاسيما عن طريق دفع الجزية والامتناع بطبيعة الحال عن مهاجمته، فإذا أقروا بذلك وفقاً لتقاليد الضيافة العربية القديمة حُقَّ لهم أن يتمتعوا باستضافة تعاقدية (الذمة)^(٧) تضمن لهم حماية شخصهم وأموالهم وممارسة أديانهم. وإذا لم يكن هذا بالطبع هو التصور الحديث للدولة غير الطائفية الذي لم يكن يدور بخلد أحد من الناس آنذاك فقد كان على الأقل يمثل شكلاً من أرقى أشكال التسامح التي لم يمارسها مجتمع من قبل.

لقد كانت الظروف التي تمت فيها الفتوحات العربية والتي بسطت الإسلام في بضع سنوات السيادة على أراضٍ شاسعة امتدت من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي، تعزيزاً لهذا المسلك. إذ كان يستحيل على العرب، حتى لو أرادوا ذلك، الزعم بأنه يمكنهم، ولعل عددهم كان حوالى مائتى ألف مهاجر، أن يسيثوا إلى أديان عشرات الملايين من البشر الذين ورثوا ثقافات عريقة وراسخة. لم يفكر العرب في ذلك، بل على العكس، لقد وسعوا مزايا شروط الحماية (الذمة) لتشمل الزرادشتيين وطوائف أخرى أصغر من ذلك. ينبغى الحكم على كل هذا ضمن السياق التاريخي حيث أنه عشية الفتح العربي كان هناك انشقاق داخل العالم المسيحي، وكان أغلب مسيحيي الشرق يعتبرون أنفسهم مضطهدين ومُضايَقين من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية - البيزنطية، ولم يكن المانويون في إيران أقل تعرضاً للاضطهاد والمضايقة من قبل الكهنة الزرادشتيين التابعين للسلالة الإمبراطورية الفارسية الساسانية. لقد جاء الفتح العربي فجعل من يمارس التضيق ومن يتعرض له على قدم المساواة : «لم يكن تحررنا من طغيان الرومان (البيزنطيين) ميزة بسيطة بالنسبة لنا»^(٨) كما كتب فيما بعد أسقف سرياني مونوفيزي. ومن جهة أخرى كان هذا الوضع أحد العوامل التي سهلت بصورة غير عادية تحقق أغلب الفتوحات العربية. لقد كان انتشار الإسلام في غالب الأحيان بمثابة تحرير لسكان البلاد التي وصل إليها ولم يُنظر له قط بوصفه تهديداً لعقيدتهم. بل لقد وُجد هناك مسيحيون أقروا إلى حد ما بصدق الرسالة التي بلغها محمد^(٩) وذلك على سبيل الإقرار المتبادل.

ومن الثابت أن الجهاد ظل فريضة جماعية على الأمة الإسلامية وليس فريضة فردية.

وقد تم الجهاد فى فترة ما، على جبهات مختلفة بما فيها الجبهات المسيحية وتواصل حتى بعد أن أسهمت المقاومة البيزنطية والكاروانجية فى إيقاف الفتوحات وذلك على شكل غزوات مرحلية لكن ينبغى أن نميز جيداً بين شيئين، أن الهجوم والنهب والقتل حينما يحصل كان يتم ضد من لم يخضعوا للإسلام فى «دار الحرب» بينما كانت تتم الحماية الفورية لمن يستسلم ويدخل فى «دار الإسلام». ومن الإسراف فى الخطأ أن نستخلص من واقع الحرب المقدسة فى الخارج عدم التسامح فى الداخل. فالخلفاء أنفسهم الذين قابوا الحرب المقدسة ضد البيزنطيين كانوا يعينون المسيحيين فى الوظائف الإدارية العليا ويستقبلونهم ضمن حاشيتهم، حتى أولئك المسيحيون من أتباع المذهب اليونانى مثل والد القديس يوحنا الدمشقى، رئيس الطائفة المسيحية الدمشقية، حيث لم يكن أى منهما يجد فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة. أضف إلى ذلك أن الحرب الهجومية المقدسة ذاتها سرعان ما تقلصت، ومع القرن الثانى الهجرى لم تعد تستأثر سوى باهتمام سكان الحدود الذين كانوا أنفسهم يتأخون أحياناً بين هجوم وآخر مع محاربى الطرف الآخر من الحدود. وفى بداية القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) قلما تعلق الأمر بالمقاتلين فى سبيل العقيدة إلا فى آسيا الوسطى فى مواجهة عبدة الأوثان من البدو والنهابين، وهو مظهر جديد من مظاهر الكفاح القديم للإيرانيين ضد الطورانيين، وهو صراع لا علاقة له بالإسلام.

وفى الحقيقة فإن روح الحرب المقدسة قد هبت من جديد لفترة قصيرة على الحدود البيزنطية فى أواسط القرن العاشر، وقد أدت لدى الطرفين إلى ظهور ملاحم فروسية، يونانية وعربية، مشابهة لأنشودة رولان التى ظهرت عندنا^(١٠). غير أن ما كان هجوماً آتياً من الجانب البيزنطى اعتُبر بمثابة هجوم مضاد بعد ثلاثة قرون، وكان ذلك فى الواقع نوعاً من الجهاد الدفاعى فى أساسه حتى لو اقتضى الأمر القيام بغزوات كثيفة فى عقر دار العدو. وفى هذا المجال حقق سيف الدولة أمير حلب الحمدانى شهرة من خلال بطولاته التى تغنى بها شعراء بلاطه. غير أن هذا لم يكن سوى شعلة عابرة، بل نجد على النقيض من ذلك أنه عندما توزعت سوريا فى القرن الحادى عشر بين ولايات سياسية ودينية عديدة ومتناحرة بشكل دائم لم يظهر أى بلد غيرها بمظهر اللامبالاة الدينية فى المجال السياسى، حيث كانت هناك تحالفات بين بيزنطة المسيحية وهذا الأمير المسلم أو ذاك ضد أمراء مسلمين آخرين. وفى الوقت نفسه كان الفاطميون فى الجنوب، بعد الاضطهاد الاستثنائى الذى مارسه الحاكم بأمر الله (انظر صفحة ١٩) قد منحوا الإمبراطور البيزنطى نوعاً من الحماية على إخوانه فى الدين بالاراضى

المقدسة. وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد تغييراً ما فإن مصدره لم يكن بيزنطة وإنما كان قادماً من أرجاء العالم الإسلامى وأسيا الوسطى والصحراء، وكذلك من خلال المبادرات الأوروبية، وستتناول هذه المسألة لاحقاً.

وبناء على ذلك كانت أوضاع غير المسلمين، داخل الدول الإسلامية فى حالة لائقة، على أن هذا لم يمنع حدوث دخول شامل للمسيحيين إلى الإسلام لا سيما بين القرنين الرابع والعاشر. ولا يمكننا هنا أن نسهب فى تحليل أسباب هذا التحول، والتي من بينها، الضغط الاجتماعى الطبيعى للأوساط المهيمنة، بلا أى اضطهاد، والذي كان له دور بالتأكيد فى ذلك، بينما سهلت عملية الثقافة والتداخل الطائفى فى الحياة الثقافية، الانتقال من عقيدة إلى أخرى. وكانت النتيجة بالطبع أن نسبة غير المسلمين لاسيما المسيحيين قد تضاعفت بعد أن كانت نسبة غالبية، وهو ما قلص من ثقلهم، غير أن هذا قد تم بدون حدوث قطيعة، والظاهر أنه لم يكن هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المعنيين قد استصعبوا وضعهم عن ذى قبل. ومن المفيد أن نضع نصب أعيننا هذا الاستنتاج حتى نفهم بعض الجوانب من سلوك الشرقيين إبان اندلاع الحروب الصليبية.

ليس هناك ما يدعو إلى أن نكون مثاليين فى نظرتنا للوقائع كما لا ينبغي أن نكون لا تاريخيين أيضاً. فأهل الذمة كانوا يخضعون لمعاملات ذات طابع تمييزى بخصوص الضرائب والمحاكم المختلطة، وكان من مظاهر هذا التمييز المتكرر وغير المجدى فى المعاملة فرض أزياء متميزة أهم مبرراتها تفادى التجسس أو الوقوع فى ممارسات خاطئة مخالفة للقوانين المنظمة للعلاقات بين الطوائف، وكان هناك أيضاً منع تشييد أماكن جديدة للعبادة (وإن كان التحايل ممكناً فى هذه الحالة مقابل مبلغ من المال)، وتجريم شتم الإسلام أو الارتداد عنه للمعتنقين، وكانت عقوبة ذلك هى الإعدام لكنها نادراً ما طبقت، وكان المسلمون فى الغالب يكونون نوعاً من الازدراء الأرستقراطى تجاه غيرهم. غير أنه بالنظر إلى هذه المظاهر وبالمقارنة مع المجتمعات الأخرى المعاصرة لها لا يظهر أن الحياة كانت شاقة بالنسبة للطوائف غير الإسلامية، فمن كان يستطيع الهجرة من المقيمين على الحدود لم يفعل ذلك، كما أن الأمثلة كثيرة بشأن الذين نقلوا أعلى الوظائف أو الذين حققوا ثروات طائلة بين أهل الذمة مثلما هو الحال بالنسبة للمسلمين. وقد بقيت الثقافة المسيحية سائدة مع بعض الجمود الذى لحقها فى أعقاب تراجع علاقاتها مع بقية أفراد الكنيسة. أما الثقافة اليهودية فقد تطورت وصار العالم الإسلامى بمثابة الفردوس بالنسبة لليهود على الصعيد الثقافى والاقتصادى بين القرنين التاسع والحادى عشر، وما عدا أمور العقيدة لم يكن الأمر يتعلق بمجرد الثقافات المستقلة بذاتها وإنما كان

يتعلق بالإسهام داخل حضارة شاملة ومشاركة يلزم أن نسميها إسلامية لانعدام وجود تسمية أخرى، لاسيما في الميدان العلمي حيث تأخى الأطباء والعلماء من كل الطوائف، وفي الحياة العامة كانت بعض الطوائف تستأثر بمهن أكثر من غيرها وبتجميع السكان حول أماكن العبادة الخاصة بها... إلخ، لكن لم يكن هناك قط أي نوع من العزل ولا ما يماثل المجر على الإطلاق. كانت تحدث سوررات غضب العامة لكن نادراً ما كانت تحدث لأسباب طائفية مباشرة، وكانت السلطة تتدخل لإقرار الوضع ولو أدى الأمر إلى أن تفرض ثمن ذلك. وما نجده أحياناً من تعبيرات الاستياء على ألسنة المسيحيين كانت تستهدف إما سكاناً معينين كالأكراد أو وكلاء الضرائب الذين لم تكن شكوى المسلمين منهم أقل حالاً.

حقاً لقد وجدتُ كتابات عن الجدل الديني بين الطوائف، وصلت لنا عنها نماذج مختلفة^(١١)، وقد كان بعض الأمراء والسادة الكبار يستمتعون بتنظيم مناقشات بين علماء الدين كانت نتيجتها معروفة سلفاً، إذ غالباً ما كان يعمل رجال الدين داخل كل طائفة على تثبيت عقائد رعاياهم وتشجيع أو محاربة اتجاهات تحول الأفراد عن أديانهم وهذا ما يفسر عدم وجود حوار حقيقي؛ فمن كلا الجانبين لم يكن أحد يستعلم حول الغير لمعرفة حق المعرفة من خلال نظرتهم هو عن نفسه. وكان كل طرف يكتفى بترديد ما يقوله أهل البدع الذين خضعوا لعملية الذوبان الثقافي أو الزعماء المعتمدين من قبل الكنيسة التي ينتمي إليها كل طرف. وإذا ذهب الأكثر وعياً بعيداً فإنهم سيقراء القرآن أو الكتاب المقدس ولا يحفظون من هذه القراءة إلا ما له أهمية بالنسبة لهم وليس بالنسبة للآخر. وفي الحقيقة فإن من النادر أن نجد في حوزة مسلم كتيباً يتضمن مدحاً لليهودية أو المسيحية، أو نجد في حوزة يهودي أو مسيحي كتيباً يمدح الإسلام. وبالأحرى أن يصير هذا الأمر مؤكداً في المناطق الحدودية حيث يوجد عدد كبير من الكتابات اليونانية - البيزنطية المعادية للإسلام التي استهدفت تقوية عزائم المقاتلين وتشجيع سكان المناطق الحدودية على محاربة خصومهم المسلمين^(١٢). وسنعود فيما بعد إلى بعض الموضوعات التي تدور حولها هذه الكتابات عند الحديث عن عقلية الصليبيين. وحسبنا أن نقول بأن هذه الكتابات لم تكن على صلة كبيرة بالشروط الحقة التي تفترضها العلاقات بين أتباع العقائد المختلفة.

في هذه الأثناء خلف اضطهاد «أهل الكتاب» وما انتهى إليه من تدمير كنيسة القيامة في القدس صدئاً هاماً لدى الحجاج، وساعد تناقل هذا الحدث في الغرب على إشعال فتيل

(*) المجر : هو الحى الذى يجبر اليهود على الإقامة فيه، وهو يقابل اصطلاحياً الكلمة الإيطالية جيتو (المنهل الوسيط) - المترجم.

الدعاية الصليبية^(١٣)، وهو الاضطهاد الذي مارسه الخليفة المصرى الحاكم بأمر الله فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر. وكان عداؤه للمسيحيين ضئيلاً إلى درجة أنه تزوج شقيقة بطاركة القدس والإسكندرية الشقيقين لكن ذات صباح اتخذ إجراءات كان من شأنها أن وضعت أهل الذمة بين خيار النفى أو اعتناق الإسلام أو الموت جوعاً. وبعد ثمانية أعوام علق الحاكم أمر تنفيذ هذه الإجراءات وألغيت بصفة كاملة على يد من خلفه. أضف إلى ذلك أن الحاكم بأمر الله كان مختلاً عقلياً إذ طالب بمنع النساء من الخروج منعاً تاماً وبهجر الله البرىء، وحينما تقدمت به السن أعلن أن الله تجسد فيه لذا لا يمكن أن ينظر إليه بوصفه ممثلاً للإسلام الصحيح. وصحيح أن الأسرة الفاطمية الحاكمة التى ينتمى إليها الحاكم بأمر الله كانت تدعو إلى المذهب الإسماعيلى الذى يتسم بطابع خاص، إلا أن الحاكم بأمر الله فهمه فهما خاصاً به وفى الواقع فإن نظام الحكم هذا كان فى مجمله قبل مجيء الخليفة الحاكم بأمر الله وبعده قد بؤاً المسيحيين واليهود مكانة هامة فى الإدارة ولقوا ترحيباً حاراً فى دائرة العلاقات الخارجية إلى درجة أن خصوم هذا النظام كانوا يتهمونه بنوع من التآليف السرى بين العقائد ونبذ الإسلام.

من المؤكد أنه كان هناك فى الإسلام مظاهر للتعصب ولاسيما فى الداخل ومنها إعدام المتصوف الحلاج (فى بداية القرن العاشر) واضطهاد المانويين الذين سعوا لصيغ الإسلام بصيغة مانوية من داخله (فى نهاية القرن الثامن) وكذلك اتخاذ الإجراءات المناهضة لدعاة المذهب الشيعى.. إلخ. وقد ظلت هذه المظاهر والإجراءات نادرة الحدوث مادام أن الانشقاق الدينى لم يأخذ طابع المعارضة أو الانفصال السياسى، بل إن الأوساط الدينية الورعة التى حاولت إرسال القادمين الجدد من الأتراك السلاجقة لشن حملة معادية للفاطميين لم تستطع تعبئة الجماهير ففشل مسعاها.

وهكذا ظلت صورة العالم الإسلامى حتى القرن الحادى عشر صورة مجتمع متعدد الطوائف بشكل متميز، حيث ساد الإسلام سياسياً واحتفظ بداخله بنسبة هائلة من المنتسبين لمختلف الأديان دون حرج، وذلك فى تآلف من المستحيل أن نجد له مثيلاً آنذاك فى مجتمعات أخرى.

الفصل الثانى

الشرق الاذننى فى القرن الحادى عشر

أفريقيا الغربية

تلك كانت الحالة السائدة فى أواسط القرن الحادى عشر. وفى هذه الفترة ظهرت تحولات متشابهة جزئياً سواء داخل الشرق أو الغرب، نتجت عنها أوضاع جديدة.

فى الغرب الإسلامى قام البربر(*) المقيمون بالتخوم السودانية الصحراوية - وكانوا حديثى العهد بالإسلام - بتشكيل نوع من النظام العسكرى وقد لقبوا بالمرابطين نسبة إلى الرباطات التى كانوا يقطنون بها ومن هنا جاءت تسميتهم بالمرابطين التى أخذناها من الأسبان. وكان أهل الورد فى غرب المغرب العربى الذين أثارهم ما رأوه من انحلال أخلاقى وسياسى داخل مجتمعهم قد استدعواهم للقيام «بعملية تطهير» ضرورية، بدأوا باحتلال المغرب الأقصى، ثم احتلوا جزءاً من المغرب الأوسط وهكذا أصبحوا مجاورين لأسبانيا، غير أن الطباع الخشنة والمتشددة، للمتربذين الحديثى العهد كانت تنفر منهم ذوى الإحساس المرهف، هنا كذلك كان كثير منهم يعانون من حالة شبه الفوضى السياسية، ويفضلها شرع المسيحيون بالشمال فى العملية الظافرة للاسترداد المسيحى لأسبانيا كما سنتبين ذلك. ومن بين خطرين كان لابد من اختيار الأهمون شراً، لذلك تم استدعاء المرابطين الذين قاموا بسحق الفرنجة وأعادوا توحيد المناطق الإسلامية بشبه الجزيرة الأيبيرية لصالحهم. وهكذا ظهر من جديد شكل من أشكال الإسلام القتالى رداً على الروح القتالية الجديدة للمسيحية.

لقد تركت أحداث شمال إفريقيا انعكاسات بعيدة المدى؛ فالأفول الاقتصادى للبلاد وما نتج عنه من حرمان سكان مناطق الساحل من مصادر معينة لتجارتهم، أرغمهم على ممارسة القرصنة خلافاً لما حدث لبعض الإيطاليين والأسبان من قبل^(١). ومن ثم استشعر الإيطاليون ضرورة إنشاء شرطة بحرية، وفى الوقت نفسه، ونظراً لتعذر الحصول من داخل المغرب على المنتجات التى كانت تجلبها القوافل والأساطيل البحرية القادمة من مصر، شعر الإيطاليون بالرغبة فى الذهاب لجلبها مباشرة من الشرق. على أن هذه الرغبة قد أحس بها يهود

(*) البربر : اسم يطلق على سكان أفريقيا الشمالية من برقة إلى المحيط، الذين يتكلمون لهجات أعجمية قبل استعراهم يرجع أصلهم إلى فئات عرقية مختلفة استقرت فى البلاد قبل الميلاد... كان منهم الأغلبة والرستميون والمرابطون والموحدون ثم زالت دولهم فى أواخر القرن الثالث عشر فأختلط أهل المدن منهم بالعرب وأعتصم الآخرون فى جبال الأدراس والأطلس وفى الريف وبلاد القبائل والصحراء حيث لا يزالون حتى اليوم وقد حافظوا على عاداتهم ولهجاتهم، والجدير بالذكر أن هناك مدينة تدعى بربر فى السودان بين دنقلة الأوردى والخرطوم، المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

القيروان، قبل الاجتياح الهلالي، فنقلوا تدريجياً مراكز نشاطهم في اتجاه مصر من جهة وجنوب إيطاليا من جهة أخرى (٢)، وقد حذا الإيطاليون حذوهم في هذا السبيل، وسرعان ما حلوا مكانهم.

أما في الشرق فقد امتدت التحولات إلى مجالات أكثر اتساعاً وانتهت إلى نتائج أكثر تعقيداً. في هذه المنطقة كان الأتراك يمثلون عنصراً جديداً، ولا نغنى بهم أولئك الذين انخرطوا في الجيش منذ قرنين ولم يحافظوا على أية رابطة مع شعوبهم الأصلية وظلوا على وثنيتهم يتنقلون في السهول بوسط آسيا، وإنما أعنيا شعباً تركيا هو الأجوز(*) الذي أطلق عليه في العادة لقب التركمان، وكانوا هم أيضاً حديثي عهد بالإسلام، واستقروا قبل فترة قصيرة في بلد إسلامي تقليدي، وسلموا السلطة فيه لقادتهم السلاجقة. لقد عرف هؤلاء كيف يعتمدون على العناصر المحلية الأرثوذكسية التي كان التفكك السياسي ولاسيما الطائفي للإسلام في المشرق يستثير غضبها. ويفضل الوحدة القائمة بين القوة العسكرية الممثلة بالتركمان والأرستقراطية الإيرانية «الأرثوذكسية» اتسعت رقعة إمبراطورية السلاجقة بسرعة داخل جميع أنحاء إيران ثم في العراق وقضت على البويهيين الشيعة في سنة ١٠٥٥ للميلاد، وقبل ذلك طردت الغزنويين باتجاه الحدود الهندية. وحينما خلع الخليفة على طوغرل بيك لقب السلطان و«ملك الشرق والغرب» فوض إليه مهمة إتمام الوحدة السياسية والدينية لآسيا الإسلامية والتصدي بعد ذلك للخلافة الفاطمية المناوئة في مصر. ومع ذلك فإن حرباً كهذه كانت قليلة النفع للتركمان داخل بلاد مناخها شديد الحرارة بالنسبة لدوابهم وسياستها مانعة لعمليات النهب المفرطة. وفي المقابل جذبتهم الهضاب الأناضولية وقبلها الهضاب الأرمينية التابعة للإمبراطورية البيزنطية، حيث كانت غزواتهم تتوافق مع مفهومهم المبسط عن الحرب المقدسة الذي أخذوه في آسيا الوسطى عن المسلمين الذين حاربوهم عندما كانوا مشركين. وخوفاً من أن يستقل التركمان فيتعذر تسخيرهم، عمل السلاجقة على تشجيعهم على انتهاج هذا السبيل، فازدادت حظوتهم لدى من بقى من المسلمين المحليين يستشعرون من المسلمين المحليين، ذكريات الجهاد وما مضى من البطولات الغابرة، وهكذا بدأت سيرورة التغلغل التركي في آسيا الصغرى، الذي تيسر بفعل الصراعات الداخلية بين الأرمن واليونانيين من جهة والبيزنطيين أنفسهم من جهة أخرى. وعندما قام السلطان ألب أرسلان في

(*) الأجوز أو الغُر: قبيلة تركية رحلت من أواسط آسيا نحو الغرب منذ القرن التاسع. منها انحدر أحمد بن طولون. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

عام ١٠٧١ بإبادة جيش الإمبراطور رومانوس ديوجين الرابع في موقعة ملاذجرت(*) لم يعد هناك ما يحول دون استيطان التركمان داخل البلد الذي قضوا فيه قضاءً مبرماً على النظام البيزنطى بمجرد الاختلال الذى ألحقه به ومن دون خطة محكمة، ولم يكن الهدف بالنسبة للسلطان الذى كانت إمبراطورية روما بالنسبة إليه نوعاً من الكيان الأبدى الذى لم يكن يجوز لأحد أن يفعل أكثر من المجادلة بشأن حدوده، كما لم يكن الهدف كذلك بالنسبة للتركمان، الذين لم تكن لديهم فكرة واضحة عن إقامة دولة خاصة بهم، هو الاستيلاء على آسيا الصغرى، مع أن ذلك هو ما حدث فعلاً باستثناء الشواطئ لفترة مؤقتة.

أما بالنسبة للصراع المناهض للفاطميين فلم يكن قد تجاوز سوريا - فلسطين، وقد صارت، على الأقل، كل بلاد ما بين النهرين وسوريا - فلسطين باستثناء الموأىء (ميناء طرابلس كان مستقلاً، والباقي كان للمصريين) تابعة منذ ذلك الحين للإمبراطورية السلجوقية، وفى مواجهة التساهل الطائفى الذى شاع آنفاً فى البلاد المفتوحة شرع السلاطين السلاجقة فى تنفيذ عملية إعادة بناء عقائدى مستقيم كان يركز على التشجيع المادى للمدارس التقليدية والمساجد والخانقات التى بدأت آنذاك فى الظهور أكثر من ارتكازه على الاضطهاد. على أن إحدى هذه الجماعات قامت بتنظيم المقاومة على نحو إرهابى، يلزمنا التطرق إليه بشيء من الدائرة. ففى مصر انقسم الفاطميون إلى أنصار لاثنتين متنافسين، فكان الإسماعيليون الإيرانيون ضد الغالب، وظلوا أوفياء لنزاز المهزوم، وأسسوا مذهباً جديداً، وقاموا بالخصوص باستحداث أشكال من العمل الملائم للظروف فى مواجهتهم للسلاجقة. ويعد أن تجمعوا فى شمال إيران حول قلعة «الموت»(**) انتهجوا سياسة معادية للسلاجقة وللأوساط التقليدية حيث لعب الاغتيال فيها دوراً كبيراً بحيث أطلق عليهم عامة الناس لقب «الحشاشين» أى شاربو الحشيش، و«القتلة». وقد أسسوا فى شمال سوريا جماعة فرعية لها أهميتها وذلك إبان وصول الصليبيين.

(*) ملاذجرت : كانت تسمى قديماً مانتزيكرت، تقع شمال شرقى تركيا، وقعت فيها معركة شهيرة انتصر فيها السلجوقيون بقيادة ألب أرسلان على البيزنطيين عام ١٠٧١م. (المترجم)

(**) يتعلق الأمر بتمرد نزار ابن الخليفة المستنصر الذى استبعد لصالح شقيقه المستعلى راجع توضيحاً لذلك فى الهامش رقم ثلاثة المتعلق بالوثيقة الخامسة بالملحق (المترجم).

(***) الموت: حصن فى جبال ألبُرز شمال غربى قزوین. كان قلعة الإسماعيلية، بناه حسن الواعى ٨٦٠ واحتله حسن الصباح وجعله مركزاً لقيادته ١٠٩٠. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

وفى عهد ملكشاه، الذى خلف ألب أرسلان، ووزيره الأعظم نظام الملك، وصلت رقعة الإمبراطورية إلى أقصى مداها، كما عرفت درجة من التنظيم السلمى لم تشهدها هذه البلدان منذ أمد طويل. بيد أن هذه الإمبراطورية كانت تتضمن مثل غيرها بذور ضعفها، فمنذ موت ملكشاه (١٠٩٢م) بدأت سيرورة الانحلال التى أدت إلى تفكك شبه فوضوى قبيل وصول الحملات الصليبية خاصة فى المناطق الخارجية مثل سوريا التى أدركتها تلك الحملات. وقد قام أقارب السلطان الأعظم بمعارضته مما اضطرهم للانشغال عما يجرى بعيداً عنهم وتقديم التنازلات التى كانت تضعف كثيراً من حكومة الإمبراطورية لقاء أتعاب معاونيهم من الضباط، وعلى إثر ذلك تقريباً أحرزت خوراسان مع ملحقاتها (الشمال الشرقى لإيران وآسيا الوسطى) استقلالاً ذاتياً وكذلك فعل تركمان آسيا الصغرى حسب طريقتهم التى لم تكن تتضمن بعد الشكل التنظيمى للدول الحقيقية. وفى أعالي بلاد ما بين النهرين حصل حكام الموصل على استقلال جزئى، ومع ذلك لم يتمكنوا من منع مجموعة من القادة التركمان من الاستقرار فى الحوض الأعلى لنهر دجلة، حيث أخذ الأراتقة يظهرون بينهم شيئاً فشيئاً.

وفى سوريا تنازع أبناء شقيق ملكشاه، رضوان ودقاق، هذا الأخير كان حاكماً على دمشق وذاك على حلب، وأقام العديد من كبار الضباط الأتراك أو بعض السادة العرب لأنفسهم إمارات صغيرة أو أعادوا تشكيلها من جديد كما حدث فى حمص والقدس. وكانت هذه الأخيرة لفترة فى يد الأراتقة الذين أتينا على ذكرهم آنفاً، أو فى طرابلس كذلك التى كانت فى يد القضاة الشيعة بطرابلس. وإذا كانت بيزنطة فى وضع لا يسمح لها بالاستفادة من هذه المشاجرات كى تستعيد سلطتها فى سوريا فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لرعاياها القدامى من الأرمن الذين كونوا لأنفسهم ما بين سوريا وبلاد ما بين النهرين العربية وآسيا الصغرى التركية وكل جبال طوروس مناطق مستقلة عملياً وهى تضم الرها وملطية(*) . إضافة إلى ذلك كان الفاطميون يمتلكون موانئ النصف الجنوبى للشاطئ السورى - الفلسطينى، وفى عام ١٠٩٨م أعادوا إحكام سيطرتهم على مدينة القدس على يد الصليبيين، ولعل الاعتقاد السائد لديهم أن أطماع هؤلاء كانت أقل استهدافاً لمدينة القدس من أطماع الحملات البيزنطية السابقة.

(*) ملطية: مدينة تقع بالقرب من معبر الفرات إلى جبال طوروس، وقد سميت قديماً مدينة ملطين. ولد فيها المؤرخان البطريرك ميخائيل السريانى (١١٢٦ - ١١٩٩) وغريغوريوس ابن العبرى (١٢٣٦ - ١٢٨٦). (المترجم).

وسواء خضع المسلمون للهيمنة «العربية» التقليدية أو للأنظمة الجديدة ذات السيادة التركية فإنهم - وإن كان عددهم قد أخذ في الازدياد في معظم المناطق باستثناء آسيا الصغرى - ظلوا مجاورين لرعايا غير مسلمين مثل بعض اليهود في معظم المدن والزرادشتيين المقيمين في إيران وخاصة المسيحيين، وهو ما يهمننا هنا وهم كثر في الهلال الخصيب بكامله (سوريا وبلاد ما بين النهرين والعراق) ومصر وآسيا الصغرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا ذوى انتماء كنسى واحد بخلاف الصليبيين الأوائل، ولم تكن أية طائفة منهم تابعة لروما. وكانت الأغلبية العظمى من المسيحيين داخل الإمبراطورية البيزنطية تنتمى للكنيسة الرسمية للقسطنطينية التى كانت عقيدتها تتطابق مع عقيدة الكنيسة الرومانية باستثناء «مبدأ الفيليك»(*) الذى يشوبه الغموض لدى هذه الأخيرة. وقد كان تنظيمها يختلف عن نظيرتها فى الغرب اللاتينى كما أن نظامها البطريركى كان قد قطع علاقاته مع النظام البابوى سنة ١٠٥٤م فى ظروف لم تكن بلا ريب أشد خطورة بالنسبة لمعاصريها من مناسبات سابقة عديدة، ومع ذلك فقد ترتب عنها انشقاق لا زال قائماً إلى اليوم، ورغم الانفصال السياسى فقد وجد كذلك مؤمنون ذوى شعائر يونانية، وهم الملكيون فى مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين، غير أن أغلبهم (حتى فى مقاطعة شمال سوريا بأنطاكية التى استعادها البيزنطيون) قد تعربوا لغوياً، وصاروا يخضعون إلى بطاركة الإسكندرية وأنطاكية والقدس، وكانوا متساوين فى المرتبة مع بطريرك القسطنطينية وأكثر تحفظاً منه فى مسلكهم إزاء روما التى أصبح يأتى منها الحجاج، بل وحتى التجار، بأعداد كبيرة. على أن أكبر عدد من مسيحيى الشرق كانوا تابعين لكنائس أخرى انفصلت عن روما وكذلك عن القسطنطينية منذ زمن بعيد. ولنوجز الكلام عن المواردن الذين تجمعوا فى لبنان على إثر هجرة خفية واستقروا فيها إلى اليوم. وباستثناء المواردن ظل النساطرة مقيمين فى العراق وآسيا الوسطى، وقد وجدت دائماً فى المناطق الممتدة من أرمينيا حتى مصر ثلاث كنائس متفقة تقريباً فى طابعها المونوفيزى وهى الكنيسة الأرمنية القومية التى انفصلت عنها كبار الشخصيات التى كانت مع

(*) الفيليك : تعنى حرفياً «والابن» وهى بدعة ظهرت لمعارضة القوط الغربيين الذين تأثروا بالآريوسية التى تنكر وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة، لذلك ظهرت هذه البدعة التى تقول بانبثاق الروح القدس عن الآب والابن وانتشرت فى البداية فى بلاد الغال (فرنسا) وجرمانيا، وأقرها شارلمان، كما سمح البابوات باستخدام هذه الإضافة الرمزية غير أنهم رفضوا إقرارها قبل القرن الحادى عشر، وكانت موضع خلاف بين المسيحيين الشرقيين والبابوية (المترجم).

ذلك تطمع فى شغل مناصب فى بيزنطة فانضمت إلى الكنيسة اليونانية، والكنيسة اليعقوبية السريانية اللغة ممثلة بصفة خاصة لدى الساميين الذين استعربوا على نطاق واسع فى بلاد ما بين النهرين (بما فيها منطقة ملطية فى الأناضول الشرقى) وسوريا، وأخيراً الكنيسة القبطية المصرية التى تعربت بشكل كامل حتى فى لغتها الدينية وذلك منذ القرن العاشر. لقد ظلت هذه الكنائس معادية للكنيسة البيزنطية ومن ثم كانت تقبل بالخضوع لسيادة المسلمين أو حمايتهم، كما كان الأمر بالنسبة لأرمينيا الشرقية، وحتى المناقشات المذهبية اللاحقة وفقدان جزء من أتباعهم الذين انجذبوا نحو الإسلام لم يؤثر فى محور العداءة المستحكمة إلا قليلاً، ولم يكن من شأن المنازعة التى أبدتها الكنيسة البيزنطية فى تصرفها (ولا أتحث بالطبع عن روما التى كانت غائبة ويتم بالفعل تجاهلها) داخل المقاطعات التى تم استعادتها بآسيا الصغرى وسوريا فى القرن العاشر والحادى عشر، ليساعد على إقرار المصالحة، فالمضايقات بشأن الشعائر وتوزيع ممتلكات الكنائس والاعتقالات والاضطهادات التى لحقت فى بعض الأحيان القادة الأرمن والمونوفيزيين أشاعت مناخاً ظهرت دلالاته واضحة تمام الوضوح أثناء الغزو التركى. وأغلب الظن أنه حتى فى مدينة القدس استفاد اليونانيون من الحماية التى مارستها بيزنطة فى القرن الحادى عشر على مسيحيى هذه المدينة أكثر من السكان المحليين أنفسهم. وبما أن الصليبيين وصلوا إلى الشرق غداة الغزو التركى وكانت أوروبا فى القرن الحادى عشر قد تعودت على أن تنتظر للأتراك على أنهم يضطهدون الشعوب المسيحية، فقد أصبح تقليدياً أن يعزى إليهم تفاقم مصير المسيحيين مما قد يكون السبب فى نشوب الحروب الصليبية. ونظراً لما كان عليه مسيحيو الشرق من تعاسة فى ظل الإسلام العربى فلم يكن ليتحقق خلاصهم دون تدخل الغرب، ويستند هذا التأكيد على ما حصل من التباسات ربما حان الوقت لتبيدها الآن بعد مرور تسعة قرون.

ومن الوجهة التى ننظر من خلالها الآن ينبغى التمييز بين ثلاث فئات من المسيحيين : المسيحيون فى آسيا الصغرى، ومسيحيو البلاد التى كانت خاضعة للسيطرة الإسلامية ثم انتقلت آنذاك إلى أيدي الأتراك، وأخيراً الحجاج الغربيون فى الأراضى المقدسة. بالطبع لا أحد يعترض على أن الغزو التركى قد شكل محنة اتخذت أحياناً صبغة مأساوية بالنسبة للسكان المسيحيين فى آسيا الصغرى، ولكن ينبغى تسجيل ثلاثة تحفظات على هذا الرأى : أولاً أن التركمان لم يحسنوا التصرف إلا نادراً مع إخوانهم فى الدين من العرب أو الفرس، وثانياً أن خصائص فترة الفتح لا تنسحب على فترة الاستقرار، وأخيراً فإن ثمة مجالاً للتمييز

بين الكنيسة البيزنطية وغيرها من الكنائس التي لم يكن أتباعها حتى أثناء محنتهم يستقبحون «العقاب» الذي وقع على الكنيسة البيزنطية. وفي اللحظة التي كان يتم التبشير فيها بالحروب الصليبية كانت مرحلة الغزو لا زالت قائمة بالرغم من أن الأمور كانت تنزع نحو الاستقرار خارج الحدود. ترى ماذا كانت الحصيلة في هذه الفترة ؟ لقد تم طرد الطبقة الكنسية البيزنطية كلها تقريباً لأسباب لا تعود للقرار المتشدد من قبل الغزاة بقدر ما تعود إلى استصعابها العيش وامتلاكها وسائل الانسحاب خلف السواحل اليونانية. وقد مكث القساوسة والرهبان والمؤمنون بالطبع يمارسون عبادتهم، وذلك في آسيا الصغرى الغربية والوسطى (إقليم الكابادوس الغربى حيث لا تزال هناك «الكنائس المغارية» الشهيرة).

يبد أن في الشرق من الكابادوس الشرقي كانت آسيا الصغرى تابعة في غالبيتها للكنيسة الأرمنية القومية، بينما في منطقة ملطية وأقصى طوروس والفرات الأوسط وأعلى بلاد ما بين النهرين (ديار بكر) كانت تتبع الكنيسة اليهيقوية المونوفيزية. وبعد مرور عاصفة الغزو تصالح المسيحيون هناك مع الغزاة الذين كانوا يحمون المسيحيين على طريقتهم ويخلصونهم في كل الأحوال، من مضايقات الكنيسة البيزنطية القديمة، مع ما بقوا عليه من الفظاعة والمقاتلة والشدة المستحكمة في بعض الأحيان. ونحن نعلم بالطبع أن رهباناً سريانين منتقلين إلى منطقة مرعش على الأرجح قد التجؤا إلى مصر حيث وجدوا بها مهاجرين قدامى وذلك أثناء الحرب بين القائد الأرمني المحلي فيلاريت والأتراك التابعين لسليمان بن قتلмыш، غير أن الغالبية العظمى ظلت مقيمة هناك واستقرت بعد تلك الفاجعة كما أظهر تعاقب الأحداث. ويرغم أننا لا نملك أمثلة دقيقة إلا فيما يتعلق بأنطاكية فإنه من المحتمل أن المسيحيين من الأهالي قد استفادوا في حالات مختلفة من اندثار الكنيسة اليونانية من حيث أن المعابد التابعة لها أسندت إليهم بعد ذلك بواسطة السادة الجدد عن طريق حساب سياسى بسيط ولم تتحول إلى مساجد. وكان هناك وعى واضح بهذه الوقائع في القسطنطينية لدرجة أن المسيحيين غير اليونانيين بالأناضول، الذين غامروا بأنفسهم بداخلها، كانوا يعاملون معاملة المشتبه فيهم^(٤).

ولننتقل الآن إلى البلاد التي أسلمت منذ فترة بعيدة، بما فيها بالطبع سوريا - فلسطين، حيث استفاد بالفعل بعض المسيحيين من الأقول البيزنطى. وبما أن فاتح القدس إتسز لم يستطع تعيين قائد مسلم على هذه المدينة لاحتمال أن يشتبه في تعاطفه مع الفاطميين فقد نصب عليها أحد اليعاقبة. وفي عام ١٠٧٦ أغرق إتسز إحدى التمردات بالقدس في حمام

من الدم وكان ضحاياه من المسلمين خلافاً لما يشاع عادة، أما المسيحيون فلأسباب خاصة بالسلمات التى لها صلة بالعلاقة بين الطوائف داخل المدينة كانت الحكومة الفاطمية قد حشدتهم بصفة استثنائية فى حى خاص مثلما فعلت باليهود فلم يتعرضوا للقتل. حتى البطريرك اليونانى سيميون الذى لم يكن ممثلاً للسلطة الزمنية لبيزنطة خلافاً لأقرانه فى آسيا الصغرى كان قد سُمِحَ له بالبقاء فى القدس. كما نجد مؤلفاً قبطياً معاصراً للأحداث، صاحب كتاب «تاريخ بطاركة الإسكندرية» (وهو كتاب جماعى لحقته إضافات من جيل لآخر) يمجّد القائد إتسز، وهو أمر يثير الانتباه بمقدار تدمره بعد ذلك من الصليبيين.

صحيح أن الأتراك رفضوا الإيمان بمعجزة النار المقدسة التى كانت تهبط من السماء فى كل عام خلال أعياد القيامة لتضىء سراجاً فى كنيسة القيامة، غير أنه بعد مجيء الفرنجة تأخرت المعجزة مدة عامين قبل أن تعاود الظهور تحت التهديد. لقد صدم الأرتق المشاعر المسيحية عندما رشق سهماً فى سقف كنيسة القيامة، لكن هذا ينبغى أن يُفهم بالأخص على أنه طريقة تركية تقليدية للدلالة على إحكام السيطرة ولا يُحمل محمل الاحتقار الدينى أو التعصب^(٥).

وبشكل عام فإن أوضاع المسيحيين، فى كل البلدان المندمجة داخل إمبراطورية السلاجقة، كانت طبيعية. وكان مسلك التركمان موضع تدمر الجميع مسلمين وغير مسلمين، لكن تنظيم أمور الحكم قد تم فوراً على وجه التقريب، كما أن السلاجقة ذوى الاستقامة والنباهة جعلوا من أنفسهم حماةً للذود عن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من وضعية قانونية لغير المسلمين. وإذا كان هناك ما ينم عن التعصب فينبغى أن نذكر بأنه لم يكن موجهاً ضد المسيحيين بل ضد الإسماعيليين فى الداخل والخارج، وبشكل أقل تشدداً ضد الشيعة العاديين. ولن يدعى أحد بأن النفوذ المسيحى فى نهاية القرن الحادى عشر كان لا يزال كما كان عليه فى القرن التاسع، إذ أن الفترة الوسيطة كانت قد تميزت بتحول اعداد كبيرة من المسيحيين إلى الإسلام بحيث صار المسيحيون بعد ذلك قلة. فكانت الحاجة إلى استخدامهم فى الإدارة وغيرها قد تناقصت على العكس مما حدث بالنسبة للأقباط فى مصر. لكن نادراً ما كان هذا الأمر موضع اهتمام عامة الناس ولا يجوز أن ينسب إلى التعصب من جانب الأتراك. أضف إلى ذلك أننا نتحدث بالطبع عن العراق وبلاد ما بين النهرين، ففى إيران لم يكن هناك مسيحيون غير أن هذا المنطق المعمول به ينطبق على الزرادشتيين.

على أية حال إذ كانت فترة حكم أوائل كبار الفاتحين السلاجقة التابعين للإمبراطورية

وهما طغرل بك وألب أرسلان قد تضمنت التقلبات والصعوبات التي تتميز بها كل فترات الحروب وتكون الحدود فيها غير مستقرة فإن فترة حكم الفاتح السلجوقي الثالث ملكشاه (١٠٧٣ - ١٠٩٢) ووزيره المعروف نظام الملك كانت فترة تنظيم مستقر تلتها مباشرة الحروب الصليبية. وربما تم تضخيم مزايا هذه الفترة بالنظر إلى ما سبقها من قلاقل نقيضة لها، بيد أنها مزايا يصعب أن تكون وهمية. وما هو جدير بالانتباه أن يوجد ثناء مماثل لدى الكتاب المسلمين والمسيحيين، فهؤلاء كانوا يكتبون بلغات قلما يجر الإفصاح الصادق بها خطراً عليهم. ربما ترك الأسلوب التفخيمي للمؤلفين الأرمن مثل متى الرهاوي وساركافاج (في حوايات صموئيل الأنوي) وإتيان أوبيليان، انطباعاً بالمبالغة، لكن النعمة هي ذاتها عند ميخائيل السورى والنسطورى عمرو بار صليبا (باللغة العربية عند هذا الأخير) حيث يتم الثناء على شيم النظام والأمن والعدالة السائدة بالنسبة لكل الطوائف بالتساوي^(٦). صحيح أنه بعد موت ملكشاه مزقت الشجارات الداخلية وحدة الإمبراطورية، لكنها لم تفسد أوضاع غير المسلمين ولم تتخذ أى طابع معاد للمسيحية. فى سنة ١٠٩٧ سجن الأتراك يوحنا بطريرك أنطاكية اليونانى وفى سنة ١٠٩٩ قام المصريون، الذين استعادوا القدس، بنفى البطريرك سيمون وغيره من الأعيان الملكيين، غير أن الصليبيين فى كلتا الحالتين كانوا على أبواب المدينة، فلا يجوز النظر لهذه الإجراءات إلا من زاوية الاحتياطات المبدئية. إذ أن من الثابت أن مسيحيى الشرق من غير اليونانيين لم يطلبوا أية استغاثة من الغرب ولم يرد ذكر أى شىء من هذا القبيل فى الرسائل المتبادلة بين البابا جيرجوار السابع والبطريرك الأرمنى المعاصر له والتي كانت تهدف إلى عقد روابط الصداقة على حساب الخصم اليونانى المشترك. وفضلاً عن ذلك فإن الشرقيين المنتمين إلى منطقة النفوذ البيزنطى رغم تعارفهم لبعض الوقت مع المرتزقة النورمانديين المنخرطين فى الجيش البيزنطى فقد تعذر عليهم التفكير فى إرسال جيش حقيقى من الغرب حتى لو كان لديهم ما يدعو للرغبة فى ذلك. وإذا كنا نعثر دائماً على مراثى صيغت فى قوالب معروفة هناك حول سيطرة الكفار فلا شىء يدعو للاعتقاد فى أن تكون هذه المراثى قد أخذت مظهراً بارزاً يحيل إلى صنوف جلية من المعاناة. من المحقق أن الغرب كان يستقبل رهباناً فلسطينيين لجمع الصدقات واستثارة شفقة من يستمع إليهم من الناس، غير أن تلك كانت ممارسة قديمة تعمقت غداة تدمير الحاكم بأمر الله لكنيسة القيامة ولا صلة لها باستبداد الأتراك. وكان الدعاة البيزنطيون هم وحدهم الذين يثرون الوقائع الحديثة والدقيقة وهذه قضية ثانية. ومع الغزو التركى فقد تعذر بطبيعة الحال مرور الحجاج الغربيين عن طريق آسيا

الصغرى أو كاد، وذلك فى الوقت الذى كان لاعتناق المجريين المسيحية أثر فى تفضيلهم السفر براً وليس بحراً لاسيما بالنسبة للألمان. ومع ذلك لا ينبغى أن نبالغ فى نتائج هذا الحدث، لأن الوضع فى فلسطين لم يكن سيئاً إلى هذا الحد، فكان بمقدور المرء أن يذهب إليها بحراً، وكما رأينا فقد انتزعت فلسطين من أيدي الفاطميين سنة ١٠٧١ من قبل القائد التركى المستقل إيتسز وضمت سنة ١٠٧٩ إلى الإمبراطورية السلجوقية التى كانت حكرًا على الأمير تُتُش، وفى سنة ١٠٨٦ أقطعها هذا الأخير للقائد التركى أرتق الذى كان يعمل منذ زمن طويل فى خدمة السلاجقة. ولا ننكر أن أول مجيء للأتراك تسبب وقتها فى معاناة أهل البلد، غير أن النظام سرعان ما استتب. وأغلب الظن أن القوة التركية الجديدة قد ساعدت على إرجاع البدو إلى صوابهم هم الذين كانوا العامل الرئيسى فى انعدام الأمن لفترات طويلة قبل مجيء الأتراك. ومن الغريب أن بعض المؤلفين الجادين قد جعلوا الفتوحات التركية سبباً للحوادث المزعجة التى تعرضت لها رحلة الحج الكبرى التى قام بها الألمان عام ١٠٦٤ وأكدوا أن إدراك مخاطر المرور ربما حرض أفراد هذه الحملة على تنظيم أنفسهم فى شكل جماعى ضخم على النحو الذى تميزت به، إضافة إلى أنه حتى الوصف التاريخى للحج^(٧) يفهم منه أن ضخامة فرقة الحجاج والتباهى الفاحش لدى بعض رجال الكنيسة بثرواتهم قد فتَح شهية البدو لمهاجمتهم، وعلى أية حال لا يتعلق الأمر فى عام ١٠٦٤ سوى بالبدو، حيث أن الأتراك الأوائل لم يظهروا فى هذه المنطقة إلا فى عام ١٠٧١، والمسئول الحقيقى عن ذلك، إن كان ثمة مسئول، هو الدولة الفاطمية، وذلك لا يرجع بطبيعة الحال إلى إرادتها فى مهاجمة الحجاج حيث كانت تستفيد من الضرائب التى فرضتها عليهم ولكن يرجع إلى عجزها عن المحافظة على الأمن فى مقاطعاتها الخارجية، لذلك فإن الدرس المستفاد، خلافاً لما يقال، لم يكن إلغاء الحج، بل القيام به بكثير من الكتمان. وإذا قصرنا الحديث عن الفترة التركية واستحضرنا ضالة الوثائق^(٨) فإننا نعرف أمثلة كثيرة عن رحلات الحج وهى كلها تكفى لإثبات أنها لم تختف ولكنها كانت تتم، فى جزء منها، عن طريق البحر، أو انطلاقاً من القسطنطينية بالنسبة للحجاج الغربيين. لم يكن الغزو التركى لسوريا قد وصل للموانئ إلا بصفة استثنائية، غير أن لدينا مثلاً لسفينة من مدينة البندقية قادمة إلى أنطاكية فى الفترة التى تلت استيلاء الأتراك على المدينة، كما أن بيوت ضيافة الحجاج الأمافيين المخصصة لمن كان يزأج منهم بين الحج والتجارة مع البلاد المجاورة ظلت تشتغل بالفعل تحت سيطرة الأتراك كما كان الأمر سابقاً، وليس من المستبعد أن زوال الحماية البيزنطية كان مفيداً للحجاج غير البيزنطيين مثلما كان الحال بالنسبة

للمسيحيين المحليين. إن الأصدقاء التي نجدها في الكتابات الغربية غالباً بعد الحروب الصليبية حول سوء المعاملة التي ربما عانى منها الحجاج تثير بعض السخرية؛ فأحياناً كان الأمر يدور حول الأقاويل التي تشاع كما هو الشأن في كل العصور حول أتباع الديانات المنافسة وأحياناً أخرى تكشف الشكاوى أن الغربيين لم يكن لهم أدنى فكرة عن المتطلبات التي تقتضيها الدولة المنظمة إدارياً. من المقبول أن يتخرج الحجاج المعدمون الذين قدموا إلى المدينة المقدسة من دفع الرسوم الواجبة، لكن كان ينبغي عليهم دفع رسوم مماثلة لعبور الإمبراطورية البيزنطية، وليس ثمة ما يدفعنا لنرى في ذلك دلالة على عدم التسامح. وفضلاً عن ذلك فإن الحالة الأكثر إيلاًماً مما نعرفه، وهي حالة الحجاج الذين منعوا من دخول الأراضي المقدسة لعدم توافر المال لديهم، كانت معاصرة لحج الكونت فولك الأنجي وذلك قبل حوالي ثلثي قرن من ظهور الأتراك في هذه المنطقة. ولم يتحدث أى كاتب شرقي مسلماً كان أم مسيحياً عن سوء المعاملة التي لقيها الحجاج. وعندما ألمح إلى ذلك بشكل عام أحد المسلمين المجاورين للفرنجة واسمه العزيمي بصدد تفسيره للحروب الصليبية فإنه كان يحيل بالطبع إلى ما ذكره الفرنجة له أو لحمدان بن عبد الرحيم صاحب كتاب تاريخ الفرنجة الذين قدموا للشرق، وهو كتاب مفقود من المحتمل أن يكون العزيمي قد اعتمد عليه. وبالطبع فإن مجموعة الأخبار المتداولة حول الحجاج، والتي تنسب وفقاً للحالات إلى هؤلاء الأمراء الصليبيين الأوائل، والتي سنجدها فيما بعد لدى بعض الكتاب المسيحيين في الشرق، صدرت هي كذلك بالطبع عن كتاب لاتينيين^(٩).

الفصل الثالث

الغرب وعلاقاته بالشرق

لقد عرفت أوروبا الغربية قرونا من الشقاء. فما كادت الأنظمة الناشئة من الغزوات الجرمانية تتخذ بمشقة ويبطء تنظيمًا به شيء من الاستقرار حتى ظهر العرب على تخومها الجنوبية وسرعان ما انتزعوا منها منطقة غرب البحر المتوسط بكاملها. وما كادت الإمبراطورية الكارولنجية تتشكل بفرنسا وألمانيا (فى الغرب من منطقة الألب) حتى وصل النورمانديون من الشمال والمجريون من الشرق فضلاً عن عدة شعوب من الصقالبة على التخوم الشرقية الممتدة من البلطيق إلى البحر الأدرياتيكي وكانت لاتزال خارجة عن نطاق الحضارة المسيحية.

كان المستوى الثقافى والاقتصاد فى كافة العالم الجرمانى اللاتينى نفسه قد هبط إلى مستوى منخفض جداً، على الرغم من بعض الجهود المؤثرة. ولم تستطع الكنيسة أن تفلت من هذه القاعدة، ومع أن البابوية كانت لها آنذاك سيادة على إحدى المقاطعات فى إيطاليا الوسطى فإنها قد عرفت فى القرن العاشر انحطاطاً بلغ من الشدة ما جعل المؤرخ فى حالة إندهاش من جراء صمود بعض التقاليد التى ستمكّن الكنيسة بفضلها من النهوض بعد ذلك.

أما الأباطرة الكارولنجيون فقد انحصر وجودهم داخل إيطاليا وقام أتباعهم الألمان بمساعدتهم على مراقبة هذه المدينة طبقاً لطريقتهم فى ذلك. غير أن ممارستهم للسلطة بأنفسهم لم تكن ممارسة تامة أو متوازنة، كما أن مدينة البندقية (وهى اسمياً من ممتلكات بيزنطة) لم تكن خاضعة لسلطتهم. وفى جنوب «دول الكنيسة» كانت لا تزال هناك بعض الإمارات اللومباردية (إمارة بنيفانت، وساليرنو، إلخ) وما تبقى من إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية قبل الفتح العربى كان تابعاً اسمياً لبيزنطة التى تحررت منها بعض «الدوقيات» وبصفة خاصة فى المدن النشطة مثل نابولى وأمالفى الواقعة على الساحل التيرانى^(*). وفى القرن التاسع وبداية العاشر تحالف الأماليون فعلاً مع الدول الإسلامية المجاورة وبدأوا فى تحقيق أرباح اقتصادية سنشاهد نتائجها فيما بعد، وذلك فى الوقت الذى كان فيه مسيحيو إيطاليا الجنوبية يقاتلون ضد الغزوات العربية المنظمة انطلاقاً من كالابرا وبارى... إلخ.

وقد توقفت الغزوات فى القرن العاشر، وفى القرن الحادى عشر كان الوضع قد تطور ولن يكون من المجدى أن نستعرض أوضاع كل البلاد، غير أن بعض التدقيقات لن تكون غير

(*) البحر التيرانى: من متفرعات البحر الأبيض المتوسط، تحده جزيرتا كورسيكا وسردينيا فى الغرب وشبه الجزيرة الإيطالية وصقلية فى الشرق والجنوب الشرقى. يتصل فى الشمال بالبحر الليجورى. أهم جزره ألبا. (المترجم).

عديمة البضع بالنسبة لإيطاليا التي أضفى عليها موقعها المتوسطى من وجهة نظرنا أهمية خاصة قد تكون مألوفة كثيراً بالنسبة للقارئ. باستثناء إيطاليا يكفى أن نتذكر أن القوة الرئيسية للغرب كانت «الإمبراطورية المقدسة» التي مارست مع ألمانيا هيمنة تكاد تكون فعلية على الشمال الإيطالى وفى الوسط، وبعد فترة من التعاون الجيد نسبياً مع البابوية الواهنة وجدت الإمبراطورية نفسها أمام الكنيسة الآخذة فى التشدد، وقد وصل الأمر إلى قطيعة كاملة بين السلطتين فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وهو ما سنطلع على بعض نتائجه، وكانت فرنسا بإزاء الإمبراطورية أقرب ما تكون إلى مجموعة من الإقطاعات الكبرى منها إلى مملكة، وقد ظهر ضمن هذه الإقطاعات الدوقيات والكونتيات فى مناطق النورماندى، والفالاندر والأكيتان وتولوز - بروفانس وبعض المناطق الأخرى. وقد قام النورمانديون، وهم ورثة الذين حكموا كثيراً من المناطق بالشمال الغربى لأوروبا، بالهجرة من فرنسا إلى إنجلترا التي قاموا بغزوها فى عام ١٠٦٦، وإلى إيطاليا الجنوبية حيث سنقتفى أثرهم بعد برهة؛ فى حين ذهب أهل الجنوب والبورجون للقتال فى أسبانيا، وهناك قامت الدول المسيحية الصغرى فى الشمال بتوسيع حدودها قليلاً غير أنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. وكانوا عاجزين لوحدهم أن يتباروا مع جيرانهم المسلمين. وعلى الصعيد الاجتماعى كان هذا العصر عصر تكوين النظام الإقطاعى بالمعنى الكامل للكلمة. وبجانبه بدأت الكنيسة بوصفها ديناً وتنظيماً فى النهوض بعد شتاء طويل، وكان من شأن التداخل بينهما أن جعل الكنيسة تميل باتجاه أشكال معينة من الحرب من جهة، ومن جهة أخرى شعر عدد متزايد من الناس بالحاجة إلى الحياة الدينية. وهذه أمور معروفة سقناها على سبيل التذكير فقط حتى نربط بين الوقائع التي سنتطرق لدراستها بعد قليل.

لقد حافظت الإمبراطورية البيزنطية طوال العصور القديمة، وبدون انقطاع، على كل ما كان فى حوزتها سابقاً من مواقع بالمنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، أو على الأقل، على المواقع الرئيسية للمرور من البحر المتوسط إلى البحر الأسود ومن آسيا فى الجانب الأمامى إلى أوروبا. وبعد أن عاشت فترات التصحيح التي قادت جيوشها فى القرن العاشر وبداية الحادى عشر من الدانوب إلى أرمينيا وسوريا^(١)، أصابها الضعف نظراً لمشاكلها الاجتماعية الداخلية وبسبب الغزوات الجديدة كذلك التي جرت سواء على جبهة أوروبا أو آسيا حيث وضعتها الشعوب التركية، الوثنية فى الشمال الشرقى والمسلمة فى آسيا الصغرى، بين فكى كماشة.

ومع ذلك فقد صمدت القسطنطينية والبلاد الواقعة على بحر إيجه كقوة سياسية بارزة وساعدتها مكانتها التجارية والثقافية على تدعيم هيبتها ووسائلها المادية. وقد زاد الوعي المتعلق بهذه القوة من تشدد الكنيسة اليونانية إزاء البابوية التي كانت بدورها فى طريقها إلى تنمية ممتلكاتها، وفى عام ١٠٥٤ انفجر الشقاق الذى تحدثنا عنه آنفاً. آنذاك دخل البحر الأدرياتيكي الواقع بين بيزنطة وإيطاليا، والذى كان مرتعاً للقراصنة الصقلية لمدة طويلة، فى فلك العالم المسيحى واللاتينى خاصة، ولم يعد للصقلية دور نشط ولم تعد تتعرض للعلاقات القائمة بين العالم اللاتينى والإغريقى لأى خطر من جانبهم على الأقل فى الخلفية الشرقية لهذه المنطقة. كما أصبحت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية المقدسة بشكل عام محايدة نسبياً وذلك بعد فترات مد وجزر فلم تعد مصدراً للقلق لا لهذا الطرف ولا لذلك.

ومن المفيد، فى هذا الكتاب على الأخص، أن نفهم جيداً وضع القوى المسيحية فى إيطاليا؛ فخلال الربع الثانى والثالث من القرن الحادى عشر قام النورمانديون بغزو إيطاليا ونزعها من يد بيزنطة واللومباردين أولاً ثم احتلال جزيرة صقلية التى كانت خاضعة للمسلمين. وكان أولئك المقيمون بجانب روبرج جيسكار فى المنطقة البرية من إيطاليا فى حالة حرب باردة أو ساخنة وفقاً للظروف مع الإمبراطورية البيزنطية فيما وراء البحر الأيونى. وقد واجههم الأباطرة اليونانيون باعتمادهم على مدينة البندقية التى كانت بمفردها - وقد غزا الأتراك آسيا الصغرى - قادرة على أن تمدهم بالأسطول الضرورى؛ ومن هنا حصل سنة ١٠٨٢ أو ١٠٨٤^(٢) الامتياز الذى كان له وزنه التاريخى فيما بعد والذى حوّل لاهل البندقية جملة من المنافع فى كل الأراضى البيزنطية بما فيها الإعفاء الكامل من الرسوم، الأمر الذى وضعهم فى أعلى المراتب التجارية فوق كل المنافسين لهم بما فيهم الأمافيين. وفى هذه الفترة لم يكن منافسو النورمانديين وهم يحتلون جزيرة صقلية التى كانت فى حرب مع مسلمى الجزيرة المتلقين لبعض العون من إخوانهم المغاربة يكثرثون بالتوسع على حساب البيزنطيين، فأبصارهم كانت شاخصة صوب العدو المسلم. لكن هذا الموقف لم يدم طويلاً، فبوصفهم سادة صقلية كانوا فى حاجة للدعم من لدن رعاياهم المسلمين وهؤلاء كانوا على استعداد لذلك لأن المغرب وقد مزقه غزو البدو الهلاليين لم يعد فى إمكانه مساعدتهم. وكان النورمانديون شائهم فى ذلك شأن المغاربة يأملون فى إقامة علاقات حسن الجوار والحفاظ على ما تسمح به الظروف من فائدة تجارية مشتركة، ومن المحتمل أن النورمانديين كذلك كانوا يأملون فى

الإبقاء على العلاقات التجارية التي أقامها رعاياهم المسلمين مع مصر منذ زمن بعيد^(٣). هذا المسلك كان يتعارض مع مسلك عناصر أخرى أشد حُباً للقتال سواء من جانب المسيحيين أو من جانب المسلمين. فمن الجانب الإسلامي يلزم التذكير بأن التقصص الاقتصادي في الأراضي الخلفية للمغرب على إثر الغزو الهلالي قد شجع نشاطات القراصنة انطلاقاً من الشواطئ المغربية الشرقية أو من المواقع المتقدمة في بعض الجهات التي استولوا عليها في شواطئ سردينيا، ولم يجد مسلمو شبه الجزيرة الإيبيرية أو جزر البليار غضاضة في الانضمام إليهم. وكان الإيطاليون أنفسهم قد مارسوا القرصنة أحياناً، واستمروا في ذلك، غير أنهم في فترات الازدهار الاقتصادي كانوا يطمحون بصفة خاصة إلى إقامة الأمن في غرب البحر الأبيض المتوسط، تلك كانت وجهة نظر البيازنة وكذلك الجنوبية ولكن بشكل أقل وضوحاً وهم الذين قاموا بحملة بحرية كبرى سنة ١٠٨٨ ميلادية على مدينة المهديّة عاصمة أفريقيا (تونس) التي تم الاستيلاء عليها ولم يشارك النورمانديون في هذه المغامرة التي ما كان لها إلا أن تزيد من قوة الخصوم ضدهم، ولما لم يكن في مقدور البيازنة احتلال هذه المدينة البعيدة بأنفسهم لمدة أطول فقد قدموها هدية إلى دوق صقلية النورماندي الذي رفضها بحيث سقطت هذه المدينة بين أيدي المسلمين من جديد بعد تعرضها للنهب^(٤). ومن جهة أخرى فقد اختارت البابوية، كما نعلم، طوعاً أو كرهاً، الاعتماد على النورمانديين في إيطاليا ضد الإمبراطور الألماني. وهكذا نرى أن هذه البابوية ذاتها، التي كانت بصدد إكمال الفكرة والسياسة اللتين ستصبحان فيما بعد قاعدة الحملة الصليبية، تبشر بالسلام مع المسلمين. وبطبيعة الحال فقد انتهى الأمر بفيكتور الثالث ذي الطبع المتردد إلى مباركة الحملة إلى المهديّة^(٥)، غير أن هذه المباركة جاءت متأخرة جداً عن موعدها بحيث لم تنفع في شيء الجنود الغزاة. وكان جريجوار السابع قد كتب من قبل رسالة لا تزال محفوظة إلى الأمير المسلم في مدينة بجاية بخصوص قضايا ليست ذا بال حيث يقول بوضوح - وهو صاحب فكرة الحرب المقدسة المناهضة للمسلمين - إنه هو والأمير المسلم يتوجهان بالعبادة إلى إله واحد كل على طريقته الأمر الذي يستوجب العيش في وفاق. لقد تبقى عدد قليل من المسيحيين بإفريقيا الشمالية ولم يكن البابا ليحني فائدة تذكر من حدوث أية قطيعة ما.

من الضروري أن نملك رؤية واضحة لما كانت عليه تجارة البحر المتوسط قبل الحملة الصليبية. نحن نعرف أن ثمة خلاف طويل يفصل بين أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن الفتح العربي للنصف الجنوبي لحوض المتوسط قد تبعه تدهور ما وأولئك الذين يعتقدون بأنه قد تبعه

إنعاش للعلاقات الاقتصادية بين أوروبا والشرق، ويمكن أن نوافق على أنه أثناء فترة معينة حدثت اتصالات لكنها ظلت محصورة في بعض المناطق الوسطية مثل علاقات البندقية مع القسطنطينية عبر البحر الأدرياتيكي واليونان وموانئ جنوب إيطاليا مع مناطق الشمال الأفريقي القريب دون أن نتطرق هنا للاتصالات بين أسبانيا المسلمة والغرب المجاور أو بين بيزنطة والشعوب المجاورة. وهكذا كانت البضائع تصل من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق ولكن بطريقة أقل وبكميات محدودة وعبر فترات متتالية. ومن المستحيل الاعتقاد بوجود علاقات بارزة ومباشرة بين الشرق الإسلامي وأوروبا قبل نهاية القرن العاشر^(٧). يبدو فقط أن الفترة التي انتهت آنذاك قد مهدت إلى تحول لا مرد له كما اتضح لاحقاً، ففي العصور القديمة وحتى غداة الغزوات الهمجية على الغرب، كانت الاتصالات الجارية في البحر المتوسط تتم على أيدي الشرقيين وبصفة خاصة السوريين، أما في تلك الآونة فإن مسيحيي الشرق إذا كانوا قد استمروا في الاهتمام بالتجارة في أقصى بلاد الشرق براً وبحراً فإنهم لم يصلوا إلى الغرب، وإنما اليهود والمسلمون المنتمون إلى غرب البحر المتوسط هم الذين كانوا يأتون إلى المشرق في انتظار أن يحل محلهم فيما بعد مسيحيو الغرب^(٨).

لقد تطور الوضع، في القرن الحادي عشر، بل ربما منذ نهاية القرن العاشر، وهو ما يهمننا هنا، فمن الجانب الأوروبي توقفت الغزوات وأصبح في إمكان الناس أخيراً، وقد تحرروا من وطأتها، أن يستأنفوا نشاطهم المعتاد. أما من الجانب الإسلامي فقد أدى غزو الفاطميين لمصر إلى سلسلة من النتائج.

كان الفاطميون يمارسون «إمبريالية» تتطلب شكلاً معيناً من النشاط الاقتصادي من أجل الأرباح التي يمكن تحقيقها والإمدادات التي توفرها. ونظراً لاعتيادهم على الأعمال التجارية مع إيطاليا الجنوب وبصفة خاصة مع الأمالفيين فإنه مما لا ريب فيه أنهم اجتذبوهم نحو الشرق طواعية حتى لا يعتمدوا على وسطاء مغاربة، واضطراً بسبب وحيد وهو وجود بلاط حافل بمظاهر البذخ والترف آنذاك في مدينة القاهرة. وحتى عهد قريب كنا لا نملك غير الانطباعات الذاتية لانعدام الوثائق الدقيقة في هذا الشأن، لكن تأكد لدينا الآن عبر إحدى النصوص أنه في سنة ٩٩٦ ميلادية كان يوجد في القاهرة حوالي ٢٠٠ تاجر من مدينة أمالفي ذهبوا ضحية عقاب شعبي إثر الحريق الذي أصاب أسطولاً بحرياً كان معداً لمهاجمة بيزنطة^(٩). غير أن الوثائق اليهودية العربية في «الجنيزة» بالقاهرة أثبتت أن ملف الحريق قد أغلق وأن التجارة أخذت مسارها من جديد ولم يكن في إمكان الفاطميين أثناء صراعهم مع

جيرانهم فى الشرق أن يحصلوا على الحديد والخشب^(١٠) وهى مواد ضرورية لتسيير مؤسساتهم البحرية وتسليحهم البرى فكان الأماليون يربحون أموالاً طائلة من الإتجار فى المواد التى فى إمكانهم جلبها من مصر، وفى الوقت نفسه من القسطنطينية حيث كانوا يذهبون إليها أحياناً وربما أثناء الرحلة نفسها^(١١).

ومن أجل فهم دقيق للنصوص، من المهم أن نمنع النظر فى دلالة كلمة «روم» وحدها، فهى المصطلح العام الذى يستخدمه الشرقيون للدلالة على التجار المسيحيين الأجانب، من غير أن نستبعد الإشارة إلى مدينة أمانى التى ترد من حين لآخر أو غيرها من المدن، فمن الناحية الاشتقاقية أطلق هذا المصطلح على الرومان، وهم فى تلك الفترة البيزنطيون، ولكنه داخل مصر كان يشمل فى الواقع، حسب السياق والفترة المعنية، كافة التجار المسيحيين الأجانب، أو إن شئنا التمييز، رعايا الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تضم آنذاك قانونياً سكان جنوب إيطاليا مقابل «الفرنجة» وهم رعايا الإمبراطورية الكارولنجية السابقة وتضم إيطاليا الشمالية والوسطى. وبدون أن نستثنى تماماً وجود بعض التجار البيزنطيين فى مصر لا شك أن هؤلاء الروم الذين نتحدث عنهم داخل مصر إبان القرن الحادى عشر كانوا إيطاليين أصلاً. وفى هذه الفترة كان إيطاليو الجنوب يتغلبون على إيطاليى الشمال، وعموماً ليس لهذا الأمر أهمية تذكر. وما هو أهم، وتؤكد وثائق الجنيزة بلا أدنى شك، أن مجيء الروم كان منذ ذلك الحين أحد العناصر الرئيسية فى إقامة التجارة من جهة ومن جهة ثانية تبين أنهم هم الذين كانوا يأتون إلى الشرق لهذا الغرض لا الوسطاء. وليس من قبيل المصادفة إذن أن يعرف الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى أواسط القرن الحادى عشر، سفناً إسلامية ومسيحية غربية بطرابلس فى سوريا بينما لم تكن ترحل من طرابلس آنذاك إلا السفن المتوجهة إلى البلاد الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط^(١٢). ومن هنا نتبين مدى خطأ رأى التقليدى الذى يريد أن يجعل التجارة الغربية «بالشرق»، تبدأ بعد فترة قصيرة من الحملة الصليبية^(١٣). ومن البديهي أن يساهم الازدهار المتجدد للتجارة الإيطالية فى التحويل الجزئى للتجارة من المحيط الهندى والخليج الفارسى إلى البحر الأحمر كما أسلفنا القول. ومما لا شك فيه كذلك أن التقدم التجارى فى شرق البحر المتوسط قد استفاد من العلاقات الطيبة التى أعيدت بين بيزنطة والفاطميين.

ومن الممكن أن يكون توجه الأمانيين نحو مصر قد تدعم أكثر عبر الامتيازات الممنوحة من قبل البيزنطيين لأهل مدينة البندقية التى أبعدوا عنها علانية. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر اضطر مسلمو الغرب أحياناً إلى استعارة السفن المسيحية للذهاب إلى الشرق^(١٤).

لقد كان هذا الازدهار التجارى متميزاً بمقدار تزامنه مع الاختفاء شبه الكامل لأحد المصادر التجارية وهو العبيد. فقبل القرن الحادى عشر، ويدون التطرق إلى العبيد الذين جمعهم المسلمون أثناء غزواتهم فى أسبانيا أو فى جنوب إيطاليا، نجد أنه قد بيع لهم عبيد آخرون بأسبانيا من قبل يهود فرنسا وأهل البندقية فى إيطاليا، فهؤلاء وأولئك كانوا يحصلون على العبيد من بين الشعوب «السلافية» ومن هنا أطلقت عليهم هذه التسمية بأوروبا الوسطى أو البلقانية التى كانت آنذاك شعوباً وثنية (باستثناء التشيك). غير أنه فى حوالى عام ألف اعتنقت الشعوب السلافية سواء داخل البلقان أو فى أوروبا الوسطى والشرقية الديانة المسيحية. ومنذ ذلك الحين لم يعد فى الإمكان مواصلة تهريبهم عبر الدول المسيحية. واستمر المسلمون بطبيعة الحال فى الحصول على العبيد من أسواق أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى وأفريقيا السوداء لكن هذه المرة من غير وسيط أوروبى. بيد أن هذا التحول فى تجارة العبيد من الغرب إلى الشرق لم يكن فى إمكان أوروبا أن تعوضه اقتصادياً إلا بتصديرها سلعاً غذائية بديلة. ولا يظهر أن الأمر كان كذلك فى القرون السابقة فقد تيسر للمسلمين أن يجدوا لديهم قسماً وافراً من الخشب والحديد والقطران مما كانوا فى حاجة إليه، غير أنه من المؤكد أن هذه المنتجات كانت آنذاك بالنسبة إليهم ضرورية للغاية وقد جرت العادة لاحقاً على طلبها من الإيطاليين^(١٥).

أما هؤلاء فكانوا يجلبون من الشرق بضائع غذائية متنوعة، بعضها كانت تأتى من مصر أو سوريا ذاتها وبعضها الآخر، مثل التوابل المعروفة، كان يُنقل عبرها. وضمن هذه المواد ينبغى أن نميز بين مجموعتين لكل واحدة منهما وظيفة مختلفة جداً عن الأخرى : مجموعة منها كانت تستخدم فقط للاستهلاك داخل بلاط الحكام أو لدى الفئات الميسورة من السكان، والمجموعة الأخرى كانت تدخل كمواد أولية ضمن عملية الإنتاج. وكمثال على ذلك حجر الشب الذى سنتوسع فى الحديث عنه خلال فترة القرن الثالث عشر، وقد شهدت بأهميته فى التجارة الدولية إحدى العقود الموثقة بمدينة البندقية عام ١٠٧١، وفى الوقت نفسه بعض وثائق الجنيزة. فمنذ القدم وصناعة النسيج تستخدم هذا المعدن الطبيعى فى الصباغة لتثبيت الألوان، وهو يوجد بوفرة فى البلاد الجافة الواقعة على أطراف البحر المتوسط، ولم يشهد الغرب فى العصر الوسيط ابتكاراً فى هذا الشأن. وقد نتج عن ذلك أن صناعة النسيج على قدر نموها كانت تعتمد فى جزء منها على مواد موجودة فى مناجم بعيدة وأحياناً فى أراض غير مسيحية (كانت هذه المواد توجد قبل القرن الحادى عشر فى إيطاليا وأسبانيا والمغرب بشكل ردىء وبكميات قليلة على وجه العموم).

ولا نعرف إذا كانت هذه الظاهرة قد أصابت من قبل منطقة الفالاندر التى أصبحت فيما بعد فى أمس الحاجة إلى أحجار الشب، وما كان يوجد من هذه المادة داخل الأراضى البيزنطية لم يكن له فى هذه الفترة أى شأن فى التجارة الدولية على عكس ما سيحدث فيما بعد. وفى إحدى الفترات التى لا نستطيع تحديدها بدقة وهى بلا ريب فى بداية القرن الحادى عشر بدأ الإيطاليون يتزودون بأحجار الشب من الصحراء بجنوب مصر؛ فقد وجد فيها بكميات وافرة وبجودة أفضل فيما يبدو مما هى عليه فى غرب البحر الأبيض المتوسط الذى اكتشف آنذاك (فأحجار الشب التى تم اكتشافها فى القرن الخامس عشر بدول الكنيسة لم تكن معروفة آنذاك). ومن المحتمل أن البدو كانوا يجمعون أحجار الشب ويسلمونها إلى الدولة لتسديد الأداءات الضريبية. وفى القرن الحادى عشر كان التجار اليهود، وغيرهم بلا شك، يشترونها من الدولة لبيعها إلى الزبائن الإيطاليين. وقد أدى ظهور هذه العملة الجديدة إلى زيادة استغلال أحجار الشب، التى يحتمل ألا تكون لها فيما مضى أهمية كبرى فى مصر، ودرت أرباحاً طائلة على خزانة الدولة والتجار. ولدينا هنا مثلاً مهماً عن هذه العلاقة الاقتصادية المشهورة خلال فترة تاريخية ضاربة فى القدم^(١٦).

ومن المعروف منذ فترة طويلة أن سياسة مدينة أمالفى، منذ ظهور العرب فى صقلية وجنوب إيطاليا كانت مبنية على التفاهم معهم ولو على حساب إخوانهم فى الدين، وقد نتج عن ذلك منافع جليلة. ولم يكن التوسع التجارى من مدينة أمالفى إلى الشرق إلا امتداداً للموقف نفسه. إن هذه المدينة فى نصوص الجنيزة التى ترجع إلى ما قبل الحملة الصليبية هى المدينة الإيطالية الوحيدة التى ورد ذكرها بانتظام فى معظم النصوص الرومية، وحتى إذا افترضنا أن مصطلح «أمالفى» كان يتضمن بعضاً من غير الأمالفيين فمن البديهي أنه يعنى الغلبة لأهل هذه المدينة. ولا شك أن التجاهل الذى تكشف عن هذه الوثائق إزاء بعض التجار الآخرين كان سببه المصادفة العشوائية للأعمال التجارية التى ذكرت بشأنها أسماء التجار فى مصادر الجنيزة، ويظهر أن ذلك هو ما حدث بالنسبة لمدينة البندقية وهى التى نملك دلائل عن تجارتها مع الشرق الإسلامى وبشكل أقوى مع بيزنطة فى الوقت ذاته. وبودنا أن نعرف ما هى المدن الإيطالية الأخرى التى كانت ترسل مواطنيها إلى الشرق، فربما كانت موانئ بوى وبارى وبرينديسى، لكن هناك حالتان تستحقان فحصاً دقيقاً، أولاهما حالة الصقليين؛ فقد وجدت اتصالات مباشرة لها ما يكفى من الأهمية بين صقلية المسلمة ومصر أو سوريا قبل الغزو النورماندى للجزيرة. وفى القرن الثانى عشر نجد صقليين فى الشرق لا نعرف على وجه الدقة إذا كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود وربما كانوا كل ذلك معاً.

وعلى أية حال فهم الآن رعايا النورماندين، وهو أمر لم يحل دون احتفاظهم بوضع متميز تقريباً، ولا يمكننى هنا إثبات استمرار العلاقات التجارية بين صقلية ومصر أثناء فترة الغزو النورماندى غير أننا سنجد بشأنها دلائل ويبدو فى كل الأحوال أنها أخذت مجراها الطبيعى بسرعة قبل الحملة الصليبية^(١٧).

والحالة الثانية هى حالة موانئ جنوة وبيزا. فنشاط سكان مدينة بيزا فى غرب البحر الأبيض المتوسط كان قائماً بالتأكيد غير أنه لا توجد الآن وثيقة تثبت، فحرق بها أن تنفى، أن بواخر هذه المدينة قد مارست التجارة مع الشرق الإسلامى قبل الحملة الصليبية. وبالنسبة لمدينة جنوة ثمة شهادتين أو ثلاث شهادات عارضة وأقل دقة مما عرف إلى الآن، ويمكن أن تستكمل بشهادات أخرى أدق منها، وهى واردة فى وثائق الجنيزة. مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنهم قد تعودوا ارتياد هذا الطريق منذ بعض الوقت أننا نجد عدداً لا يستهان به من تجار مدينة جنوة بمصر بعد نشوب الحملة الصليبية بقليل وفى فترة كانت مشاركة مواطنيهم فى غزوات الفرنجة على الشاطئ السورى تجعلهم محل شبهة. ومهما يكن من أمر فإن وجودهم إن كان ملحوظاً بشكل جلى فلا يغلب على الظن أنه وصل آنذاك إلى حد أن يتشكك بشأنهم الأماليون، إذ كانوا لا يزالون يسافرون غالباً على متن سفنهم.

ويحتمل أن يكون تغفل البنادقة تغفلاً أقوى حسبما تشهد به بعض النصوص، ويبدو أنهم لعبوا دوراً كبيراً فى تجارة أحجار الشب منذ عام ١٠٧١، ومع ذلك يحتمل أنهم كانوا يوجهون نشاطهم الرئيسى نحو الإمبراطورية البيزنطية التى كانوا يعبرون منها للوصول إلى أنطاكية. بل إن المصادفة أطلعتنا على وثيقة تجعلنا نتثبت من استمرار ارتيادهم لهذه المدينة بعد سقوطها فى أيدي سليمان بن قتلмыш الذى يمكن اعتباره، من زوايا معينة، أحد قادة الإمبراطور البيزنطى.

وخلاصة القول فإنه، ومع مراعاة الأهمية الكبرى التى ظلت لجنوب إيطاليا حتى تلك الفترة، يظهر أن تجارة البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الحادى عشر كانت إجمالاً تتشابه آنذاك مع ما حصل فى القرن الثانى عشر حسب ما تطلعنا عليه وثائق أغنى.

لقد انطلقت أولى المعارك ضد المسلمين فى أوروبا الغربية من طرف جيرانهم المباشرين فى إسبانيا أو إيطاليا الذين كانوا لا محالة يعرفون جيداً خصمهم معرفة مباشرة أو بواسطة سجناء الحرب أو إخوانهم فى الدين الذين عاشوا فى ظل الشريعة الإسلامية، وكما رأينا

سألفاً كانت هناك أيضاً فترات وأماكن شهدت تعايشاً سلمياً^(١٨). وكان أحد الملامح الجديدة للعداوة التي أصبحت تواجه الإسلام بالمسيحية الغربية آنذاك هو تدخل محاربين قدموا من أماكن أبعد من جبال الألب والبرانس والذين لم يكن في مقدورهم تملك أية دراية مباشرة بالإسلام. فماذا كان يعرف هؤلاء الرجال عن الإسلام قبل الاتصالات الكبرى التي حدثت في القرن الثاني عشر؟ ربما ساعد هذا السؤال على فهم الظروف الجديدة للمعركة التي دشنتها الحملة الصليبية.

كان لدى أوروبا المسيحية البيزنطية أو اللاتينية مناسبات قليلة للقيام بأية تجربة تعايش طائفي مشابهة لتجربة العالم الإسلامي، فقد كان للمؤمنين بالكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية جيران «وثنيون» جاهدوا من أجل أن يتحولوا إلى المسيحية بالعمل التبشيري والسياسي، أو قسراً بالسيف انطلاقاً من العالم الجرمانى. وكان البيزنطيون كلما جددوا فتوحاتهم وجدوا في آسيا الصغرى أرمن ويعاقبة وهم من ذوى المذاهب المسيحية المختلفة، وفي القرن التاسع قام البيزنطيون بإبادة البوالة، أو نفيهم منها، هؤلاء البوالة الذين عثروا على ورثتهم لدى البلغار ويتعلق الأمر فيما يبدو بالمناويين الذين قسا المسلمون هم كذلك في معاملتهم لبعض أبناء عموماتهم المقيمين في ديارهم، وقد عامل الغربيون فيما بعد ذويهم (الأليبيين)^(*) بقسوة لا مثيل لها. وكان البيزنطيون على حدودهم الواقعة في بلاد ما بين النهرين أو سوريا قد أدمجوا بعض المجموعات من المسلمين التي ظلت مع ذلك شبه مستقلة فلم تكن تنتمى حقاً إلى الإمبراطورية^(١٩). أما عدد المسلمين المندمجين في الدول المسيحية بالغرب فلم يكن يعتد به قبل أواسط القرن الحادى عشر، وكانت الجماعة الوحيدة المنشقة التي كان يلتقى بها هذا الجانب أو ذاك بصفة منتظمة هي جماعة اليهود التي لم تكن كثيرة العدد، وإن كانت منتشرة في كل مكان تقريباً وفي كل زمان. وقد حافظت في الغرب على نشاط ريفي معين لكنها لعبت دوراً خاصاً في ميدان المهن الحرفية والتجارة في شتى الأماكن تقريباً كما في العالم الإسلامي^(٢٠). وبينما كانت نظرة الناس إليهم نظرة سيئة كما جرت التقاليد بذلك في بيزنطة فقد كان وضعهم في الغرب كما في دول البابوية. وضعاً طبيعياً تقريباً دون أى

(*) الأليبيون أو الكتار : بدعة دينية مسيحية ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر جنوبى فرنسا. قال أتباعها بالثنوية (إله الخير وإله الشر). أنكروا الحرية وبعث الأجساد والكهنوت. وحرّموا القسم والزواج حاربهم ملوك فرنسا بالسلاح حتى سنة ١٢٩٩، ورهبان مار عبد الأحد بالوعظ وممارسة الفقر الأنجيلي- المنجد في اللغة والأعلام - (المترجم).

تميز عنصرى حقيقى رغم سورة الغضب الموجهة تجاههم، ولا نلاحظ مواقف التشدد تجاههم إلا حوالى السنة الألف الأولى. وهو تشدد ربما كان مرتبطاً بالظروف الاجتماعية والاقتصادية وبصورة أكثر مباشرة بالتطور الدينى حيث كان انتشار العقيدة يتخذ منحى قتالياً فى عرف الناس آنذاك. وثمة ملمح له أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا وهو التهمة الموجهة آنذاك فى بعض المدن الفرنسية إلى اليهود بأنهم قد تسببوا فى الاضطهاد الذى مارسه الحاكم بأمر الله فى الشرق كما لو لم يكن هذا الاضطهاد قد مس اليهود والمسيحيين على حد سواء. أضف إلى ذلك أن التزامن بين التطور الحاصل فى الغرب وهذا الاضطهاد هو محض مصادفة مادام أن الأمر يتعلق بحادث عرضى. وقد حصل تشدد كذلك من قبل الإسلام ولكن فى فترة لاحقة وستكلم بشأنه. أما فى الغرب فقد وصل الأمر إلى اقتراف مذابح بالمناطق الريفانية ومتسى أخرى فى جنوب فرنسا أثناء الدعوة الحملة الصليبية.

ابتداءً من أواسط القرن الحادى عشر عرف مجتمعان متميزان، لم يشاركا بحق فى الحملة الصليبية، تجربة إدماج الرعايا المسلمين وذلك لأول مرة، وهما مجتمع أسبانيا الوسطى التى تم استعادتها آنذاك من الدول الإسلامية الأقلية، ومجتمع صقلية التى استولى عليها النورمانديون. ورغم بعض الفروق فإن المناخ السائد فى كليهما كان مناخاً متسامحاً، وقد نهض الرعايا المسلمون بمهام كبيرة بالنسبة للسلادة المسيحيين الذين كانوا يكتفون لهم تقديراً ومن الطريف أن نتذكر التفسير الخاطيء الذى جعل من شخصية «السيد» (*) رودريجو، فيما روى لاحقاً، مهاجماً للمسلمين فى حين أن الشخصية التاريخية، وهو سيد منطقة فلانسيا كان محل التقدير من قبل رعاياه المنتمين للديانتين، ولم يتردد فى التفاهم، بحسب المصادقات مع جيرانه المسلمين ضد خصوم مسيحيين، وأذعنت أرملته أمام تقدم المرابطين، أولئك الأجانب الذين دعوا لمحاربة غيرهم من الأجانب وكانوا غرباء كذلك عن العقلية التى أبان عنها.

والحق أن المحاربة لا تستدعى التعرف على من نحاربه، وحتى خلال القرن الثانى عشر نلمح نشوب منازعات حول المواقف الممكنة التى توحى بها موارد الرسائل المتبادلة بين منظم الحملة الصليبية الثانية وهو القديس برنار، وبيطرس الميجل(**) الداعى لأول ترجمة لاتينية

(*) السيد : من فرسان قشتالة. لعب دوراً خطيراً فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. اسمه الحقيقى رودريجو دياس بيفار. تزوج يمينه سنة ١٠٧٤، وقاتل فى جيش المسلمين والمسيحيين ثم صالح ملكه الفونس القشتالى. قُتل فى محاربة المرابطين سنة ١٠٩٩. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) بطرس الميجل : (نحو ١٠٩٢ - ١١٥٦) رئيس ومصلح رهبنة كلونى فى فرنسا عام ١١٢٢. ترجم القرآن إلى اللاتينية. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

للقرآن. فلا حاجة قط إلى المعرفة أو لعل من الأفضل ألا نعرف أكثر مما يلزم غير أنه ينبغي للمرء أن يضع نصب عينيه فكرة أو فكرتين رئيسيتين وأوليتين تجعل للمعركة مغزى ما، إذ لم يكن المهم آنذاك معرفة عادات العدو التي لم يكن بمستطاع أحد تملكها من غير السكان المقيمين على الحدود أو الرعايا، ولا ثقافته التي ستعترف أوروبا تدريجياً بعظمة شأنها إلى الحد الذي سعت فيه لإدماجها في محيطها، وإنما المهم هو معرفة سبب محاربته؛ أى معرفة خطئه وانحرافه الرئيسى وبكلمة واحدة دينه، فماذا كانت أوروبا تعرف إذن عن الدين الإسلامى قبل نهاية القرن الحادى عشر ؟

من الطبيعى أن نميز بين مظاهر مختلفة. فمعظم كبار كتاب الحوليات الغربيين يعرفون بعض الوقائع البارزة عن الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا وفى إيطاليا وبصفة استثنائية فى الشرق. غير أنها معرفة تتعلق بوقائع عسكرية لا تتضمن أية معرفة أخرى غيرها ولا اعتقد أن بإمكاننا أن نجد فى الفترة المعنية إذا تركنا جانباً الألمان أو الإنجليز، كاتباً فرنسيا يذكر اسم النبی محمد، ومع ذلك ينبغي أن تكون معرفة هذا الاسم شائعة بما يكفى مادام أن أحد علماء اللاهوت الكارولنجيين جعل منه مسيحاً دجالاً لكن لا يبدو أن كتاب الحوليات أو أحداً من الكتاب قد شعر بالحاجة للاستعلام بصدده. بطبيعة الحال كان هناك حجاج قد دخلوا العالم الإسلامى وهم فى طريقهم إلى القدس. غير أن من بين من نملك عنهم روايات فى هذا الصدد هناك برنار الراهب (حوالى ٨٦٥) وهو الوحيد الذى سجل وقائع لا ترتبط بالآماكن المسيحية المقدسة، وإن كنا لا نعرف ما إذا كانت رواياته قد عرفت على نطاق واسع، أما بالنسبة لغيره فإن الأمر يبدو وكأن البيئة المجاورة لهذه الآماكن المقدسة غير موجودة. لابد أن بعض السفراء لدى الكارولنجيين أو الأباطرة الألمان أو السفير المغربى المبعوث إلى بيروت التوسكانى^(٢١) وبصفة خاصة تجار مدينة البندقية وأمالفى وكذلك بعض اليهود قد رووا بعض الأشياء لكن ينبغي الاعتقاد بأن ما روى لم يكن ذا أهمية طالما لم يُسجل شيء منه. وحتى غداة الحملة الصليبية فقد ذهب كاتب فى منزلة جيبير النوجنتى علماً وذكاءً إلى القول إنه لم يتمكن من تعلم أى شيء عن محمد بواسطة ما هو مكتوب».

وقد رأينا مزاعم مسيحيى الشرق حول اطلاعهم على الإسلام^(٢٢)، وبالأحرى مسيحيى الغرب الذين لم يخطر على بالهم قط استشارة المسلمين فى هذا الشأن على أنه حتى الكتابات التى اشتملت على المعلومات، الصحيحة أو الخاطئة، ظلت غير معروفة فى الغرب حيث لم تكن تصل إليه سوى الشائعات الشفاهية. ونظراً لنقص المعلومات المستقاة مباشرة من بلاد

الإسلام فقد ترجم المكتبي أناستاس فى إيطاليا الحوليات البيزنطية لتيوفان، وفيها يشكل الفصل المخصص لمحمد كل ما كان معروفاً بشأنه فعلاً قبل الحملة الصليبية. وقد عُرِفَت هذه الترجمة من قبل بعض كتاب الحوليات اللاحقين، لكن لم يعلم بها أحد فيما يبدو خارج إيطاليا قبل الحملة الصليبية.

كان من الممكن إذن أن يحصل المرء فى روما على بعض التصورات المتعلقة بالأنساب العربية التقليدية وبشباب محمد وزواجه وبمعارف دينية أمكنه اكتسابها باتصاله مع اليهود والمسيحيين، وأن يعتقد أنه كان مصاباً بالصرع(*) وأن راهباً أبعد عن القسطنطينية كان قد نصحه أن يتخذ نوباته علامة على وحى النبوة تعزية لزوجته، وأن اليهود شجعوا دعوته لاحقاً بدافع الكراهية للمسيحية. كما يمكن للمرء أن يعرف كذلك أنه أمر بالحرب المقدسة، وأنه فى النهاية كان يتخيل أنه يتوجه بالعبادة للإلهة فينوس(**) ولا شيء يسمح بافتراض أن البابوية لم يصلها مصدر شرقى آخر. صحيح أن جريجوار السابع يشير فى خطابه إلى أمير بجاية إلى الإيمان المشترك بالإله نفسه والأصل الإبراهيمى للديانتين وهو أمر لافت للنظر غير أن جوفروا مالاتيرا كان على اقتناع بأن المسلمين يعبدون وثناً يرمز لمحمد مع أنه قد عاين سابقاً منشآت الاستحمام والحمام الزاجل لدى المسلمين(***) . ويحق لنا أن نتصور أن مسيحيي أسبانيا كانوا على معرفة أفضل بالمسلمين حيث عايشوهم عن قرب خلال أجيال ومع ذلك لم يذكر حسب علمى حتى الآن سوى نص واحد جدير بالذكر هو نص أولوج، وعييه أنه صادر من «شهداء قرطبة» (القرن التاسع) وهو وسط كنسى متشدد، مما يدل على أنه وسط خارج عن المؤلف. لكنه يطلعنا على الأقل بما كان يروى عن محمد فى الحرب الكلامية المعادية للإسلام بإسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أن «أولوج» فى حديثه عن الإسلام ونبيه لم يرجع لآى نص إسلامى ولا مسيحي متعلق بميدان الإسلام وإنما رجع إلى مخطوط غير محدد المصدر، قرأه هو نفسه فى بامبلونا(****) أى فى منطقة تشهد حرباً سياسية بين العقيدتين. وعنه نعلم

(*) أثرت ترك هذه الفقرة كما هى، لأننا لا نملك الحق فى الحذف أو التغيير فى نص مترجم، ولأنها من جهة أخرى تكشف إلى أى مدى وصلت عقلية أوروبا العصور الوسطى فى جهلها وعدائها لعالم الإسلام ورمزه الأول. على أن مثل هذه المزاعم حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لازالت رائجة فى بعض النواثر الفكرية إلى يومنا هذا (المترجم)

(**) فينوس: إلهة الحب والجمال عند الرومان.

(***) أى أن الرجل رغم اطلاعه على الأوضاع عن قرب فإنه يملك وعياً زائفاً بها يصل إلى هذا الأمر المذكور. (المترجم)

(****) بامبلونا: مدينة فى شمال إسبانيا احتلها فيما مضى القوط والعرب. (المترجم)

إذن أن محمداً قد ظهر فى السنة السابعة من عهد الإمبراطور هيراقليوس سنة ٦٥٦ من تاريخ أسبانيا، وسنستأنف الحديث عن حويات كاتب قرطبة المجهول، وبغض النظر عن التعبيرات غير المهدبة التى رصع بها أولوج خطابه فإننا نقرأ فيه بعد ذلك أن محمداً لما كان تاجراً شاباً فى خدمة أرملة شارك فى اجتماعات مسيحية، بحيث بدا «للعرب الأجلاف» بمظهر العالم. «ولتأجج عاطفته تزوج من ربة عمله وفقاً للقانون الجاهلى». ثم تمثلت له روح الضلال فى شكل نسر فصيح اللسان ادعى انه الملاك جبريل، وحينئذ بشر محمد بأشياء معقولة ظاهراً مثل : التخلّى عن عبادة الأوثان وعبادة إله معنوى غير مادى فى السماء وشن الحرب على الكفار وحينها قتل العرب شقيق الإمبراطور واستولوا على دمشق (نجد هذا القلب نفسه للتسلسل الزمنى فى حويات كاتب قرطبة المجهول) وتسهيلاً للحفظ ألف محمد حكايات عن بقرة حمراء وعنكبوت وهدهد وضفدعة وعن يوسف نفسه وزكرياء ومريم العذراء. كما خطف زوجة جاره زيد الذى وهبه إياها لتجنب النبى ارتكاب الخطيئة. عند ذاك مات وقد تكهن بانبعائه فى اليوم الثالث. ولما لم ير الشهود شيئاً من ذلك خشوا من أن يكون حضورهم سبباً فى ذلك فانقطعوا عن حراسة الجسد فاكلته الكلاب التى صدر قرار إثر ذلك بقتلها جميعاً وينتهى المؤلف قائلاً إنه يمكنه أن يسهب فى القول إذا... إلخ.

يتعرف المرء فى هذا العرض، بالإضافة إلى التفاصيل غير المألوفة على روايات تناقلتها الأدبيات الشرقية السجالية مع فروق بسيطة وتلميح إلى سور القرآن مع عناوينها، غير أن النبوة السائدة فى الحويات المسماة بحويات المؤلف القرطبى المجهول كانت أكثر موضوعية، وقد ألفت بعد الفتح العربى لإسبانيا بأربعين عاماً، انطلاقاً من معلومات صادرة فى جزء منها من الشرق. وقد ظلت هذه الحويات معروفة من طرف الأوساط الإكليروسية الأسبانية عبر العصر الوسيط بكامله غير أن ما دونته عن نبى الإسلام كان من الاقتضاب بحيث لا يضاهى الفصل الذى كتبه أولوج. وإذا كان هذا هو وضع «العلم» فى إسبانيا وفى إيطاليا فيمكننا أن نفكر فيما كان عليه الأمر فيما وراء جبال الألب والبرانس حيث ظلت هذه الروايات غير معروفة. وعلى غير المؤلف فقد استطاع أحد الرجال ممن كانت لديهم علاقة مع «المور»(*) وهو القديس مايول الكلونى من جماعة جارد فرينى، وكان سجيناً لهم، أن يتعلم منهم أن المسلمين

(*) أطلقت هذه الكلمة خلال العصر الوسيط على المسلمين الذين فتحوا إسبانيا، وإن كانت من قبل قد أطلقت من قبل الرومان على الشعوب المستقلة بذاتها والتى كانت أنماط معيشتها وتقاليدها خارجة عما ألفت الشعوب التى تضع نفسها فى موقع الصدارة من الحضارة والتقدم الفكرى والخلقى. (المترجم)

يعظمون أنبياء اليهود والمسيحيين ويكرمون ذرية إبراهيم، وهو ما كان يرويه لزمائمه المؤرخ الكلونى البورجونى راؤول جلابير. وكان هذا المؤلف ذاته على علم بالاضطهاد الذى مارسه الحاكم بأمر الله كما كان مطلعاً على العلاقات التى حافظ عليها يهود أوروبا وأورليان حسب قوله مع العالم الإسلامى. لقد اتهم هؤلاء اليهود كما رأينا سابقاً بأنهم كانوا وراء الاضطهاد الذى حصل وذلك حينما أشعروا الخليفة بخطر الغزو المسيحى (وهذه إشارة مهمة فى حد ذاتها سواء تضمنت تلميحاً أم لا إلى الانتصارات البيزنطية السابقة أو المشاريع المبتدئة للبورجونيين بإسبانيا) وقبل ذلك كان بعض الحجاج أمثال الإنجليزى أركولف (حوالى عام ٦٧٠) وويليبالد (حوالى عام ٧٢٥) ثم الفرنسى برنار الكوربى (حوالى عام ٨٦٥) قد أعطوا معلومات متحفظة عن شروط السفر إلى الشرق غير أن الشخص الأول هو وحده الذى حظى ببعض الشهرة لأن «بيدا المعظم» قد أعاد نشر معلوماته تلك، وكان الأخير هو وحده الذى تحدث قليلاً عن المسلمين، ولا يعرف كاتب الحوليات «فريديجير» من التاريخ الإسلامى إلا القليل عن الغزوات التى وقعت فى الغرب ومع ذلك فقد اهتم بما ورد من معلومات عن الشرق على نحو ما يظهر فى الانتباه الذى أولاه للأتراك منذ القرن الثامن (٢٥).

ولعل ذلك هو مبعث عنايته بالأصل الاشتقاقى للفظى «هاجرى» و«سارى» نسبة لهاجر وسارة. وقد اطلع على النبوءة المتصلة بدمار الإمبراطورية البيزنطية على يد شعب مختون من خلال الخطاب الذى كتبه هيراقليوس إلى داجوبير (وربما لهذا السبب قام هذا الأمير بطرد اليهود شأنه فى ذلك شأن الإمبراطور وفقاً لما يرويه صاحب كتاب حياة داجوبير فى القرن التاسع وهو من الكتاب المتأخرين)؛ وهذه القصة تعود، فيما يبدو، إلى أقباط مصر وربما تم نقلها بعد ذلك من طرف الحجاج. غير أن الكاتب قام بربطها بالاضطهاد الواقعى لليهود فى القسطنطينية وفرنسا. كانت هذه هى كل المعلومات السائدة حتى نهاية القرن الحادى عشر حيث كان الكتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع بأن المسلمين كانوا يعبدون الثالوث المكون من أبولون وماهون وتيرفاجانا... ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى تفسير معكوس لبعض التعابير الغامضة.

ومن الممكن أن نتصور أن توسع عمليات الحج إبان القرن الحادى عشر قد أحدث بعض التغيير، وتشهد بذلك قصيدة أسطورية مفصلة خصصها المدعو هيلديبر اللافاردانى لمحمد، وقد ساد الاعتقاد لمدة طويلة أنها كتبت بعد الحملة الصليبية الأولى، غير أنها فى الحقيقة سابقة لها كما تفيد الدراسات الصادرة حديثاً وإنى لست مؤملاً للتدخل فى نقاش لا

يقطع بصحته أى دليل. والأمر الوحيد المؤكد هو أن هذه القصيدة حتى لو وجدت حوالى عام ١١٠٠ فهي لم تكن معروفة من طرف من كانت ثقافته فى مستوى ما وصل إليه جبير النوجنتى كما أنها لم تذكر فى أى مكان آخر حسب علمى. وغاية ما فى الأمر أن هذه القصيدة من النوادر التى لم يتبعها شىء وأعتبر أن هذا الصمت حجة تضاف إلى هذا الملف^(٢٦). ويبقى أنه فى فرنسا ولاسيما المنطقة الشمالية منها لم يكن لأحد تصورات عن محمد ولا عن الإسلام وأن العالم الإسلامى بصفة عامة لم يكن لديه وجود واقعى فى أذهان الناس إلا فيما يتصل بإسبانيا. وفى بعض الروايات عن الحملة الصليبية الأولى كانت كلمة «أسبانيا» هى التى تدل على العالم الإسلامى فى مجمله^(٢٧).

كل هذا يعنى أن الأوساط التى كانت ستخرج منها الحملة الصليبية هى الأوساط التى كانت معرفتها بـ«العدو» أشد تفاهة وضعفاً^(٢٨). أما رحلات الحج التى نسبتها الروايات المختلفة تارة إلى جودفروا البويونى، وتارة إلى ريمون الصنجيلى فقد كانت ملفقة كذلك، وربما كان بوهيمون التارنتى هو الوحيد الذى كان يعرف شيئاً ما عن هذا الأمر أما عن جهل الشرقيين بالغرب فكان أقل خطورة فى هذه الحالة طالما لم يكن الشرقيون هم الذين سيقومون فى بلاد الغرب بل العكس، وعلى أية حال ينبغى أن يقارن مع جهل الغربيين بالشرق إذ كان أشد صخباً إذا جاز القول بحيث سجلت دلالاته فيما حصل من ضعف فى العلاقات التجارية مع أوروبا اللاتينية - الجرمانية انطلاقاً من الشرق^(٢٩).

أما فيما يتعلق بالمسلمين، فباستثناء بعض التقاليد شبه الأسطورية عن روما وبعض المعطيات عن شبه الجزيرة الإيطالية فإن الأدبيات الجغرافية أو التاريخية عندهم، قبل الحروب الصليبية لا تتضمن شيئاً آخر غير ما نُقل عن القدماء (بطليموس) أو ما كان مصدره إسباني عربى ولو أن الأمر يتعلق أساساً، فيما يتصل بهذا الصنف الأخير، بحكايات لرحالة يهودى عربى اللسان عاش فى القرن العاشر، وقد استخدمت هذه الحكايات بعد ذلك بقرن من الزمان من طرف المؤرخ المغربى البكرى ولم تستخدم فى الشرق فى حدود معرفتنا إلا بعد ذلك بكثير من طرف القزوينى فى نهاية القرن الثالث عشر^(٣٠). وحتى فى عنفوان الحروب الصليبية فإن الكتابين العربيين الوحيديين اللذين يمكن للمهتمين أن ينهلوا منهما معارف عن الغرب المسيحى هما للإدريسى الذى عاش فى ظل النورمانديين بصقلية فى القرن الثانى عشر، وابن صاعد الأندلسى وهو مسلم هاجر إلى الشرق، وهما بمثابة الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. وما عدا ما أورده المسعودى فى فقرة مختصرة حوالى سنة ٩٥٠^(٣١) فإن أول مؤرخ مسلم اهتم بمعرفة

بعض تاريخ الفرنجة هو رشيد الدين(*) وذلك حوالى سنة ١٢٠٠ وكان يهودياً ثم أسلم وصار وزيراً فى الإمبراطورية المغولية وهى إمبراطورية دولية جمعت بين مختلف الطوائف الدينية، على أنه كان من العسير حقاً أن يتعلم المرء شيئاً من خلال الحوليات اللاتينية لراهب بولندى ربما كان من أصل أرمنى ظل بدون منافس حتى العصور الحديثة.

لقد رأينا من وجهة نظر طائفية بأى شكل كان يتعرف المسلمون على المسيحيين بفضل رعاياهم المسيحيين وجيرانهم البيزنطيين. أما عن العالم المسيحى اللاتينى فى عنقوان الحروب الصليبية فلم يكن يعرف شيئاً، وبرغم التجزئة السياسية فقد كان للمسيحيين والمسلمين وعى معين بشخصياتهم التى تميزهم عن بعضهم البعض وتجعلهم بشكل عام فى موضع التعارض، ومع ذلك فإن الصراعات القائمة بين الكنائس المسيحية المختلفة وانزواء الكنائس الشرقية قد حصرت هذا الوعى بالنسبة للأوروبى العادى فى الكنيسة الرومانية مع اتجاه معين نحو الكنيسة البيزنطية التى كانت تابعة لها مبدئياً. ولا يبدو أن الكنائس الشرقية التى كانت منفصلة عقائدياً ومحمية من التدخلات الخارجية بفعل الهيمنة الإسلامية قد سعت يوماً للبحث عن تجديد الصلة مع روما، باستثناء ما فعله أحد الكاثوليكين الأرمن بوقت قليل قبل الحملة الصليبية وذلك ضد بيزنطة، لكن لم تكن له أية نية فى طلب النجدة العسكرية. وكان الإحساس بالتضامن العميق لدى المسلمين مع مجموع «الأمة» إحساساً أقوى بالرغم من تعدد الفرق وغياب السلطة العقائدية رسمية، وكان القانون يميز بين أراضٍ خاضعة لدار الإسلام حيث كانت تتم حماية الذميين وأراضٍ خارجة عنها حيث تسرى أحكام الحرب أى الجهاد ضد الكفار.

* * *

ويمكن ان ندرك ما للحج إلى الأماكن المقدسة التى شهدت آلام المسيح وأحداث أخرى

(*) رشيد الدين (حوالى ١٢٤٧ - ١٣١٨) له عدة مؤلفات أشهرها «جامع التواريخ». وهو عبارة عن تاريخ للمغول بدأ فى تدوينه استجابة لطلب غازان محمود خان ولذا يعرف الكتاب أيضاً باسم «تاريخ غازانى». ثم بعد موت غازان قام بإستكماله ليصبح تاريخاً عاماً للعالم الإسلامى ويشمل الكتاب على جزئين : الأول تناول تاريخ القبائل التركية والمغولية مع الإشارة إلى الأساطير المتعلقة بهم وكذلك عصر جينكيز خان وأسلافه أما الجزء الثانى فيحتوى على مقدمة منذ بداية الخلق ثم الملوك القدامى والأسرات الحاكمة فى فارس وتاريخ العالم الإسلامى حتى سنة ١٢٥٨ كذلك تكلم عن الهند والصين وتناول تاريخ الفرنجة فى غرب أوروبا. انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة : رشيد الدين - طيب (المترجم).

محفورة فى ذاكرة المؤمنين، من قيمة عاطفية عظمى بالنسبة إليهم. وأكثر من ذلك كانت العقلية السائدة تعزو لهذه الأماكن المقدسة ولرفات القديسين قيمة ذاتية خاصة تخلص الإنسان من الخطايا والأمراض وتستجيب لأدعيته. وفوق ذلك فإن مما يجدر ملاحظته أن التعلق بأماكن الحج لم يكن مرتبطاً بالضرورة بوفرة الذكريات التاريخية؛ فالشهرة شبه الفجائية التى نالتها هذه المعجزة فى البداية جعلت للقديس جاك الكومبوستيلى مكانة مضارعة لشهرة مدينة القدس ذاتها وذلك راجع بلا ريب إلى مهارة أتباعه من الرهبان من غير أن يقع أى حدث وارد فى الكتب المقدسة. إضافة إلى ذلك ينبغى التأكيد على أن الخلط بين السلطتين الأخروية والسياسية لم يحدث قط فى ذهن المؤمنين وقلمنا نازع أحد فى الغرب أولوية روما وإن لم تكن مزاراً للحجاج بشكل ملحوظ. وفى المقابل لم يطمع القديس جاك الكومبوستيلى فى أية سلطة قيادية داخل الكنيسة. وعلى الرغم من بعض المطالب الناتجة عن الكبرياء الذاتى فإن رجال الدين اللاتينيين لم يتصوروا قط أن تكون مدينة القدس نفسها فى منزلة روما، ومع ما لنداء الأرض المقدسة من قوة روحية فلم يؤخذ قط مأخذاً إلزامياً، وحتى القرن الحادى عشر كان الحج بوصفه ظاهرة جماهيرية واقعة حديثة وقبله كان يتم بأعداد قليلة جداً وبأشكال فردية. ومن المؤكد أن توسع حركة الحج إبان القرن الحادى عشر كان يرتبط بانتشار الإيمان كما يرتبط كذلك بالتسهيلات الجديدة الناتجة عن تحول شعوب أوروبا الوسطى إلى المسيحية وانتعاش التجارة بالبحر الأبيض المتوسط^(٣٣).

يمثل الشرق من خلال هذه اللوحة خطوطاً متوازية غير كاملة إلا أنها متواترة. فالمسيحية، على الأقل، بعد الفترة الآبائية قد طورت مزارات محلية أو فى أماكن بعيدة من غير أن يكون لأى منها أهمية خاصة. وبالطبع كانت مدينة القدس تجتذب الناس من كل الكنائس، ويصفه خاصة الكنائس الشرقية المتأثرة بمعجزة النار المقدسة^(٣٤) فى أعياد الفصح لكنها لم تكن مقصداً لعدد كثيف من الحجاج، ولا حائزة على امتيازات خاصة^(٣٥). فلا يبدو أن الناس قد اغتاظوا بشدة من الهيمنة السياسية لغير المسيحيين على الأماكن التى شهدت حياة المسيح وآلامه.

كان للعرب، قبل الإسلام، مزارات من بينها مكة التى كانت مزاراً أساسياً فى السابق، وكان الحج إليها يقع فى تاريخ محدد، فكان مناسبة للالتقاء بين الرحل وتموين السوق. وقد قام محمد بأسلمة الحج ولم يلفه ولو أن اعتماد السنة القمرية قد منع عنه التسهيلات الزراعية - المناخية.

وبالطبع لقد غير انتشار الإسلام فى العالم معطيات هذا الأمر. فنحن نجهل ما كان عليه الحج فى القرون الهجرية الأولى. أما فيما بعد صار واحداً من أعظم اهتمامات الأنظمة الحاكمة جميعها ومكاناً للقاءات الدولية فى تاريخ محدد. وهو فى الوقت نفسه إلزامى وغير إلزامى بمعنى أنه فريضة سنوية بالنسبة للأمة ولن استطاع إليه سبيلاً من الأفراد مرة فى العمر، ومن لم يستطع وهو قادر عليه ساعد عليه الآخرين أو استناب عنه غيره. ولم تكن مكة قط عاصمة إسلامية ولم يتضمن الحج إليها أى مقصد من هذا النوع. وقد حفظت جيداً الحجر الأسود الذى يفترض أن يكون إبراهيم قد عرفه ولكن لم يدفن فيها الرسول ولا أحد من أصحابه الأكثر شهرة. كان العبور يتم من مكة إلى المدينة التى كانت عاصمة الأمة خلال نشأتها وفى عهد الخلفاء الثلاثة وحتى هناك لم يكن الأمر يتعلق بعبادة رفات القديسين ولا باستثارة المطامع السياسية^(٣٦). فإقامة الحج الأكبر لم يكن مانعاً لتنظيم رحلات حج صغرى إقليمية وأحياناً بين مختلف الطوائف^(٣٧). أما مدينة القدس فقد تنوعت المكانة التى احتلتها فى سلم المقدسات بتنوع الأزمان.

لقد حافظ يهود الشرق والغرب هم كذلك على ارتباط عاطفى بهذه المدينة التى يوجد بها هيكل سليمان^(٣٨)، ومن كانت لديهم الاستطاعة فإنهم كانوا يتوقون للحج إليها مرة فى حياتهم حتى ولو كان ذلك عبر رحلاتهم التجارية. ومن المهم أن نلاحظ اتساع حركة الحج لديهم، حسبما يبدو، أثناء القرن الحادى عشر مثلاً كان الأمر لدى المسيحيين مع مراعاة الفروق بينهما فى هذا الشأن. زد على ذلك أنهم كانوا يعرفون تقريباً أن إخوانهم فى الدين بالشرق كانوا أرفع درجة منهم ثقافياً وعقائدياً فكانوا يأملون زيارتهم واستشارتهم. وربما حصل فى القرن الحادى عشر نوع من الإحياء اليهودى فى البحر الأبيض المتوسط الغربى فى إطار التجارة بين الطوائف بالمغرب الشرقى وصقلية وجنوب إيطاليا، ولعله اتخذ إلى حد ما مظهرًا تبشيريًا كما قد تشهد بذلك قصة هذا الفارس النورماندى عبّاديه الذى اعتنق اليهودية وقضى بقية حياته فى الشرق وسط إخوانه فى الدين فى فترة الحملة الصليبية الأولى تقريباً. غالباً ما قيل إن الغزو التركى قد ألحق ضرراً بالحجاج، لكن ثمة ما يدعو لإبداء كل التحفظات التى تبينها فى هذا الشأن.

الفصل الرابع

الغرب عشية الحرب الصليبية

بدايات الحملة

لن أسهب في الحديث عن تطور مسلك الكنيسة فيما يتعلق بالحرب المقدسة أو بالحرب بصفة عامة في أواسط العصر الوسيط^(١)، فهو أمر أجاد المختصون في هذه الحقبة توضيحه منذ فترة. ومن غير أن نرجع إلى بداية تاريخ المسيحية يمكن القول بأن الكنيسة قد سلمت السلطة الزمنية للإمبراطورية طوال فترة بدايات العصر الوسيط واقتصرت على تشجيع أو مباركة تلك الحروب التي اقيمت دفاعاً عن العالم المسيحي بل وحتى لتوسيع مجاله. غير أنها كانت قد انتهت آنذاك إلى فكرة مؤداها أنه إذا كانت السلطة الزمنية قاصرة أو بالأحرى معادية فإنه يحق للكنيسة بل من واجبها أن تقرر شن الحروب التي لم يكن رجال الدين بطبيعة الحال يقاتلون فيها بأنفسهم وإنما كانوا يصاحبون الجيوش فقط. وبارتباط مع هذه الفكرة الجديدة تطورت كذلك فكرة كان قد صرح بها من قبل جريجوار السابع وكانت فكرة معتادة بالنسبة لرجال الكهنوت الذين اختيروا بكثرة من داخل طبقة السادة الإقطاعيين، وهي أن الخدمة العسكرية يمكن أن تؤدي في سبيل الكنيسة أو في سبيل الرؤساء الدنيويين، وهكذا كان يمكن للحروب الداخلية المدمرة التي سعى سلام الرب وهدنة الرب^(*) لمحاصلتها أن تلغى أو أن تتحول في أضعف الأحوال إلى حروب في سبيل العقيدة. لقد كان هذا التطور صفة مميزة للغرب إذ كان غريباً عن العقلية البيزنطية. صحيح أن البيزنطيين خاضوا حرباً ضد المسلمين حيث صاحب الصليب حملاتهم التي كان لها أحياناً لدى عامة الناس قيمة يشوبها شعور تقديسي عميق^(٢). ومع ذلك فقد كان ثمة اختلاف جوهري جعل روما تقترب دائماً في مسلكها من الإسلام، وفي الواقع كانت هناك في الغرب فكرة منحها البابوية صفة رسمية وهي أن المشاركة في حرب مقدسة هو إحدى عوامل الخلاص بالنسبة للمحارب بينما لم تمنح الكنيسة البيزنطية لفكرة الحرب المقدسة كل قوتها قط. إضافة إلى ذلك بما أنه لا يوجد فصل بين السلطة الزمنية والروحية في الشرق بالكيفية نفسها التي يوجد عليها في الغرب فإن مفهوم حرب منظمة من قبل الكنيسة لم يكن يظهر فيه بالطريقة نفسها.

(*) (سلام الرب وهدنة الرب) عندما كانت الحروب الإقطاعية تمزق أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال تيارين أساسيين هما سلام الرب وهدنة الرب. واستهدفت هذه الحركة تقييد الحروب الإقطاعية في أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دوراً مهماً في حركة السلام هذه واستخدمتها كوسيلة لزيادة سلطاتها حيث كونت لنفسها فرقاً لفرض السلام بالحرب ضد من ينتهكون هدنة الرب وسلام الرب، وكانت هذه خطوة مهمة نحو عسكرة الكنيسة الكاثوليكية وإرهاصاً لدورها الكبير في الدعوة للحروب الصليبية كما يذهب إلى ذلك د. قاسم عبده قاسم الذي ترجم نصين لمعاهدتين إحداهما تتعلق بسلام الرب والأخرى تتعلق بهدنة الرب. راجع في ذلك: الحروب الصليبية - نصوص ووثائق ترجمها وعلق عليها د. قاسم عبده قاسم - العربية للدراسات والنشر. (المترجم)

ومن جهة أخرى إذا كان الإمبراطور يوحنا تزمسكيس (ابن شمشقيق)^(*) في القرن العاشر قد دفع بكتيبة عسكرية استطلاعية نحو القدس (بدون الوصول إليها ومن غير إصرار كبير على الرغم من إصرار منشوره الدعائي) فإن المؤكد أن ما كان يهم بيزنطة هو وجود أحود مانع على الحدود الممتدة من شمال سوريا إلى أرمينيا لا السيطرة على المدينة المقدسة من خارج المركز. أجل لقد كانت القدس مدينة مقدسة غير أن ذلك لم يكن يستتبع أن تكون تحت سلطة المسيحيين فقط، ولعل تعصباً إسلامياً قد عجل بطرح هذا السؤال، إلا أنه في الواقع لم يكن وارداً فسيادة المدينة على الصعيد الديني لم تكن قد امتدت بعد في شكل التزام سياسي. من المؤكد أن بيزنطة، على صعيد المبادئ، لم تقبل أبداً أن يكون لفقدانها بعض أراضيها دلالة على أنها لم تعد تنتمي إليها إلا أن ذلك في الواقع لم يكن ينطبق إلا على مقاطعاتها المفقودة حديثاً لصالح الأتراك بالنسبة للحدود القائمة في القرن الحادي عشر وليس بالنسبة لفلسطين التي فقدت منذ الفتوحات العربية في القرن السابع.

لقد تطورت في الغرب فكرة الحرب المقدسة وممارستها تحت رعاية البابوية. ومع حسن معرفتنا للوقائع فإن من المجدي تحديد بعض منها ولاسيما التذكير بأن أخذ المبادرات في هذا الشأن تم قبل موقعة ملاذكرت في آسيا الصغرى تجاه الأتراك وبالأحرى قبل وصول المرابطين إلى أسبانيا. أما في القرون السابقة فإن هجوم المسلمين هو الذي دفع المسيحيين بأسبانيا أو البابوية في إيطاليا إلى حمل السلاح أو الحث على حمله. لكن الخطر الإسلامي، في أواسط القرن الحادي عشر، قد تضاعف كثيراً وشارف على الزوال فتفككت الدول الإسلامية في أسبانيا وأفريقيا الشمالية وصقلية. ولتخفيف أثر الدمار الذي أحدثه الغزو الهلالي عكف المغاربة على ممارسة القرصنة بحدة متزايدة. وكان الهدف الذي توخاه البيازنة والجنوية من حملة المهديّة (***) عام ١٠٨٨، هو تدمير أحد أوكارهم الرئيسية. لكننا لا نجد أن البابوية قد أولت اهتماماً فعالاً ومستمرّاً لهذه الحلقة من الصراع المعادي للمسلمين. لعل جريجوار في مراسلته الودية مع أمير بجاية(***) كان يرمى إلى تقوية التحالف معه ضد أبناء عمه المعادين

(*) يعرف يوحنا تزمسكيس في الأدبيات العربية باسم ابن شمشقيق، دخل دمشق والناصرية وبيروت بين عامي ٩٧٤ - ٩٧٦ ومات مسموماً على يد خلفه. (المنجد) - المترجم.

(**) توجد بلدة المهديّة على البحر المتوسط في تونس، بناها المهدي عبيد الله، لجأ إليها الزيريون هرباً من غزوات الهلاليين، احتلها النورمانديين عام ١١٤٨، أصبحت مركزاً للقرصنة.

(***) بجاية : مدينة ساحلية ميناء في الجزائر. كانت في القرن الخامس مدينة منيعة بحصونها التي شيدها الفاندال... (المنجد في اللغة) - المترجم.

له، وهم الزيريون في تونس الذين كانوا يساندون مسلمي صقلية، غير أن موضوع المراسلة كان ينصب بالخصوص على وضع الجزء المحلي الصغير للعالم المسيحي وربما كان القصد الخفي منها بعض التجار الإيطاليين المرتبطين بالكُرسي البابوي^(٤).

ولم يكن الجهد الأول والأكبر للبابوية ضد المسلمين يسير في هذا الاتجاه. وهنا كذلك نعثر من جديد على السياسة النورماندية للبابوية.. فحينما تم أول تفاهم بين النورمانديين والبابوية عام ١٠٥٩، قام النورمانديون بإهداء هذه الأخيرة أراضٍ كانوا يمتلكونها أو يملكون حق غزوها، أي الأراضي التي كانوا يستهدفون أخذها من أيدي المسلمين في صقلية إضافة إلى الأراضي التي انتزعوها من بيزنطة، وفيما بعد عندما صار روجيه الأول سيداً فعلياً على الجزيرة الكبرى، حصل على منصب مندوب بالكُرسي البابوي بديلاً لأحد رجال الدين خلافاً لما جرت عليه العادة وعلينا أن نستخلص من هذه القصة أولاً وقبل أي شيء أن البابوية كانت تبارك مشروع حرب هجومية ضد الإسلام (أو مشروع هجوم مضاد مؤجل) من جهة ومن جهة ثانية كانت تسعى لتأسيس شبكة من الإقطاعيات الدنيوية التي كانت على سعتها تغتصب منطقة النفوذ التي ظلت إلى ذلك الحين مخصصة للإمبراطورية. وبالإضافة إلى ذلك فإن معاملة المسيحيين اليونانيين في جنوب إيطاليا رغم ما تحلت به من تسامح فعلي فقد ألحقوا بروما على الصعيد التنظيمي وكان استقرار النورمانديين يعنى بالطبع بالنسبة للكنيسة الرومانية أن تقدماً قد تحقق.

وتتقارب هنا الملاحظات بالنسبة لاسبانيا. ففي البداية لم يكن تدخل سادة الإقطاع فيما وراء جبال البرانس من عمل البابوية. فقد كان الأمراء المسيحيون باسبانيا الشمالية يسعون للاستفادة من ضعف جيرانهم المسلمين للتوسع على حسابهم وقد استقبلوا بحارة المساعدات التي أرسلها لهم السادة الإقطاعيون الفرنسيون المنتقمون لمناطق الأكيثان أو البورجونيون، وقد تم تجنيدهم عموماً عبر الدعاية وتحت قيادة نظام كلوني. من هنا أطلقت خطأ تسمية حملة بارياسرو الصليبية (عام ١٠٦٣) ومع أن هذه الحملة قد ربطت منذ مدة طويلة بتدخل البابا الكسندر الثاني فإن من المحقق الآن أنها كانت ترجع إلى ظروف أخرى، غير أن ما يهم هنا هو تدخل البابا. لقد حدث ذلك تحت تأثير كلوني بما أن الأمر كان متعلقاً ببابوات كلونيين. ويلاحظ من جهة ثانية أن بعض الرجال المرسلين إلى أسبانيا، على الأقل، كانت لديهم علاقة ما بالنورمانديين بإيطاليا. لكن الأمر الجوهرى لا يكمن هنا، لقد قلنا سابقاً أن الفرنسيين جاؤوا إلى أسبانيا بعقلية مختلفة عن عقلية الأسبانيين، والحال أن الكُرسي

البابوى كان يتبع فى أسبانيا، كما فى إيطاليا الجنوبية، سياسة إعادة الإدماج الدينى على حساب الكنيسة اليونانية فى إيطاليا الجنوبية وعلى حساب الكنيسة المحلية فى أسبانيا حيث كانت علاقتها مع كنيسة روما قد انقطعت بفعل الظروف المختلفة للحياة فى عهد الإسلام وكانت قد شهدت نمواً مختلفاً من نواح عديدة عن ممارسات الكنيسة الرومانية. لقد كان إصلاح الكنيسة يتضمن حسب الفهم السائد فى روما وحدة قيادية تابعة للبابوية مما ينتج عنه استيعاب الاتجاهات ذات الطابع الاستقلالى الذاتى. كانت تلك فكرة كلونى، غير أن الأمر سار أبعد من فهم كلونى: حيث نشأت الفكرة القائلة بأن للكنيسة الرومانية أحقية خاصة فى الكنائس الواقعة فى الأراضى المسترجعة من أيدي الكفار. فى هذه الظروف صارت أسبانيا مجالاً للنفوذ الذى كانت البابوية تطالب به بصفة خاصة، وقد أدى إدخال العناصر الفرنجية (نظراً لما كانوا يؤدونه من مساعدة عسكرية وما يتلقونه فى المقابل من مناطق نفوذ) إلى دعم الاتجاه الغربى الموالى لروما (وكان هذا أمراً طبيعياً آنذاك فى فرنسا) على حساب استقلال السلطة الكنسية فى أسبانيا^(٥).

كان هناك اتجاهان بين الأمراء الأسبان أنفسهم. فقد أصبحت منطقة أرجونه وهى أكثر انفتاحاً جغرافياً على التأثيرات الخارجية خاضعة لنفوذ الكرسي البابوى شأنها فى ذلك شأن النورمانديين بينما حدث العكس فى منطقة قشتالة حيث أثارت المطالب البابوية صراعاً ربما كان سبباً فى تخطى الإسكندر الثانى عن مشروع التدخل العسكرى الذى كان قد أعده فى نهاية مدة رئاسة البابوية. ولا نرى إن كانت ثمة عقوبة بابوية وجهت إلى الحملات الفرنسية التى استؤنفت بعد ذلك فى أسبانيا حتى قيام التحالف المعادى للمرابطين عام ١٠٨٧، وقد جاء سلوكهم مخالفاً للتقاليد الأسبانية السائدة إلى درجة الاصطدام مع مشاعر المسيحيين أنفسهم برغم أنهم قد جاؤوا لنجدتهم. وقد توصل أوربان الثانى، وهو الدبلوماسى المحنك، أثناء جولاته، إلى مصالحة مع الكنيسة الأسبانية فشجع منذ ذلك الحين الحملات الفرنسية تشجيعاً بارزاً فيما وراء جبال البرانس.

والحال أنه لم يكن يعول كثيراً على العنصر البورجونى. ومن المؤكد أن الكرسي البابوى لم يَسْتَهِنْ قط بأمر تثبيت نفوذه ولو فى ممالك بعيدة. عندما تسنح الظروف بذلك كما حدث لوليام الفاتح بالنسبة لـ إنجلترا. غير أن البابوية كانت تسعى بالخصوص لإحاطة نفسها بحلقة من الدول المقطعية^(٦) الواقعة على البحر المتوسط والقادرة على مساعدتها عند الضرورة لمواجهة

(*) تعود العلاقة التى تربط بين السيد الإقطاعى والمقطع (الفصل) إلى أواخر العصر الرومانى وبدايات =

الإمبراطور الألماني والمسلمين بل وضد بيزنطة إذا تطلب الأمر ذلك. يبدو من خلال هذه الخطط أن دير سان فكتور بمارسليا كان بمثابة المنافس لدير كلوني.

ولقد صار كونت مقاطعة بروفنسيا (عام ١٠٨١) وفيكونت مقاطعة ملجيل - مونبيلي (عام ١٠٨٦) وكونت مدينة برشلونة (وكانت تحت بابوية أوربان الثاني) مقطعين لروما شأنهم في ذلك شأن الكونتيسة توسكان ماتيلد التي تركت وصية ميراث مقاطعاتها إلى البابوية. وكان جريجوار السابع هو الذي قدم التاج الملكي لـ زفونيمر الكرواتى كما حافظت البابوية على علاقات جيدة مع ريمون الصنجيلى الذى ألحق كونتية تولوز (عام ١٠٨٨) وبروفنسيا (عام ١٠٩٤) إلى ميراثه بإقليم اللانجدوك (عام ١٠٦٦).

وفى عام ١٠٨٧ كان ريمون واحداً من قادة التحالف المناهض للمرابطين بأسبانيا وشارك كثير من مقطعيه فى الحملات خلال الأعوام التالية بتشجيع من البابا أوربان الثاني. ومن الغريب أن هذه الاعتداءات لم توجه ضد المرابطين وإنما ضد الدول الإسلامية الصغرى التى تعاني من الضعف بشمال شبه الجزيرة، وذلك إما لأنها اعتبرت حليفة للمرابطين أو بسبب الرغبة فى تحين فرصة انحطاطها. لكن النتيجة أن كل المسلمين بأسبانيا وهبوا أنفسهم فى نهاية المطاف للمرابطين الذين كانوا أبطال الحرب المقدسة المناهضة للمسيحيين. وهكذا لم يبق ثمة وجود فى بداية القرن الثانى عشر بأسبانيا سوى لكتلتين متنازعتين صارتا تشنان على بعضهما البعض حروباً مقدسة بانتظار مجيء الموحدين فى أواسط القرن وهم خلفاء المرابطين لبدأوا فترة التعصب ضد المسيحيين الذين اشتبه فى توافقهم مع بقية الشعوب اللاتينية.

وما سبق يعطى الانطباع بأن العلاقة المتعارف عليها منذ زمن بعيد بين السياسة الغربية والسياسة الشرقية للبابا أوربان الثانى لا تنحصر فى القيام بعمل مشترك ضد

= المجتمع الجرومانى. حيث يحيط أحد الأثرياء صاحب النفوذ نفسه بمجموعة من الاتباع ويكون حامياً لهم ويطلبون هم عونه ودعمه فى مواجهة الأخطار المتوقعة فى الداخل أو الخارج كما فى النظام الرومانى القديم الخاص بالحماية. وكذلك كانت العلاقة بين السيد والمقطع فى النظام الإقطاعى الغربى بالعصور الوسطى فى جوهرها ذات صفة تعاقدية وإن لم يكن ذلك بصورة مدونة فعلاً، ذلك أن السيد الإقطاعى كان يتوقع من مقطعه أن يؤدى له خدمات بعينها ويدفع له ضرائب معينة وكذلك كان المقطع يرى أن على السيد الإقطاعى تجاهه نوعاً من الواجبات عليه أن يؤديها من بينها أن يوفر القوة العسكرية الكافية للدفاع عن إقطاعه وقلعته. انظر فى ذلك الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة. القاهرة ١٩٥٨. والعالم البيزنطى، ترجمة رافت عبد الحميد، دار المعارف. ط ٢. ١٩٨٤. (المترجم).

الإسلام أو استخدام الرجال الذين اكتسبوا في الغرب التجربة اللازمة داخل الشرق. هذا أمر صحيح ولكن هناك شيء آخر؛ إذ لا يمكن أن نتحاشى التساؤل حول ما إذا كانت سياسة البابا أوربان الثانى فى البحر المتوسط وإسبانيا لا تقدم تفسيراً ولو جزئياً لما كان يدور فى ذهنه حول هدف الحروب الصليبية ألا وهو إنشاء قاعدة نفوذ فى الشرق لحساب كنيسة روما^(٦). وقد أكدت الدراسات الحديثة أن الحملات الصليبية قد أرسلت إلى الشرق من قبل البابا لأداء مهمة صادقة ومخلصة تتمثل فى مساعدة الكسيس كومنين. وقد حاول المندوب البابوى أدهيمار المونتاني، وريمون الصنجيلى التولوزى - وهو الزعيم الذى يفترض أنه منظم الحملة - حماية هذه الخطة على الرغم من الموقف المخالف لغيره من القادة الآخرين لهذه الحملة. ومع ذلك لم تكن الأمور بسيطة إلى هذا الحد فما كان يأمله الكسيس كومنين هو الحصول على دعم أقوى ولكن من النوع نفسه المتعلق بوحدة القوات العسكرية الخاصة بالمرتزقة التى دأب على تجنيدها. ويستحيل ألا يكون قد شعر بأنه أمام قوة مستقلة عنه. وكان يلزمه بالتأكيد أن يتمكن من الحصول، وذلك بمشقة، على قسم الولاء من قبل معظم قادة الصليبيين بحيث يمتنعون بموجبه عن الاحتفاظ لأنفسهم بأية أرض كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية قبل الغزو التركى. على أن الأمر لم يكن يتعلق بمنعهم من غزو سوريا وفلسطين. وبما أن قضية الحملة الصليبية كانت من اختصاص البابا فلم يكن ممكناً بالطبع التماس الولاء من البابا ولا من مندوبه، ولاريب أن هذا يقدم أيضاً تفسيراً لرفض قسم الولاء من جانب ريمون الذى لم يكن معادياً لبيزنطة.

لقد أراد البابا أوربان الثانى نجدة بيزنطة، بدون تحفظ أو تحايل، لكن لم يمنعه ذلك من تدبير برنامج الخاص، فهذا ما يمكننا أن نستنتجه من خلال التفكير فى الأحداث طالما لا نملك أى نص مكتوب. من الصعب الاعتقاد بأن أوربان الثانى لم يتوقع أو لم يبحث مسألة إنشاء دولة لاتينية فى سوريا وفلسطين يكون من شأنها تأسيس قاعدة نفوذ لاتينية ورومانية فى الشرق وذلك مهما اختلفت تصوراتنا حول العلاقات مع الكرسي البابوى وحتى لو بقى بالشرق مؤمنون ينتمون إلى عوالم مسيحية أخرى. وكانت بيزنطة ستقبل ذلك مادام أن النجدة اللاتينية كانت ستتيح لها استعادة أقاليمها المفقودة، أو فى كل الأحوال النجاة من التهديد التركى. ربما كان ذلك سيؤدى إلى ازدياد النفوذ اللاتينى فى الشرق بمقدار تضائل نفوذ بطريركية القسطنطينية على بطريركية أنطاكية والقدس. وما كان قد بدأ إنجازَه فى صقلية وإسبانيا لزم أن يشمل فلسطين. وكون هذا البرنامج لم يكتب له التحقق لا يعنى أنه لم يكن فى الحسبان، وفى كل الأحوال فإن هذه الفرضية جديرة بالاعتبار^(٧).

خاتمة

فى عام ١٠٩٥ قام أوربان الثانى بمبادرة انبثقت منها الحملة الصليبية الاولى. وكون أن هذه الحملة قد تمت وفقاً للشكل والمسار اللذين تصورهما أوربان الثانى أم لا فهذا ما سيظل مثاراً للجدال نظراً لانعدام الوثائق التى من شأنها أن تطلعنا على آراء البابا التى لم تكن بالضرورة واضحة حول نتائج المشروع أو طريقة تنفيذه، ومهما يكن من أمر فإن الحملة الصليبية كانت بالنسبة له، ولأغلبية المشاركين بلا شك، قضية مرتبطة به مباشرة، لكنه لم يكن يستطيع المشاركة فيها كما أننا لا نتبين بوضوح ما إذا كان قد اعتبر الكونت التولويزى موكلاً بمهمة القيادة العامة للحملة والمندوب البابوى أدهيمار البوى مكلفاً بالسلطة الروحية.

ما هى الحالة التى كانت عليها العلاقات مع بيزنطة ؟ لقد وجه نداء من بيزنطة، غير أنه فى عقول الأباطرة كان يتعلق بتلقى إمدادات متزايدة من قبيل المرتزقة النورمانديين الذين كانوا يجندونهم فى الغرب منذ فترة من الزمن، أو الفرسان الذين استقدموهم من طرف كونت اقليم الفالاندر. كان من الطبيعى أن يسعوا لإثارة اهتمام الكنيسة بوصفها ممثلة لإحدى السلطتين فى الغرب وأكثر إحساساً بتعاسة العالم المسيحى، بيد أن هذا النداء ينبغى كذلك أن يوضع فى سياق آخر؛ فمنذ عام ١٠٥٤ حدث انشقاق بين مرقى كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، الأمر الذى لم يؤد إلا إلى المخاطرة بالعلاقات السياسية بين البابوية والأباطرة البيزنطيين، ومع ذلك فإن الدراسات الحديثة تسمح بإعطاء تفسير أقل جذرية مما كان عليه الأمر سابقاً (٨).

بداية إن الحدث الذى حصل فى عام ١٠٥٤ كان تكريساً لانفصال فعلى حصل سابقاً أكثر منه حدثاً جديداً. وفى الأكثر كان ردأ على جهود التقارب التى أثارها الخطر النورماندى الذى كان يتربص بروما وبيزنطة على السواء. وبعد حدوث الانشقاق بقليل قررت روما أن تتفاهم مع النورمانديين حيث لم يكن بإمكانها أن تعتمد على بيزنطة وأن وتحارب فى الوقت ذاته الإمبراطورية الألمانية وغيرها. ثم إن الانشقاق الذى ازداد سوءاً مع الأيام لم يكن مختلفاً آنذاك عن الانشقاقات العارضة التى عرفها الناس سابقاً، وعلى أية حال لم يكن الأمر يتعلق ببدعة خارجة عن المألوف، ولم تكن القطيعة مع التنظيم الكنسى تعنى عدم الشعور بالانتماء إلى نفس الكنيسة الواحدة. وأخيراً إذا كانت إرادة الانفصال عن الكنيسة الرومانية قوية لدى بطريركية القسطنطينية فإنها كانت أقل قوة بكثير لدى بطريركية أنطاكية التى قلما كان بينها وبين روما ما يثير النزاع ويشكل أقل فى القدس حيث كان البطريرك الإغريقى يحسن معاملة الحجاج اللاتينيين بالقدر نفسه أيضاً. فى هذه الظروف كانت المفاوضات بشأن تقديم

المساعدة العسكرية لبيزنطة بواسطة البابوية تتخذ شكل المساومة بين المسائل الروحية والدنيوية، وقد ظلت كذلك طوال أكثر من ثلاثة قرون وحتى نهاية الإمبراطورية البيزنطية إذ كان هناك شعور طبيعي من كلا الجانبين بالتعاون بين الغرب والشرق المسيحي في مواجهة التهديد الإسلامي لكن ظلت مسألة الامدادات المادية، من الجانبين، مرتبطة تمام الارتباط بانضمام الكنائس، وقد جعلت بيزنطة الناس يعتقدون بأنها ستدفع الثمن المقابل للحصول على الإمدادات الكافية وكانت روما تبحث عن أفضل الطرق لاستخدام الإسعافات المادية من أجل تحقيق انضمام الكنائس وغالباً ما كانت تجعل هذا شرطاً لذلك، لكن موقف البابوية لم يكن كذلك في القرن الحادي عشر حول هذا الموضوع وسنرى ذلك بعد لحظة.

ومع أن الغزو التركي لم يظهر مغزاه كاملاً إلا بعد مرور فترة من الوقت فقد حدث الأباطرة في بيزنطة ابتداء من رومانوس ديوجين الرابع على توخي السلام مع النورمانديين والبابوية في إيطاليا. وفي عام ١٠٧٤ لم يحصل ميشيل السابع على السلام مع النورمانديين فحسب بل كسب تحالفهم المؤقت معه مقابل تنازله عن إيطاليا. وكانت المسألة الدينية حجر عثرة في طريق الجهود الموازية للتصالح مع البابوية غير أن هذه الجهود كانت أقل لزوماً فيما يبدو منذ أن حصل التحالف مع النورمانديين. غير أن القطيعة التدريجية التي أحدثتها حركة الإصلاح وتحرر الكنيسة بين روما وإمبراطورية الغرب قادت من جانبها البابوية إلى تحالف مع النورمانديين حيث تدعم على يد جريجوار السابع بعد فترة من التردد عام ١٠٧٦. ونظراً للإطاحة بميشيل السابع عام ١٠٧٨ وظهور حزب جديد تقلد نيقفور بوتنيات السلطة، قام روبير جيسكار بإعداد حملة على الشاطئ الغربي لليونان بعد أن تمت له السيادة على إيطاليا الجنوبية وأصبح يتطلع لبسط سيطرته على ضفتي قناة الأوترانت. ولم يكن جريجوار السابع الذي كان في حاجة إليه لمواجهة هنري الرابع في موضع يسمح له بالنقاش معه فمنحه مباركته وهذا يعنى التخلي عن سياسة التصالح مع القسطنطينية. لكن في عام ١٠٨٥ توفي روبير جيسكار وجريجوار السابع، وبعد ثلاث سنوات توفي فيكتور الثالث بابا النورمانديين الذي خلف جريجوار وكان من بين النورمانديين الذين اقتسموا إرث جيسكار شقيقه الذي احتل المقام الأول ويدعى روجيه الأول فاتح جزيرة صقلية ولم يكن له أية مصلحة في استمرار الحرب مع بيزنطة، إذ كان من الممكن أن تؤدي الحرب إلى تخلي اليونانيين بصقلية وأهل منطقة كالابرا عن مساعدته في حالة حصول مصاعب مع مسلمي الجزيرة أو المغرب القريب. وفي القسطنطينية حل الكسيس كومنين محل بوتينات وبعد أن ردّ الغزو النورماندي بمساعدة

سكان مدينة البندقية، كما سنرى ذلك، أخذ يستشعر بصفة خاصة تفاقم الخطر التركي فى آسيا الصغرى بالأخص حيث وضع الإمبراطورية بين فكى كماشة بعد أن تضافر هذا الخطر مع التهديد الذى يمثله أبناء عمومتهم البتشنج على نهر الدانوب. وأخيراً فى عام ١٠٨٨ تولى البابوية البابا الجديد أوربان الثانى الذى كان دبلوماسياً مدركاً للخطر الناجم عن تحالف الإمبراطوريتين البيزنطية والألمانية واتحاد الكنائس لصالح البابا الزائف الذى عُين فى روما من قبل هنرى الرابع. ولم تحقق المفاوضات التى حفلت بها سنة ١٠٨٩ نتائج واضحة بل خلقت مناخاً جديداً. وكانت هناك محاولة للقضاء على الخلاف وتحاشى كل ما من شأنه أن يؤججه من جديد. وكان الأمل معقوداً على أن يؤدى التعاون الفعلى فى مجالات أخرى إلى جمع الشمل شيئاً فشيئاً. فبعث البابا إلى الكسيس بقليل من المعونات للتغلب على البتشنج، ولا ريب أن المناخ الجديد قد سمح كذلك بإرسال فرقة فلاندرية (انظر فيما بعد) كان من المتعذر إرسالها وقت قطع العلاقات. وعندما تم تنظيم الحملة لم يكن الغربيون يكونون لبيزنطة أى شعور بالعداء الدينى وبما أن الكسيس كومنين كان يطلب المعونة للإمبراطورية البيزنطية فقد أرسل له الغرب جيشاً لغزو الأراضى المقدسة. وكان هذا هو الهدف الوحيد الذى يمكن أن يحرك شعور العالم المسيحى اللاتينى. ومع ذلك حصلت عملية استبدال للهدف المتوخى ولو أن ذلك لم يظهر عند أى أحد من الرواة القدامى (أو المحدثين) فيما دونوه عن الحملة الصليبية. غير أن كاتباً واحداً من كتاب العصور الوسطى، على الأقل، تنبه لهذه المشكلة. فقد نبه الكاتب ب. شارانيس عام ١٩٤٩ إلى فقرة لكاتب حوليات بيزنطى فى بداية القرن الثالث عشر وهى توحى جيداً فيما يبدو أن الإمبراطور الكسيس كومنين ذاته هو الذى ركز دعوته أساساً على إنقاذ الأماكن المقدسة وذلك بعد أن أدرك أن الإشارة إلى وضعية بيزنطة وحدها ليس كافياً لكى يبنى المرء نفسه بالحصول على إمدادات هامة من الغرب وقد استخدم البيزنطيون أنفسهم من قبل موضوع إنقاذ الأماكن المقدسة وخاصة أثناء الحملة الخاطفة التى قام بها يوحنا تزمسكيس تحت أسوار(*) المدينة المقدسة عام ٩٧٥. غير أن الأمر هنا يتعلق بحدث

(*) يقول عزيز سوريال عطية فى هذا الشأن : .. وعندما وصل إلى الجليل لم يحاول الاستيلاء على القدس. ولذلك لم يطلق عليه لقب أول محرر للقبر المقدس... ويتعذر علينا الآن أن نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الانسحاب ولعله شعر أنه غير قادر على أداء هذه المهمة. وكيفما كان فقد عاد إلى معسكره فى أنطاكية عام ٩٧٥ بعد أن أضاف إلى الإمبراطورية وادى نهر الكلب (العاصى) وفرض سيادته على إقليم دمشق. انظر : العلاقات بين الشرق والغرب. تجارية، ثقافية، صليبية، دار الثقافة المسيحية بمصر - ١٩٧٢ طبعة أولى - المترجم -

استثنائي إذ من المؤكد أن سياسة بيزنطة في آسيا كانت تتجه نحو استعادة الأراضي التي تحمي مباشرة آسيا الصغرى أكثر من اتجاهها نحو امتلاك الأراضي البعيدة عن المركز مثل مدينة القدس. وليس مؤكداً أن بطريارك القسطنطينية الذي كانت استعادة أنطاكية سبباً في حصوله على شريك ضمن الإمبراطورية. قد استعجل منح نفسه شريكاً ثانياً يتمثل في شخص بطريارك القدس. لقد انشغل الأباطرة البيزنطيون في بتريث في إعادة ترميم قبر السيد المسيح بعد التخريب الذي أحدثه الحاكم بأمر الله وكان الحجاج اليونانيون يأتون إلى الأماكن المقدسة، ومع ذلك لا يمكن القول بأن القدس كانت تحتل في الحياة الروحانية البيزنطية المكانة نفسها التي كانت لها في الغرب. ومهما يكن من أمر فإذا كان لنص المؤرخ البيزنطي أهمية من حيث هو شهادة على ظاهرة الحملة الصليبية بعد قرن من حدوثها فهو لا يملك القيمة التي كان يمكن أن يكتسبها بقلم كاتب معاصر للأحداث. على أية حال فإن الحملة الصليبية كانت منظمة من طرف البابا الذي يعرف جيداً أن القسطنطينية ليست القدس، فقد تبني سياسة محددة في هذا الشأن لأنها كانت ملائمة له ولذا ينبغي أن نبحث هذه المرة حسبما هو مألوف عن منطق الأشياء من هذه الوجهة، أي من جهة البابا.

وفي الفترة التي كان فيها مبعوثو الإمبراطور البيزنطي يمثلون أمام مجمع بولونيا، وحينما كان أوربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية في كليرمون بعد ذلك فإن الخطر التركي في آسيا شأنه في ذلك شأن الخطر الإسلامي في إيطاليا وأسبانيا من قبل كان في طريقه إلى الزوال منذ فترة. لقد توفي ملكشاه عام ١٠٩٢، وكان ورثته في تنازع فيما بينهم وفي آسيا الصغرى الغربية على الأقل. كانت دسائس باسيلوس(*) تحييد صفار قادة التركمان بتسليط بعضهم على بعض ومن ثم أصبح استعادة الأراضي التي انتقلت مؤقتاً إلى أيدي البرابرة أمنية ممكنة كما حدث مراراً في تاريخ الإمبراطورية. ولم يكن نداء بولونيا نداء يأس أو إعلان طوارئ بل كان مرتبطاً بالسياسة الواقعية لاسترداد الأراضي المغتصبة ولا ريب أن أوربان الثاني قد أدرك ذلك، لكنه لم ير أي سبب يدفعه لإبطاء جهده، بل على العكس إذ عهد تحقيق هذا الأمر في البداية إلى أصدقائه الأوفياء وهم الكونت التولوزي ريمون الصنجيلي وأسقف بوى أدهيمار المونتايي، وكانت تجمع بينهما هما كذلك أواصر الصداقة. أما عن التفاصيل

(*) لقب يطلق على ملك الفرس وأباطرة بيزنطة وهو اسم لإثنين من أباطرة بيزنطة الأول الملقب بالمقنوني الذي أسس السلالة المقنونية وكان قد حارب العرب وعزل البطريرك فوتيوس، أما الثاني (٩٦٢ - ١٠٢٥) فقد لقب بقاتل البلغار وعقد صلحاً مع الخليفة الفاطمي الحاكم وازدهرت في عهده الإمبراطورية البيزنطية (المترجم)

الخاصة بما سينجم من نتائج فمن غير المجدى الاعتقاد بأن أفكاره كانت دقيقة فى هذا الشأن.

فى هذا الوقت بالذات تدخلت قوى جديدة بشكل غير متوقع أدت إلى تغيير وجه الحملة الصليبية إلى حال مختلف عما فكر فيه الكسيس وأوربان أو ريمون الصنجلى على السواء. وينبغى علينا أن نوجه أنظارنا من جديد إلى الغرب.

كان إرسال الفرق المكونة على وجه خاص من الفرسان وعدة آلاف من الرجال على أقصى تقدير قد بُحث من كلا الجانبين. هل كان يدل ذلك على طموح أكبر للبابا أم أنه كان يخشى أن يتم التقصير فى تلبية ندائه وهل كانت القيمة الوجدانية المتصلة بالقدس تتجاوز ما كان يمكن أن يتخيله هو نفسه ؟ مهما يكن من أمر فإننا نعرف أن مجمع كليرمون قد أثار حماساً شعبياً ربما أقلق البابا ذاته بسبب الفوضى التى يمكن أن تنشب عنه والمجازفة بسيطرة الكنيسة عليه. ولن نعود للكلام عما هو معلوم لدينا جيداً من الأحداث التى تطورت فى مناخ ازدهار الإيمان والآمال الاجتماعية والصوفية معاً. وإذا لم يكن من اللازم المبالغة فى عدد الصليبيين فإن ذلك لا يقلل من كونه شكل حركة جماهيرية بمقياس العصور الوسطى. وكانت عصابات فظة وغير منظمة قد سبقت الحملة الصليبية الرسمية وبصفة خاصة فى المنطقة الواقعة بين السوم والراين مؤكدة بذلك حركة اتجاه الرأى الذى ساد خلال القرن المنصرم فبدأت الحرب المقدسة بمذابح فى حق اليهود. غير أن هذه العصابات سرعان ما اندحرت عند لقائها بالأتراك وما تبقى منها التحق بأعضاء الحملات الصليبية الرسمية المكونة من السادة. لكن هذه الثنائية الأصلية ستظل واقعة محسوسة حتى نهاية الحملة الصليبية.

ترى ما هى القدرات العسكرية التى توافر عليها كلا الجانبين قبل أن يبدأ الصليبيون مهاجمة الشرقيين ؟

سنرى فى عدة مناسبات لاحقة مدى الأهمية التى كان يوليها المسلمون للسيوف الفرنجية فى مجال التسليح. من المؤكد أن صناعة الفولاذ المسقى والمعروف فى الغرب تحت اسم «فولاذ دمشق» قد تمت فى الشرق ومن الممكن أن تكون هذه التقنية قد استوردت من الهند (مع ذلك لا يبدو أن الهند، التى تفتقر إلى الحديد، كانت المهد الحقيقى لتلك التقنية). وهى تعطى فولاذاً جذاباً بلمعانه وذا صلابة خاصة فى الوقت نفسه^(٩) إلا أنه ليس ثمة شك فى أن صناعة الحديد قد حققت فى أوروبا الوسطى منذ العصور القديمة تقدماً نالت معه السيوف الفرنجية شهرة كانت كبيرة بمقدار ما كان يبدو هناك من عجز عن تقليدها فى الشرق^(١٠)

وحتى القرن الثالث عشر كان الأوروبيون كما يروى الكاتب الفارسي ناصر الدين الطوسي يمنعون بيع هذه الأسلحة إلى الخارج بحيث أن السيف الفرنجي كان يباع في مصر بألف دينار، فقد كان يضرب بالحد والسن معاً وذلك على النقيض من السيف الشرقي المعقوف الذي كان يضرب بالحد فقط.

على العموم كانت إجراءات المعركة لدى الشرقيين والغربيين تعتمد، لدى كل منهما، على أولوية الخيالة، وهذا أمر معروف جيداً غير أن سلاح الفرسان في الغرب كان مدججاً وكثيفاً بينما في الشرق كان خفيفاً. لقد تم في أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى بالضبط اختراع أو إتقان السُرَج والشكيمة ولاسيما الرِّكَاب الذي ييسر للفارس ثباتاً أكبر على ظهر الفرس وقدرة على تسليح أكثر ثقلًا. من الأمور المسلم بها في الغرب أن هذا التجديد قد ساهم كثيراً في ازدهار الخيالة وبما أن حفظ الدواب وصيانة السلاح كانت تكلف غالباً فقد أدى ذلك إلى أن تصبح الخيالة حكرًا على الأرستقراطية وربما كان هذا هو السبب في ظهور نظام الإقطاع^(١١). ولكن علينا أن نلاحظ أن هذه الأسباب ذاتها لم يترتب عنها نتائج مماثلة داخل الشرق. فمن المحقق أن تطور الفن العسكري الذي وصل فيه إلى حد الأسلحة النارية على الأقل كان يتم لصالح الخيالة ولطبقة من الفرسان. سواء كان الطقس يحول دون تغذية الخيول القوية مثل خيول أوروبا، أو كان الرجال لا يطبقون التدجج بالسلاح فإن التطور اتجه نحو الخيالة الخفيفة المتحركة القادرة على الفرار المصطنع والعودة المباغتة. وهذا الاختلاف نفسه نجده بشأن الرمح والحرية. إذ لم يكن العرب الأوائل يستخدمون سوى الحرية الخفيفة بينما كان الغربيون يحكمون قبضتهم على الرماح ويضربون بها بشدة. بيد أن الشرق قد حقق تقدماً كبيراً في مجال قاذفات القلاع. ولم يهتم العرب الفاتحون كثيراً بالقوس فقد كان سلاحاً للمشاة ويتصف بقوة ومدى محدوديين. فما هو شبه مؤكد أن الأتراك هم الذين ابتكروا القذف من فوق الحصان بشكل أكثر إتقاناً وكان الاستقرار الجديد للفارس من فوق صهوة جواده يسمح له أن يستخدم أقوى الأقواس التي ترشق رماحها الفتاكة إلى أبعد مدى. أضف إلى ذلك أنهم طوروا في الوقت ذاته طريقة قوامها الأقواس الخفيفة التي تطلق قذائفها من شتى الجهات بفضل حركية الخيول مما كان يربك للخصم. وكانت قاذفات القلاع والحصون التركية قد أصبحت سلاحاً لا غنى عنه لكافة الجيوش الشرقية وقد ضمنت لهم الانتصار في كل معاركهم تقريباً على البيزنطيين والعرب على السواء^(١٢). كان الغربيون يعرفون عملية القذف بالأقواس من فوق صهوة الحصان، كمرحلة وسيطة، وهو أمر لا يمنع من

ممارسة قذف المشاة، لكن يبدو أن التقدم الرئيسى فى الغرب كان إتقان القذافة التى تسمح باستهداف أفضل واستخدام رماح أقوى رغم ثقل السلاح الذى كان استخدامه يعتمد على ثلاثة رجال إلا نادراً.

لقد عرف الشرق منذ القدم القذافة (المنجنيق) ويبدو أن اللفظة الدالة عليها فى اللغة الإغريقية البيزنطية مطابقة لكلمة «إتشارك» الفارسية. غير أن الأميرة الكاتبة أن كومينين فى استخدامها لهذه الكلمة أثناء وصفها لمجىء الصليبيين إلى القسطنطينية كانت تمجد القذافات الفرنجية بوصفها ابتكاراً عظيماً مما يجعل تفوقها أمراً جلياً^(١٣). لقد عرف الأتراك ولاسيما فرق الغلمان(*) بتخصصهم فى هذا الشأن من خلال ما سجلته أغانى الماتر^(١٤) عندنا، وكانوا يحملون مثل الفرنجة شكات وإن كانت أخف. ففى إحدى المعارك قهرت الذخيرة الفرنجية الشهيرة الخصم بشكل لا يقاوم لكنه غالباً ما كان يتظاهر بالفرار وبينما كان الفرسان والمشاة الفرنجة ينهبون معسكر الخصم إذ به يعود فجأة إلى ساحة المعركة. كان المشاة والفرسان الفرنجة يحملون دروعاً أكثر ثقلأً وأشد وقاية من المجنات الدائرية الخفيفة التى كان يحتذى بها الشرقيون. وقد أخذ المسلمون بعد ذلك يلبسون الدرع الفرنجى تدريجياً. ويبدو أن كلمة طارقاً التى كانت تعنى لدى جيش المسلمين فى عهد صلاح الدين، شكلاً من الدروع الكبيرة يبدو أنها مشتقة من كلمة «تارج» الأوروبية. فربما كان الأوروبيون أكثر تفوقاً على المستوى التكنولوجى من خصومهم فى بعض الجوانب لكن لا داعى للمبالغة فى هذا الشأن. إذ لم يحقق الأوروبيون تقدماً هائلاً فى مجال التحصينات ومدفعية الحصار إلا بعد استقرارهم فى الشرق فقد تطلب الاستيلاء على أنطاكية سبعة أشهر من الحصار وتم الاستيلاء على المدن الأخرى بسبب المجاعة السائدة أو تدنى معنويات الخصم. أضف إلى ذلك أن مدفعية الحصار ربما كان من العسير أن تنتقل من الغرب إلى الشرق فكانوا يصنعونها فى المكان عينه، على أية حال فإن التقنية التى تُبتكر فى منطقة معينة لمواجهة خصم بعينه لا تكون صالحة بالضرورة فى ظروف أخرى مختلفة. ومن الصعب أن نقيم ما تتضمنه الحماسة الدينية لدى بعض الصليبيين، أو

(*) يقول هاملتون جب عن فرق الغلمان : وعلى أى حال فإننا هنا لا نوجه اهتماماً مباشراً إلى الأيغ اللوغلانات وذلك بحكم أنهم لم يكونوا تابعين للجيش بل للخدمة فى القصور السلطانية ولهذا سنقتصر اهتمامنا هنا على ما تبقى من المجنديين الذين كان يطلق عليهم اسم (عجمى أو غلان) ومعناه الحرفى الغلمان الأجانب وكان هؤلاء الآخريون يخضعون لنوع مختلف من التعليم كان يتوخى منه فى المحل الأول أن يعودوا على قوة الاحتمال. انظر المجتمع الإسلامى والغرب - تأليف هاملتون جب ج ١ عن دار المعارف ١٩٧١ انظر كذلك، لمزيد من الإيضاح، مادة غلام GHULAM بالموسوعة الإسلامية (المترجم).

إنهاكم الجسدى من عناصر إيجابية أو سلبية فى الحرب. كما ليس من السهل أن نقيم العوامل الأخلاقية لدى الجيوش التركية التى كانت فى مواجهتهم. لقد رأينا أن هذه الجيوش كانت تتميز بكونها أجنبية التكوين مما ترتب عليه عدم استثارة حماسة الجهاد لدى السكان المحليين. ومع ذلك لا ينبغى أن نهمل روح التضامن الإسلامى والتماسك اللذين يتوافران لدى جحافل العساكر إن لم يكن لدى قادتهم. ونحن لا نعرف عدد القوات المقاتلة فى جيوش الصليبيين، أما الجيوش التركية المواجهة لهم فلم تكن كثيرة العدد لكن ميزتها أنها لم تكن مزدحمة بالحشود غير المحاربة. ومهما يكن من أمر فإن عدداً مهماً من الصليبيين عاد إلى أوروبا بعد أن تم الاستيلاء على القدس، ومن المؤكد أن إتمام الغزو لم يقم به من الناحية العسكرية إلا بضع مئات من الفرسان المحاطين ببضعة آلاف من المشاة الذين ساهموا إلى حد ما فى الحرب.

الفصل الخامس

الصليبيون في آسيا

سيكون من غير المجدي أن نكرر الحديث في هذا الفصل عن الحملة الصليبية الأولى^(١). وسنقتصر على التذكير ببعض أهم الخصائص والوقائع الرئيسية. لقد قيل مراراً إن الحملة الصليبية هي عمل فرنسي أساساً وهذا صحيح إذا حملنا هذه الكلمة دلالة عرقية أكثر منها سياسية طالما أن جودفروا البويوني كان يرتبط سياسياً بالإمبراطورية. بالطبع كان هناك ريتانيون^(*) وإنجليز وإيطاليون بل وحتى إسكندنافيون ومع ذلك لا يمكن لأحد أن ينكر غلبة الجانب الفرنسي في هذا الشأن.

إذا تركنا جانبا التأملات المجانية حول طباع أسلافنا أو طباعنا الخاصة فإننا سنكتفى بملاحظة أن هذه المشاركة الفرنسية كانت متفاوتة وأن الامتناع عن المشاركة في فرنسا أو في غيرها ترجع لأسباب عديدة. ففي ألمانيا حال الصراع بين الإمبراطورية والبابوية دون الدعاية الرسمية للحملة الصليبية حيث أن العصابات التي انضمت إلى صفوف الصليبيين في منطقة الرين أو سبقت انطلاق الحملة إنما جندت من قبل الخطباء الشعبيين. فالصليبيون المنحدرون من الإمبراطورية وحتى غيرهم من الذين قادهم سابقاً بطرس الناسك من شمال فرنسا، ولم يتيسر لهم العبور البحري عبر إيطاليا، وصلوا إلى الشرق عبر ألمانيا (الأمر الذي صار ممكناً منذ تحول المجريون إلى المسيحية) دون معارضة من الإمبراطور، لكنه لم يستطع تشجيع الحملة التي أرادها البابا فهو ولاريب كان يفضل الاحتفاظ بجنوده داخل بلده استعداداً لحروبه في إيطاليا بينما كانت الغالبية العظمى من الألمان الشرقيين تعتبر أن ما يجاورها من الأعداء سواء كانوا مسيحيين أم لا يحول بينها وبين تعقب الأعداء في أماكن نائية. وفوق ذلك كله فإن شن حملة على الشرق كان يجب أن يتم من قبل الإمبراطور كما حدث في الحروب الدينية السابقة في سبيل العقيدة، هذا الإمبراطور الذي بورك من طرف البابا وإن لم يكن لهذا الأخير دور في هذا الشأن وكانت مثل هذه الأفكار موضع إثارة ونقاش من قبل حاشية البابا الزائف جيبير وهنري الرابع^(٢)، بقي أن نذكر بعد ذلك أن جودفروا قام أثناء مغادرته الإمبراطورية برهن أراضيه عند مقطعين علمانيين وكنسيين تابعين للإمبراطور ويمكن أن يفسر اختياره الطريق الذي سلكه في رحلته برغبته تجنب المناطق الإيطالية المراقبة من قبل البابا أوربان الثاني خلافاً لبقية الصليبيين.

في فرنسا بالذات يمكن ملاحظة أن أهل منطقة الاكيتان وبواتيه وبورجونيا الذين تعودوا على الحروب المندلعة في أسبانيا امتنعوا عن الالتحاق بالحملة الصليبية بمعناها الدقيق

(*) نسبة إلى نهر الرين الذي ينبع في جبال الألب ويخترق سويسرا وفرنسا وألمانيا الغربية وهولندا ليصب في بحر الشمال - المترجم -

ولم يذعنوا للانقياد نحو الشرق إلا لاحقاً بعد فوز من سبقهم^(٣) ويجب أن نضيف إلى أن هذا الانقياد قد تم بشكل جر عليهم عواقب وخيمة.

فإذا صح أن جيش ريمون الصنجيلي كان جيشاً قوياً نسبياً فيغلب على الظن أن معظم أفراد الحملة الصليبية كانوا منحدرين من الشمال مما يدل على أنهم كانوا أقل اطلاعاً بأمور الشرق وأقل استعداداً للتعايش السلمي في أى شكل من أشكاله - باستثناء النورمانديين البوهيمدنيين الذين نقلوا إلى الجنوب الأقصى^(٤). كما ضمت الحملة أفراداً إيطاليين. ويستدعى الأمر هنا كذلك إجراء تمييزات دقيقة في هذا الشأن ففي الحملة الصليبية بمعناها الدقيق وفي الحملات الصليبية المتأخرة أخذ البواتيون^(٥) والبرجونيون مكان الإيطاليين بالشمال رغم أن البابا كان يميل أكثر لاستبقائهم مخافة أن تضعف قواه. إذ لم يكن عدد الجنود مرتفعاً، ولم يكن لهم قائد يتزعمهم وكانوا مندمجين في جيش ريمون الصنجيلي وكان ضمن أعضاء الحملة كذلك بحارة وتجار من موانئ مختلفة، ومهما تعاظم دورهم بفضل نشاطهم البحري فقد كان عددهم متواضعاً، إضافة إلى أنه لم يمكث أى منهم تقريباً في الشرق وأخيراً فإن آخر فئة كانت مكونة من نورماندى الجنوب وهى ما سنركز عليه الحديث بعض الشيء.

لقد رأينا كيف أن موقفهم قبل الحملة الصليبية لم يكن يؤهلهم للقيام بأية مبادرة في هذه الحملة. صحيح أن إحدى الجيوش التى شاركت في الحملة الصليبية كان لها أن تحتل مكانة هامة بها تحت قيادة بوهيموند الترانتي وكان هذا الأخير يمثل ضمن النورمانديين الشخص الذى واجه بيزنطة والذى ورث من أبيه السياسة المعادية لبيزنطة وهى السياسة التى كان شريكاً فيها من قبل. وينبغى أن نفهم كذلك أن حالة التجزئة التى كانت عليها الأراضى النورماندية منذ وفاة روبير جيسكار أضعفت أمل بوهيموند في العثور فيها على منطقة نفوذ في مستوى طموحاته. وأخيراً فقد كان يحيط ببوهيموند بعض هؤلاء النورمانديين ممن كان أبناء عموماتهم قد امتهنوا وظائف عسكرية في الجيش البيزنطى منذ زمن طويل وأفادوا منها أرباحاً طائلة. لقد وجد كل هؤلاء الناس في الحملة الصليبية التى نظمت بالارتباط مع الإمبراطورية البيزنطية، وابتداء على أرضها، فرصة لاستعادة الأحلام الغابرة التى لم تكن لها بالقدس إلا صلة واهية، وبالمقابل فإن بقية النورمانديين الآخرين من صقلية وحتى من الساحل التيرانى في شبه الجزيرة الإيطالية قد مكثوا في ديارهم، ولم يسترع هذا الأمر ما يستحق من انتباه. لقد تضمنت رواية المؤرخ العربى ابن الأثير التى كتبت بعد الحملة الصليبية بقرن وربع،

(٥) نسبة إلى مدينة بواتيه الفرنسية - المترجم -

ولم يكن من دأبه الاختلاق، جانباً فلكورياً يحتمل أن يكون قد وقع فيها بعض الخلط مع الحملة الصليبية الثانية غير أنها كانت تحتوى على حقيقة جوهرية لها دلالتها. وربما أجاب الأمير النورماندى على قادة الصليبيين الفرنسيين حينما عبروا بالقرب منه للاستتجاد به ضد مسلمى أفريقيا، بأنه لا يرى داعياً للمغامرة بعلاقاته الطيبة مع العالم الإسلامى بسبب غزوات غير محققة النتائج وهى غزوات عليه فى كل الأحوال أن يتقاسم غنائمها معهم، لذا عليهم أن يذهبوا إلى فلسطين وسيقتصر هو على تشجيعهم على ذلك، وسواء كانت هذه الرواية صادقة أم كاذبة فمن الواضح أنها كانت صحيحة من حيث السياسة التى رسمها^(٦).

أما فيما يتعلق بالموانئ الإيطالية فينبغى أن نميز بين أمالفى من جهة وموانئ الشمال وهى جنوة وبيزا والبندقية من جهة ثانية، ويجب أن نضيف أنها لم تكن تقوم بالدور نفسه (فالموانئ الأبولية^(٧) لم تساهم إلا فى نقل الصليبيين إلى اليونان). وعادة ما يقال إن الموانئ الشمالية الثلاثة شاركت فى الحملة الصليبية، وهذا أمر لا ريب فيه ولكن كيف تم ذلك؛ يمكن أن نقول مسبقاً ونظيراً لمعرفتنا كذلك بما حدث فيما بعد فى مصر والقسطنطينية إن تجار هذه الموانئ كان يتنازعهم الطمع فى الحصول على كنوز الشرق وذلك ليس على حساب المسلمين فحسب بل حتى على حساب منافسيهم الغربيين، والخشية من تضييع الفرص المتاحة لهم لممارسة التجارة فى بعض البلدان الإسلامية من جراء هذا المشروع المغامر.

كانت هذه هى التشكيلة التى تكون قوى الحملة الصليبية إذاً وذلك بصرف النظر عن العامة من الناس لاسيما الذين شاركوا بها من شمال فرنسا. كانت الرحلة، بالنسبة لهؤلاء الذين لم يكن فى علمهم شيئاً عن شروطها، ذات صلة وثيقة بالذكريات التوراتية إلى الحد الذى كان يصعب معه التمييز بين القدس الدنيوية والقدس السماوية. ترى كم كان عدد الناس فى كل ذلك ؟ من المخاطرة بمكان أن نضخم عدد المشاركين. فمن المؤكد أنه عدد ضخم بمقياس ذلك العصر، لكن كم منهم بلغ الهدف ؟ من الأفضل ألا نرجم بالغيب. إذ لم يكن هناك بالطبع هيئة إدارية ومن ثم لا يمكن التنبؤ بنفاد صبر ومطامع ذلك الحشد الذى لا يعرف شيئاً يذكر وهو فى طريقه لاجتياز بلاد وعرة يتكلم أهلها لغات غير مفهومة بالنسبة إليهم، فحدث النهب بل ونشبت المعارك. ولما كان لديهم أتباع فى أوروبا الوسطى والبلقانية مع أنه من المفيد أن نسجل حالة الرعب واختلال النظام الذى اتسم بها مرور الصليبيين حتى داخل الأراضى البيزنطية^(٨) كما ورد فى مراسلات ثيوفيلاكث الأوشريدى. أما من جانب الذين قدموا من إيطاليا وقاموا بعبور اليونان فقط، فإن الأذى كان أقل. غير أن كافة الصليبيين أحدثوا مناخاً

(٦) نسبة إلى منطقة أبولى الواقعة بوسط إيطاليا.

من الهيجان فى اللحظة التى كانت الحاجة تدعو إلى الثبات لتسوية المشاكل المستعصية الناتجة عن الاتصال مع بيزنطة.

لقد كانت المشاكل السياسية فى الحقيقة أشد خطورة وأبعد أثراً. أما الانفصال عن الكنيسة الرومانية فقد كان آنذاك أقل أهمية. غير أنه كان من المحتم أن يحدث الصدام بين السلطات البيزنطية و«البرابرة» العصاة الذين اكتشفوا حضارة جديدة بالنسبة إليهم من جهة وبين الحكومة البيزنطية وقادة الصليبيين حول تصوراتهم لأوجه التعاون اللاحق بينهم من جهة أخرى. لقد ارتأى إمبراطور القسطنطينية أن يندمج الجيش القادم من الغرب فى النظام البيزنطى وأن يقاتل فى سبيل الأهداف المرسومة لهم مقابل الحصول على أجر وذلك على الرغم من أنه كان أكثر عدداً من المرتزقة الذين كانت بيزنطة قد جندتهم منذ جيلين فى أوروبا اللاتينية أو الجرمانية. وهكذا فإن ذكريات الفوضى التى تسبب فيها بعض المرتزقة خاصة النورمانديون خلال نصف القرن السابق ووجود رجل مثل بوهيموند ضمن القادة الصليبيين، وقد كان بالأمس عدواً معلناً لبيزنطة، أثار لدى هذه الأخيرة الشعور بعدم الثقة أو الانشغال بأخذ احتياطات خاصة، فتمشياً مع أعراف الغربيين طالبهم الإمبراطور بإعلان الولاء الذى يضمن له الاستعادة التامة لكل ما كان فى حوزة الإمبراطورية من قبل : لم يكن ذلك الأمر يشكل صعوبة خطيرة بالنسبة لكثير من القادة الصليبيين الذين اعتادوا عدة ممارسات لإعلان الولاء، إضافة إلى عدم رغبتهم فى الاستقرار الدائم فى الشرق، وكذلك الشأن بالنسبة لغيرهم إذ لم تكن لبيزنطة مطالب بشأن القدس وبلاد أخرى خارجة عن الأراضى التابعة لها. ولم يتبين بوهيموند الذى ينقصه الكثير من الحذق، لماذا لم يكن يستطيع بوصفه مقطوعاً أن يحصل حتى داخل الإمبراطورية على ما حاول عبثاً الفوز به فى السابق حينما كان يقف فى صف الأعداء. وكان ريمون الصنجيلى هو الوحيد الذى رفض تأدية يمين الولاء إلا فيما يتصل بعدم الإضرار بالإمبراطورية. وبما أن الواجب كان يقتضى منه أن يسلك مسلك المتحالف الأمين مع الإمبراطورية فى السنوات اللاحقة فقد استغرب الناس من موقفه هذا. ومن المحتمل أن يكون ريمون الصنجيلى، وقد أشرك منذ البداية فى مشروع الحملة الصليبية كما صممها أوربان الثانى الذى كان يمثل فى قلب الجيش البروفنسالى صديقهما المشترك المندوب الرسولى أدهيمار المونتيللى، قد رأى استحالة أن يلحق الإذلال من خلال شخصه بقائده الأعلى هو أمام أى كان من غير أن يتضمن هذا الموقف رفض قسم الولاة عداوة لأحد (*). لقد نجحت

(*) عندما طلب الإمبراطور البيزنطى من ريمون الصنجيلى أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من =

المفاوضات أخيراً لكن كان من المحتم أن تخلف المساومات ونقاد الصبر في نفوس الكثير من المحاربين الصليبيين الذين بهرتهم مفاتن المدينة الإمبراطورية^(٩)، أحقاداً لا يقوى الاتفاق الرسمي بين القادة على تبديدها. لقد عمق مسار الحملة حدة الخلاف. فقد كان المقاتلون على استعداد لمحاربة الأتراك المقيمين في الأراضى البيزنطية غير أن هدفهم كان مدينة القدس ولم يرغبوا إطلاقاً في البقاء في بلاد آسيا الصغرى غير المضيفة. وبخلاف ذلك لم يكن الأمر بالنسبة للإمبراطور الكسيس كومننين يتطلب الدخول في الحرب قبل استرجاع المقاطعات القريبة من مضيقى الداردنيل والبوسفور وبحر إيجه والطرق المؤدية إلى سوريا أو أرمينيا. فلم تشارك بيزنطة في مسيرة المقاتلين الصليبيين.

وبمجرد ما اجتاز الصليبيون حدود الإمبراطورية في اتجاه آسيا وجدوا أنفسهم في اتصال مع الشعوب «الشرقية»، التي كان يجمع بينها، على الرغم من تنوعها الشديد، عدم تمكنها من إدراك الجدة في الحملة الفرنجية. ففي البلاد ذات السيادة الإسلامية التقليدية، التي لم تتغير بداخلها علاقات المسلمين بغير المسلمين في شيء كما رأينا، ولم يصدر عنها أي نداء استغاثة في اتجاه الغرب اتخذت الحملة الصليبية بالنسبة لهم مظهراً من المظاهر المتنوعة لما ألفوه من الحملات البيزنطية التي قلما كانت تخلف نتائج تذكر حتى حينما تحقق النصر. في آسيا الصغرى كان الأتراك قد حاربوا مسيحيين محليين متشيعين لبيزنطة لكنهم اعتقدوا لهذا السبب ذاته أن الجيش القادم من القسطنطينية جيشاً بيزنطياً. كان الإفرنج معروفين في الشرق غير أن الأمر كان يتعلق بالمرتزة الذين أدمجوا في الجيش البيزنطى وذلك ما عدا في الموانئ السورية والمصرية والقدس. لذا بدا الفرنجة الجدد بيزنطيين تقريباً. لاريب أن الإشاعة انتشرت بسرعة حول جيش ضخم بشكل خاص لكن لم يكن في الإمكان أن يدركوا في الحال خصائصه النوعية.

= سبقه من القادة الصليبيين رفض ذلك لأن زعامته التي اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للإمبراطور البيزنطى راعى الكنيسة الأرثوذكسية وكان معنى قبول ريمون أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور هو أنه سيضطر أيضاً في المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند وهو ما لا يمكن أن يقبله. ثم اضطر بعد ذلك تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطى. فهو إن كان قد رفض تماماً أن يقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور إلا أنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الإمبراطور وشرقه وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الإمبراطور. انظر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب : سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١١١ (المترجم).

بعد أن خرج الصليبيون من الإمبراطورية البيزنطية عبروا آسيا الصغرى باتجاه سوريا ولم يكن في نيتهم البقاء فيها. وقد داهموا الأتراك بقوة واستولوا على مدينة نيقية القريبة من المضائق، ولم يتم ذلك من غير أن يتكبدوا الخسائر لكن إذا كان قادة الأتراك قد أدخلوا إلى هذه المدينة وفي غيرها من المدن بواسطة الجماعات البيزنطية المقاتلة فإن الشعب التركي ظل يعيش شبه متنقل خارج المدن. لذا تراجعت الفرق والعصابات المطاردة إلى الخلف كما اعتادت أن تفعل في الصحراء، وبعد رحيل الفرنجة عادت إلى حيث كانت بإستثناء الشواطئ المستعادة من قبل البيزنطيين التي لم تكن ملائمة كثيراً لدوابهم فلم يكن هناك داع لترك الحملة الصليبية في ذاكرتهم أثراً عميقاً، أما القصص المروية التي نسجت اعتماداً على تراث شعبي قديم بشأن السلاجقة في أول عهدهم أو حول الدانشمنديين (دانش - مند - نا)^(*) فهي إن كانت تكشف للقارئ الحديث بعض الذكريات التي تعود للحروب الصليبية، فإنها بالنسبة للمستمع أو القارئ المعاصر لها كانت تحدث التباسات وخطأً بين كل المسيحيين في شكل ملامح مسيحية بيزنطية أو مسيحية أرمنية وفقاً للمعرفة المباشرة التي كانت لكتاب هذه القصص بهم. لقد أعجب الفرنجة الحربية بالخصال لخصومهم ولم يتأسفوا لشيء إلا لكونهم غير مسيحيين، ثم إنهم أكثر من ذلك كانوا ينحدرون من ترويان^(١٠) شأنهم في ذلك شأن الفرنجة كما كان يقال آنذاك. ونحن نجهل آراء الأتراك حول الفرنجة في هذه الفترة.

لم يكن الصليبيون قد قابلوا كثيراً من المسيحيين اليونانيين أو غيرهم فوق هضبة الأناضول الوسطى القليلة الخصوبة. وقد عثروا عليهم من جديد عندما بلغوا طوروس حيث وجدوا إقطاعات أرمنية مستقلة تقريباً ظلت قائمة أو تم تجديدها. عند وصول الصليبيين إلى سوريا وجدوا أنفسهم أخيراً، ولأول مرة، وجها لوجه أمام شعوب قديمة مسلمة أو غير مسلمة قدر لهم محاربتها أو إخضاعها وقيادتها لمدة قرنين من الزمان. صحيح أن اختيار الجيوش السورية المسلمة يكاد يكون مقتصرًا على العناصر التركية، لكنها كانت تختلف عن أتراك الأناضول من حيث أنهم كانوا تركمان شبه رحل من جهة التسليح بينما كان الأمر يتعلق في سوريا بمتخصصين أجانب من النمط التقليدي في وسط سكاني غير تركي. ومع ذلك فإن

(*) الدانشمنديون: نسبة إلى (ملك أحمد غازي) (توفي حوالي ١١٠٦)، أسس في آسيا الصغرى مملكة مستقلة شملت سيواس وأماسيا وملطية في عهد السلاجقة وأنشأ سلالة دانشمند التي استمرت في الحكم حتى عام ١١٤٧، وصار بطل ملحمة شهيرة عنوانها «انتصار الملك دانشمند» وهي تصور فتح ملطية التي يرى مؤلفو الملحمة أن سقوطها كان منعطفًا حاسمًا نحو اعتناق تركيا الإسلام فيما بعد. (المترجم)

غزوات الفرنجة وتخريبهم قد أصاب الناس كافة محليين وأتراكاً حيث دهمتهم الكارثة على حين غرة تقريباً فلم يعرفوا جيداً ما كان يرمى إليه الفرنجة.

فى سوريا كذلك لاقى الصليبيون أفراداً مسيحيين غير أنهم كانوا مسيحيين تابعين لكنائس «هرطوقية» وكانوا يتحدثون غالباً اللغة نفسها التى يتحدث بها المسلمون ولم يكن الصليبيون يفكرون فى معاملتهم معاملة أفضل من معاملتهم للمسلمين غير أنه ينبغى استثناء حالة الأرمن. فمن بين مسيحيى الشرق كانوا أقل جهلاً بالفرنجة من غيرهم. كما انفردوا بذكريات لهم حديثة العهد عن القوة السياسية وممارسة المهن المتعلقة بالسلاح. لاريب أنهم تمنوا أن يجدوا فى الجيش الجديد دعماً مناهضاً للأتراك على طريقة مرتزقة الأمس، وهو الدعم الذى كانت ميزته أنه لا يكشف عن ملامح البيزنطى المزعج كما فى السابق.

لقد علمتهم التجربة أن يتعرفوا بسرعة على الأطماع الخاصة لهؤلاء الفرنجة وإثارة بعض الأتراك ضد بعض الفرنجة وذلك تبعاً لخصوماتهم الداخلية كذلك. أما أرمن قيليقية فقد وجدوا أنفسهم غداة الحملة الصليبية تارة مدمجين من جديد فى الأراضى البيزنطية وتارة أخرى خاضعين لفرنجة أنطاكية، أما أرمن سوريا الشمالية فقد كانوا خاضعين قطعاً لهؤلاء الآخرين دون أن يكون لهم دور أساسى إلى جانبهم^(١١). كان الأمر على خلاف ذلك فى الأراضى التى يقع معظمها فى الشرق بين ضفاف الفرات الأوسط حيث يمكن أن ننعت الإمارة التى أسسها بوهوان البولونى حول عاصمة الرها بأنها كانت فرنسية أرمنية منذ البدء وقد تم ذلك بمساعدة السادة الإقطاعيين الأرمن المستقلين الذين ينتمون لمنطقة الطوروس الشرقية وبمعاونة غيرهم ولاسيما فى منطقة الطوروس الوسطى (مرعش إلخ). وقد رسخ التزاوج بين القادة هذا الطابع مما نتج عنه، كما سنرى، أن ملكة مملكة القدس صارت نصف أرمنية وكذلك صار آخر كونت فرنجى لإمارة الرها. نصف أرمنى^(١٢).

ونجد من بين المسيحيين الآخرين الذين قابلهم الفرنجة تدريجياً وكانوا أقل عدداً، موارد لبنان الذين أحسنوا استقبالهم حال وصولهم تقريباً. غير أن هؤلاء الفلاحين شبه الجبليين لم يكن لهم شأن كبير آنذاك. وشهد اليعاقبة بلا اكتراث الأحداث التى لم يكن لها مبرر لتغيير وضعهم الثابت كنائس هامشين خاضعين لسيادة أجنبى؛ فالفرنجة الذين لا يعرفون شيئاً عنهم وينظرون إليهم على أنهم مستعربين اعتبروهم هراطقة ليسوا أفضل من المسلمين إلا قليلاً وإذا لم يكن فى الإمكان تقتيلهم كان بالمستطاع سلب كنائسهم وأراضيتهم^(١٣). فإذا كان الفرنجة قد قدموا من أجل نجدة العالم المسيحي الشرقى، نظرياً،

فإن قدومهم لم ينجم عنه مساعدة أيًا كان من المسيحيين وبالأحرى المسيحيين ذوي الطقوس اليونانية وهم أصحاب النفوذ في كبريات المدن بالشمال والقدس، لأن هؤلاء «اليونانيين» كانوا متهمين من طرف الفرنجة بالتواطؤ مع بيزنطة ولو أنهم كانوا يتمنون إتخاذ مواقف أكثر تحفظاً فيما يتصل بالمسائل الدينية.

وفي آسيا الصغرى لم يكن ينوى الصليبيون مباشرة أى احتلال للمدن لا لصالحهم ولا لصالح بيزنطة. لكن بمجرد اجتيازهم لجبال طوروس سارت الأمور على غير ذلك. وبينما كان بوهوان في طريقة للاستقرار ضمن أرمن الرها دون مقاومة إذا بجزء مهم من الجيش يعمد إلى محاصرة أنطاكية التي كانت بالأمس القريب مركزاً لمقاطعة بيزنطية كبرى، وقد تم هذا الحصار، طبقاً لخطة قام الجيش بتدبيرها ولاشك بالاتفاق مع الكسيس كومنين.

كانت للمدينة حامية تركية، غير أن السكان كانوا موزعين بين مختلف الكنائس المسيحية وفوق ذلك فإن الإنشقاقات الحاصلة بين سلاجقة سوريا بل وحتى بين رضوان الحلبي وحاكم أنطاكية ياغى سيان أضعفت كثيراً جهود المسلمين لتحرير المدينة المحاصرة. والأجدر بالملاحظة في كل ذلك أنه كان يلزم الصليبيين مدة سبعة أشهر لإتمام الحصار على هذه المدينة التي لم يبرحها منذ مدة طويلة الأهالي من المسيحيين عجزاً أو إرادة. ولم يصل الجيش السلجوقي للإنقاذ بقيادة كريوغا إلا غداة الاستيلاء على إنطاكية وكان جيشاً مكوناً من فرق كان قادتها في تنافس متبادل دفعهم لمحاربة بعضهم البعض ولم تكن هذه المحنة أقل قسوة بالنسبة للصليبيين الذين اشتد غيظهم وهم يرون أنه حتى في اللحظات الأشد خطراً كان الجيش البيزنطي لا يزال متباطئاً وعرف بوهيموند كيف ينتهز الفرصة ليضمن السيطرة على المدينة وتوابعها، وكان في ذلك نهاية التعاون الفرنسى - البيزنطى.

في أثناء هذا الوقت هاجم صليبيون، لاسيما ريمون الصنجيلي أماكن أخرى فحدثت عمليات نهب وتقتيل كما هو الشأن في معرة النعمان مما خلف في نفوس المسلمين ذكرى أليمة. لاشك أن هذا التصرف الصليبي يعود إلى حالة الغضب الناتج من تأخر المؤونة وعدم انتظام التموين ولكنها ترجع كذلك لرغبة جمهور الحملة في تأمين اقتسام فوري للغنيمة بدون اعتبار للمفاوضات التي كانت تجرى بغرض الاستسلام مقابل دفع الجزية التي كانت تظل في أيدي القادة^(١٤). وبشكل عام لم تكن هناك في هذه الحملة والحملة التي تلتها عداوات حقيقية إلا حول المدن ومنها كان يفر من تبقى من المسلمين. ومن المؤكد أنه في المناطق المنبسطة لم تكن الأمور تسير بغير مشقة، غير أننا لا نعرف جيداً بآية طريقة كان يتم تأمين

إمدادات الجيش : هل بواسطة النهب ؟ أم المصادرة أم التجارة ؟ ولا يبدو أنه كان هناك اضطراب حقيقى فى هذا الشأن كما سنرى. كان لابد من انقضاء عدة أشهر حتى تستأنف الحملة الصليبية مسيرتها نحو هدفها المعلن وهو القدس. من المؤكد أن الجيش كان فى حاجة إلى إعادة تنظيم نفسه ^(١٥). لكن الجمهور كان نافذ الصبر ولم تكن الأسباب الحقيقية للتأخير تكمن فى هذه الحاجة للاستراحة ^(١٦). ثمة عدة مسائل كان يختلف حولها القادة فيما بينهم فمنهم من كان يريد البقاء فى الشرق ومنهم من كان يريد العودة إليه بمجرد الاستيلاء على القدس، كما اختلفوا حول مسألة العلاقات مع بيزنطة ومن ثم مع بوهيموند. وأكثر من ذلك يمكن أن نعتقد بأن القادة لم يكن يعرفون جيداً ما كانوا يريدونه ولا أى طريق يسلكون ولا حتى إذا كانوا سيجتازون البلد الذى لم تعد تطالب به بيزنطة أو يغزونه كما فى آسيا الصغرى. فى هذه الحالة الأخيرة كانوا سيجدون أنفسهم أمام خصم جديد وهو الدولة الفاطمية بمصر، التى انتهزت ظروف الحملة الصليبية لاستعادة القدس من يد الأراقة وإحكام قبضتها تقريباً على موانئ فلسطين وسوريا الجنوبية (طرابلس ومنطقتها شكلتا دولة محلية مستقلة). ربما كان المصريون قد قبلوا بترك الحجاج الجدد يصلون إلى القدس مثل أسلافهم بالأمس أو قبل الأمس، لكن هذا لم يكن ليرضى الصليبيين، فقد قطع هؤلاء الساحل اللبناى السورى بصورة سلمية بفضل الاتفاقات التى أقرتها السلطات المحلية بينما تم الاستيلاء على القدس فى بحر من الدم.

لم يكن من المؤكد تماماً أن التفكير قد تم منذ ذلك الوقت فى الاستيلاء على البلد بكامله. لكن الاهتمام بهذا الأمر قد برز بسبب عدم إمكان القدس الواقعة بداخل فلسطين تلقى الإمدادات التى بدأ الإيطاليون إرسالها إلا بشرط الحصول على بعض الموانئ على الأقل، كما أن القطيعة مع مصر كانت تضطرها إلى احتلال النقاط التى يمكنها أن تتدخل من خلالها. وفضلاً عن ذلك فإن الاستيلاء على هذه الموانئ كان يثير اهتمام التجار الغربيين. وهو استيلاء تطلب عدة سنوات نظراً لنقص عدد القوات المسلحة وللانشقاقات، أو على الأقل غياب التنسيق بين القادة الذين مكثوا فى الشرق فلم يتوقع أحد مبادرة ريمون التولوزى أمام طرابلس ولا أن تصير البلاد المحتلة موزعة بين مختلف الجيوش، فبالأحرى أن تقسم بينها ولم ترسم خريطة الأراضى المحتلة إلا حوالى عام ١١١٠.

وفى النهاية صار هناك أربع إمارات كانت مملكة بيت المقدس أكثرها شهرة ولكن لم يكن لها سلطة مؤسساتية على الإمارات الأخرى. ومن ثم يتضح لنا بأى قدر من الحذر علينا

أن نتحدث عن شرق لاتينى حقاً، لقد أصبح كل فرنجة الشرق مجتمعين مع بعض فى ظروف معيشية متشابهة وعلى وعى بالأخطار التى تحقق بهم من جراء تلك المغامرة الجماعية لكن لم توجد بينهم أية وحدة سياسية ولا أى ائتلاف مبدئى، والشعور بالتضامن لم يكن فاعلاً لكى تهب دول لنجدة دولة فى حالة الخطر إلا فى حالات استثنائية.

لا يهمنى فى هذا الصدد أن نفصل القول فى تاريخ الإمارات الأربع، فلنوجز خصائصها بكلمة. لقد كانت إمارة الرها أولى الإمارات التى أسسها بودوان فى الأراضى التى كانت بالأمس بيزنطية - أرمينية حيث كانت الآمال معقودة على الفرنجة كمساندين لا كمحتلين فلم يتطور فيها التوطين الفرنجى قط ولن تتمكن أبداً من تلقى دعم الحجاج ولا إمدادات التجار الإيطاليين، فى حين كان لموقعها الجغرافى المتواصل مع الدول الإسلامية والمهدد للاتصالات بين سوريا وبلاد ما بين النهرين أثر فى تعرضها بالضرورة لردود أفعال الأعداء سريعاً.

ولم تكن إمارة أنطاكية على صلة بالآرمن إلا على مستوى محدود، فالسكان المسيحيون المحليون كانوا يشكلون الأغلبية على الأقل فى قسمها الأوسط. وكانت التقاليد المكونة من الإدارة البيزنطية بالأمس والخبرة النورماندية تحول دون تأسيس مناطق النفوذ الكبرى التى ستميز مملكة بيت المقدس، فالموقع الجغرافى للإمارة جعلها فى صلة مع الإمبراطورية البيزنطية والإقطاعات الأرمينية الواقعة بجبال طوروس الغربى، فى الوقت نفسه التى كانت تجعل منها نقطة وصول الهجمات الإسلامية القادمة من «الهلال الخصيب». وكانت مملكة بيت المقدس، وقد أضفت عليها المدينة المقدسة هبة خاصة تجتذب إليها الحجاج، أكثر اهتماماً بقضايا مصر. وهى المملكة التى ينتمى سكانها الفرنجة إلى شمال فرنسا. وأخيراً كانت إمارة طرابلس الصغيرة، وهى آخر الإمارات التى تشكلت بين إمارة أنطاكية والمملكة، تحكم ثغر طرابلس الواقع جهة أعالى نهر العاصى وكانت بذلك تحقق قيمة استراتيجية إلى حد ما. من الصعب التأكد مما إذا كانت العناصر البشرية التى جمعها ريمون الصنجيلى، بعد تأسيس الدول الفرنجية الأخرى، مكونة من عدد كاف من سكان الجنوب وما قد ينتج عن ذلك من خصائص مميزة.

كانت رغبة الصليبيين تقتضى الوصول إلى القدس ولو بالجوء إلى القتال إذا لزم الأمر ذلك، لم تفصح عن ضرورة المكوث بها بعد ذلك لاحتلال البلد، فبعض كبار الأمراء كانت لديهم النية فى ذلك كما كانوا ينوون، بدون شك، الاحتفاظ بمقطعيهم ليتخذوا بعد ذلك الوسائل

الكفيلة بتشغيلهم وبعضهم الآخر لم تكن لديه الرغبة في الاستقرار في الشرق رغم مشاركته في الحملة وبالفعل لم يمكث به. أما بالنسبة لصغار المشاركين في الحملة الصليبية فإن كثيراً منهم قد هلك ومن بين من ظلوا أحياء أثر البعض منهم البقاء ورحل البعض الآخر من الذين أحببت آمالهم ومنهم من ذهب ببساطة لزيارة أوطانهم ورؤية نبيهم، ولا نعرف على وجه الدقة كيف وصلوا بحرًا (١٨) عبر مجموعات صغيرة بواسطة ما صادفوه من السفن العائدة إلى إيطاليا. وكانت النتيجة أن عدد الفرنجة الذين ظلوا في الشرق لم يكن يتجاوز بالتأكيد بضع مئات من الفرسان ويضع آلاف من البشر، ولعل هذا الأمر كان سيؤدي إلى إبادة لو كان العالم الإسلامي قد تمكن من تنظيم نفسه في الحال، وعلى أية حال فقد أحدث ذلك تأخرًا في غزو الموانئ، هذا الغزو الذي كان في ذاته أمرًا ضروريًا ارتبط بما قد يجيء من حجاج جدد وسفن إيطالية جديدة.

وعلى صعيد السياسة الداخلية، ونظرًا للطابع المقدس للمدينة فقد طرح في مملكة بيت المقدس السؤال التالي: هل يمارس السلطة في المملكة أمير علماني كما هو الشأن في الأماكن الأخرى أم ينبغي أن تمارس بها سلطة روحية بوصفها جزءًا من الدول التابعة للكنيسة أو عن طريق بطريركية مستقلة على الطريقة البيزنطية ؟ من المحتمل أن أوربان الثاني لم تكن لديه فكرة محددة في هذا الشأن، ولم يتقدم خلفه بسكال بأى جواب لهذه المشكلة. بيد أن الحل قد تم في المكان عينه بعد أن أعطى رجال الدين امتيازات جوهرية، ويتمثل هذا الحل في اعتبار القدس مملكة عادية نظرًا لضرورة وجود سلطة عسكرية قوية لمواجهة ما يعترى الحدود الجغرافية من تغير مستمر حسبما اعترف بذلك رجال الدين أنفسهم. وبالإجمال إذا كانت مملكة بيت المقدس هي وليدة الحملة الصليبية فهل كانت حقًا دولة صليبية (١٩) ؟ من الأفضل، بلا ريب، تضيق استخدام هذا التعبير.

في الواقع الفعلي كان الفرنجة كلما غزوا مدينة استقروا فيها مغتربين حالة الفراغ التي أحدثتها الحرب غير أنهم لم يغيروا طبيعة هذه المدن. وأدى تفرق الغزو إلى تفرق المحاربين وإبطاء تركيزهم في منطقة واحدة وهو ما كان ضروريًا.

* * *

ومن البديهي، كما قلنا إن الإستيلاء على مختلف الموانئ التي يمكن أن تمون وتأتيها الإمدادات عن طريق البحر، رغم اختلاف الأعداء، لم يكن ممكنًا إلا بمشاركة الأساطيل التي لم تكن في ملك الصليبيين. وفي هذا الشأن كان دور الأساطيل الإيطالية حاسمًا غير أنه يتطلب تفسيرًا سليمًا.

ليس هناك جدال فى أن بعض الجنوية والبيازنة والبنادقة أمكنهم أن يستشعروا ورعاً خالصاً فى سبيل الصليب حتى لو كانت هناك بعض النزعات التجارية. ومع ذلك لا شىء يثبت أنهم جميعاً رحلوا إلى الشرق فى أعقاب التبشير بالحملة الصليبية، لقد ظلوا وقتاً طويلاً قبل أن ينضموا إلى الحملة وتقاضوا ثمن ذلك. بالطبع كان السادة الإقطاعيون الصليبيون عندما يمكثون فى البلد يمارسون سياسة التوسع ويحصلون على مناطق نفوذ، وفى أضعف الأحوال، كانوا متجددى النشاط دائماً فى هذا الشأن. أما أولئك الذين عادوا إلى الغرب فقد قنعوا بما ينتظرهم من جزاء إلهى. بينما حصل التجار الإيطاليون على امتيازات دائمة من الناحية النظرية مقابل تأدية خدمة ومؤقتة. من المؤكد أنهم كانوا سيعودون، وهو أمر كان يخدم مصلحة الشرق اللاتينى، لكنهم كانوا هم المستفيدون قبل غيرهم من جهة الأعمال والأرباح. ربما كانوا حلفاء ولكنهم لم يكونوا حقاً أعضاء فى الشرق اللاتينى أثناء فترة التكوين.

ماذا كان موقف هؤلاء وأولئك فى اللعبة السياسية القائمة بالشرق ؟ هذا الموقف لا يمكن أن يكون واحداً بالنسبة للجميع فقد كان مشروطاً بمواقفهم فى الغرب وبمواقف الصليبيين فى الشرق. إن ما نلاحظه فى الواقع كان كما يلى: فيما يتعلق بالبندقية التى لم تكن غزواتها التجارية الحديثة فى الأراضى البيزنطية تحول دون ممارسة نشاط ثانوى فى بلد إسلامى، لو أمكن أن تخشى المجازفة بهذا النشاط من جراء الارتباط مع الصليبيين فى وقت سابق لأوانه لخشيت أكثر فقدان الكنوز البيزنطية بالارتباط مع الصليبيين ولاسيما النورماندين الذين كان تحالفهم مع بيزنطة تحالفاً هشاً. وبالأحرى عندما أدت قضية أنطاكية إلى إحداث القطيعة بينهما. والواقع أنه طوال فترة الحملة الصليبية لم تتدخل البندقية إلا بأعداد قليلة وبالمشاركة مع سفن بيزنطية. وعندما ظهر تغلب الصليبيين على الإسلام(*) وتبين أن الامتناع لفترة طويلة عن المشاركة سيؤدى إلى حرمانهم من نصيبهم فى الغنائم وصلت حملة قادمة من مدينة البندقية إلى فلسطين حيث لم يكن بها نورمانديون ولا كانت موضع أطماع بيزنطية ولم يحدث ذلك إلا عام ١١٠٠. لقد أتاحت الظروف العسكرية للبندقية أن تحصل على تعويض عن هذه المؤازرة المتأخرة وهو تعويض يليق بها كقوة عظمى. بيد أن هذه المؤازرة لم تكن كافية لإسدال ستار النسيان على سنوات الامتناع عن المشاركة(٢٠).

(*) المقصود تغلبهم على المسلمين لكن المؤلف يتبع هنا الموضحة السائدة فى الخلط بين الإسلام والمسلمين وهو ما لا يفعله عندما يكون الحديث دائراً حول المسيحية والعالم المسيحى حيث نجد التمييز بينهما واضحاً لا لبس فيه. (المترجم)

ولم يكن قد تدخل البيازنة إلا ببضعة أشهر قبل البنادقة تحت قيادة ديمبير رئيس أساقفتهم الخاص، وهذا صحيح، بتشجيع من البابوية. وهم كانوا آنذاك مرتبطين بالحزب النورماندى وعلى علاقة سيئة سواء مع بيزنطة أو مع البنادقة الذين لم يخشوا مهاجمة أسطولهم خوفاً من إرادتها فى منازعتهم احتكار المياه اليونانية. لذا استطاعوا بدون مشقة إغاثة الأمير بوهيموند الذى كافأهم بسخاء. وكان بإمكانهم القيام بالشئ نفسه فى مملكة بيت المقدس لو لم يكن قد حدث الصدام فى حينه بين ديمبير وبودوان الأول. يبقى أن نشير إلى أنهم كذلك مكثوا حوالى أربع سنوات قبل أن تتزعزع مواقعهم. ولاشك أن السبب الرئيسى فى ذلك لم يكن الخشية من التنازع مع مسلمى الشرق الذين كانت صلاتهم بهم قليلة والذين كانوا يحاربون إخوانهم فى الغرب وإنما كانت خشيتهم من تبذير قواهم هباء. ففكرة الحملة الصليبية إذن لا تدين لهم بشئ^(٢١).

ومن بين كل إيطالىى المدن البحرية فإن الجنوبية هم وحدهم الذين شاركوا فى الحملة الصليبية منذ بدايتها بدون توقف منذ ذلك الحين، وقد تم ذلك أولاً عبر مبادرات خاصة فقط وبعد ذلك شاركوا مشاركة رسمية عندما لاحظوا انخراط البنادقة والبيازنة ومن موقع الحياد فمن بقية الأطراف كانوا وحدهم الذين عرفوا كيف يساعدون كلا الطرفين ويحصلون بالمقابل على تنازلات مهمة من الدول الفرنجية الثلاث الناشئة فى سوريا/ فلسطين.

ولم تكن لديهم أية علاقة مع بيزنطة. أما فيما يتعلق بالإسلام فنحن لم نكن لنفاجأ لو كان مسلكهم إزاءه شبيهاً بمسلك البيازنة. ترى هل كان هذا الاختلاف راجعاً إلى علاقاتهم البروفنسالية أم إلى ما جبلوا عليه من الجرأة؟ أم إلى المصاعب التى لاقوها من قبل البيازنة أثناء توسعهم داخل البحر التيرانى أم لمجرد الرغبة فى النهب كما حدث فى سان سيميون عام ١٠٩٩ وفى قيصرية^(*) عام ١١٠٠ وفى كل الأحوال فقد لزم أن تقتصر فكرة مساهمة المدن التجارية فى تكوين الحملة الصليبية على بعض مشاهير الأغنياء^(٢٢)، وعليهم كذلك اقتضرت فكرة التعاون على إقامة نشاطات الغزو خلال السنوات العشر التى تلت الحملة الصليبية وذلك بدون انقطاع تقريباً (اللاذقية وقيصرية عام ١١٠٠، طرطوس عام ١١٠٢، عكا وجبله عام

(*) قيصرية أو قيسارية: مدينة فى تركيا الآسيوية. ١٠٦٠٠٠ ن. عاصمة كهنوقية قديماً... تنازعها العرب والبيزنطيون إلى أن احتلها السلجوقيون عام ١٠٨٢. دخلها العثمانيون عام ١٥١٥. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

١١٠٤، طرابلس وجبيل(*) عام ١١٠٩، بيروت عام ١١١٠) ولا نستغرب أن تتخذ الحكومة المصرية تجاه بعض الجنوية(٢٣) الذين قدموا لممارسة التجارة فى الإسكندرية والقاهرة إجراءات انتقامية تم ذكرها فى وثائق الجنيزة (انظر أدناه) ولو أنهم، وقد ظلوا بمنأى عن هذه الحملات، لم ينتبهوا إلى هذا الأمر إلا فى وقت متأخر جداً (٢٤)، وتتمثل هذه الإجراءات فى الاعتقالات التى أدت إلى توقف مؤقت لكافة أنشطة التجارة الغربية فى بلاد النيل تقريباً. آنذاك خطر ببال الجنوية فكرة غزو محتمل لمصر، الأمر الذى يمكن أن يجعلهم فى موقع امتياز لا على حساب المصريين فقط بل وعلى حساب الأمافيين كذلك (٢٥).

ومع ذلك لابد من إبداء تحفظين حول الامتيازات التى حصل عليها الإيطاليون فمن جهة نرى أن التنازل القانونى لا يفضى تلقائياً إلى حصول النتائج الفعلية الملموسة كما سنرى ذلك ومن جهة أخرى فإن الامتيازات الأولى التى حصلت عليها المدن الإيطالية فى فترة كان تنظيمها البلدى مازال فى بدايته لم تصل إلينا ضمن مجموعة الوثائق الرسمية اللاحقة ولا يمكن أن نستبعد أن بعضها قد تم اختلاقه أو إكماله أثناء الصراعات التى نشبت لاحقاً (٢٦).

بقى أن نذكر الموانئ الإيطالية الجنوبية التى لم يقل أحد بشأنها إنها شاركت فى الحملة الصليبية. وبما أن امتناعها عن المشاركة عدّ حادثاً استثنائياً فقد فسر ببواعث لا يمكن أن نقبلها على علاتها، ويكفى أن نبحث حالة الميناء الرئيسى وهو هنا ميناء أمالفى.

لقد تم التأكيد بشكل عام على أن أمالفى لم تشارك بقاءً فى الحملة الصليبية إلا فى تجارة الشرق المنحدرة منها أو لعل مشاركتها كانت ضئيلة جداً وأن ذلك كان يرجع أولاً إلى أنه فى فترة الحملة الصليبية هوجمت أمالفى من طرف النورماندين وثانياً إلى سياسة هؤلاء النورماندين أنفسهم الذين كانوا يناهضون الاستقلالات الحضرية وخاصة استقلال أمالفى. كل هذا - وهو ليس خاطئاً - يتطلب منا إعادة النظر. فى المقام الأول لا ينبغى أن يغيب عن

(*) جبلة وجبيل : جبلة مرفأ فى سوريا جنوبى اللاذقية.. هى جبلة الفينيقية ابنة أرواد، احتلها الآشوريون... ثم الرومان عام ٦٤ ق.م. أضحت كرسياً أسقفياً. فتحها العرب عام ٦٣٦. انتقلت إلى أيدي الصليبيين عام ١٠٩٨ واسترجعها السلطان قلاوون نهائياً عام ١٢٨٥. أما جبيل فهى بيبيلوس القديمة. وهى مدينة ومرفأ فى لبنان. أقدم المدن الفينيقية. ورد ذكرها فى الكتاب المقدس. خضعت للسيطرة المصرية.. كانت منذ القدم مركزاً دينياً خطيراً. عرفت عبادة أبونيس فيها انتشاراً واسعاً فى العهد اليونانى الرومانى. عادت إلى الازدهار فى أيام الصليبيين بين عامى ١١٠٤ - ١٢٦٦. وأهم أثارها: هيكل البعلة والمقابر الملكية ومعبد الأنصاب والمسرح الرومانى وكنيسة القديس يوحنا المعمدان. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

بالنا أن أرشيفات مدينة أمالفي كانت مفقودة على خلاف أرشيفات موانئ شمال إيطاليا، ومن ثم فإن عدم تساوى الوثائق قد يحمل على الاعتقاد أن ثمة غياب حقيقى عن المشاركة بينما الأمر يتعلق بانعدام القرائن مما يفرض علينا واجب جمع أدنى الآثار وتأويلها. فالهجوم النورماندى عام ١٠٩٦ قد يقدم بلا شك تفسيراً لهذا الغياب المؤقت ولكن من الصعب أن نكتفى به فى لتفسير غياب دائم، فقد كان صليبيو الشرق فى حاجة ماسة للحلفاء بحيث يمكننا الاعتقاد أن المكان الذى أخذه البعض الآخر كان يستبعد وصول الأمالفيين بعد فوات الأوان. ولو لم يقع الهجوم النورماندى فلا شىء يثبت أن الأمالفيين كانوا سيشاركون فى الحملة الصليبية، فامتناعهم اللاحق يعطى انطباعاً بعكس ذلك. ويسهل علينا تبين السبب إذ كانوا بالضبط يحتلون مكانة مهمة فى تجارة مصر وسوريا كذلك ولكن بدرجة أقل ولا شك. لقد لزم أن يتمهلوا كثيراً قبل أن يبددوا قواهم فى مشروعات عشوائية وحيث يفامرون بفقدان علاقتهم بالمسلمين وكل امتيازاتهم تبعاً لذلك. ومما يدعم هذا الرأى واقعتان اثنتان أولاهما أن تجارة أمالفي استمرت داخل البلاد الإسلامية. وثانيهما أنه من المستبعد أن تكون السياسة النورماندية مناهضة للتجارة فى الشرق بل كانت على العكس مشابهة لتلك التى وصفناها قبل قليل بشأن أمالفي، وسنجد فيما بعد توضيحاً لهاتين القضيتين.

الفصل السادس

الاتصالات الاولى

ليس من اليسير أن نتبين كيف كانت ربود الأفعال الأولى للعالم الإسلامى إزاء الغزو الفرنجى طالما أن التاريخ لم يحفظ لنا أية رواية معاصرة للأحداث من جانب المسلمين. ولا يمكن القول بأن الحملات الصليبية كانت أمرا غير ذى بال بالنسبة لسوريا وفلسطين، لكن كيف كان الأمر بالنسبة لبلدان أخرى ؟ إن الوثائق التاريخية العراقية المتعلقة بالاحتلال الفرنجى الذى دام أكثر من قرنين، لم تتضمن إلا إشارات عابرة عن الأحداث السورية. وإذا كان هناك بعض الإيرانيين الذين ربما كانوا فى طريقهم للانخراط على جبهة الحرب المقدسة لبعض الوقت^(١) فإنه من العيب أن نجد كلمة واحدة عن الحرب الصليبية^(*) للشرق اللاتينى. فى كل الوثائق التاريخية لكبار المؤرخين السلاجقة وأتباعهم فى إيران وقل الشىء نفسه بالنسبة للمغرب^(٢) وحتى فى مصر. إذ لن تنضج أبدا فكرة التضامن بين المسلمين تجاه ما يحدث بهم جميعاً من الأخطار.

وعودة بنا إلى سوريا نجد أن ثمة حوليات محلية. أو على الأقل يوجد مؤرخين سوريين عاصروا الحدث وكتبوا عنه بعد فترة قصيرة بل هناك من يدعى حمدان بن عبد الرحيم الذى ألف تاريخ الحروب الصليبية وفرنجة سوريا أثناء العقود الثلاثة اللاحقة حيث عاش فى اتصال مستمر معهم^(٣). غير أن هذه الحوليات كانت ذات صبغة محلية صرفة نتيجة التجزئة التى لحقت سوريا، وذات أسلوب تشوبه بعض الرعونة والذى استهجنته على أية حال الأجيال اللاحقة وسرعان ما أهملت إهمالاً مقصوداً بلا شك وذلك منذ اللحظة التى أصبحت فيها الحوليات التى تجمع بين سعة المعرفة وحسن العرض ودقة الحس فى تناول أيدى القراء الفضوليين. وفى بداية القرن الثالث عشر لم يعد فى إمكان المرء أن يظفر من آثار حمدان بن عبد الرحيم إلا بصفحات حفظت صدفة من الضياع الذى لحقها جملة^(٤) بل إن الحولية الشهيرة المتأخرة وهى حولية على بن منقذ الشيعى المذهب يحتمل أن تكون قد فقدت نهائياً خلال رد فعل أهل السنة وهو ما سنعود للحديث عنه.

ومن ثم لا نملك إلا أن نقرأ ما بين السطور فى ما وصلنا لاحقاً من المؤلفات ذات المشارب المتعددة بغرض تقييم سلوك المسلمين. ومع ذلك فإن لبعض هذه المؤلفات قيمة معينة، وعلى رأسها الحولية الدمشقية لابن القلانسى^(٥) وقد كتبها الرجل فى أواسط القرن الثانى عشر وفى ذهنه ذكريات شخصية عالقة منذ الحملة الصليبية ثم الحوليات الحلبية لمؤلفها كمال (*). يحاول المؤلف أن يميز بين الشرق اللاتينى بعد تأسيسه فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى وبين الحملات الصليبية اللاحقة. وفى هذا الإطار يمكن فهم العبارة المذكورة أعلاه (المترجم).

الدين بن العديم السني المذهب، وابن أبي طي الشيعي المذهب (وذلك اعتماداً على حolie ابن الفرات^(٧) الذي يستشهد حرفياً بكثير من النصوص القديمة). يمكننا أن نشير أيضاً إلى عدة مؤلفين من نوع مختلف مثل أسامة بن منقذ الذي خلف لنا عن شبابه ذكريات مشوشة لكنها حية وكان فيها محافظاً على روح العصر^(٨) ولو أنه أنهى كتابتها في سن متقدمة جداً وفي مناخ مختلف.

استنتاجاً من هذه الشهادات والإشارات المتفرقة يلاحظ عامة أنه إذا كان بعض القادة المحليون قد وقعوا اتفاقيات مؤقتة مع الصليبيين لإبعاد الخطر فإن الشعوب الإسلامية قد استشعرت منذ البداية هول المذابح المرتكبة كتلك التي حدثت في معرة النعمان أو القدس، وقد أصيب المتعلمون منهم بذعر من جراء التعصب الذي دمر به الصليبيون تدميراً منتظماً مكتبة طرابلس على سبيل المثال^(٩). فنزح كثير من الناس إلى داخل سوريا أو أبعد من ذلك ومما يدل على اتساع حركة الهجرة أن الكاتب البغدادي الحريري، على سبيل المثال، اتخذ بطلاً لمقاماته التي استقاهها من الحياة اليومية أحد الشحاذين الذي هرب من مدينة سروج الواقعة على الفرات في إمارة الرها الجديدة^(١٠). وكان من الطبيعي بعد أن هدأت العاصفة أن يسعى من بقي هناك إلى التكيف مع الأوضاع، وتعاقبت بين الأرستقراطيين المحليين والسادة الفرنج الممارك البطولية الصغيرة والدعوات الودية. وكانت هناك في المدن وداخل الأوساط الدينية بعض المحاولات لفهم الحملة الصليبية. كما تنامي الشعور بفريضة الجهاد كما يشهد بذلك كتاب السلمي الذي اكتشف حديثاً^(١١)، وهو يعود إلى سنة ١١٠٦ خلافاً لما هو متوقع ولو أنه من الصعب أن نطعن في صحة هذا التاريخ. المؤلف دمشقى ينتمى إلى أوساط دينية محلية. ولا ينبغي أن تدفعنا المصادفة التي حفظت لنا هذا الكتيب إلى المبالغة في تقدير مدى انتشاره أو تأثيره، وكل ما لدينا يحمل على الاعتقاد بأن هذا الانتشار والتأثير كانا ضعيفين^(١٢). ومع ذلك يعد هذا الكتاب مؤشراً على التفكير في هذا الأمر، وهو مؤشر له أهميته بمقدار ما يجمع بين إثارة الموضوعات التقليدية في هذا الشأن وبين اعتبارات أصيلة حول الحملة الصليبية في سياق السياسة المسيحية المناهضة للإسلام في منطقة البحر المتوسط بكاملها^(١٣). والسلوك السلبي والاناني للأمرء المكلفين بالدفاع عن الإسلام، ومما يدل على احتمال أن يكون هذا الكتاب من أقل الكتب انتشاراً أن ابن الأثير صاحب المعجم الدمشقي الضخم لا يشير إليه. وفي حلب أيضاً كانت حركة المقاومة التي لا نعرفها هناك إلا عبر التجليات الخارجية، في طريقها للظهور داخل البورجوازية المحلية المستاءة من جمود أميرها،

ولم تكن هذه الحركة من صنع رجال الدين، وكان قائدها فيما يبدو القاضي الشيعي ابن الخشاب (كانت حلب لاتزال آنذاك ذات أغلبية شيعية). وفي عام ١١١١ وصل وفد من حلب إلى بغداد مع أن أهلها سنيين لمعاتبه الخليفة والسلطان على اللامبالاة وضعف الهمة لديهما. وإلى الفترة نفسها، وببغداد تحديداً يرجع تاريخ كتاب مقامات الحريري وانتشارها وقد سبق الحديث عنها أعلاه^(١٤). كانت النتيجة إرسال دفعات متلاحقة من الجيوش «السلجقة» ما بين سنة ١١١٠ و١١١٥، وهي لم تنجح إلا في التقاتل والتدمير المتبادل أو ترسيخ التحالفات المحلية بين الفرنجة والمسلمين، بالإضافة إلى ذلك ينبغي أن نكرر القول بأن سوريا المسلمة كانت محمية من طرف الجيوش التركية الأجنبية دون مشاركة حقيقية من جانب السكان المحليين شأنها في ذلك شأن بيزنطة التي كان يدافع عنها المرتزقة الأجانب ولاسيما الأتراك. لكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أبداً أنه إذا كان قد تم قبول متطوعين محليين بصفة فردية في الجيوش الملحقه، فالقاعدة العامة أن الحرب المقدسة كانت منوطة بالجيوش التركية المتخصصة التي كان أفرادها من الأجانب. وقد اعتقد البعض في البداية أن الغزو الجديد قد يكون غزواً عابراً يمكن استيعابه مثل بقية الغزوات التي سبقته.

ولقد أثبتت التجربة أن شيئاً من ذلك لم يقع كما أن الفرنجة قد اقتربوا المظالم (مثلما وقع في حلب سنة ١١٢٤) وكانوا في مجملهم جنساً فخوراً بنفسه لا يخطط بالآخرين^(١٥). ولعلنا نستثني، في بداية القرن الثاني عشر، صفار السادة العرب الذين ظلوا مع ذلك مستقلين إلى حد ما رغم اندماجهم في ظل السيطرة التركية، ومنهم أسامة بن منقذ حاكم شيرز على نهر العاصي. لقد قيل إن التغلغل التركي قد تعمق في كل مكان على حساب الإقطاعات المحلية، ففي سوريا تسارعت هذه الظاهرة ومما ساعد على انتشارها أن هذه الإقطاعات قد كشفت عن فتور الهمة في مناهضة الفرنجة. بل لقد شوهد البدوي المغامر دُبَيْس^(١٦) عام ١١٢٤ وهو يشارك في حصار حلب من قبل الفرنجة الذين لم يترددوا بهذه المناسبة في مهاجمة أماكن العبادة الإسلامية. ومن هنا حدث تطور تدريجي للعقليات^(١٦).

لقد صار الوضع شاقاً في سوريا بالنسبة للسكان المسلمين بالمدن تحت الهيمنة الفرنجية إلا في حالات استثنائية ويرجع ذلك إلى إغلاق المساجد وعزل موظفيها ولاسيما

(*) دُبَيْس : هو دُبَيْس بن صدفة (توفي ٥٢٩ هـ / ١١٢٥م)؛ أمير الحلة ويادية العراق من بني مزيد. أحد الفرسان العرب. لقب بملك العرب أثناء الحروب الصليبية. وذكره مخلص في مقامات الحريري. اتهم بقتل المسترشد وكان على خلاف معه. اغتيل في بغداد. المنجد في اللغة والأعلام (المترجم).

القضاة. وتستحق بعض المجموعات الإسلامية المحلية أن نوليها الاهتمام رغم أن النصوص التاريخية بشأنها تكاد لا تذكر عنها شيئاً، فالنصيريون (العلويون) المقيمون في الجبال الخلفية للأذقية منذ القرن الحادى عشر لم تصل إليهم الحملة الصليبية بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ أن تحصنهم داخل القصور المنيعة جعل إخضاعهم أمراً عسيراً للغاية. وفي الجنوب الشرقى من هذه المنطقة التى أقام فيها النصيريون ظلت عدة قلاع صغيرة خالية من أصحابها، ذلك أن «الحشاشين» بعد أن حاولوا التقرب من أمراء حلب ودمشق، وبعد أن طُردوا من هذه المدن، احتموا بهذه القلاع بدون صعوبة ويظهر أنهم سعوا إلى عقد التحالف، ولو بشكل عارض، مع الفرنجة ضد المسلمين «الأرثوذكسيين»، فاشتهر رئيسهم الأكبر بين عامة الفرنجة باسم «شيخ الجبل». وفي جنوب لبنان كان الدروز بوادى التيم^(١٧) يقطنون منذ القدم ويبدو أنهم تصرفوا بمهارة مع الفرنجة والمسلمين فضمنوا أراضيهم بأنفسهم من كلا الطرفين وكانوا يعملون جواسيس لهذا الطرف ضد ذاك.

وباستثناء الأرمن فقد كانت ردود أفعال المسيحيين الأهالى، خاصة المونوفيزيين، ومحلياً الموارنة تبدو محايدة، وعلى العموم لا نراهم قد شاركوا الفرنجة أو عارضوهم، وكان الفرنجة لا يختلفون فى النظر إليهم كغرباء مثل المسلمين إلا نادراً، أضف إلى ذلك أنه للسبب ذاته لم تنتههم السلطات الإسلامية بتدبير أية دسيسة فلم تسبب لهم إزعاجاً أو اضطهاداً، أما الفرنجة فبعد أن اعتبروهم هراطقة، ونظروا إليهم، فى أفضل الأحوال نظرة احتقار، وما ترتب على ذلك من مصادرة ثروات أعيانهم أو كنائسهم قبلوا إرجاع جزء منها بواسطة الملكة ميلوزين^(١٨).

ينبغى التركيز على الحالة الخاصة للموارنة. فهذه الطائفة الصغيرة التى تركزت فى الجبل اللبناني تدريجياً وظلت معزولة من قبل المسلمين ومسيحيى الكنائس الأخرى، كانت قد فقدت بالفعل كل صلة بروما والقسطنطينية. لكن لهذا السبب ذاته لم تكن تعتقد أنها قد قطعت الصلة بهما، لقد مال الموارنة، مع استعرابهم، إلى اعتبار الفرنجة بمثابة أبناء عمومته الذين كانوا يتحينون لهم فرصة الخروج من عزلتهم والثأر من تعاسة حالهم سابقاً. وحتى لا نغالى فى القول نذكر أن الكنيسة المارونية كان لابد لها أن تنتظر ثلاثة أرباع القرن قبل أن تعترف رسمياً بارتباطها بروما، وفوق ذلك كله لم تفقد شيئاً من استقلالها.

ولم يكن هناك موضع تفكير فى تجنيد أى مارونى فى الجيش، لكنهم فى داخل الأقاليم المركزية على الأقل كانوا بمثابة المساعدين الرئيسيين للفرنجة فى تكييفهم مع أعراف البلد ومؤسساته، فكان للحملة الصليبية ولا شك أثر فى استقدامهم إلى المدينة وإدماجهم فى مجتمع أكثر رحابة.

لم يكن للملكيين الشرقيين أهمية إلا في شمال سوريا وربما في القدس كذلك. وبما أنهم لم يُعتبروا في حكم الهراطقة كان الرأي المسبق عنهم في صالحهم. والواقع أن استعراهم الشامل^(١٩) لم يقربهم من الفرنجة بل إن شبهة توأطهم مع بيزنطة التي ألصقت بهم قد فاقمت وضعهم. ومن جهة أخرى بما أن اللاتين والملكيين كانوا ينتسبون إلى كنيسة واحدة فقد وجد اللاتين أنه من الطبيعي أن يحلوا محل الملكييين أو بجانبهم في الوظائف الدينية وبذلك قلصوا نصيب رجال الدين المحليين من الوظائف وألغوا البطرياركييتين الإغريقية - الملكية.

كان الأرمن الذين يشكلون قسماً مهماً من طبقة الفلاحين في شمال سوريا وفي سهل قيليقية يطرحون مشكلة خاصة في جبال طوروس حيث كانت إقطاعاتهم المستقلة تمتلك قوات عسكرية صغرى. وفي الغرب منها كانوا يميلون آنذاك إلى الاعتماد على الفرنجة ضد البيزنطيين، أما في الشرق منها فقد وازنوا بين كونتات الرها ومسلمي سوريا (وليس أترك الأناضول) كما كان شأن كواسيل المرعشى على نحو خاص، وقد تداخلت هذه الصراعات مع النزاعات العشائرية بين الأرمن أنفسهم ولم يعد هناك أرمن في خدمة بيزنطة، غير أن البعض منهم ظل تابعاً بالوراثة للكنيسة البيزنطية ولم تنقطع الخلافات العائلية القديمة التي نشبت بينهم في مسقط رأسهم بأرمينيا. وقد رأينا أن عدداً مهماً من مواطنهم قد فضلوا الهجرة إلى مصر الفاطمية حيث كانت إحدى عائلاتهم التي اعتنقت الإسلام تحارب الصليبيين غير أن نفوذهم هناك أصبح بعد ذلك مواتياً أكثر لإقامة علاقات سلمية مع الفرنجة بفلسطين وصقلية. وقد أشار المقرئزي عام ٥٢١ هجرية / ١١٣٦ ميلادية في كتابه «الاعتاظ»^(*) إلى مجيء الأرمن من تل البشير إلى مصر فنحن لانزال إذن في عهد إمارة الرها.

أما اليهود فلم تكن كثرتهم العددية كافية لإحكام تأثيرهم على مجرى الأحداث برغم احتكارهم شبه التام لبعض الحرف الحضرية (كالصبغة وصناعة الزجاج) ومع ذلك فمن المهم أن نلاحظ حسبما تُطلعنا عليه وثائق الجنيزة^(٢٠) أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم رعايا أوفياء للأمراء المسلمين وأن الحملة الصليبية كانت بالنسبة لهم محنة مؤلة رغم جهلهم للأحداث الجارية في أوروبا^(**)(٢١).

(*) المقرئزي في كتابه : اعتاظ النفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. (تحقيق محمد حلمي محمد أحمد) القاهرة ١٩٧١م. (المترجم)

(**) ربما المقصود بالأحداث الجارية ما تعرض له اليهود من مذابح في أوروبا مع بداية الحملات الصليبية. (المترجم)

وقد ذكر أحد المؤرخين المسلمين وليس لديه ما يدعوه لاختلاق ذلك أن أولئك الذين التجأوا إلى كنيس القدس تم إحراقهم فيه وهم أحياء عند الاستيلاء على المدينة. أما بعض ما حفظ من الخطابات اليهودية فهي تكتفى بالحديث عن معاناة الطائفة اليهودية وعن المبالغ الطائلة التي ينبغي جمعها لافتياء الأسرى. كما ذكر فيها أن الإشكيناز هم أقوم مسلماً من الفرنسيين في معاملتهم للنساء. لكن بمن يتعلق الأمر هنا ؟ هل يتعلق باللوريين ؟ ففي المدن التي خضعت فيما بعد للغزو تم إدراج اليهود في البنود العامة لاتفاقيات الاستسلام.

كان أغلبية الفرنجة يقيمون في المدن ولاسيما في الموانئ وذلك تبةً لتوسع فتوحاتهم. وحتى النبلاء كانوا يستقرون في الغالب هم أيضاً، مثل نبلاء إيطاليا، في المدن وهي أكثر عدداً من فرنسا. لكنهم كانوا قد اعتادوا في فرنسا أن يحصلوا على مساكن للإقامة في سهول البلد إذ كان لابد لهم من وضع قبضتهم على الداخل ولو من أجل التموين الغذائي. وقد رأينا أن القادة المحليين في القرن الماضي كانوا قد شيدوا قلاعاً صغيرة أو حصوناً حقيقية فهذه، لا سيما في شمال سوريا، كانت في الغالب عسيرة الانقياد ومع ذلك تمكنت أكثر العائلات الفرنجية منذ البداية أن تستقر في القلاع الصغيرة، وعملت على تطويرها شيئاً فشيئاً. ولا نلاحظ معارضة من جانب الفلاحين، فقد واصلوا زراعة أراضيهم ودفع ضرائبهم كما كانوا يفعلون دائماً دون أن يغير الفرنجة شيئاً من ذلك إلى حد أن الغلال في بعض المناطق ربما كانت تقسم بين الحاكم المسلم والحاكم الفرنجي. فنحن لا نرى أن الغزو قد تسبب في إحداث مجاعة أو عمليات النهب التي قد لا يمنع الغزو من حدوثها.

كانت الحملة الصليبية قد جمعت جنوداً من أصول مختلفة ظلت متميزة وأسست دولاً منفصلة بل ومتعارضة أحياناً. لكننا لا ينبغي أن نغالي في الحديث عن وحدة الشرق اللاتيني في مواجهة الشرق الإسلامي فقد جمعت بين دول الشرق اللاتيني ظروف معيشية متشابهة ولكنها لم تمنح كل ما تبقى من تقاليدھا الذاتية. فالتضامن بشكل خاص كان أبعد عن أن يكون تضامناً كاملاً بين الدول إذ سرعان ما شوهد أمراء فرنجة ومسلمين يتحالفون ضد أمراء آخرين فرنجة ومسلمين، وإذا كان للأمراء وعى بفائدة الاستنجا ببيعهم البعض، في حالة الأخطار القصوى (مما يوحى بنوع من التفوق في حالة مملكة بيت المقدس) فإن بارونات الدولة قلما قبلوا الذهاب إلى دولة أخرى لخدمتها ولاسيما إذا تطلب ذلك مدة طويلة^(٢٣).

بالنسبة للصليبيين في البداية وبالنسبة للغربيين لفترة أطول ولعديد من مؤرخي العصر كانت الدول الإسلامية في الشرق تعتبر دولاً متعارضة بحيث أن العداء الصادر من إحداها أو

الموجه ضدها أو بالعكس التحالف معها يدل على موقف مماثل بالنسبة لأي من الدول الأخرى. لكن الواقع كان أبسط بكثير من ذلك ويقتضى الأمر تبين خطوطه الرئيسية.

كانت دول الشرق اللاتينى تتجاور من الجهتين مع آسيا الصغرى «التركية» بالشمال ومصر الفاطمية بالجنوب. وكانت مصر الفاطمية قد سلمت مؤقتاً من التفكك الداخلى بفضل الإجراءات القوية لإعادة التنظيم وهى الإجراءات التى قام بها الوزيران الأرمينيان اللذان اعتنقا الإسلام وهما بدر الجمالى وابنه الأفضل^(٢٤). وآل المذهب الإسماعيلى الذى كانت الأسرة الحاكمة تنتسب إليه إلى الانشقاق . إن القسم الأكبر من السكان لم يكتث بالانشقاق الحاصل أو كان معارضاً له غير أنه كان راضياً على هذا النظام الذى كان يجسد استقلاله ويضمنه له، وقد حقق الاقتصاد المصرى فى عهده، رغم ما حصل من اضطرابات، تقدماً مشهوداً يعود إليه الفضل على أية حال. وكانت مصر الفاطمية تعتقد بأنها مهددة من قبل التوسع السلجوقى غير أن الانقسامات الحاصلة بين خلفاء ملكشاه قد قللت من حدة الخطر، ذلك أن الصليبيين فى هذا الشأن كانوا بمثابة الخلاص بالنسبة لمصر، خلال ثلثى قرن على الأقل من غير أن تخطر هذه الفكرة على بالهم. ونظراً لتوسطهم بين الأتراك ومصر تلقوا منذ ذلك الحين ضربات لم يكن الأتراك ليتخلوا عن محاولة توجيهها للفاطميين. بهذا المعنى تم استبدال خطر بآخر. وإذا كان الفرنجة قد انشغلوا بغزو الممتلكات الفاطمية بفلسطين وسوريا الساحلية ومن ثم رد الهجمات المضادة فإنهم سرعان ما تخلوا عن فكرة الذهاب لمهاجمة المصريين فى مصر وهى فكرة ربما خطرت فى ذهنهم أو أوحاها إليهم على أية حال بعض الإيطاليين^(٢٥). وإذا كان المصريون من جانبهم قد اهتموا اهتماماً دائماً بأحدورهم السورى العربى فإنهم لم يكونوا أبداً من كبار الغزاة، وكان من المستبعد أن يتمكنوا فى القرن الثانى عشر من الحصول على ما يلزم من الرجال لتأسيس جيش مشابه لجيش الدول التركية بآسيا أو بناء أسطول قادر على إلحاق الهزيمة بإسطول الإيطاليين.

لما تبين رسوخ أقدام الفرنجة وأنه لا يمكن طردهم إلا بثمن فادح ولقاء تحالف هو بذاته محفوف بالأخطار مع الدول التركية المحيطة بالشرق اللاتينى من جهة الشرق، سلك الفاطميون فى الواقع مسلك التعايش السلمى الذى تميز كذلك بتسهيل العلاقات التجارية مع مختلف الدول المسيحية بمنطقة البحر المتوسط، التى كان يهتم بها أغلب الظن، المسيحيون المحليون أو الأرمن وقد كانوا ذوى نفوذ آنذاك وهم أشقاء أرمن شمال سوريا. وما بين فترة استيلاء الفرنجة^(٢٦) على صور (١١٢٣)، وهذا الاستيلاء كان فى ذاته نتيجة هدنة طويلة، والاستيلاء

على عسقلان (١١٥٣) الذى سجل بداية فترة أخرى سنتحدث عنها فى حينها لم يكن هناك أية عداوة حقيقية على الحدود المصرية الفلسطينية.

لم تكن آسيا الصغرى بلداً قديم العهد بالإسلام، وما كان يوجد بها من المسلمين حوالى عام ١١١٠ كانوا من الأتراك أو التركمان وكانت طباعهم لاتزال خشنة وعلى غير علم يذكر بتقاليد البلاد العربية أو الإيرانية التى دخلها الإسلام منذ أمد بعيد، ولم يكن لديهم معرفة بتقاليد الإمبراطورية البيزنطية التى كانت حتى فترة وصولهم صاحبة البلد كما ظلت فى وعى رجال الدولة بالقسطنطينية وربما فى وعى التركمان كذلك فى البداية سيدة الأمر العليا. ولم يظهر سوى ملامح بعض المجموعات السياسية الصغرى على الحدود الواسعة والمتغيرة ويصفة أساسية على الحدود الخاصة بالسلاجقة، أبناء عم سلاجقة إيران وبلاد ما بين النهرين على امتداد طرق الجنوب والدانشمندان على طرق الشمال وأحياناً على طرق الطوروس الشرقى. وإذا كان لدى هؤلاء الأتراك نوع من الشعور المتأصل بالحرب المقدسة فقد أقاموها فى بداية الأمر ضد البيزنطيين وكانوا غير مباليين بما كان يحدث فى سوريا وكذلك فى القدس التى لم تكن تحتل أية مكانة فى وعيهم الدينى، وقد صادف أن وقعوا فى اشتباكات مع الدول الفرنجية الأرمنية فيما وراء جبال طوروس وهى دول مجاورة لهم فى الجنوب الشرقى لكن لا نرى لديهم إطلاقاً قبل أواسط القرن الثالث عشر أية نية فى التوسع فى هذا الاتجاه حيث حال بينهم المناخ والبدو. ولم يكن لديهم كذلك الشعور بالتضامن مع مسلمى سوريا وبالطبع كان على رأس هؤلاء أمراء أتراك (ونادراً ما كانوا تركمان) غير أنهم كانوا يحكمون على رعايا عرب وكان ثلاثة أرباعهم هم أنفسهم قد استعربوا وكانوا ينظرون لبعضهم البعض نظرتهم إلى من ينتمى إلى عوالم أجنبية شبه مجهولة^(٢٨).

لم يكن هناك إذن خصم حقيقى بالنسبة للفرنجة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إلا على امتداد حدودهم الشرقية التى كانت المكان الوحيد للمتعاب المتجددة على الدوام؛ إذ لم تكن محددة جغرافياً فى أى جهة بما يكفى لكى تعتبر من هؤلاء أو أولئك على أنها حدود نهائية^(٢٩). ولم يكن الفرنجة فى الممرات الضيقة فى الموانئ والجبال المتوسطة ينقصهم الشعور بالخطر المحدق بهم نظراً لثبات سوريا الإسلامية فى الداخل حيث توجد أكبر الحواضر التى حافظت على علاقاتها مع القوى الكامنة فى عمق بلاد آسيوية شبه لا متناهية فكان لابد للمسلمين أن يعانون من فقدان أراضٍ كانت فى حوزتهم زهاء أربعة قرون فقد استعربوا بشكل

كامل إن لم يكن قد أسلموا وكانوا يعدون ضمن الأثرياء ناهيك عما كانوا يقدمونه من انفتاح على تجارة البحر المتوسط. ومع ذلك فقد اعوزتهم أشياء كثيرة لإقامة جبهة مشتركة من أجل الكفاح ضد الفرنجة.

ومجرد واقع تفرقهم على إمارات مختلفة، منها إمارتى حلب ودمشق الرئيسيتين وبعضها إمارات تابعة، كان بطبيعة الحال يستحق تلك التى كانت أشد خشية وأكثر رغبة فى الحياد بل التحالف مع الفرنجة أو مع البعض منهم ضد البعض الآخر حينما كان الفرنجة أنفسهم منقسمين، وهو ما حدث على سبيل المثال عام ١١١٥^(٢٠). وما هو أكثر من ذلك أن هذه الإمارات حينما اقتطع قسم كبير من أراضيتها لم يكن يحالفها الحظ فى تمالك أمرها إلا عن طريق المعونات التى قدمها لهم إخوانهم فى الدين ببلاد ما بين النهرين. وكان الأمر يتعلق دائماً فى سوريا بأمراء قد تحرروا من سلطنة السلاجقة فهؤلاء كان يرون أيضاً فى القوات المرسلة لنجدتهم خطراً كبيراً كرد فعل ضد استقلالهم^(٢١). وحتى عندما كانت السلطنة السلجوقية بالمعنى الدقيق للكلمة أضعف من أن تهاب ظل قادة بلاد ما بين النهرين يمثلون قوة أجنبية على نحو ما كانت تستشعره الاتجاهات الاستقلالية المحلية القوية، كما كانوا يمثلون قوة أكبر بالمقارنة مع قوة أمراء سوريا بحيث لم يتبينوا خطرهم فيعملون على عزلها.

غير أنه يلزم التمييز بين مرحلتين بصدور أحداث سوريا تجاه الاحتلال الفرنجى. فى المرحلة الأولى لم يكن يوجد فى سوريا إلا أمراء مستقلين وبصفة خاصة رضوان وخلفائه المؤقتين فى حلب ودياق فى دمشق وأتابكة(*) طغتكين الذى خلعه فيما بعد. وفى مواجهتهم للفرنجة والشرقيين الذين كانوا تارة متحدين وأخرى مستقلين، بل ومتعادين مارس الأمر - وكانوا أنفسهم متخاصمين تارة ومتصالحين تارة أخرى - سياسة تناوبت فيها الحرب والهدنة المحلية مع الفرنجة حيث لم يكن يظهر خلاف كبير فى التوجه العام بين الشمال والجنوب. لكن شيئاً فشيئاً تغيرت الأمور ما بين عام ١١١٨ و١١٢٨. وقد حمت الجغرافيا دمشق من الخطر

(*) أتابك أو أتابك : لقب تركى أطلقه السلجوقيون على بعض كبار رجال البلاط ومعناه الأب الوصى. كان ملكشاه أول من أطلق هذا اللقب على وزيره نظام الملك. قام الأتابكة أولاً بربور المربين للأمراء القاصرين. تعددت الأتابكة بعدما أطلق اللقب على القادة العسكريين وتوسعت صلاحياتهم تدريجياً حتى تمكن بعضهم من إقصاء الأمراء السلاجقة وجعل امتيازاتهم وراثية كآتابكة أنزيبيجان (القرن ١٢) ودمشق والموصل بعد وفاة زنكى (١١٤٤) - المنجد فى اللغة والأعلام - (المترجم).

الفرنجة بشكل أفضل من حمايتها لحلب كما جعلت الوحدات العسكرية الشرقية تأتي من شمال سوريا لتحيط بالصحراء الغربية السورية قبل أن تصل، إن أرادت، وسط سوريا. وقد نتج عن ذلك أن المقاومة بأنواعها كانت مقتصرة على شمال سوريا أو على الأقل كان ذلك في أغلب الأحيان غير أن ما ينتج عن ذلك أيضاً أن إمكان الإستغاثة بهم كان سيتم هناك أكثر من أي مكان آخر حينما تعاظم الخطر الفرنجي. وأدت مثابرتها وقسوة الفرنجة أن تغلب الفريق الذي كان يرى أن الفرنجة أشد خطراً من الشرقيين وأنه من الأفضل الخضوع لأمير مسلم ببلاد ما بين النهرين واستثارة اهتمامه للدفاع عن سوريا المسلمة. وكانت هذه التجربة قد تمت أولاً لصالح إيلغازي وهو الأمير التركماني في سلالة الأراتقة في ديار بكر (٣٢) في أعالي بلاد ما بين النهرين وقد كان له فضل المحافظة الدائمة على استعداد وحدات قواتها من التركمان وكانوا لا يزالوا شبه رحل وكان لأهل حلب نظرة سيئة عنهم ولكن كان من السهل استعدادهم ضد الفرنجة. وكان إيلغازي على قدر من الاستقلال يجعله خالي الذهن من أية خلفية فكرية عن إعادة الغزو السلجوقي. وقد أدى موت إيلغازي وخلفائه بعد فترة قصيرة أن اتجه ولاء أهل حلب نحو حكام الموصل الذين كانوا قد استقلوا فعلاً ولو أنهم كانوا لا يزالون رسمياً يمثلون سلطة سلجوقية. وهكذا وبعد فترة بعض الوسطاء المؤقتين احتلت حلب عام ١١٢٨ من قبل زنكي حاكم الموصل منذ فترة قصيرة وسيصير مؤسساً للأسرة الحاكمة التي سيطرت على شمال سوريا المسلمة خلال نصف قرن وبعدها على سوريا بكاملها وستمتد سيطرتها على أعالي بلاد ما بين النهرين حتى أواسط القرن الثالث عشر.

انطلاقاً من سنة ١١١٨ حتى سنة ١١٢٨ حدث اختلال في ميزان القوى بين الإمارة الإسلامية في الشمال المستندة إلى أراضي خلفية في بلاد ما بين النهرين وبين إمارة دمشق المقتصرة على ذاتها. ومع ذلك فإن دمشق بموقعها خلف لبنان وسلسلته الجبلية الشرقية، كان يصعب على الفرنجة مهاجمتها وكانت أقل أهمية بشكل عام بالنسبة لهم من حلب التي كانت تعوق التواصل بين إمارة أنطاكية وإمارة الرها. ورغم الأزمات التي كانت تنشب من حين لآخر فقد نشأت بالفعل سياسة التعايش السلمي بين الفرنجة والدمشقيين والتي اتجهت ضد الجيران التوسعيين الأقوياء بالشمال. وسنرى ما سيحدث بها في أواسط القرن الثاني عشر. في هذه الفترة حوت سياسة زنكي الوضع لصالحه في شمال سوريا وفي ملحقاتها الواقعة غرب بلاد ما بين النهرين. ومنذ تلك الفترة لم يعد الهجوم يأتي من قبل الفرنجة بل من قبل المسلم، وقد تم الاستيلاء تدريجياً على إمارة أنطاكية ونزع القسم الأكبر

من إمارة الرها وعاصمتها (١١٤٤) وهو القسم الواقع فى الشرق من منعطف نهر الفرات فلم تحتفظ إلا بالجزء الغربى المستند إلى إمارة انطاكية والإقطاعيات الأرمينية فى الطوروس الأوسط. لم تكن قد تكونت لدى زكى أفكار حول الحرب المقدسة بالشرق بيد أنه كان يمارس هذه الحرب على الصعيد السياسى (٣٢).

كيف نظرت بيزنطة إلى نتيجة الحملة الصليبية لقد سمحت بإعادة غزو غرب آسيا الصغرى وتأمين المواقع الساحلية، وهو أمر ذو قيمة كبرى. وكون أن الحملة لم تسمح باستعادة معظم بلاد الأناضول فإن ذلك فى الظاهر لم يكن أمراً بالغ الخطورة، فربما تعرض الأتراك الذين لم يكن لديهم دولة حقيقية للتلاشى شيئاً فشيئاً أو للاستيعاب حسبما يبدو. وعلى أية حال فإن البلد فى الداخل ليس غنياً أو لم يعد بالغ الغنى، وفيما وراء الكابادوس الغربى لم يعد تابعاً كلياً لليونان تماماً إلا قليلاً وفى المقابل فإن تكوين إمارة الرها وبصفة خاصة إمارة أنطاكية هى من الأحداث الخطيرة بالنسبة لبيزنطة التى كانت تعتبر هذه البلدان من ممتلكاتها، فقد كانت رؤوساً للجسور التجارية وكانت تتيح إيقاف تقدم الأرمن الذى كان وجودهم بها منذ حوالى مائة عام يعمق الإقليمية وفضلاً عن ذلك فإن إقامة الفرنجة فى سوريا وفلسطين كان يعنى توطيد النفوذ اللاتينى المضر بالمصالح البيزنطية كما يعرض للخطر تجنيد المرتزقة الفرنجة ضمن إطار النظام العسكرى البيزنطى. ومن الأمور الجديرة بالانتباه أن جهود باسيلوس، خلال أكثر من خمسة عشر عاماً كانت موجهة أكثر نحو سوريا وقيليقية ضد الفرنجة وبشكل أقل ضد الأتراك، وقد كانت المفاوضات أو الدسائس سبيلاً لإضعاف تأثيرهم عن طريق الاستفادة من صعوباتهم الداخلية. فى الأكثر كان هناك اهتمام بالحفاظ على الشواطىء الموصلة إلى خليج الإسكندرونة وقد وصلت هذه السياسة إلى درجة عقد اتفاقات إن لم تكن مع أتراك آسيا الصغرى. فعلى الأقل مع ما تبقى من السلطنة فى بلاد ما بين النهرين والعراق من أجل التدخل ضد الفرنجة.

ولم يشرع الكسيس كومنين فى تخطيط عملية التغيير إلا فى الأيام الأخيرة من حياته وهى العملية التى شدد بها ابنه وخليفته جان كومنين. وربما طالب رأى العام بسياسة حازمة فى الأناضول تؤدى بالمقابل إلى مرونة فى الجهود المبذولة فى سوريا. وعلى أية حال فقد فشلت هذه الجهود وكان لابد من محاولة اعتماد الطرق الدبلوماسية لاستعادة ما قد تم فقده بالقوة. وبالطبع لم يكن الفرنجة مستعدين للتنازل لبيزنطة عن شىء من أراضيها لكن الموقف لديهم كان قد تطور كذلك فقد اتضحت ملامح الهجوم الإسلامى المضاد أكثر فأكثر وصارت إمدادات

الغرب بعيدة وبطيئة ومحدودة. وكان قبول نوع من أنواع الحماية البيزنطية أمراً ممكناً لو لم يكن يمس بالاستقلال الحقيقي، ونحن نعرف أن بيزنطة كانت تستريح بسهولة لما يشبع حاجتها إلى المكانة المرموقة أو المبدأ.

على الأقل كان لابد للفرنجة من الحصول على حياء بيزنطة. ومنذ مجيء جان كومنين عام ١١١٨ وحتى حوالي ١١٣٥ تركزت جهوده على آسيا الصغرى حيث تحققت نتائج جزئية إلا أنها أساسية. في هذه الفترة صار زنكى حاكماً على حلب مع ما ترتب عن ذلك من نتائج على نحو ما رأينا، وقد اعتقد باسيلوس أنه يمكنه الحصول على مقطعية ريمون بأنطاكية مقابل تقديم مساعدة مناهضة للأمير التركي وكان رد فعل البورجوازية الفرنجية أقسى مما كان يتصور. فلجأ الأمير الفرنجي إلى الخدعة. لقد حارب زنكى بعد حساب كل الاعتبارات، غير أن باسيلوس، وهو أمر سيتكرر فيما بعد، توقف في اللحظة التي كان يمكن فيها أن يظهر قوته إذ كان من المحتمل أن يلغى حاجة الفرنجة إليه، واقتصر على ضمان مناطقه القيليقية الداخلية على حساب الأرمن.

الفصل السابع

الشرق اللاتيني والغرب
الأوضاع السياسية حتى الحملة
الصليبية الثانية

هل كانت أواصر الصلة بين الصليبيين العائدين إلى أوروبا متباعدة مع أبناء عموماتهم المقيمين في الشرق؟ من الطبيعي أن الفرنجة الذين استقروا في الشرق كانوا في وضع حرج. فمن جهة لم يكن بإمكانهم الانفصال عن أوروبا دون أن تُقَطَّع عنهم المعونات فيوشكون على التعرض للهلاك. ومن جهة أخرى فقد شعروا بعد إقلاعهم عن فكرة العودة بعد فترة من الزمن بأنهم أعضاء في الدول الجديدة التي عملوا على تأسيسها، ومن ثم لم يكن ليقبلوا نوايا القادمين الجدد في منازعتهم الأوضاع المكتسبة بالشرق أو مشاركتهم فيها بدعوى أنهم قدموا لإغاثتهم. وهنا نجد تشابهاً مفهوماً مع سلوك صفار الأمراء الأتراك إزاء أبناء عموماتهم في بلاد ما بين النهرين.

كان جودفروا البويوني قد استثمر ممتلكاته ومات بالشرق بعد فترة قصيرة. ولم يكن في إمكان أحد من خلفائه الأوربيين أن يطالب بممتلكاته بالشرق. أما بالنسبة لآخيه بودوان فلم يكن في واقع الأمر يملك شيئاً في أوروبا.^(١) وعاد غيرهما من القادة الصليبيين إلى أوروبا. ولقد ظل ريمون الصنجيلي وحده في الشرق، في الوقت نفسه الذي كان فيه كونتاً على تولوز وبروفنسيا. وهذا يعني أن ما عداه من أن الفرنجة الذين مكثوا في الشرق كانوا يشعرون بأنهم بمنأى عن هذه الوصاية أو تلك من الوصايات الممكنة. من المؤكد أننا لا نعرف ما إذا كان لهذا العامل دخل في هذا الشأن لكن يبقى أن الأمور تمت في الواقع بهذا الشكل. لقد كانت أقل وضوحاً في أنطاكية بشأن بوهيموند الذي ظل حاكماً على ترانتو، غير أن الأمر كان يتعلق بمنطقة نفوذ صغيرة سادت بسببها علاقاته مع شقيقة وأبناء عمومته، زد على ذلك أن بوهيموند عمل فيما بعد على تصفية هذه الإقطاعية ولا بد أن نلاحظ كذلك أن قيامه بتشكيل جيش ضد بيزنطة عام ١١٠٦ قد تم في فرنسا وليس في إيطاليا، وعلى أية حال لم تكن المسألة تتعلق بأية تبعية، وقد بينت عدة أحداث عارضة كذلك التي وقعت عند موت بودوان الأول بالقدس أن بارونات الشرق لم يكونوا راضين بهذه التبعية.

فريمون البوايتي، الذي استدعى إلى إمارة أنطاكية، لم يكن قط كونتاً على كونتية بواتو، أما فولك الأنجي فقد تخلص عن كونتية أنجو، كما لم يكونا كذلك مُقَطَّعين تابعين لكونتات هذه الإمارات، وفضلاً عن ذلك فإن أيّاً منهما لم يكن ينتمي للمناطق أو العائلات الأصلية للأمراء الذين خلفوهم في الشرق. ولا نعرف على وجه الدقة الأسباب التي من أجلها وقع اختيار البارونات عليهم^(٢)، وما هو مؤكد أن ريمون كان يعارض الطموحات المحتملة لنورماندي إيطاليا^(٣).

أما ريمون التولوزي فإننا لا يمكننا معرفة كيف كان يتصرف كملك على القدس أو ككونت على طرابلس فيما بعد لأن الموت كان قد أدركه، وتنازع أبناؤه بشكل جعل كونتية الشرق لا تنتمي أبداً لمن يمسك زمام دولة الغرب، مع أن هذا الأخير ربما كان قد تمنى ذلك أو ظن الناس كذلك (حتى الحملة الصليبية الثانية). بالطبع لا يعنى هذا أن أيًا من الأمراء المقيمين في الشرق لم يحافظ على صلته بوطنه الأصلي. وهذا لا يستبعد أن تكون بعض الأسر الأميرية قد فكرت في ممارسة شكل ما من أشكال الوصاية. ولم تكن فترة كبار الملوك قد حانت بعد غير أن المسألة كانت واردة رغم أن الناس لم يطرحوها قط فيما يبدو بالنسبة للأسرة الفالاندرية والصقلية التي صارت موحدة لاحقاً ولو لم تكن مسألة جوهريّة بالنسبة لكليهما.

فلنتحدث أولاً عن صقلية، وهي واقعة تقريباً، في منتصف الطريق بين الغرب والشرق. لقد دارت الحملة الصليبية ولم يشارك بها من النورمانديين إلا نورمانديي بوهيموند وانتهت إلى إقامة دائمة لـ «لاتين» في سوريا - فلسطين. وكان أغلب الجنود والقادة بها من الفرنسيين بل وغالباً من شمال فرنسا فبلادهم الأصلية كانت بعيدة والجانب الساحلي المتقدم داخل منطقة البحر المتوسط والدول النورماندية بإيطاليا الجنوبية وصقلية كانت أكثر قرباً. ولم يكن الغياب النورماندي في البداية يمنع أن تكون هذه الدول أكثر اهتماماً بصورة مباشرة من مناطق النفوذ الفرنسية الكبرى بما كان يدور في منطقة الشرق الأوسط ولاسيما في سوريا. ولم تحظ هذه الأمور بما يكفي من الاهتمام، وقد كانت هناك مبالغة في تصورهما كما لو أن امتلاك مملكة بيت المقدس من قبل الإمبراطور فريديريك الثاني المنحدر من النورمانديين في القرن الثالث عشر، كانت حدثاً بدون مقدمات. ولم يكن الأمر كذلك في شيء.

ثمة معطى أولى فرضته الجغرافيا وهو أن الشرق اللاتيني كان ضعيفاً وهشاً ومحاطاً بالأعداء ولم تكن موارده الخاصة كافية من حيث الرجال والسلع المختلفة والوسائل المادية لجلبها. وكانت أقرب منطقة تسمح بالحصول عليها هي الأراضي الإيطالية النورماندية. وقد حفظ لنا التاريخ عن طريق الصدفة ذكراً لسفينة كانت تنقل الإمدادات من مدينة أوترانتو(*) إلى أنطاكية (لا بد أن الأمر يتصل هنا بقضية تخص بوهيموند) وبعد ذلك بفترة قصيرة كانت هناك إمدادات لفرسان الداوية وفرسان مستشفى القديس(**) يوحنا ببيت المقدس عن طريق

(*) مدينة واقعة بجنوب إيطاليا - المترجم -

(**) استخدم المؤلف هنا الاستبارية - الفرسان البيض أو فرسان القديس يوحنا - كمستشفى وكجماعة وككتيسة في آن معاً. - المترجم

إيطاليا الجنوبية. غير أنه من المفيد أن تتم، بصفة خاصة، دراسة توزيع الثروات الأولى التي حاولت الكنائس اللاتينية بالشرق منذ البداية اكتسابها أو امتلاكها بفضل هبات المؤمنين بالغرب مثل كنائس نوتردام يهوشافاط وسانت ماري اللاتينية ومستشفى القديس يوحنا حتى تقتصر على بداية القرن وعلى الكنائس التي لدينا معرفة بها^(٤). ولهذه الملاحظة دلالة معبرة ذلك أنه إذا كانت أغلبية ممتلكات كنيسة قبر السيد المسيح موجودة في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا لسبب يصعب التأكد منه (هل بسبب عطايا جيش الصنجيلي ؟) فقد كان لها مع ذلك الكثير منها في إيطاليا القارية بالجنوب (بارليتا وفينوساوتروا وبنيفانت، إلخ). فقد خصص لكنيسة سانت ماري اللاتينية وقف في صقلية. وكان لنوتردام يهوشافاط ثروة مالية كبيرة سواء في صقلية وكالابريا نتيجة إرث روجيه الأول أو في أبولي نتيجة إرث بوهيموند. وسرعان ما اكتسب مستشفى القديس يوحنا، الذي كانت له أيضاً ثرواته الأولى بجنوب فرنسا، ثروات أخرى على الطريق المؤدية من فرنسا إلى باري وتارنتو وأوترانتو من جهة وبصقلية من جهة أخرى حيث وجدت بها إحدى القيادات قبل عام ١١٣٦ (الامر الذي يفترض وجود خيرات وفيرة) وقد أضيف إليها فيما بعد ثروات أخرى بناپولي وكابو وبارليتا، ولا ينبغي أن ننسى أن الأرشيفات المتعلقة بها قد ضاعت. ومن المعروف جيداً أنه عندما سقطت الأراضي اللاتينية بالشرق في القرن الثالث عشر. التجأت الطوائف الكنسية إلى إيطاليا الجنوبية وهناك تم العثور على بعض الأرشيفات الخاصة بهما. والسبب نفسه يمكن أن تكون كنيسة جتسماني^(٥) قد احتجزت بعض الثروات في صقلية. ولا معنى لهذه الممتلكات إذا لم تكن هناك علاقات بحرية منتظمة بين إيطاليا النورماندية والشرق اللاتيني حتى ولو أمكن تأمينها بصفة وقتية بواسطة بحارة الموانئ الشمالية في رسوهم بإيطاليا الجنوبية قبل أن يعبروا شرق البحر المتوسط.

وتفسر هذه العلاقات ذاتها أن الأمراء النورمانديين قد استطاعوا أن يولوا اهتماماً نشطاً بالشرق اللاتيني ؛ وذلك بإرسال الأموال الذي كان يتم بشكل أكثر خفاء من المشاركة العسكرية، كما ثبت ابتداءً من عام ١٠٩٩ و١١٠٢^(٦)، وبعد ذلك بقليل أولوا اهتماماً بدامبرت البيزى الذي صار بطرياركا على القدس. على إثر ذلك استقرت العلاقات بين الفاطميين والشرق اللاتيني (فلم تحدث عداوات بينهما من عام ١١٢٤ إلى عام ١١٥٣) ولم يكن الاهتمام

(*) جتسماني : قرية شرقى اورشليم فيها بستان الزيتون الذى نازع فيه السيد المسيح. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

المعقود على القدس فى تناقض مع الصداقة الفاطمية، كما كان الحال بالنسبة للصداقة الحلبية على سبيل المثال.

ولا نعرف شيئاً عن الامتيازات الممنوحة للرعايا النورمانديين بشكل عام ولا فى مدينة أمالفى^(٧) بشكل خاص. أو فى مدينة سالرنو فى النصف الأول من القرن الثانى عشر فى الشرق اللاتينى، وعدم معرفتنا بها ليس دليلاً على أنها لم تكن موجودة، وفى كل الأحوال لم يكن بوسع الصليبيين أن يكونوا متشددين جداً على صعيد الضرائب تجاه من يجلبون إليهم المواد الغذائية التى يحتاجونها. ونظراً للمكانة التى كان إيطاليو الجنوب يحتلونها فى مصر فمن المؤكد أنه لم يكن هناك ثمة ما يدعوهم لكى يولوا أهمية تجارية كبرى للشرق اللاتينى الذى كان أقل قدرة بكثير على إمدادهم بالمواد الاستهلاكية التى يرغبونها، كما كان عاجزاً عن شراء السلع التى يمكنهم بيعها. غير أن الأمور قد سارت سياسياً بصورة مختلفة، وقد حفظ التاريخ لنا فى هذا المقام بعض الجوانب المهمة.

وكان الأمر الرئيسى هو زواج بودوان الأول المقدسى^(*) للمرة الثانية، وهو أمر مناف جداً للأصول الشرعية، بأديلايد وهى ابنة واحد من عائلات المونتيفراتى التى سنعود للحديث عنها، ولأسيما أنها كانت أرملة روجيه الأول الصقلى ووالدة روجيه الثانى الشاب. وكانت منفعة بودوان جلب مهر غال، وكانت مصلحة الأسرة النورماندية الحاكمة قد فهم بأنه إذا لم يولد طفل من جراء هذا الزواج (وهو أمر محتمل جداً نظراً لسن العروس) فإن خلافة بودوان الأول الذى لم ينجب أطفالاً كذلك من زواجه الأول، ستؤول إلى روجيه الثانى، وهكذا كانت ستتحقق قبل مائة عام وحدة الأرض التى تحققت فيما بعد على يد فريديريك الثانى. لقد أخفقت هذه الوحدة نظراً لأن بودوان الأول اعتراه الخوف وهو على فراش الموت فطلق أديلايد ولكنه لم يعد المهر، ونظراً بلاريب، إلى أنه كانت هناك طائفة من البارونات المستنديين إلى البطريارك يؤثرون على روجيه الثانى بودوان البورجى الأقرب إليهم والأقل مقدرة، فهو ابن عم بودوان الأول وكان آنذاك كونتا على الرها، غير أن مغزى هذه القصة كان واضحاً^(٨).

وكان بوهيموند الأول قد امتلك لفترة قصيرة تارنتو وأنطاكية فى الوقت نفسه. وعندما مات فى عام ١١١١ ترك ابناً شاباً باسمه تولى الحكم تانكريد^(**) وروجيه على التوالى مع احتفاظهم فى الوقت ذاته بالقباهم كأمرء من نون أن يبدى أبناء عمومتهم بإيطاليا مشاعر

(*) بودوان الأول المقدسى. نسبة إلى بيت المقدس. (المترجم)

(**) تانكريد. يعرف فى الكتب العربية القديمة باسم دنكرى. (المترجم)

القلق من جراء ذلك بل العكس إذ أرسلوا إليهم إعانات مالية^(٩). وعندما بلغ بوهيموند الثانى سن الرشد، بعد وفاة روجيه، أبحر باتجاه الشرق عام ١١٢٧. وقد ساعده الدوق وليام البويى وأعطاه أسطولاً بحرياً غير أنه فى المقابل لم يحصل على منطقة نفوذ بل حصل أيضاً على الوعد بأن يتوارثا إذا مات أحدهما بدون إنجاب^(١٠). وهنا أيضاً فشل الأمر ؛ فقد مات بوهيموند الثانى أثناء عام ١١٣٠ مقتولاً فى صدام مع الأتراك فى قيليقية، لكنه كان قد تزوج إحدى بنات بودوان الثانى وأنجب منها طفلة تزوجت فيما بعد بريمون البواتيى مما تسبب فى بعض الخصومات، وفى هذه الأثناء انتقل عرش القدس كذلك إلى فولك الأنجى عن طريق الزواج.

من كل هذا يملكنا شعور واضح بالتعارض بين أحد الأحزاب «النورماندية» (الإيطالية) والبارونات الفرنسيين الذين كانوا يبحثون فى فرنسا عمن يقودهم^(١١). غير أننا لا نرى أن عائلة الأنجى، أو عائلة بواتييه قد سلكتا فى الشرق مسلك النورمانديين قط رغم قوتيهما وهو أمر مفهوم تماماً. لقد قبلتا العروض المقدمة إلى أحد أفراد عائلتهما لكننا لا نرى أنهما قد تحركتا من أجل هذه العروض ولا زعمتا التحكم فيما يحدث بالدول التى عُن أحد أقاربهما رئيساً عليها. ويبدو بالنسبة للنورمانديين أنهم توقفوا عن التطلع إلى أنطاكية، بيد أننا سنراهم يعاودون الظهور من جديد فى ظروف أخرى بالشرق فى نهاية القرن. ولأول وهلة يمكن أن نجد تناقضاً بين تلك السياسة التى اتبعها النورمانديون فى بداية القرن بالشرق اللاتينى وموقفهم إزاء المسلمين كما لاحظناه. وقد تفوتنا بعض المعطيات فى هذا الشأن غير أن التناقض كان قد تضائل من جراء الهدنة القائمة بين مصر ومملكة بيت المقدس. لقد بينا بالنسبة للغرب المسلم كيف أن نورماندى صقلية قد شرعوا عشية الحملة الصليبية فى ممارسة سياسة حسن الجوار معه. آنذاك كان الأمر يتعلق أساساً بالزيريين فى تونس الذين اضعفتهم تبعات الغزو الهلالي. وبما أن المرابطين لم يكونوا قد وصلوا إلى المغرب الشرقى فلم يكن يعبأ بهم النورمانديون كثيراً فيما يبدو، إذ كان اهتمامهم بمصر أكبر نظراً للعلاقات التجارية التى كانت تربط رعاياهم بها. ولا تسمح لنا الوثائق التى فى حوزتنا بمعرفة ما إذا كانوا فى بداية القرن قد حافظوا على السلام مع الفاطميين والزيريين فى الوقت نفسه حيث لم يعد الفاطميون يكثرثون بالزيريين قط منذ القطيعة الدينية فى أواسط القرن الحادى عشر. وفى هذا الشأن لم تكن ثمة دلالة تذكر لاحتلال مالطه التى كانت موقعاً إسلامياً متقدماً غير تابع آنذاك لأحد من الناحية السياسية. وعلى أية حال ومع مرور الوقت كان التحالف الفاطمى يتجلى بوضوح أكثر.

لقد حُفظت لنا مصادفة وثائق تتضمن ذكريات السفارات فى سنة ١٠٩٩ ذاتها (أى أثناء الحملة الصليبية) وفى عام ١١٢٢ عشية قيام فرنجة الشرق وأهل البندقية بالهجوم على صور^(١٢). غير أن الأكثر إثارة للانتباه هو تلك المراسلات بين روجيه الثانى والخليفة الحافظ عام ١١٣٥^(١٣) والتي اكتشفت حديثاً فى مجموعة متأخرة من الرسائل النموذجية.

وثمة رسالة ليس هناك ما يدعو للتشكيك فى صحتها ذات نبرة مثيرة جداً تفصح عن تعاون وثيق أقرب ما يكون إلى الصداقة. لا شك أن وجود بهرام الأرمنى المسيحي بالوزارة وهو شقيق البطريرك الأرمنى بسوريا - قيليقية قد مكن من تدعيم هذه الصداقة. لكن على الرغم من الأهمية التى استمر روجيه من جهة والخليفة من جهة أخرى يظهرانها إزاءه فلم تختف هذه الصداقة عبر المراسلة فى عهد وزارة رضوان، الذى كان خصماً وخلفاً لبهرام فى فترة لم تتغير سياسة القائدين إزاء بعضهما البعض. ويرغم أن الطابع المتكلف والمسهب للأسلوب القنصلى يحول دون إعادة نشر النص فإن تحليل المضمون سيكون بليغاً بما فيه الكفاية. فقد فسر روجيه كيف قادت التصرفات السيئة لسكان جربه إلى احتلال الجزيرة، وحينما عَلمَ الخليفة، عبر هذه الرسالة، نبأ احتلال المسيحيين للأرض الإسلامية الواقعة على خطوط التواصل بين مصر والمغرب تفهم الأمر وأبدى الموافقة. وكانت إحدى السفن المصرية قد تعرضت للتفتيش من طرف مجهول داخل المياه الصقلية فقام الملك بتحريرها ووضعها تحت حمايته، والحق لم تكن هذه السفينة سفينة عادية بل كانت تتاجر لصالح الحساب الشخصى للخليفة. ونعلم فى المقابل أن روجيه كان يتاجر فى الإسكندرية والقاهرة حيث تُدفع عنه نفقات حقوق الاستخدام. بل لقد حصل على الامتيازات نفسها عن قائده البحرى الكبير المسمى جورج الأنطاكي وهو من عائلة سورية يونانية مهاجرة كان قد استولى قبل قليل على جربه بعد أن انقطع عن خدمة المسلمين الزيريين ليتولى خدمة روجيه المسيحي، كان هناك فى سجون الخليفة مسيحيون مما أعطى لروجيه بعض المبررات كي يجعلهم تحت حمايته فأطلق الخليفة سراحهم. وسأل روجيه عما آل إليه أمر صديقه الوزير بهرام بعد أن أتاح به رضوان المسلم وكان هذا السؤال أشبه ما يكون بالتدخل فى الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وقد قُدِّمَ له بيان عن أسباب هذا الانقلاب من وجهة نظر رضوان غير أنه قد تم التأكيد له على الاهتمام بأمر بهرام وكان اهتماماً صادقاً إذ أن الخليفة بعد أن عمل على إرجاعه سرّاً إلى مكان منزله داخل قصره حيث مات، شارك بنفسه فى تشييع جثمانه. وأخيراً أعلن عن تبادل السفراء وعقدت الأمال على تلقى الأخبار. وبغض النظر عن التفاصيل فإن هذا كله كان يفترض بالطبع

مُنَاخًا كان بذاته جديرًا بالملاحظة، فلا غرابة أن يستفيد الصقليون وأهل مدينة سالرنو وغيرها من المدن من هذا المناخ، كما استفادت منه ولا شك مدينة أمالفى التى استمرت فى التجارة بالشرق، حتى بعد ما تعرضت له من مصائب. وبما أن البيازنة قاموا بتخريبها عام ١١٣٥ فلا بد من التسليم أنه حتى بعد خضوعها للنورماندين فإنها ظلت فى موقع المنافسة فكان لابد لها أن تحافظ على امتيازاتها القديمة بمصر^(١٤). ربما كانت هناك حالة أخرى لعائلة إقطاعية أولت الشرق اللاتينى أهمية مميزة قبل تطور الملكيات الفرنسية والإنجليزية وسيكون من المبالغة أن ندعى، كما يفعل البعض، أن الميول والمنازعات السياسية للغرب قبل القرن الثالث عشر لم تتداخل فى الشرق. وسنرى ذلك مع الدول الإيطالية لكننا نود التحدث هنا عن الفالاندر. لاشك أن روبرت الفالاندرى لم يكن سوى قائدًا صليبيًا ضمن غيره من القواد، وبما أنه لم يكن يطمع فى البقاء فى الشرق كما لم يكن قد تلقى أى تفويض من البابا أو من أى شخص آخر فإننا لا ينبغي أن ننسب له أنذاك أطماعًا فى الشرق اللاتينى الذى كان لا يزال فى طور النشوء. ومع ذلك فإن والد روبرت وهو روبرت لوفريسون كان قد أدى الحج قبل الحملة الصليبية وعمل فترة من الوقت فى خدمة الإمبراطور البيزنطى الكسيس كومنين، ومع عودته إلى دياره أرسل إليه محاربين ضد الأتراك والبشجنج^(١٥). ونظرًا للدعاية التى قام بها بوهيموند، أثناء حملته المعادية لبيزنطة، فقد نسبت إليه رسالة تدعو للاعتقاد بأنها مرسلة من طرف الكسيس كومنين إلى روبرت لوفريسون وهى رسالة مزورة فى جزء منها بلا شك، والحق أنه يصعب على المرء ألا يعتقد أن الجزء الأصيل منها على الأرجح كان يتعلق بالكونت الفالاندرى أكثر من تعلقه ببوهيموند الذى لا يرد ذكره بها فى أى مكان^(١٦). من المؤكد أن موقف ابنه روبرت الذى لم يكن يفكر فى البقاء بالشرق كان موقفًا متحفظًا طالما بقى فى فلسطين وذلك برغم قرابته لبوهيموند. فلم يعارض انتخاب جودفروا البويونى الذى كان فى أوروبا جاره وحليفه وقد خلف جودفروا شقيقه بودوان البولونى ثم ابن عم هذا الأخير بودوان البورجى. وعندما انتقلت خلافة المملكة بعد ذلك إلى أيدى أسرة أخرى كان ذلك قد تم عبر الزواج مع الوريثة التى كانت المالكة الوحيدة للعرش. يمكن للمرء إذن أن يتساءل عما إذا لم يكن الكونتات الفلاندريين قد خولوا لأنفسهم نوعًا من حق الاطلاع على ما كان يجرى بالمملكة مع أنهم لم يكونوا قط سادة على إقطاعاتها. ومن المحتمل أن ما يرويه أحد كتاب الحواريات الفلاندريين حول إحدى الوقائع لم يكن كله من قبيل الأوهام، فهو يرجح أن يكون حزب

(١٤) البشجنج : شعوب تترية أقامت على البحر الأسود فى القرن التاسع ووجهت حملاتها على بيزنطية وتراقيا. أبادها الإمبراطور يوحنا الثانى كومنين ١٢٢٢. المنجد فى اللغة والإعلام - المترجم.

البارونات الفلسطينيين المنافسين لبودوان الثانى، ولعله كان مناصراً لأوستاش البولونى منذ عهد حديث، قد أوفد من يقدم التاج إلى الكونت شارل الفالاندرى، ويشهد ذلك، على الأقل أنهم فى إقليم الفالاندر كانوا يفكرون فى مسألة العرش^(١٦)، ولم يكن تييرى الأكراسى، خليفة شارل، معادياً لوالد زوجته فولك الأنجى الملك الجديد للقدس؛ وفى عام ١١٢٠ حمل إلى الشرق معونات لا نملك بشأنها رأياً حاسماً.

إن سلوك تييرى نفسه سيبدو أكثر اضطراباً وكذلك سلوك ابنه فيليب من بعده فى الحملات المتتالية التى قاما بها فى الشرق. فقد شارك تييرى فى الحملة الصليبية الثانية وفى حصار دمشق. وبعد استيلائه على المدينة كان يرغب فى تسلمها كمنطقة نفوذ من ملك فرنسا أو الإمبراطور الألمانى وذلك بمعزل عن ملك القدس الذى كان صاحب إقطاعية غير جدير بلقب السيد الأعظم. وقد كان عداا البارونات الفلسطينيين لهذا المشروع أحد الأسباب المؤدية لفشل هذه الحملة، فكون هذه الحملة كانت موجهة ضد دمشق وليس ضد العدو الرئيسى وهو نور الدين الحلبى كان خطأ لعل تييرى تنبه إليه، وعندما عاد مرة ثالثة بدأ بنجدة أنطاكية بيد أنهم سعوا دائماً للبحث عن إقطاعية كبيرة لمنحها إياه حتى تتوثق صلته بالشرق أو على الأقل حتى يتم الحصول على مساعدات منتظمة منه. وربما أراد بودوان الثالث بالقدس أن يمنحه القسم الأوسط من نهر العاصى غير أن هذه المنطقة كانت تنتمى لأمير أنطاكية، فكان بودوان يود أن يستلمها منه، وهو أمر لا يتصور بالنسبة لكونت فالاندرى. ومع عودة تييرى للمرة الرابعة إلى الشرق عام ١١٦٤ شارك فى الدفاع عن أنطاكية التى كانت مهددة من قبل نور الدين، بدون أن نعرف ما إذا كان الأمر يتعلق بالنسبة إليه بشىء آخر.

لقد وقعت القصة نفسها بالنسبة لابنه فيليب، ففى عام ١١٧٧ جاء إلى الشرق بالاتفاق مع بيزنطة حيث تم الاعتماد عليه من أجل الاشتراك فى حملة موجهة إلى مصر. وكان ابن عمه بودوان الرابع أبرصاً، ومع وفاة الوصى على العرش تم إعطاء الوصاية إلى فيليب مع قيادة الشؤون العسكرية غير أنه لم يكن يستطيع تمديد فترة إقامته بعيداً عن كوتتيته إلا مخاطراً. وكانت خطته تقتضى تزويج الوريثين الشابتين للقدس مع ابنى أحد مَقطعيه الصغار. لكن هذا الحل على الصعيد العسكرى كان سيئاً ولم يقبله البارونات وكان على فيليب أن يعود مرة أخرى مع الحملة الصليبية الموجهة آنذاك من قبل فيليب أوجست وريشار قلب الأسد حيث لقى حتفه. ونعرف فى النهاية أن العائلة الفالاندرية كان لابد أن تكون ممثلة فى الحملة الصليبية الرابعة بشخص الكونت الجديد بودوان الذى آلت إليه إمبراطورية القسطنطينية. هل أثارت

طموحه ؟ هل كان وجوده، فى أضعف الأحوال، لاستلامها وكان عليه هذه المرة أن يقبل بدون تردد.

لقد وصلنا إلى فترة كان النفوذ المهيمن فى الشرق قد انتقل إلى الحكام الكبار غير أن أسبقية الفلامانديين واستمرار تدخلاتهم تفترض أن الكونتات الفالانديين كانوا يشعرون بنوع من الأحقية، ولو كانت غامضة، على شؤون الشرق اللاتينى. وعلى أية حال فإن هذه المسألة جديرة بالذكر.

فى مستوى أقل كان الشرق اللاتينى، يتلقى زيارات من الغرب، وجاء بعض صغار السادة الإقطاعيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم غير محظوظين فى الغرب بما فيه الكفاية للبحث عن الثروة فى الشرق، ولا نعرف منهم إلا أولئك الذين «نجحوا».

ومن بين هؤلاء نجد على سبيل المثال، أسرة الأبلين الذين ينحدرون فيما يبدو من أصل إيطالى نورماندى متواضع جداً (إلا أنهم كانوا مستقلين عن نورماندى أنطاكية) وفى مرتبة أعلى بعض الشىء نجد آل الكورتيناى الذين سيكونون فيما بعد ممثلين فى الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ثم أفراد أسرة اللوزينيان وأسرة البريان.... إلخ^(١٨). لابد من إعداد قائمة وتاريخ هذه الأسر «العالمية» التى يحتمل أن تكون قليلة العدد. بيد أن هناك نمطاً آخر هو نمط الأسر التى نجد أفرادها يتميزون بالجرأة والمغامرة فى كل مكان تقريباً إلا أنهم ظلوا مرتبطين بأصولهم الأسرية التى استفادت من ثرواتهم. وتعتبر أسرة الأليراميسى سادة منطقة مونفيرات بشمال إيطاليا أفضل نموذج فى هذا الشأن.

وقد تزوج أفراد أسرة الأليراميسى المونفيراتية، وهى أسرة كثيرة العدد، فى أماكن عديدة. وجاء الأخ الأصغر ليحارب مع روجيه الأول الصقلى الذى تزوج أخته أديلايد والتى ستكون الزوجة الثانية لبودوان الأول المقدسى ووالدة روجيه الثانى، ومن الجائز أن يكون هناك فرد آخر من العائلة قد انخرط فى جيش الحملة الصليبية بقيادة بوهيموند أو تانكريد. وقد شارك وليام الخامس، الذى تصاهر مع كل من الأسرة الملكية الألمانية والأسرة الملكية الفرنسية، تارة فى الجيش الفرنسى وتارة أخرى فى الجيش الملكى الألمانى خلال الحملة الصليبية الثانية. وفيما بعد تزوج ابنه البكر وليام الملقب بذى السيف الطويل من سيبيل التى كان يفترض أن ترث عرش مملكة بيت المقدس على أثر إصابة بودوان الرابع بالجذام، ونُصِبَ فيكونتاً على يافا وعسقلان، فهو والد بودوان الخامس إلا أنه مات مبكراً وربما دس له السم بإيعاز من أعضاء الحزب الفلسطينى المعادى. وفى الفترة نفسها تقريباً تزوج رونية أحد أخوته وهو فى السابعة عشرة من عمره مريم ابنة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين وكانت تبلغ من العمر ثلاثين عاماً. ومن الجائز أنه حصل على مقاطعة تسالونيك أو جزء منها بشكل أو

بآخر. وفي عهد الكسيس الثاني تمرد، باسم زوجته، فسجن بأمر من أندرونيك. وفي هذا الوقت مات يودوان الرابع بالشرق وهو في ريعان الشباب. وذهب وليام المونفيراتي في شيخوخته إلى الأراضى المقدسة حيث تم أسره في حطين ومات عام ١١٩٠. وقد استدعى ابن ثالث له هو كونراد من قبل الإمبراطور الجديد إسحاق أنج ليتزوج من أخته تيودورا، ويتحالفه مع اللاتين بالقسطنطينية سحق تمرد البراناس لصالح إسحاق. ومع ذلك لم يشعر بالأمان فكان أن رحل كذلك إلى الأراضى المقدسة ووصل أثناء معركة حطين بعد أن اقترض مالا من أحد رجال الأعمال^(١٩) في كونت، فأنقذ صور وتمكن من الإفراج عن أبيه. وبقيّة القصة معروفة حيث وصل إلى السلطة (عن طريق زواجه الثاني الذي لم يسبقه طلاق مع إيزابيل التي كانت متزوجة أيضاً) ثم تم اغتياله.

وغنى عن البيان أن شقيقه بونيفاس سيكون واحداً من القادة الرئيسيين للحملة الصليبية الرابعة وسيصير حاكماً على تسالونيك حيث سيخلفه أفراد أسرته، فهذه الأسرة، كما نرى كانت رائعة.

سنلاحظ أنه، في كل هذا، لم يكن الأمر متعلقاً في شيء بالبابوية^(٢٠). ومع ذلك فالحملة الصليبية. ولو أنها كانت مخالفة بعض الشيء لما توقعه أوربان الثاني فإنها تمت قبل كل شيء بمشيئته وتنظيمه. وبعدها تحقق النصر ومات أوربان الثاني فإن الأمر الجدير بالانتباه هو التحفظ النسبي للبابوية في القرن الثاني عشر. فقد رحل أوربان الثاني بدون أن يفشى ما قد يكون لديه من آراء، حول مستقبل البلاد المحتلة ويبدو أن خلفاءه كان لديهم القلة القليلة منها. ولا شك أنهم كرسوا تنظيم الكنيسة اللاتينية بالشرق عبر المنازعات بين الملوك الأوائل والبطاركة بدون اكتراث بما يمكن أن يطرحه هذا التنظيم من مشاكل بشأن العلاقات مع الكنيسة الملكية أو غيرها من كنائس الشرق الأخرى. وأقروا الهبات التي كان يقدمها الأمراء والمؤمنون لهذه الكنائس وقلما اهتموا بتأسيس جماعة فرسان الداوية، ولم تكن هذه الفكرة قد صدرت عنهم، بيد أن سياستهم كانت أقل حزمًا فيما يتعلق بالمشكلة الرئيسية التي نتجت عن ميلاد مملكة بيت المقدس، إذ لم يفكر أحد في أن يجعل منها دولة ثانية للكنيسة الرومانية. وما هو أجدر بالملاحظة أن أحداً لم يقترح أن تكون مملكة بيت المقدس إقطاعاً للكرسى البابوى على غرار ما فعلته بعض دول أوروبا، فالمناقشات التي تركت أثرها في السنوات الأولى لتأسيس المملكة كانت تتركز حول ما إذا كانت ستصبح مملكة مثل غيرها من الممالك الأخرى أم دولة لها إدارة مباشرة أو مُسيرةً بوسيط معين من قبل كنيسة القدس وما إذا كان ينبغي أن يكون للمدينة المقدسة وضعية قانونية خاصة^(٢١). من المحتمل أن البابوية كانت تتمنى إقامة مملكة عادية، ربما خوفاً من أطماع كنيسة منافسة^(٢٢)، قد يساعد نفوذ المدينة المقدسة على ظهورها، ونظراً كذلك لاحتياجاتها إلى الدفاع العسكرى. غير أننا لا نستطيع القول إنها كانت

تملك في هذا الشأن سياسة نشطة وحازمة. ورغم العلاقات المميزة للبابوية في أوروبا مع النورمانديين والبروفنسيين لا نرى أن البابوات كان لهم ما يدفعهم إلى التدخل حتى في أنطاكية أو طرابلس تدخلاً أكبر من تدخلهم في أكثر الدول لامبالاة^(٢٣). وحتى في مسألة تتعلق بالنظام الداخلي مثل مسألة ضم أسقفية صور إلى بطاركة أنطاكية أو بطاركة القدس، لا نرى أن روما عرفت كيف تختار بوضوح بين مطلب الأولى وهو مطلب مؤسس على خريطة كنسية تقليدية ومطلب الثانية التي تدعى قيامها بمطابقة حدودها مع الحدود السياسية للملكة. كما لا يبدو أنه تم استشارة البابوية بالقدس أو بأنطاكية بصدد مشاكل الخلافة.

إذا نظرنا إلى القدس من جهة الغرب^(٢٤) فإنها كانت لاتزال بالطبع تتمتع بحظوة المدينة المقدسة. لقد عمل الغزو الفرنجي ونمو الرحلات البحرية انطلاقاً من المدن الإيطالية على تحسين أوضاع الحج وتعظيم عدد الحجاج القادمين إلى الشرق. كان البعض يطيل المكوث فيه ويشارك في حملة عسكرية ما إذا أنس في نفسه شيئاً من الاستعداد للقتال، حاملاً بعض العون دعماً صغيراً لأبناء عمومتهم بالشرق مع تزويدهم بأخبار الغرب، والحفاظ على الوعي بالانتماء كما يشهد على ذلك إرسال رفات القديسين إلى كنائس الوطن الأصلي^(٢٥). لكن يكاد ألا يستقر أي أحد منهم استقراراً نهائياً بالشرق^(٢٦). وكذلك كان شأن التجار يأخذون ولو أن عدداً منهم كانوا يتخذون وقتاً إضافياً لزيارة الأماكن المقدسة أثناء تنقلاتهم التجارية. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأعضاء الجماعات الدينية أو العسكرية كالبندكتية^(*) والداوية^(**) والإسبتارية^(***). فالخيرات التي تملكها طوائفهم في الغرب كانت تفترض حداً أدنى من العلاقات وكان لديهم على الأقل سفينة خاصة بهم.

وكان فرنجة الشرق أنفسهم يهتمون برحلات الحج بقدر ما كانوا يستطيعون الاستنفاع

(*) البندكتية : نسبة إلى راهب إيطالي يدعى بنديكيس أو مبارك (بنوا) (٤٨٠ - ٥٤٧) الذي أسس رهبانية سميت باسم (البندكتين) في جبل كاسينو ٥٢٩م. ووضع دستوراً للحياة الرهبانية مازال متبعاً حتى اليوم في الكثير من الرهبانات الغربية. (المترجم)

(**) الداوية : منظمة دينية عسكرية كونها فارس فرنسي يدعى هوج البايبي وبعض رفاقه حيث أصروا عام ١١١٩ على تكوين قوة خاصة لحماية الحجاج والدفاع عن الأرض المقدسة وقد منحهم بودوان الثاني مكاناً للإقامة على مقربة من «هيكل سليمان» فسموه باسمه وكانوا يرتدون الملابس البيضاء وعليها الصليب الأحمر. والداوية تحريف لاسم النبي داود والد سليمان الحكيم. (المترجم)

(***) الإسبتارية : هم الفرسان البيض (أو فرسان القديس يوحنا) وتعود قصتهم إلى عام ١٠٤٨ حينما سمح حاكم القدس المسلم لتجار أمالفي ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين وبعد الحرب الصليبية الأولى قام بعض أعضاء المستشفى بالعناية بالمرضى وتضميد جروح المحاربين. وفي عام ١١١٢ أصر ريمون البويي ومن معه في المستشفى على أن يطلقوا على أنفسهم اسم فرسان مستشفى القديس يوحنا. والإسبتارية هي الترجمة الصوتية لها في الأدبيات الكلاسيكية. (المترجم)

منها، كما فعل من قبلهم المسيحيون المحليون (٢٧) ولو باستغلالهم سذاجة الزائرين. وقد جاء غيرهم من الغربيين إلى الشرق اللاتيني بحثاً عن الثراء الذى منع عنهم، ولاشك أنهم كانوا يصابون غالباً بخيبة الآمال مع أن النصوص لا تحدثنا إلا عن أولئك الذين نجحوا فى تحقيق آمالهم عن طريق الحظ أو عن طريق مهارتهم الفنية. وما جلبوه لم يكن يفوق ثرواتهم الشخصية، وإذا ما تحقق نجاحهم فى ذلك فإن أسرهم كانت قليلة الانتفاع به، ولم يكن ذلك يدفعها إلى الزج بنفسها فى شؤون الشرق. وغاية ما فى الأمر أن حضورهم ربما أسدى بعض الخدمات لنفوذ السيد الإقطاعى الذى كانوا تحت إمرته فى الغرب وإليه كانوا يتوجهون بطلباتهم عند الضرورة.

ومن الصعب معرفة ما إذا كان الاستيطان اللاتينى فى الشرق قد تمكن من النمو ببطء، حتى ولو كان هناك فى الفترات الأولى ما يكفى من القادمين الجدد لتعويض الوفيات المبكرة الناتجة عن الحرب. وكان من شأن هذه الوفيات فى الغالب أن تحت الشبان الطموحين على المغامرة وكانت الفجوات التى تحدث داخل الأسر الإقطاعية عاملاً مساعداً على تجدها عن طريق تزويج الأرامل أو بطرق أخرى غيرها. ولا نعرف ما إذا كان يلزمنا أن نضع فى حسابنا اعتبارات نسبة المواليد، غير أنه لابد من التسليم بأن إعادة التوطين اللاتينى كان كافياً لتأمين البقاء بعد عودة الصليبيين الأوائل وضمن نوع من الازدهار فيما بعد.

أما من جانب الغرب فقد كان يتم تزويده بأخبار الشرق بواسطة الحجاج والتجار العائدين وإن كنا لا نستطيع أن نثبت أن هذه الأمور قد احتلت المرتبة الأولى ضمن اهتماماته. وغالباً ما كان الاهتمام ينصب على إحياء ذكريات الحملة الصليبية وتحسين صورتها فى ذهن تدريجياً وباستثناء فوشيه الشارترى فإن كُتّاب الحوليات التاريخية الذين رووا أخبار الحملة الصليبية كانوا قد عادوا إلى أوروبا حاملين معهم ما دونوه من كتب بل إن حوليات فوشيه نقلت بذاتها إلى أوروبا التى كان أهلها على علم بالحوليات الفريدة لألبرت الإكسى الذى استقصى الأخبار على الوجه الأكمل وإن لم يكن قد ذهب إلى الشرق (من الثابت تقريباً الآن أنه استخدم قصيدة ريشار الحاج (٢٨) فى استعلامه عن الحملة الصليبية ذاتها). واعتماداً على هذه المؤلفات تم القيام بعملية إشاعة هذه الأخبار بين الناس حيث داخلتها روايات عجيبة (٢٩) والحق أن الصليبيين أنفسهم كان لهم يدٌ فيها، فقد كان الأمر يتعلق فى بعض الأحيان بتمجيد انتصارات أسرة قائدة (٣٠). ولنتقصر على ذكر مثال لأهم الروايات اللاتينية انتشاراً كذلك التى قام بها روبرت الراهب (٣١) وأنشودة أنطاكية لجراندىر الدوى فى

نهاية القرن. وسنلاحظ أن الشرق اللاتيني كان أقل حساسية بكثير إزاء هذه الحاجة إذ لم تتم أية إشاعة لأخبار الحملة الصليبية بين الناس بل ليس من المؤكد أن كل هذه الأخبار كانت معروفة بداخله (٣٢). وفي الغرب ذاته بدأت مناقشة فكرة الحملة الصليبية ومزايا الهجرة من الأوطان وسليباتها ووسائل الخلاص الروحي.

في مثل هذه الظروف لم يتم التعرف في الغرب على سقوط إمارة الرها فحسب، وهي مدينة لم تحرك مشاعر الناس لقلة من يعرفها (٣٠)، بل لقد تم التوصل على نحو خاص إلى معرفة طلبات الاستغاثة التي كان ينقلها السفراء من الشرق. ترى هل كان يتم الاستجابة لهذه النداءات وكيف كان يتم ذلك ؟ على كل حال لم يدر في خلد المشاركين بالحملة الصليبية أنها ستكون الحملة الأولى وأنه سيتلوها حملة ثانية وثالثة. فبرنار الكيرفى هو الذى طرحها، غير أن الحملة الثانية قد أحدثت مع الحملة الأولى تبايناً له دلالاته. وبما أنها كانت مسيرة من قبل قائدين كانت بيدهما السلطة وعلى صلة طبيعية بالبابوية وهما الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا فقد كانت مؤشراً ضمنيّاً على العودة إلى المقدرة الطبيعية للسلطات العلمانية التي اقتصر البابا على تشجيعها ومباركتها (٣٣). كما كانت مؤشراً على أول تدخل رسمى للألمان (٣٤). لقد تمت الحملة الثانية رغم إرادة نورماندى إيطاليا الذين كانوا منشغلين بالاستعداد للحرب ضد بيزنطة كما لم تلتبس أية مشاركة من مدن إيطاليا التجارية. وقد استفادت من تسامح بيزنطة، غير أن هذه تخلفت عن المشاركة في هذه الحملة إذ كانت حذرة من الأخطار النورماندية والتركية وقليلة الاكتراث بتعاضد النفوذ اللاتيني، بينما كانت قد قامت فى السابق وستقوم بعد ذلك بحملات مستقلة، أضف إلى ذلك أن الحملة الصليبية لم تهتم باستعادة بيزنطة للأراضى التي كانت تابعة لها فى آسيا الصغرى حيث كانت الدولة السلجوقية تقوم بإنشاء نظام لها حول قونية.

وأقل ما يمكن أن يقال عن البابا يوجين الثالث إنه نظراً لتورطه فى الصراع ضد ثورة

(*) على النقيض مما يشير إليه المؤلف فى هذه الفقرة نجد أن هذا الحدث - وهو سقوط أول إمارة لاتينية فى الشرق - كان له صدى غير عادى ونتج عنه ردود فعل عنيفة فى الأوساط الأوروبية حيث عهد البابا إلى القديس برنارد بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة ومن المعروف أن هذا الأخير كتب يقول إنه نتيجة لاستجابة المسيحيين فى الغرب لدعوته أقفرت المدن من ساكنيها حتى أن ملكين من أشهر ملوك أوروبا آنذاك أمكن استماتهما لحمل الصليب هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا. بينما صياغة كلود كاهن للفقرة المشار إليها ترى نقيض ذلك ! (المترجم)

أرنو البريسى(*) فقد كان أقل حماساً بالإضافة إلى ذلك فقد ظهر من مسار الحملة الصليبية السابقة أن التقارب الكنسى مع القسطنطينية كان سيئاً بالنسبة للهدف الرئيسى المتوخى من قبل روما. وسينضاف إلى ذلك نزاع أنطاكية الذى سنتحدث عنه فيما بعد.

ومن البديهي ألا نرى، فى الغرب ذاته، تطوعاً عاماً للجماهير المتحمسة فى الجيش كما حدث إبان الحملة الصليبية الأولى، ومن المحتمل أن القادة لم يرغبوا فى هذا التطوع (٣٥). وبالإضافة إلى فتور أشكال الورع التى قادت إلى الحملة الصليبية فإننا سنرى بعد لحظة أن البعض كان يفكر فى اتخاذ مواقف جديدة فى مواجهة الإسلام.

هل كانت هناك رغبة فى الشرق اللاتينى لقيام حملة صليبية ثانية ؟ من المؤكد أنهم كانوا يرغبون فى الحصول على الإمدادات لكن فيما يخص إقامة الحملة الصليبية بما تعنيه من إنزال واسع تقتضى أن تسلم قيادته للحكام فذلك أمر يجوز التشكيك فيه. على أن هذه الحملة قد كشفت للعيان إهمالاً متزايداً من قبل مملكة القدس إزاء سوريا الشمالية التى تطلت عنها للمجال البيزنطى. فقد كان حصار دمشق، حيث اجتذب إليه الصليبيون، بعيداً تماماً عن الكفاح الذى ينبغى خوضه ضد نور الدين الذى كان من ألد الأعداء، وقد أستفاد من هذا الحصار لنشر دعايته الشخصية بين الدمشقيين بإحكام، وعندما انسحب الصليبيون على إثر خلافاتهم الخاصة تركوا بالفعل المجال مفتوحاً أمام نور الدين ليحقق انتصاراته اللاحقة. على أننا نلاحظ أن حجم التأثير لم يكن كبيراً فى العالم الإسلامى حيث لم ترسل منه أية معونة.

لقد بلغ الاستياء فى أوروبا ذاتها إلى درجة أن جيروم اليريشنبيرجى قد ذهب فى اتهامه للحملة الصليبية بأن من أثاروا قيامها كانوا من الأنبياء الكذبة ومن فرنجة القدس الذين لم يكونوا فى حاجة إلى شىء وإنما كانوا يرغبون فى مزيد من الرجال والأموال. وكانت الأخطار الوحيدة التى تحدى بالحدود من تدبير الفرنجة أنفسهم (٣٦).

(*) نسبة إلى مدينة بريسيا الواقعة بمنطقة لومبرديا فى شمال إيطاليا (المترجم).

الفصل الثامن

النصف الأول من القرن الثاني عشر:

التجارة والتطور الروحي

إن مجرد إقامة الصليبيين بالشرق لم يكن قادراً على قلب أوضاع التجارة رأساً على عقب. من المؤكد أنه كانت للصليبيين هناك مطالبهم الخاصة غير أنها لم تكن تتضمن بالضرورة إمكانية التمويل ولا السبيل لتحقيق فعلى لكل ما ينبغي إنجازه وكان التفاوض بشأن البضائع التي تهم التجار الغربيين في الشرق يتم دائماً في مصر بصفة أساسية. وبما أن هذه البضائع كانت تصل في السابق إلى الموانئ السورية فمن المؤكد أيضاً أن سقوط طرابلس وعكا وصور، ومناخ الحرب وعدم الاستقرار إبان السنوات الأولى للقرن الثاني عشر، مع إقامة حد فاصل بين سوريا الوسطى المسلمة والمناطق الفرنجية، كل هذه الأمور لم يكن بوسعها إلا أن تؤدي إلى تحويل حركة المرور عن هذه الموانئ. أما بالنسبة للزبائن الشرقيين المهتمين بالتصدير الأوربية فلم يكونوا موجودين بكثافة في الشرق اللاتيني^(١). لم يفقد التجار السوريون شجاعتهم غير أنهم اتجهوا إلى تحويل عملياتهم نحو مصر، وليس من قبيل المصادفة أن يقدم لهم مستودع خاص (دار الوكالة)^(٢) بالقاهرة بعد الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات. لا ينبغي النظر إلى الدول اللاتينية الجديدة كما لم تكن موجودة وكذلك ينبغي تجنب النظر إليها بمعزل عن غيرها كما لو أن أوضاع التجارة في البحر المتوسط لم تكن تتوقف إلا عليهم وكأنهم أصبحوا بين عشية وضحاها في موقع الصدارة.

كانت التجارة البحرية بالنسبة للشرق اللاتيني كما بالنسبة لمصر مرتبطة بالتجارة البرية سواء تعلق الأمر بمنتجات البلد (انظر أدناه) أو بمنتجات قادمة من مناطق بعيدة عبر القوافل. وقد اعتبر كثير من الفرنجة، غداة الحملة الصليبية، أن أي تاجر أو بضاعة تقع بين أيديهم هي ولا شك غنيمة جيدة، الأمر الذي جعل القوافل تتردد بالطبع في الإبقاء على مساراتها التقليدية ومع ذلك فإن هذا المسلك لم يستمر إلا فترة من الوقت إذ أن الفرنجة بعد أن دعموا بقايمهم في رقعة أرضية لا تحتوي على المناطق الواقعة خلف الشواطئ النائية، وإن كانت تتحكم في ربط الاتصالات بين مصر وآسيا الأدنى، أدركوا أهمية وضع صيغة للتعايش السلمي والانتفاع من جباية المكوس^(٣) على القوافل العابرة كما كانت تفعل الدول والقبائل العربية في المنطقة منذ مدة طويلة.

وحتى في زمن الحرب كان يتم اعتبار الأمراء والأرستقراطيين بمثابة المعنيين بهذا الأمر^(٤). إضافة إلى أن العدوات كانت تنقسم يوماً بطابع محلي. وكانت تهمة انتهاك حقوق

(١) المكوس : هي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية. أو ما يأخذه أعوان الدولة عن أشياء معينة عند بيعها أو عند إدخالها المدن. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

الناس والخروج عن نطاق الحضارة تطال بشدة من يمد يده إلى قافلة، أو من كان أثناء الحصار يهلك المزروعات أو يدمر أعمال الري التي كان إصلاحها يكلف كثيراً من المال والوقت حتى بالنسبة للفئة الغالبة. ولا يعنى هذا أن حالة الحرب كانت خالية من المساوىء ؛ فقد كان من المعروف جيداً أن مظهر التاجر كان غالباً ما يخفى نشاط التجسس والعمالة للعدو، ويرجع السبب فى ذلك بالضبط إلى حرية المرور التي كانت تعطى للتجار. ولم يكن من المسموح به أن يكون أعضاء أمة من الأمم تجاراً اليوم وغداً جنوداً ضمن الأعداء أو بائعى أسلحة للعدو. وبينما كان التمييز بين هذه الأشياء أمراً يسيراً فى الغرب فقد كان أمراً عسيراً بين الشرقيين.

لقد طلب تجار مدينة جنوه وبيزا والبندقية جملة من التنازلات والامتيازات داخل الشرق اللاتينى، وحصلوا عليها فى ظل الأوضاع التي مرت بنا سابقاً، لكن لم يترتب عنها بالضرورة انتفاع تام على الفور بل ولا يبدو أنهم حصلوا دائماً وبشكل فعلى على الأراضى والأحياء التي تم تسليمها لهم. أضف إلى ذلك أن هذا التسليم كان يقوم على أساس خريطة اقتصادية كان للغزو الفرنجى بالتحديد دخل فى تعديلها. وتعتبر الوثائق التي فى حوزتنا عن النصف الأول من القرن الثانى عشر ضئيلة العدد وهو أمر قد يكون له فى حد ذاته دلالة، وذلك بمقدار ما يحوم الشك حول صحة بعض عقود الامتيازات، كما هى فى حوزتنا، على الأقل فى جزء منها، فليس من المؤكد أنها لم تُزور خلال الفترة التي أخذ فيها الإيطاليون يولونها اهتماماً أكبر^(٤). على أية حال فإن ما نعرفه عن هذه الفترة يختلف كثيراً عن الصورة التقليدية التي تعطى لنا عن العصر اللاحق، وهى صورة قد يكون مبالغاً فيها ؛ فالتجارة بالشرق اللاتينى على وجه الخصوص لم تكن قادرة على الاكتفاء الذاتى بخلاف التجارة بمصر. فإذا كانت رحلة الذهاب والإياب من الإسكندرية تحقق لسفينة ما توازناً تجارياً دون أن تضطر إلى الذهاب لسوريا فإن العكس كان متعذراً من الناحية التجارية بالنسبة للسفينة التي تبحر فى سوريا ولا تمر عبر مصر.

وهناك اختلافان آخران على قدر من الأهمية بين النصف الأول من هذا القرن والقرون التالية وهما وهى من جهة استمرار أحد الأساطيل المغربية^(٥) التي كانت تنقل التجار المسلمين واليهود من جهة، ومن جهة أخرى الأهمية المشهودة نسبياً لإيطاليا الجنوبية فى مواجهة موانئ الشمال. ففي مؤلف كتب حوالى عام ١١٧٠^(٦)، حسب وثيقة ترجع جزئياً إلى فترة سابقة، ورد ذكر عدد من التجار الصقليين وحتى السردنيين (أكان ذلك قبل الحملة

الصليبية ٩) الذين كانوا يأتون إلى مصر، بل وحتى التجار الجنويون كانوا لا يزالون يأتون إليها في بعض الأحيان على ظهر السفن الأماقية.

وسنعود في النهاية للحديث عما يجب أن نلفت إليه الانتباه حالياً، وهو أن تلبية حاجات فرنجة الشرق لم يكن بالإمكان أن تتحقق إلا بواسطة رؤوس الأموال التي لم تكن الأرباح المحصلة في المرحلة الأولى تضمن تجدها بانتظام وبرغم ضياع أرشيفات مدينة أمالفي فإن استمرار بعض أنواع الأنشطة التجارية لدى الأماقيين أمر تثبت وثائق الجنيزة وهي ترجع إلى خلافة الأمير (١١٠١ - ١١٣٠) ^(٨) ويظهر منها أن الأماقيين كانوا دائماً يجلبون الأخشاب لبناء المنشآت البحرية ^(٩). ولدينا وثيقة من مدينة البندقية تشير إلى أن تجاراً من هذه المدينة أبحروا من مصر باتجاه القسطنطينية على متن سفينة أمالفية، وهي وثيقة يمنحها التاريخ الذي كتبت فيه (عام ١١٤٤) بعداً خاصاً لأنها أعقبت النهب الذي ألحقه البيازنة بمدينة أمالفي في عام ١١٣٥، وهو ما سنتحدث عنه ^(١٠). وقد رأينا أن الموقف النورماندي لم يكن يعبر إطلاقاً عن الامتناع عن المشاركة السياسية أو التجارية بالشرق. وطالما لم يكن للنورماندين سيادة على مدينة أمالفي فقد سعوا لمساعدة رعاياهم الصقليين والسالرنين، كما سعوا حتى منتصف القرن ليؤمنوا لهم وضعاً تجارياً مميزاً مع الدولة الفاطمية. وحتى ما بين عام ١١٤٣ و ١١٤٨ وقعت المعاهدات بين روجيه الثاني والخليفة الفاطمي لتجديد الاتفاقيات السابقة التي لا نعرف عنها شيئاً ^(١١). وفي عام ١١٣٧ وعد روجيه الثاني أهل ساليرنو بمحاولة الحصول على الامتيازات التي كان أهل مدينة أمالفي يتمتعون بها منذ زمن بعيد في مصر. وتشير إحدى الوثائق المؤرخة عام ١١٣٥ إلى وجود سفينة من ميناء بارى في مصر، وتشير وثيقة أخرى مؤرخة في عام ١١١٩ إلى سفينة أخرى في دمياط، كما يذكر خطاب الخليفة إلى روجيه الثاني وجود سفينة مصرية في مسينا ^(١٢) عام ١١٣٦ ^(١٢)، ووفقاً لهذه الوثيقة فقد كان ملك صقلية والخليفة أمور شخصية في هذه التجارة ^(١٣). وربما لم تكن تقتضي هذه الامتيازات سوى الالتزام بأداء الأعشار التقليدية داخل مصر حيث غالباً ما كانت الحكومة الفاطمية تقطع الرسوم بنسبة ١٩٪ ^(١٤) خلافاً لغيرها من الدول الإسلامية.

ومع ذلك فقد بدأ في هذه الفترة نمو نشاط منافسي الأماقيين بالشمال. لقد انتهز الجنويون فرصة نشوب الصراعات بين أمراء أنطاكية والبيزنطيين الذين لم يراعوا لهم جانباً، ^(١٥) مسينا : هو اسم لمدينة إيطالية تقع في شمالي شرقي جزيرة صقلية وتقع على مضيق مسينا، زارها ابن جبير فوصفها في كتاب رحلته الشهير. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

ليقروا لأنفسهم الحق فى استلام ثلث دخل ميناء سان سيميون وهو منفذ لأنطاكية فيما بعد وامتيازات شبيهة بامتيازات ميناء اللاذقية لصالح البيازنة هذه المرة. وتوحى السمة النمطية للتأكيدات التى منحها لهم أمراء أنطاكية حتى بوهيموند الثالث أنه لم تكن لديهم الرغبة أو القدرة على تطوير نشاطاتهم^(١٥). ويبدو أن الأمر كان كذلك فى مملكة بيت المقدس وطرابلس مع تأخر بسيط فى البداية. كانت الامتيازات التى حصل عليها أهل جنوه، لاسيما فى عكا، بمثابة تعويض عما قدموه من عون فى غزو هذا الميناء، وقد وعدوا بتعويضات مماثلة بالنسبة للموانئ الأخرى التى قد يتم الاستيلاء عليها بمساعدتهم^(١٦). غير أن النزاعات التى حدثت فى أواسط القرن حول حقوق سابقة موثوق بها على وجه التقريب أثبتت أن نجاعتهم كانت إلى ذلك الحين ضئيلة للغاية^(١٧). ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمصر حيث تشير مجموعة خطابات متخيلة كتبت حوالى عام ١١٣٥ أن مشاركة الجنوبية ولاسيما عائلة الإمبرياشى كانت معروفة جيداً بين الناس، وتؤكد مراجع عديدة وجود الجنوبية فى الإسكندرية فى ثلث القرن السابق.

ويبدو أن النشاطات التجارية السائدة للمدن الإيطالية بالشرق والتى كان لها علاقة بادية للعيان مع الاضطراب الذى عرفته التجارة الإيطالية فى القرن الثالث عشر لم تكن هى كذلك غريبة عنهم خلال القرن الثانى عشر. لقد احتلت مدينة البندقية منذ أجيال عديدة موقع الصدارة الفعلية فى ميدان التجارة بالبحر الأدرياتيكى، وقد تبينا المكانة الفائقة التى كانت لها فى هذا الميدان داخل الإمبراطورية البيزنطية. ونظراً لحاجتها لإقامة السلم مع الغرب من أجل مناطقها الواقعة خلف السواحل فقد حاولت قدر المستطاع أن تظل خارج الصراعات التى كانت تنشب بلا انقطاع بين أنصار الإمبراطورية والمناهضين لها داخل شبه الجزيرة. وكان لايزال للبيازنة والجنوية مصلحة مشتركة فى أمن المنطقة الغربية للبحر المتوسط ؛ فقادا معاً حملة ضد ألميرية^(١٨) كانت لها نتائج مدمرة^(١٩). لكن بمقدار ما كانت طموحاتهم تتجاوز حدود البحر التيرانى، كانوا يجدون أنفسهم فى الغالب فى موقع المنافسة. إذ كانت بيزا مناصرة للحزب الإمبراطورى، منذ زمن بعيد بينما انقسم أهل جنوة إلى أسر أرستقراطية موالية للإمبراطورية فى حين كان عامة الناس أقرب إلى المعارضة. غير أنه فى بداية القرن واصلت البابوية معارضتها للإمبراطور استناداً على النورماندين وبعد تصالحهم أثناء معاهدة وورمز

(١٥) ألميرية : مرفأ فى إسبانيا (الأندلس) على البحر المتوسط، قاعدة إقليم المرية، ٨٩٥٠٠ نسمة، قديماً من مدن مملكة غرناطة، عظم شأنها على أيام عبد الرحمن الأول. احتلها فردينان الخامس الأرعونى ١٤٨٩، مركز صناعى. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

عام ١١٢٣، غيرت فجأة موقفها فاستنصرت الإمبراطورية ضد التوسع النورماندى فى إيطاليا الوسطى. ومن ثم وجد البيازنة أنفسهم منقادين إلى حرب ضد المملكة النورماندية ولعل الأمالفيون المنفيون عن بلادهم مثل آل بنتاليونى (٢٠) قد حرضوهم على ذلك. فى هذه الأثناء كانت أمالفى تابعة للمملكة النورماندية. وقد انتهز البيازنة هذه الفرصة لتخريبها من غير أن يبدوا قواهم فى مشروعات أخرى.

ولا نعرف بوضوح كيف تطورت آنذاك تجارة الإيطاليين فى بيزنطة حيث كان البنادقة يحتفظون بالمرتبة الأولى فى هذا الشأن، ولو أن البيازنة ومن بعدهم الجنوية قد حصلوا أيضاً على اتفاقيات أكثر ملاءمة. ومع أن لهذه التجارة أهمية لا تنكر إلا أن طبيعة البضائع الممونة لها كانت أقل وضوحاً. من البديهي أن يشتري الإيطاليون منتجات الصناعة البيزنطية الفاخرة، ولا يقل بداهة عن ذلك ألا تصل إلى القسطنطينية القوافل التى عبرت الأناضول وهى حاملة لبضائع قادمة من أقاصى الشرق إلا فى حالات استثنائية، الأمر الذى كان يجعل لمصر أهمية متزايدة بالقدر نفسه. لكننا كنا نود أن نعرف ما إذا لم يكن الإيطاليون يجلبون إلى مصر الخشب والحديد البيزنطى والإيطالى على السواء. ويمكن التسليم بأنهم كانوا على أية حال يحملون إليها القطران الذى كان يجلب إلى القسطنطينية من روسيا عبر البحر الأسود (٢١).

قد يكون من المهم بالنسبة لنا أن نعرف طبيعة ومدى الآثار التى تركتها أحداث البحر المتوسط فى التجارة نحو المناطق الواقعة فى أقاصى الشرق ولاسيما فى المحيط الهندى.

وإذا كانت التجارة البحرية بالمحيط الهندى قد وجدت قبل الحملة الصليبية بفترة طويلة، والتى أصبحت بعد ذلك موجهة بصفة خاصة نحو اليمن والبحر الأحمر فإن معرفتنا بالتنظيم الذى اتخذته محدودة للغاية ومن الصعب علينا أن ندرك إذا كان لوجود الشرق اللاتينى أثر فى تعديلها وكيف حدث ذلك (٢٢). ومن اللازم أن يكون لذلك صلة ولا شك بتطور ميناء عيذاب (*) فى أعالى مصر، الذى كان أقل عرضة للهجمات الفرنجية المحتملة من السويس والقلم. وعلى الرغم من اتخاذ القراصنة بعض الأوكار فى البحر الأحمر (دهلك **) فى الجنوب) فقد كان

(*) عيذاب : مرفأ فى جنوب مصر (محافظة البحر الأحمر) على ساحل البحر الأحمر قرب الحدود السودانية. كان يبحر منه الحجاج المصريون إلى جدة. أهمل شأنه فى القرن الرابع عشر عند تحويل طريق التجارة إلى شمال البحر الأحمر. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) دهلك : أرخبيل من ١٢٢ جزيرة، فى جنوب البحر الأحمر، يتبع أريتريا، أهم جزره دهلك الكبير. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

هذا البحر آمناً تقريباً، ولاسيما، بالنسبة للعبور نحو جدة والمدن المقدسة بالحجاز. أما بالنسبة للمحيط الهندي تحديداً فلا نملك إلا أن نذكر بعض الوقائع كما هي والتي حدثت في ظروف لاتزال غامضة.

لقد رأينا أن التجارة القائمة بالخليج العربى - الفارسى كانت قد تدهورت تدهوراً شديداً. ولم يعد لميناء سيراف الكبير الذى كان يتصدرها وجود فعلى حيث تم استبداله، على الصعيد الإقليمى، بدولة شبه قرصانة بجزيرة قيس (*) الصغرى ويموانى عمان على ساحل الجزيرة العربية. لكن يبدو أنه تم الاحتفاظ بتسمية السيرافى للدلالة على كبار التجار بهذه المنطقة.

وبالطبع كانوا يقومون بمهاجمة اليمنيين الذين أصبحوا منذ ذلك الحين خصوماً لهم أو على الأرجح قد يكون حدث صراع ولاسيما فى عدن بين حزب كان يرغب فى التفاهم معهم وآخر كان يولى وجهه أكثر نحو مصر. ربما أقيمت فى القرن الثانى عشر وحدة سياسية بين جزيرة قيس وعدن على الأقل لبعض الوقت. ففي هذه الفترة برزت إحدى الشخصيات المهمة من الناحية الاقتصادية، وهو ما جعلها تبدو مظاهر الكرم فى مكة ذاتها وكذلك من الناحية السياسية والعسكرية نظراً لتدخله فى شؤون عدن. أنه السيرافى رامشت الذى ظهر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر (٢٣).

ونلاحظ فى الفترة نفسها مشاركة متعاظمة للتجار اليهود فى الشؤون التجارية بالمحيط الهندي (ولكن ليس فى ملكية السفن)؛ إذ اتجهوا بنشاطاتهم نحو هذا الشاطئ بعيداً عن المغرب موطنهم الاصلى بعد أن تم إقصاؤهم إقصاءً فعلياً من البحر المتوسط من جراء توسع الإيطاليين المسيحيين. وكانت المواد الغذائية التى يجلبها الإيطاليون إلى مصر، فى قسم كبير منها، يتم توزيعها من قبل المسيحيين الأقباط بدون أن يساهم اليهود آنذاك فى قسط منها.

وفى هذه الفترة كذلك بلغنا الحديث لأول مرة عن الكارم ثم الكارمين بعد فترة قصيرة وقد تم هذا حقاً عن طريق رسائل يهودية أولاً. فكلمة «كارم» التى لا نعرف أصلها الاشتقاقى والتى يحتمل ألا تكون كلمة عربية تعنى قافلة منتظمة من السفن التجارية القادمة من الهند كان يتبعها كل الطوائف ولو أن المسلمين كانوا يشكلون الأغلبية فيها، وقد أطلقت كلمة

(*) قيس : جزيرة فارسية فى الخليج، ١٢٠ كم^٢، ذكرها الجغرافيون العرب ووصلوا خصبها ووفرة أشجارها. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

«الكارميين» على من كان يتبع الكارم^(*) (٢٤). وربما كانوا متخصصين فى تجارة التوابل وبعض المنتجات الأخرى الباهظة، ومتمتعين ببعض المزايا خاصة الجمركية، لكن لا نرى أنهم شكلوا اتحادات مهنية أو جمعيات، وسيكون لهم فى نهاية القرن دور كبير فى مصر، إلا أننا لا نعرف ما إذا كانوا قد وصلوا إليها من قبل فى عهد أواخر الحكام الفاطميين.

ربما ليس من قبيل المصادفة كذلك أن تكون الأدبيات الجغرافية لهذه الفترة - وهى التى تكتفى بالنقل عن الأسلاف الكبار فى القرن العاشر - قد أضافت لهم ملحقات جوهرية بالمحيط الهندى الذى كان لهؤلاء معرفة جيدة به فذلك كان شأن الإدريسى الذى كان يؤلف فى صقلية. وكذلك الأمر بالنسبة للقارئ أو الناسخ لما كتبه ابن حوقل^(**)، هذا الجغرافى العظيم الذى ظهر فى القرن العاشر وقد أضاف إلى مصنفه إضافات مهمة لحسن الحظ أنها وصلتنا. وبعد ذلك بفترة قصيرة قدم لنا ابن ماجور باليمن صورة عن التجارة بعدن لا نملك لها نظيراً لدى المؤلفين القدامى^(٢٥).

فالقضية تتعلق بمعرفة ما إذا كان تعاظم الطلب الأوروبى على المنتجات القادمة من المحيط الهندى وآسيا الجنوبية - الشرقية والتى تنقل عبر مصر بصفة خاصة قد أدى إلى ندرة هذه البضائع وارتفاع أسعارها فى هذا البلد أو تعاظم شامل لتجارتها. ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير ولو أننا لا نملك برهاناً موثقاً كما أن كتاب «المنهاج» فيما يبدو لم يجعل لهذه البضائع مكانة مهمة ضمن تصديرات الموانئ المصرية الواقعة على البحر المتوسط.

بالطبع سيكون من المبالغة بمكان أن نعتقد بأنه لم تعد هناك سفن بالخليج العربى - الفارسى. لقد حفظنا رواية أحد الحجاج الصينيين الذى زار بغداد، وعندما يحدثنا المؤرخ ابن الجوزى عن عاصفة تسببت فى غرق سفينة على ظهرها ١٨٠٠ تاجر مسافر فإن الأمر لا يتعلق بحالة فريدة؛ فهذه التجارة التى كانت تقوم فى أصقاع بعيدة قد وصلت كما نرى إلى

(*) تجار الكارم : ويقال أيضاً الكارمية والاكارم ومفرده كارمى، المقصود بهذا اللفظ فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن وكان معظمهم فى الأصل من بلاد الكائم الإسلامية التى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربى. فنسبوا إلى أصلهم الجغرافى بعد تحريفه إلى «الكارم» ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. المقرئى - السلوك ٢/١ ص ٨٩٩. (المترجم)

(**) ابن حوقل (ت ٩٧٧) : رحالة عربى وجغرافى جاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب ودرس مؤلفات المتقدمين. والمقصود هنا كتابه «المسالك والممالك». (المترجم)

الصين لأسباب عديدة من ضمنها بيع البخور (٢٦). ومن المحتمل أن نكون هنا بصدد تجارة قائمة بين ضفتي الخليج من عمان إلى فارس وقادمة، في قسم منها، من إفريقيا الشرقية عبر موانئ شبه الجزيرة العربية. وقد كان استيراد العبيد السود يحقق أرباحاً طائلة لسلطان كرمان (*) ولتجار شيراز (٢٧)، فبغداد لم تعد قادرة بنفسها على أن تكون قوة جذب بعد أن فقدت مركز الصدارة في العالم.

* * *

لا يجب أن يغيب عن بالنا أنه في هذه الحقبة نفسها من الحروب الصليبية ظهر ونما بالغرب الاهتمام بالفلسفة والعلم العربي - الإسلامي على النحو الذي ظهر به في إسبانيا. ففي الشرق كان التراث الكلاسيكي قد تدهور في هذا الشأن وفي أسبانيا تم الحفاظ عليه كما يشهد على ذلك اسم ابن رشد الذي يمثل ذروته. وبما أن أسبانيا كانت على صلة مباشرة بالغرب المسيحي أكثر مما كانت عليه صلتها بمسلمي الشرق فإنه من الطبيعي أن تتعود أوروبا على معرفة الفكر العربي الإسلامي وفقاً للشكل الذي اتخذه في أسبانيا على الخصوص بشرط أن تكون أوروبا قد وصلت في تطورها إلى المستوى الذي يمكنها من اكتساب دافع الاطلاع عليه وفهمه وهو ما كان عليه الأمر بالفعل. أضف إلى ذلك أن استيعاب الفكر الكلاسيكي كان آنذاك أسهل من استيعاب الفكر الشرقي، فرجوع هذا الأخير إلى الإسلام أو اقتصراره عليه قد وصل حداً جعل من المتعذر على الفكر المسيحي أن يكون على صلة به. وفي المقابل فإن الفلسفة الكلاسيكية الحاملة للمكتسبات التي اعتبرت بمثابة مكتسبات يقينية للحكمة القديمة التي لم يحفظ منها الغرب سوى شذرات ضئيلة (باللغة اللاتينية أكثر منها باليونانية) كان يمكنها أن تثير اهتمام المسيحيين ولو أن التجربة أثبتت أنها كانت لا بد من أن تطرح عليهم جملة من المشاكل. وبالطبع كانت هناك حركة مشابهة، مع مراعاة الفروق، أخذت تظهر في إيطاليا النورماندية حيث نشأت في بداية القرن الثاني عشر مدرسة طبية بمدينة ساليرنو انطلاقاً من تعاليم قسطنطين المسمى الأفريقي نسبة إلى موطنه.

إن هذه الأمور طبعاً لا تخص بداهة سوى نخبة من المثقفين، ولو أنه قيل عنها الكثير خلال هذه الفترة بما أنهم هم الذين كانوا يكتبون عنها وكان لا بد أن تؤدي تلك الكتابات في القرن اللاحق إلى تأثيرات عميقة وعلى نطاق واسع داخل الأوساط التعليمية الجامعية. فليس

(*) كرمان : إقليم قديم في إيران يقع جنوب غربي صحراء لوط بين مكدان وفارس. شرع في فتحه الربيع بن زياد قائد أبي موسى الأشعري وأتمه بن مسعود السلمي.. (المنجد في اللغة والأعلام) - المترجم.

لهذا الأسى إذن مساس مباشر بالحركة الصليبية ولو أنه من الصعب أن نتصور أن بعض من شغله أمر الحركة الصليبية من المثقفين لم يتجهوا إلى التخفيف من حدة الصورة التي كانت سائدة عن العرب المسلمين البرابرة والشريرين. ويؤدى هذا فى بعض الحالات أن نستنتج أنه كان ثمة مصلحة فى معرفة الدين الإسلامى ولو بغرض النقاش فى هذا الشأن. ولا يتناقض هذا بالضرورة مع فكرة الحركة الصليبية لأنه فى اللحظة التى كانت تمنع فيها بعض السلطات المتكبرة انتشار الإيمان الحق، كان لابد من إرغامها حين يستلزم الأمر ذلك، فذلك كان يؤدى إلى تبديل اللهجة إلى حد ما والميل إلى إعادة توزيع المهام بين العلماء والمحاربين. وفى بداية القرن الثانى عشر نجد بيزنطوس وهو يهودى اعتنق المسيحية وأقام فى أرجونة، قام بالتعريف ببعض عناصر الإسلام باللغة اللاتينية. غير أن اللحظة الحاسمة كانت تلك التى أمر فيها بطرس المجل بترجمة القرآن داخل رهبانية كلونى، وهو المكان نفسه الذى أعدت فيه فكرة الحرب الصليبية، وقد أرفق هذه الترجمة بخطابات موجهة إلى مسلم متخيل يشرح له أنه لم يجرى إليه بالسيف وإنما بالكلمة^(*). وفى النصف الثانى من القرن كان من اللازم أن تحقق المعرفة بالإسلام تقدماً جديداً عندما ترجم جوفروا الفيتريى بإيطاليا روايات مختصرة من السيرة (حياة النبى ومغازيه).

ولم يشارك الشرق اللاتينى فى حركة الترجمات العلمية هذه ولا فى التطلع لمعرفة الإسلام. لقد نسب بالطبع إلى وليام الصورى كتاب «تاريخ العرب»، لكن هذا الكتاب فيما يبدو لم يكن سوى ترجمة (هل قام بها بنفسه ؟) لكتاب أوطيخيوس (سعيد بن بطريق)^(**) المسيحى، وواقع أننا لم نتوصل إلى أى مخطوط منها هو أمر يوحى بأن هذه الترجمة كانت تهم القلة من الناس^(٢٩). وفى بداية القرن بالضبط قام المدعو إيتان الأنطاكى^(٣٠) بترجمة الكتاب الطبى للمجوسى، إذ لا شك أن للرجل صلة بالمدرسة الطبية بإيطاليا النورماندية، ولا نرى أن هذا الجهد قد استمر بعد ذلك فى سوريا.

لا بد لنا أن نتذكر بأن الصليبيين لم يستولوا على أية حاضرة من الحواضر العلمية الكبرى ببلاد الإسلام وأنهم قاموا فى البداية بتدمير المكتبات التى وقعت بين أيديهم بالنسبة لمكتبة طرابلس انظر الملحق.

(*) بطرس المجل (١٠٩٢ - ١١٥٦) : رئيس ومصلح رهبنة كلونى فى فرنسا، حيث أعاد سياسة الروع والتشف لنظام سان بنوا، ترجم القرآن إلى اللاتينية بغرض «التفذية». (المترجم)

(**) سعيد بن بطريق (٨٧٧ - ٩٤٠) هو أوطنجيوس بطريق الإسكندرية على الملكين (٩٢٣ - ٩٤٠)، كان طبيباً ومجادلاً ومؤرخاً، له مختصر فى التاريخ العام إلى سنة ٩٢٨ سماه «نظم الجواهر» طبع باكسفورد عام ١٦٤٢ وله أيضاً كتاب البرهان. (المنجد فى اللغة والأعلام) (المترجم)

إن الاتصالات التي تحدثنا عنها قبل قليل لا تعنى سوى المثقفين. أما بالنسبة لعامة الناس فيجب أن نتوجه إلى نصوص أخرى وهى الروايات الشعبية، والتراث المتعلق بنهاية العالم، إلخ. لقد أكدنا من قبل على أن أياً من أناشيد المأثر لم تظهر فى الشرق اللاتينى حتى تلك التى تتعلق بالمعارك ضد المسلمين، باستثناء «أنشودة الأسرى» (٣١) التى تم نظمها فيه، وهى أنشودة مرتبطة بتقاليد مدينة بواتييه ولم تعرف إلا فى الغرب. كما لم يحدث تجديد كبير بالنسبة لروايات الفروسية العربية التى كانت قد مجدت فى القرن العاشر الكفاح ضد البيزنطيين الكفار، وغاية ما فى الأمر أننا نلاحظ أن الروايات التى كانت شائعة بين الناس إبان الحروب الصليبية كانت فى بعض الأحيان تستبدل اسم عدو بيزنطى باسم آخر فرنجى، وقد تبتعت أحد الأبطال من العصر الجاهلى وهو دائماً ما يكن شاباً (عنتر) ليعايش فترة الحروب الصليبية (٣٢)، وبطبيعة الحال لم يكن لعرب سوريا أن يقاتلوا البيزنطيين. ولم يكن يقاتلون الفرنجة إلا نادراً حيث أن هذه المهمة قد آلت منذ تلك الفترة إلى الأتراك المحترفين أساساً. ولم يكن أترك آسيا الصغرى بالذات قد وصلوا فى القرن الثانى عشر إلى المرحلة الثقافية للمصنفات الكبرى التى تروى مفاخرهم (وهو ما سيحدث ابتداءً من القرن الثالث عشر باللغة الفارسية والرابع عشر باللغة التركية).

فى هذه الأثناء عندما وجدوا فى المنطقة ماثرة عن البطل العربى القديم سيد بطل الغازى الذى ترجمت روايته القديمة إلى اللغة التركية لم يكن الأمر يتعلق إلا بالبيزنطيين من غير أن يفرنجوا أحداً منهم. ويبدو أن هذا النوع من التراث كان له أثر فى نفوس مختلف الأفراد بالشرق الأوسط. ومن المحتمل أن تكون الملحمة الأرمينية لدافيد الساسونى (٣٣) قد ظهرت فى هذه الفترة نفسها وهى تعيدنا فيما يبدو إلى القرن الحادى عشر، وفى كل الأحوال قبل نهاية القرن الثانى عشر (حيث قام الأكراد آنذاك بإبادة الأرمن الساسونيين فى منابع الفرات، ولا نجد تلميحاً للفرنجة). وفى جورجيا وهى منطقة بعيدة بعض الشيء عن الفرات ألف شوتا روستافيلى ملحمة «الرجل نو جلد الفهد» التى تقرينا أكثر إلى النماذج الإيرانية القديمة بعض الشيء. كذلك لا يوجد شيء يذكر حكايات ألف ليلة وليلة التى تم تأليفها على مدى ألف عام، ولو أن الروايات المصرية المتأخرة لهذه الحكايات تكشف عن شعور معاد للفرنجة (٣٤). نتحدث «ملحمة بيبيرس»، بعدها بفترة، عن كفاح المماليك ضد الفرنجة. لكنها حكايات كتبت فى فترة متأخرة وبشكل متكلف تقريباً بهدف إعادة الثقة إلى المماليك الذين كانوا آنذاك فى مواجهة السلطة العثمانية. وثمة مجال كذلك للنظر بعين الاعتبار إلى تناقل الأساطير مثل أسطورة «الجبل السائر» المعروفة فى الوسط القبطى المصرى، وقد نقلها إلى

إيطاليا الجنوبية حوالى ١١٣٠ مؤلف «تاريخ الحرب المقدسة» وسمعا ماركوبولو فيما بعد فى آسيا الصغرى^(٣٥). وأعيد تقديم الأدب المتعلق بنهاية العالم فى الأوساط اللاتينية واليهودية والعربية^(٣٦) طوال فترة الحروب الصليبية. وفى هذا الصدد يمكن التحدث عن أسطورة الكاهن يوحنا.

لقد شددنا على فتور غالبية المسيحيين المحليين أمام واقع الحروب الصليبية، وظروفهم المعيشية الملائمة فى بلاد الإسلام مع تقلص قيمتهم العددية ونفوذهم العام فى هذه الأثناء. غير أن نوعاً من الرجاء المسيحى للوصول للخلاص على حساب الإسلام^(٣٧) ظل قائماً، أو لعله ظهر من جديد، فى بعض الأوساط، خاصة لدى النساطرة الذين كانت لديهم علاقات ضئيلة مع الفرنجة، وهو خلاص قد يأتى من شرق بعيد وشبه أسطورى، يُستشعر فيه وجود مبهم لعالم مسيحى. ومع أن الفرنجة لم يكن لهم علاقة بهذه المسألة فقد تمكن بعض النبهاء من التفكير فيما قد يجنونه من فائدة إخبارهم بها. فى الشرق حيث كان الناس على معرفة بحقيقة هذا الأمر فإن الأسطورة مرت دون أن يُشعر بها، غير أنها ستطور فى الغرب زهاء ثلاثة قرون. ويتعلق الأمر بالقصة التالية : بينما كان الشرق الأدنى يشهد الأحداث التى تكلمنا عنها، كانت هناك أحداث أخرى تغير ملامح آسيا الوسطى. وكان سنجر، الابن الأكبر فى أسرة السلاجقة، يمارس السلطة فيها منذ بداية القرن. بيد أنه كانت هناك إمبراطورية بدوية جديدة فى طور التكوين فى الهضبة الشمالية وهى إمبراطورية القراخانيين(*) المتحالفين مع المغول. وفى عام ١١٤٣ قضوا على سنجر وضموا إليهم البلاد المسلمة منذ زمن بعيد حتى أموداريا (جيحون) وكانت عقيدة القراخانيين تشتمل، اسمياً على الأقل، على خليط من الأديان المختلفة. وربما كان زعيمهم جور - خان تابعاً تقريباً للكنيسة المسيحية النسطورية التى كان لا يزال لها نفوذ حقيقى، وقد ظلت على علاقة مع الكنيسة الأصلية بالعراق. وقد رأى النساطرة، الذين عوضوا أفولهم الديمغرافى بالعالم الإسلامى عن طريق الشعور بالآمال الآخروية، فى انتصار جور - خان إيذاناً بانتقام قادم من الشرق البعيد وهو انتقام المسيحية من الإسلام. ليس من المستبعد أن يكون جور - خان قد بعث برسالة إلى إمبراطور القسطنطينية. على أية حال فقد رويت قصة «الكاهن»^(**) يوحنا فى مجمع لاتران الكنسى، وقد

(*) القراخانيين : اسم أطلقته المصادر العربية والإسلامية منذ القرن الحادى عشر على بعض شعوب الصين المغول. أسس زعيمهم أبا أوكى سلالة لياو الصينية، أجبروا على مغادرة الصين عام ١١٢٥ فاصطدموا بالنول الإسلامية المجاورة. صدهم الإيلخانيون. فى عهد أبا أوكى وصل التجار المسلمون إلى البلاد الصينية. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

(**) تعتبر أسطورة «الكاهن يوحنا» والمملكة التى كان يحكمها من أكثر أساطير العصور الوسطى =

وصلت في الأخير إلى أيدي البابا رسالة حافلة بمزيج فلكوري متوارث منذ القدم. فكان ذلك مصدر أسطورة «الكاهن يوحنا» وحيث شهدت القرون التالية ظهور المغول بعد القراخانيين ثم نجاشي الحبشة إذا قمنا بقفزة جغرافية غير متوقعة.

= غموضاً وإبهاماً، وبرغم أن بعض المؤرخين الغربيين القدامى قد أشاروا إلى شخصية هذا الكاهن، ومن بينهم وليام الصوري، فإن حقيقة مملكة يوحنا ظلت غير واضحة المعالم، فالبعض يرى أن إمبراطوريته هي بعينها إمبراطورية الحبشة في إفريقيا والبعض الآخر يراها في آسيا، غير أن هذه الأسطورة التي ذاعت طوال القرن الثاني عشر واستمرت بعد ذلك فترة طويلة من الزمن، قد كشفت عن رغبة الملوك المسيحيين في الغرب في التودد إلى إمبراطورية الكاهن يوحنا واكتسابها كحليف لهم في صراعهم ضد العرب والأتراك .

انظر في ذلك د. جوزيف نسكيم يوسف في كتابه دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٢٨ - الناشر : مؤسسة شباب الجامعة - ١٩٨٨ . (المترجم)

الفصل التاسع

تطورات أواسط القرن الثانى عشر

شهدت أواسط القرن الثاني عشر تحولاً فى العلاقات الاقتصادية والسياسية فى منطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى، ولقد رأينا كيف استعاد الإسلام، خلال الربع الثانى من القرن، زمام أمره أمام الهيمنة الفرنجية بالمناطق السورية الفراتية واستعاد المبادرة فى العمليات العسكرية. وقد تم ذلك جزئياً بفضل التركمان الذين كانوا على استعداد دائم لممارسة نشاطهم التقليدى فى الغزوات. وقد ترابط هذا النشاط داخل آسيا الصغرى مع عمل المحاربين على الحدود فى هذه الحرب المقدسة. وبعد أن وصل التركمان إلى آسيا الصغرى استأنفوا غزواتهم لآسيما ضد بيزنطة سيراً فى ذلك أيضاً على نهج التقاليد القديمة للمغازى. وكان نشاطهم ضد الفرنجة سوريا أكثر ضعفاً، وربما كانوا خلواً من البواعث الأيديولوجية، ففى الوسط الإسلامى الأكثر محافظة لعل زكى نفسه عند استعادته لإمارة الرها كان خاضعاً للرغبة فى استعادة مدينة مسيحية لم ينزعها البيزنطيون من أيدي المسلمين إلا قبل قرن واحد، وحماية خط الإتصالات بين الموصل وحران وحلب المهدد بالاجتياح من قبل الفرنجة، أكثر من خضوعه للاقتناع العميق بواجب الحرب المقدسة. ومع ذلك فإن أعماله وانتصاراته جعلت منه بطلاً لهذه الحرب المقدسة لدى من ظل هذا المثل الأعلى حياً لديه. وهذا ما وعاه جيداً خلفه نور الدين فى سوريا.

عندما مات زكى فى عام ١١٤٦، تقاسم خلاقته ابنه البكر الذى ورث الموصل التى كانت مهداً لنفوذ السلالة الحاكمة وابنه الأصغر نور الدين^(١)، وسرعان ما ظهرت فى الواقع الأهمية النسبية للإمارتين وذلك بشكل معكوس، فالأمراء الذين تعاقبوا على إمارة الموصل كانوا دائماً نوى شخصيات ضعيفة^(٢) بينما أبان نور الدين عن شخصية من الطراز الأول. وإذا كانت أراضيه أقل حجماً فهى على الأقل محررة من مكائد أهل بلاد ما بين النهرين وقد جعلتها الحرب المقدسة فى المرتبة الأولى من اهتمام الرأى العام، هذا الرأى الذى كان بالنسبة إليه أساساً ومحركاً لكل سياسته التى كان من العبث أن يسعى المرء للتمييز فى ثناياها بين جانب القناعة الصادقة وجانب الطموح.

وكان المذهب الرسمى يرى أن نجاح الحرب المقدسة يتطلب اتحاد الجميع داخل البلاد وخارج حدودها خلف قائد يكون قد أظهر أكبر قدر ممكن من الحماسة والمقدرة^(٣). ومن جهة أخرى كان تماسك المسلمين يدعو إلى قمع الهرطقة الشيعية بوجه خاص وتنمية تكوين الأطر الدينية والسياسية للنظام وفقاً للنموذج الذى دشنته كبار السلاجقة ولو أن إنتقاله إلى سوريا كان حديث العهد^(٤). وكانت نتيجة هذه السياسة توحيد سوريا المسلمة عبر ضم دمشق مما

أتاح تحقيق انتصارات جديدة على الفرنجة فى المرحلة الأولى وتحقيق نوع من الحماية فى المرحلة الثانية على الموصل وعلى دانشمندی الأناضول الأوسط وتعاقب التفاهم والعداوة مع سلاجقة الروم الذين حاول نور الدين إثارة اهتمامهم بمحاربة الفرنجة ومن دون أن يتوطد نفوذهم فى سوريا. وأخيراً القيام بالحملة على مصر وهو ما سنعود للحديث عنه. وفى الداخل دعم نور الدين جيشه من خلال تجنيد الأكراد الذين تمت إضافتهم إلى القوات التركية. ومن خلال إجراءات عسكرية واقتصادية سنعود إليها مجدداً، وبإضافة عدد من المدارس والخانقات وغيرها من صالح الأعمال (المستشفيات.. إلخ) التى لم يتردد من أجلها فى استقدام عدد من الإيرانيين (٥) حينما لم يكن يُلائمها المستخدمون السوريون. ومن جهة أخرى أتاحت عملية تقوية الجيش لنور الدين قمع النشاطات الاستقلالية لميليشيات الأحداث الحضرية.

لقد لوحظ أنه أثناء كل ما جرى لم يتدخل سلاجقة إيران والعراق ولا حتى الخلافة. فسلاجقة إيران كانوا كثيرى الانشغال بصراعاتهم الداخلية فى إيران والعراق وبجهودهم من أجل احتواء كبار الضباط الذين كانوا يصدد تشكيل إمارات مستقلة على حسابهم. أما بالنسبة للخلفاء الذين رُجِّحَ بهم فى هذه الصراعات فقد كانوا عاجزين حتى عن الاهتمام الناجح بشؤونهم الخاصة وبالأحرى بشؤون سوريا. وقد رأينا ما أثاره ذلك من الاحتجاج لدى أهل حلب عام ١١١١. ولا يعنى هذا القول بأن كل معانى كلمة الأمة قد اختفت لكن لا يبدو أن الجهاد قد احتل مكانة كبرى فى النفوس خارج المناطق المعنية بالأمر مباشرة. لم تكن أطر النظام فى غفلة من الاستنهاض الإسلامى وكانت الصراعات الحزبية العنيفة تمزق شمل أهل بغداد الذين كانت الحركة الحنبلية وتنظيمات «فتوة العيارين» تنمو بين صفوفهم. فتلك كانت قضايا داخلية وإذا ما تم مد البصر خارج الحدود الضيقة للإمارة فقد كان يقع حصراً على إيران. من المؤكد أن الوزير ابن هبيرة فى مصنفه فى القانون قد أدخل فصلاً عن الجهاد غير أن ذلك تم جرياً على العادة ودون الإحالة إلى الأوضاع الراهنة. وقد أدرج المؤرخ والخطيب البغدادى ابن الجوزى فى تأريخه الضخم (٦) بعض المشاهد من الحروب الإسلامية الفرنجية الواقعة فى سوريا لكن ذلك كان بالنسبة له شيئاً ثانوياً. أضف إلى ذلك أنه ربما لم يكن يجد أكثر من ذلك فى الأرشيفات التى راجعها فكان من الأحرى أن يولى اهتماماً أقل، بالفاطميين الهراطقة. ويبدو فى المقابل أن يقظة الجهاد قد انتشرت قليلاً فى مصر (انظر لاحقاً الصفحة الأخيرة من هذا الفصل).

(٥) ابن الجوزى : «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم». (المترجم)

ظلت آسيا الصغرى التركية متميزة تميزاً تاماً عن البلاد الإسلامية القديمة بالجنوب. وعلى الرغم من بعض الهجمات على الحدود الأرمينية - الفرنجية بجنوب الطوروس لم يكن هم الأتراك سوى التكيف مع منطقة نفوذهم الجديدة وهي الهضبة الداخلية للأناضول المحاطة بالمناطق الساحلية الواسعة تقريباً والتي كانت تابعة لبيزنطة أو صارت كذلك. وإذا تركنا جانباً أقصى شرق البلاد فيمكن أن نميز بين تشكيلتين سياسيتين لم تبارحهما الفظاظة، فكانت الطرق الشرقية - الغربية بالشمال تنتمي لسلالة التركمان من الدانشمندان، وطرق الجنوب كانت تنتمي لفرع من السلاجقة المقيمين في هذه المنطقة منذ نهاية القرن الحادى عشر. وكان لهؤلاء رغبة واضحة تقريباً في تنظيم دولة مستوحاة بقدر المستطاع من النماذج الإيرانية - الإسلامية التى كان يسودها أبناء عموماتهم. وكان هذا الأمر صعب التحقق نظراً لنقص المقومات الإسلامية المحلية أو لانعدام المهاجرين الإيرانيين. وقد حاولوا، فى أضعف الأحوال، ترحيل التركمان إلى الحدود، وقد كانوا أقل ميلاً إلى الاندماج فى هذا المخطط. وظل هؤلاء يمارسون على سجيتهم الهجمات التى لم تكن لتهدد إلا البيزنطيين. فلم تكن لها علاقة بأحداث سوريا. وفضلاً عن ذلك فإن السلاجقة لم يكن يشجعونهم فى ذلك وكانوا على الأرجح يتوقعون إلى نوع من التعايش السلمى مع بيزنطة يكون من ضمن أهدافه احتوائهم. وبعد ذلك بفترة قليلة كان نور الدين لايزال يجد مشقة فى توعيتهم بفكرة الحرب المقدسة ضد الفرنجة. فعلى الصعيد السياسى كانت جهودهم الرئيسية موجهة ضد الدانشمندان، وقد لزم أن يحققوا على حساب هؤلاء وحدة البلاد ^(٦) على الرغم من تدخل نور الدين وقد تم ذلك لصالحهم بعد وفاة هذا الأخير.

لقد بدت السياسة البيزنطية تجاه آسيا الصغرى وسوريا تخضع لحركة توازن. كما لجأ الكسيس كومنين أثناء الحملة الصليبية إلى ما يمثله من قوة كى ينتزع من الأتراك قسماً من الساحل الغربى لآسيا الصغرى. لكن ابتداءً من حدوث القطيعة مع بوهيموند فقد اعتبر، فيما يبدو، أن التخلّى مؤقتاً عن هضبة الأناضول التى أصابها الخراب إلى قوم شبه رحل غير منظمين يمثل ضرراً أقل من ضرر الإبقاء فى سوريا على إمارة نورماندية متحدية لبيزنطة، طالما تمت المحافظة على الساحل. وربما كان لديه اتجاه، فى نهاية حكمه، نحو تعديل هذه السياسة. وقد اتخذ خلفه جان كومنين إزاء الأتراك موقفاً مغامراً. ولهذا لم يتخل عن فكرة تصحيح الأوضاع فى سوريا، لقد أخذ فى حسبانته وجود الإمارات الفرنجية، غير أن إمارة أنطاكية، وهى مقاطعة بيزنطية قديمة، كانت أكثر قرباً وأهمية بالنسبة إليه والتى كانت مهددة

ببدايات الهجوم الإسلامى المضاد، لم يعد بإمكانها أن تواجهه برفض قوى مثلما كان الأمر مع والده. فى هذه الظروف حاول جان كومنين أن يحقق توازنًا بارعًا مؤداه أن يحصل من الفرنجة أنطاكية على اعتراف بالمقطعية مقابل مناصرتهم ضد المسلمين دون أن يصل ذلك إلى الحد الذى يؤدى فيه إلغاء الخطر الإسلامى إلى الأمر الذى يجعل اعترافهم بالمقطعية أمراً غير مجدٍ بالنسبة للفرنجة (حملة أنطاكية عام ١١٣٧) (٧).

وقد تابع مانويل هذه السياسة. فترك الإمبراطور كونراد وملك فرنسا لويس السابع يمران عبر أراضيه إذ لم يكن لديه أية مصلحة فى مخاصمتها غير أنه لم يشارك فى حملتهما الصليبية التى لم يكن ليستفيد منهما فى شىء (٨). ولقد تدخل لاحقاً فى أنطاكية بالنية نفسها التى كانت لوالده فى إقامة التوازن. وقد حصل هذه المرة على حق إرجاع أحد البطارقة اليونانيين، وأثناء مروره سعى لتدعيم سيطرته أو إعادة توطيدها فى الطوروس القيليقى، على البارونات الأرمن الذين تماهى فى عصيانهم وكانوا يميلون آنذاك إلى البحث عن نوع من السيادة المشتركة مع الفرنجة ضده (٩). وكان يحارب الأتراك عند الضرورة لكنه فكر فى الاكتفاء بإبقائهم داخل حدود معينة دون أن يحدث ذلك تعديلاً فى سياسته الدولية الكبرى بحيث أنه كان فى عام ١١٦٢ على استعداد لإقامة صلح حقيقى مع القائد السلجوقى قلع أرسلان الثانى الذى قَدِمَ إلى القسطنطينية وذلك مقابل ترضية بعض المطالب المتعلقة بهيئة ونفوذه.

وقد استفاد السادة الإقطاعيون بالطوروس الغربى، خاصة أولئك الذين ينتمون للأسرة الروبينية، وكان يعتقد بعضهم فى إمكانية التمرد على السلطتين البيزنطية (أو ما تبقى منها) واللاتينية، نظراً للضعف الذى أصاب الفرنجة أنطاكية المقيمين بجوار نهر العاصى ومن دون أن يكون هناك إعادة توطين بيزنطى فعلى فى قيليقية. وقد وصل الأمر بأحدهما وهو ملح إلى حد اعتناق الإسلام كى يحصل على مساندة نور الدين. وقد أنكر عليه رعاياه هذا الأمر، ولم يجد الأمير التركى فائدة من الاهتمام به غير أن الروبيين صاروا فى تلك الفترة مستقلين فعلاً وسنطلع على نزاعاتهم مع أمراء أنطاكية.

ترى كيف كانت العلاقات بين مصر وبيزنطة فى تلك الفترة ؟ بدون شك لم يعد لآى منهما الأهمية التى كانت لهما قبل مجيء الفرنجة والإيطاليين للتوسط بينهما. ومع ذلك ثمة احتمال ضئيل فى أن تكون العلاقات بينهما قد انقطعت تماماً؛ فإذا كانت التجارة قد انتقلت بدون شك إلى أيدي الإيطاليين فمن الممكن أن تكون مصلحة البيزنطيين والمصريين تقتضى

تنسيق مواقفهم إزاء هؤلاء، ذلك أنهم فى سفرهم إلى مصر على سبيل المثال كانوا يتوقفون عند جزيرة كريت البيزنطية أو إزاء النورمانديين كذلك الذين كانوا يستأنفون آنذاك مشروعاتهم المعادية لبيزنطة. ولم تتردد الحكومة البيزنطية فى أواسط القرن الحادى عشر فى التضحية بصداقتها مع الفاطميين أملاً فى تطبيع العلاقات مع الأتراك، ويجب أن نضيف أنه كان أملاً غير مجدٍ ونحن نجهل ما كان عليه هذا الأمر أثناء الحملة الصليبية الأولى والتي وصلت أثناءها إلى القاهرة سفارة بيزنطية (١١). أما بعد ذلك فحسبنا أن نذكر وجود تبادل للسفارات لا نعرف عنه شيئاً (١٢).

* * *

فى هذه الفترة نفسها تدهورت العلاقات بين مصر والنورمانديين، وربما يعود ذلك لأسباب متنوعة. لقد لاحظنا الدور المهم الذى لعبه الأرمن فى الخلافة الفاطمية سواء من اعتنق منهم الإسلام أم لا (١٣). وانطلاقاً من عام ١١٤٠ تقريباً ظهر نوع من رد الفعل العربى الإسلامى ربما تحت تأثير زنكى ونور الدين، أعطى السلطة الوزارية لقادة عسكريين عرب أو أكراد مستعربين (الوزير طلائع بن رزك) (١٤) كانوا أقل مجاملة للمسيحيين وربما أكثر إحساساً بالانتهاكات التى تعرضت لها الأراضى الإسلامية من قبل الدول المسيحية. وبشكل موازٍ شرع روجيه الثانى من جانب النورمانديين فى مهاجمة موانئ إفريقيا الشمالية بما فيها طرابلس إلى درجة أثارت ضروباً من الخشية أو الاستياء فى عديد من الأوساط المصرية الحريصة على إبقاء الأشكال التقليدية من الصداقات التجارية مع بلاد المغرب (١٥)، وهى كذلك اللحظة نفسها التى استأنفت فيها المملكة النورماندية سياسة هجوم ضد الإمبراطورية البيزنطية. ولا شك أن هذه السياسة وجهتها نحو مساعدة الحملة الصليبية الثانية، التى لم تكن فوق ذلك تزعج مصر. لكن يمكن التساؤل، هل كانت بيزنطة تحرض الفاطميين ضد النورمانديين؟ ومع وفاة روجيه أثار التطور الداخلى للمملكة فى ظل وليام الأول حركة مناهضة للمسلمين أو على الأقل معارضة للامتيازات التى كانت تمنح لهم. أما بالنسبة لروجيه الثانى فقد قام الإدريسى بتأليف كتابه الشهير فى الجغرافيا (١٦). لكن سرعان ما لوحظت عملية هجرة الأدباء المثقفين الصقليين إلى مصر (١٧)، حيث لم يكن ليحملوا فى نفوسهم شعوراً إيجابياً عن المستقبل بالنسبة للمسلمين بصقلية ولو أنهم ظلوا بمنأى عن الاضطهاد.

(١٤) طلائع بن رزك (١١٠٢ - ١١٦١) وزير الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله. استقل بأمور الدولة ولقب بالملك الصالح، اغتيل فى خلافة العاضد زوج ابنته. له ديوان شعر. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

من جهة أخرى لوحظ فى هذه الفترة توسع الموحدين فى المغرب الشرقى. ومما ساعد على ذلك بالتحديد ظهور رد فعل إسلامى إزاء التجاوزات التوسعية للنورماندين. لقد استعادت طرابلس من سيطرة المسيحيين فكان لابد للإيطاليين أياً كانوا أن يتعاملوا مع هذه السلطة المغربية الجديدة. ونحن نجهل نتائج ذلك من جانب الفاطميين غير أنه من العسير علينا أن نظن أنها لم تحدث.

لقد اتسمت حول هذه الخلفية وقائع اقتصادية أكثر وضوحاً. ومن المؤكد أن القرن الثانى عشر فى إيطاليا شهد انطلاق هذه التجارة فى موانئ الشمال التى لم تعد تتوازى مع تلك القائمة بالجنوب بل أخذت تحل محلها شيئاً فشيئاً. وثمة ظروف عديدة شجعت هذا التطور وهى ظروف كانت مستقلة عن السياسة النورماندية أو غيرها. فقد حظيت موانئ الجنوب بتشجيع أكبر فى السابق نظراً للعلاقات مع المسلمين مادام أن الأمر لم يكن متعلقاً إلا بالعلاقات القائمة بين الأقاليم بحيث كان هناك سعى لتقليل مدة العبور خشية التعرض لهجمات القراصنة. آنئذ كان التطور التجارى للغرب، وإلى حد ما حركة الحملة الصليبية قد منحها امتيازاً لصالح الموانئ الإيطالية بالشمال، التى هى أقرب إلى المنافذ القارية والتى ربما كانت أيضاً تمتلك مصادر الخشب والحديد الضرورية لتجارتها فى الشرق أكثر مما كانت تتوفر عليه موانئ الجنوب. وشيئاً فشيئاً قام الأسطول الإيطالى بتقليل مخاطر هجمات القراصنة (باستثناء ما قد يحدث فى حالة الحرب بين الإيطاليين أنفسهم) وبشكل عام كان النقل البحرى أقل تكلفة من النقل البرى. ومن الأمور غير المألوفة أن يشاهد أمالفيين فى المنفى من أسرة بانتاليونى يقيمون فى بيزا، وأن يشاهد تاجراً غنياً من أهل الجنوب يستقر استقراراً نهائياً فى الحاضرة الليجورية (*) (١٧) وهو سليمان السالرنى الذى يرجح أن يكون يهودياً تحول عن دينه، وقد تم التعرف إليه من خلال السجلات العدلية لكاتبها سكريبيا من الجنوبية. لقد كان البيازنة والجنوية يمرون بطبيعة الحال أثناء سفرهم إلى الشرق عبر مضيق مسينا، فهم الذين كانوا يؤمنون منذ ذاك الوقت العلاقات الشرقية لإيطاليا الجنوبية ذاتها. وبعدها بفترة قليلة سيقوم ابن جبير، الرحالة المسلم الشهير بإسبانيا، بالعبور من مسينا إلى الإسكندرية على ظهر باخرة جنوية (١٨).

لقد رأينا أن أول شهادة تاريخية عن تجارة أهل جنوة فى مصر (إذا استثنينا واقعة

(*) ليجورية : نسبة إلى البحر الليجورى وهو من متفرعات البحر المتوسط ويقع بين شمالى شبه الجزيرة الإيطالية وجنوب شرقى فرنسا وتضم الحاضرة الليجورية مدن عديدة من أشهرها جنوة وسافون. (المترجم)

الجنوية الذين أسروا في بداية القرن) توجد في مجموعة من الرسائل النموذجية التي ترجع إلى عام ١١٢٥، حيث اعتبرت هذه التجارة أمراً عادياً. وفي حوزتنا أيضاً بعض السطور المكتوبة باللغة العربية على ظهر وثيقة عدلية في سجل سكرييا غير محددة التاريخ، فتكون سابقة لعام ١١٥٦ وقد طال المحو نصفها وهي تشير إلى اتفاق بين أهل جنوة ومصر (١٩).

ولدينا معرفة أفضل فيما يتعلق بمدينة بيزا حيث يذكر لنا الجغرافي العربي العذري والرحالة اليهودي بنيامين التوديلي حوالي عام ١١٥٠ أن بواخر هذه المدينة بالإسكندرية كانت أكثر عدداً ضمن بقية البواخر الأخرى (٢٠). وحول هذه الخلفية العامة لابد لنا من دراسة للوقائع التي حفظ لنا بيان عنها في ترجمة لاتينية لوثيقة عربية تعود إلى عام ١١٥٤ (٢١).

وتشير مقدمة هذه الوثيقة وعدة فقرات منها إلى وجود اتفاق بين البيازنة ومصر قبل فترة من الزمن ساهم في تطوير تجارتهم بصورة كافية مكنتهم من الحصول على فندق خاص بهم بالإسكندرية ولا يعنى ذلك أن يكون البيازنة قد وصلوا تماماً إلى المرتبة نفسها التي كانت للصقليين. ربما كان للجنوية والبنادقة مثل تلك المرتبة غير أن الشهادات على ذلك جاءت متأخرة زمنياً بكثير. ويمكن أن نتساءل عما إذا كان الجهد الذي بذله البيازنة قد تزامن مع الاتفاقات التي عقدت مع صغار أمراء المغرب حوالي عام ١١٢٠ و ١١٤٠. ومهما يكن من أمر فإن الحكومة الفاطمية كانت قد سجنت تجاراً من بيزا وصادرت ممتلكاتهم عام ١١٥٢، فكان لهذا الأمر من الأهمية في نظر سلطات بيزا ما دفعها لإيفاد أحد السفراء على متن سفينة شراعية حربية خاصة وتم تفويضه سلطة مطلقة. وقد حالف الحظ المصريين بالإجابة بأنهم قد قاموا بتطبيق هذا العقاب انتقاماً من المذبحة التي اقترفها البيازنة ضد الركاب المسلمين الذين كانوا على ظهر إحدى بواخرهم واحتجازهم للنساء والأطفال والبضائع، وأنه بعد إجراء عمليات الإرجاع والتعويض فإن الحكومة الفاطمية ستترد بالمثل وستعيد للبيازنة حقوقهم السابقة بشرط ألا يطبق هذا الإجراء إلا على التجار الحقيقيين وليس على أولئك الذين كانوا يشاركون في العمليات الحربية لفرنجة الشرق المناهضة لمصر، وقد يكون في هذا تلميح لحصار عسقلان الذي سنعود للحديث عنه. ومن الواضح أن الحكومة المصرية كانت مهمومة بإقامة علاقات جيدة شأنها في ذلك شأن بيزا وذلك استمراراً للسبب ذاته وهو التزود بالخشب والحديد، وكان الاتفاق الحاصل بمثابة إلزام للبيازنة. وسيكون لهذا الإلزام دلالة، لاسيما عندما منع ملك القدس البيازنة من جلب الخشب والحديد إلى مصر. حينما التمسوا منه امتيازاً، بعد عامين من إجراء الاتفاق.

وفى حوالى عام ١١٥٤ و ١١٥٥ أحدث إحدى الاساطيل النورماندية ضرراً بدلتا النيل^(٢٢). فهل كان على النورمانديين أن يشتكوا من الامتيازات الممنوحة لأهل بيزا ؟ نحن نجهل ذلك لكن ما هو مؤكد لدينا منذ تلك الفترة أنه رغم تبادل بعض السفارات^(٢٣). فقد حدث فترة من التوتر بعد نصف قرن من السلام.

ومن جهة أخرى فإن مملكة بيت المقدس التى حافظت على السلام مع الفاطميين خلال ثلاثين عاماً قامت فى عام ١١٢٥ بالهجوم على آخر ميناء لهم بفلسطين الجنوبية وهو ميناء عسقلان. ونلاحظ فى الفترة نفسها أن الإيطاليين انشغلوا بإرجاع الفعالية للامتيازات التى حصلوا عليها فى بداية القرن، تلك الفعالية التى كان اهتمامهم بها مُقلّاً فيما يبدو حتى هذه الفترة^(٢٤). ويرجع إلى هذه الفترة نفسها أيضاً تاريخ انعقاد بعض الملتقيات المتعلقة بالقانون البحرى بمملكة بيت المقدس وهو ما سنعود للحديث عنه^(٢٥). ويعنى كل هذا أن الشرق اللاتينى بدأ يأخذ آنذاك مكانة مهمة فى ميدان التجارة وأن الإيطاليين قد مدوا نشاطهم إليه أو سعوا للحصول على مناطق يتراجعون إليها احترازاً من وقوع حوادث مع المسلمين، ولاشك أن المملكة وجدت آنذاك مصلحة فى اجتذابهم إليها على الرغم من بعض المزايا الجمركية المتفق بشأنها.

غير أنه فى حوالى الستينيات حدث تحول جديد فى العلاقات الدولية سواء فى الغرب أو الشرق. ففي إيطاليا حدثت قطيعة جديدة بين مناصرى الإمبراطورية ومناهضيه، وبناء عليه فقد حدثت قطيعة مماثلة بين بيزا والنورمانديين كذلك، فبيزا كانت قد وعدت نفسها بالحصول على نصيب الأسد من الأراضى النورماندية فى حالة وقوعها بين يديها. ومع ذلك فقد تبينت صعوبة هذا الأمر، إذ تصالح البيازنة بشكل ما مع النورمانديين مراعاة لمصلحة إتصالاتهم التجارية. وقد اتخذ الجنوية موقفاً معاكساً فتعاونوا مع النورمانديين. ولا نتبين انعكاسات هذه النزاعات فى الشرق، فليس من قبيل المصادفة بعد ذلك أن احتجز البيازنة فى عام ١١٦٥ سفينة جنوية عائدة من مصر^(٢٦). ولا شك فى النهاية أن تأثير هذه الشكوك فى نفوس البيازنة الرغبة فى إحكام السيطرة على مصر.

ويفسر كل ذلك تزايد اهتمام الإيطاليين بوضعهم داخل المملكة. وفى الوقت نفسه الذى أنهى فيه البيازنة صراعهم مع الفاطميين حصل سفيرهم على امتياز من رينو الانطاكى مستعيذاً ما تخلى عنه فى النصف الأول من القرن، وبعد عامين من ذلك حصل هذا السفير ذاته على امتياز من الملك بوهوان الثالث وتوسطه للتصالح مع الملك عمورى. ولا نعرف أسباب

الخلاف بين البيازنة وعمورى، فلعلها ترجع إلى المعاهدة التى عقدت مع مصر عام ١١٥٤ لأن عمورى بوصفه حاكماً على الواجهة البحرية لفلسطين كان يمثل سياسة التدخل ضد مصر وكان امتياز بودوان أنثذ يمنع البيازنة من تسليم مصر الخشب والحديد تحديداً وهو ما فرضته عليهم اتفاقية عام ١١٥٤. هل كانت هناك علاقة بين هذه الوقائع واعتداء المصريين على سفينة بيزية بالقرب من تنيس(*) فى عام ١١٥٧ ؟ إن معلوماتنا على غموضها تظهر الأهمية التى كانت تمثلها الأعمال التجارية للبيازنة سواء فى الإسكندرية أو عكا والصعوبة التى كانوا يواجهونها ولا شك فى المصالحة بينهما. وسنعثرفى عام ١١٦٧ على البيازنة وهم يدافعون عن الإسكندرية، بجانب عمورى، الذى صار ملكاً، ضد الجيش الذى أرسله نور الدين، وهو موقف متفق هذه المرة مع العلاقات السلمية القائمة مع المصريين حيث أن الوزير شاور وعمورى كانا فى تلك اللحظة متحالفين، وربما نتج عن هذه العلاقات وفقاً لحوليات بيزا امتياز جديد، لكنه لم يُدرج فى مجموعة الوثائق البيزنطية المحفوظة (٢٧). ويمكن الاعتقاد، كما ألمح الى ذلك منذ زمن بعيد ر. س. لوبيز أن البيازنة أرادوا أن يفعلوا فى مصر ما فعله البنادقة فيما بعد بالقسطنطينية.

ثمة احتمال ضئيل أن يكون الجنوية والبنادقة قد ظلوا غير مباينين بهذه الصراعات فهناك ما يثبت وجودهم ومزاوتهم لأنشطتهم بالإسكندرية أثناء هذه الفترة ومع ذلك لا تذكر النصوص شيئاً عن هذا الأمر. فربما كانوا قد تبناوا موقفاً احترازياً فى هذا الشأن. ولا شك أن النورمانديين حاولوا استئناف أعمالهم التجارية فأرسلوا سفارة عام ١١٦٣، لكن لم نعد نسمع عن التدخل فى مصر إلا فى شكل عسكرى (٢٨).

لقد غرقت الدولة الفاطمية فى مناخ من الفوضى والاضطراب، فاستنجدت الفرق المتنافسة بالفرنجة ونور الدين وجميعهم كانوا يبتغون مقدماً الحصول على مصر، إذ لعلها

(*) تنيس : يقول المقرئى فى خطه أن تنيس والفرما كانتا أقرب من دمياط إلى بيت المقدس لكن أمرهما فى ذاك الحين قد آل إلى الخراب وبزالتا من الوجود قبيل حملة لويس التاسع على مصر.

انظر خطط المقرئى ج ١ ص ١١٢ و ١٨١، وكذلك الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٤٩، ج ١٤ ص ٧٤. ويقول أبو الفداء فى هذا الشأن؛ بحيرة دمياط وتيس هما بحيرتان متصلتان إحداهما بالأخرى ومتصلتان بالبحر المالح فبحيرة تنيس هى البحيرة الشرقية منهما وبحيرة دمياط هى الغربية ويصب فيها بحر أشمون وهو النيل الشرقى من النيلين المتفرقين عند جرجر والمنصورة انظر تقويم البلدان لمؤلفه أبو الفداء - طبع مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة اللطانة سنة ١٨٢٤ - المترجم.

كانت فى أعينهم غنيمة ثرية وسهلة المئال وتأرجح التجار الإيطاليون بين مغبة التحالف مع الفرنجة فى حالة الفشل واقتناص المنافع فى حالة الانتصار.

أثناء هذا أطاح الموحدون بإمبراطورية المرابطين فى المغرب ولم يبق منها سوى دولة بنى غانية (*) فى جزر البليار وهى دولة شبه قرصانية كما سنرى ذلك. وفى المغرب الشرقى تجاوزوا حدود المرابطين بفضل مساندة السكان المسلمين الذين كانوا منزعين من التوسع النورماندى كما سبق القول فلم يكن بوسع الإيطاليين سوى التعامل مع الدولة الجديدة.

ثم حدث تحول جديد بين عامى ١١٦٩ و ١١٧١ فى مصر وبيزنطة، وفى الإمبراطورية البيزنطية نتذكر أن البنادقة كانوا يحتلون مكانة تجارية رئيسية منذ نهاية القرن الحادى عشر ومع ذلك لم يتمكنوا من منع البيازنة من التغلغل بها فى بداية القرن الثانى عشر، مع امتيازات أقل لكنها كانت كافية لتمكينهم من تحقيق أرباح طائلة. ولابد أن الأمالفيين كانوا منزعين من علاقاتهم مع النورماندين أعداء بيزنطة. وحتى الجنوبية الذين كانوا يتعاونون مع موانئ الجنوب بشكل عام قد انتظروا بعض الوقت قبل أن يحصلوا فيها هم كذلك على موقع فى الإمبراطورية ولعل تعاونهم مع الجنوب كان أحد أسباب هذا الانتظار ويجب أن نضيف هنا إلى أنهم كانوا بلا شك يؤكّدون على منطقة الشرق الأدنى بالذات. وبشكل عام مهما كانت المصلحة التى يمكن للأرباح المتحققة أو المتوقعة أن تجلبها للتجارة البيزنطية فإنه يمكن الاعتقاد أنها كانت بالنسبة للإيطاليين أقل ضرورة من التجارة الإسلامية (ربما كانت تساعد على الحفاظ على توازن الحسابات. راجع أدناه) لاسيما فى جهة الواردات نحو إيطاليا. وقد نتج عن تحويل التجارة القديمة من الخليج العربى الفارسى نحو البحر الأحمر وغزو الأتراك لآسيا الصغرى دون أن ينمو فيها أى تنظيم مستقر لمدة طويلة، أن توقف عملياً التمويل المباشر من القسطنطينية بالمنتجات الآسيوية عبر القوافل وتقلص حركة المرور البحرية انطلاقاً من الموانئ السورية وبالأحرى عندما اندمجت هذه الأخيرة بالشرق اللاتينى مع الحدود الداخلية الإضافية التى تفصلهما عن العالم الإسلامى. ومهما يكن من أمر فإن الإيطاليين وفى مقدمتهم البنادقة كانوا يتمتعون بامتياز تجارى يكاد يكون مضرراً بحقوق اليونانيين الذين لم يعوّدوا يمتلكون الملاحة البحرية إلا بالنسبة للنقل المحلى وذلك باستثناء

(*) نسبة إلى على بن غانية (توفى عام ١١٨٨) : حفيد غانية نسييه يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين فى الأندلس والمغرب. ثار على الموحدين عام ١١٨٢ وزرع الفتن فى مراكش وسبب حروباً أهلية أدت إلى سقوط إمبراطورية البربر فى أفريقيا العربية. تقلب عليه يعقوب بن يوسف (المنصور) سلطان الموحدين وقتله. (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

الملاحه العسكرية. فى هذه الظروف ازداد شعورهم بأن سلوك الإيطاليين نحوهم كان مصدره عجرة لا تطاق وهو ما كان يصطدم بالاتجاه القوى لمانويل كومنين نحو الاستعانة باللاتين مساعدين عسكريين أو مستشارين والسعى فى سياسته بالشرق الأدنى للظهور بمظهر القائد الروحى للتحالف المسيحى اليونانى - اللاتينى. ومع ذلك يبدو أن منطقتى النفوذ لم تتداخلا لبعض الوقت. وفى عام ١١٧١ قام سكان القسطنطينية، وهم فى حالة هياج، بمهاجمة حى البنادقة فنهبوه وقتلوا عدداً كبيراً من التجار ولم يسلم البيازنة والجنوية المجاورين من هذا الاعتداء^(٢٩). ولا يبدو أن مانويل كان معارضاً حقاً لما حدث، وعلى أية حال لم يحدث أى شىء من شأنه أن يعيد التجارة إلى مجراها الطبيعى خلال السنوات التالية. مما دفع الإيطاليين إلى البحث عن عوض لذلك.

فى أثناء هذا الوقت أرسل نور الدين جيشاً إلى مصر بإشراف القائد الكردى شيركوه الذى طرد الفرنجة واحتل البلد. وحينئذ مات فحل مكانه على الفور ابن أخيه صلاح الدين الذى خلف رسمياً الوزراء المصريين للفاطمين. لقد قمع، فى الواقع، حركات التمرد التى قامت بها الأطر الدينية والسياسية والعسكرية للنظام الفاطمى، فقد كان التفوق التقنى للجيش التركى الكردى على جيش الفاطميين المكون من العرب والسود، تفوقاً بارزاً، وكانت جماهير الشعب بصفة خاصة قد بدأت منذ تلك الفترة تنظر إلى انهيار النظام نظرة لا مبالية، كما لاحظ ذلك جيداً القاضى الفاضل الذى عاصر هذه الأحداث إذ لم تكن هذه الجماهير قد انتمت قط للمذهب الإسماعيلى الرسمى، علاوة على ما أثارت الانشقاقات الحاصلة داخل الأسرة الحاكمة ذاتها من حيرة واضطراب فى نفوسها.

وكان صلاح الدين بالطبع سنياً لكنه كان ينتمى بوجه عام للمدرسة الشافعية شأنه فى ذلك شأن الأكراد بينما كان المصريون آنذاك ينتمون إلى المذهب الحنفى، وذلك على نقيض الأتراك. وفى عام ١١٧١ قضى رسمياً على الأسرة الفاطمية وأعلن عن عودة مصر إلى الأسرة السنية وإلى الطاعة النظرية للخلافة العباسية. ومنذ ذلك الحين صارت مصر مندمجة بمواردها ضمن الجبهة المشتركة للحرب المقدسة ضد الشرق اللاتينى المحاصر، فكانت المنطقة الحرجة تمر من سوريا الشمالية إلى سوريا الجنوبية وفلسطين.

ولم يظهر التأثير الكامل لهذه التغييرات فى الحال نظراً للارتياح المتبادل بين نور الدين وصلاح الدين، ونظراً للصراعات الناتجة بعد وفاة نور الدين عام ١١٧٤ بين خلفائه الشباب وصلاح الدين الذى ظهر فوراً بمظهر القائد الوحيد القادر على مواصلة الحرب المقدسة، وبهذه

الصفة فوضت إليه المطالبة بكامل الميراث السوري والمصري على السواء، وفي عام ١١٨٠ أعيدت الوحدة لصالحه وصار الخطر شاملاً ضد الفرنجة.

ولم يمهل هؤلاء محاولة الرد. فقد رأينا أن بودوان الثالث وشقيق عموري قد فكرا مرات عديدة في مسألة مهاجمة مصر بمساعدة بيزنطة. وقد تم استئناف المشروع نفسه ضد مصر في عهد صلاح الدين. وكما نعرف فقد كان لمانويل كومنين ميل شخصي لموالة اللاتين كما كان لديه منهم أعوان كثيرون. وكان يحلو له أن يتصور نفسه قائداً أعلى لشكل ما من أشكال التحالف البيزنطي - اللاتيني ضد الإسلام. وأن يكون نفسه هذا القائد بدلاً من الإمبراطور الألماني أو البابا. وقد عقد علاقات جيدة مع مملكة بيت المقدس التي لم يحصل له معها خلاف قط بسبب الخصومات الإقليمية كما حدث مع إمارة أنطاكية وكان ذلك يشكل نوعاً من الحماية بالنسبة إليه فقد كان عموري زوجاً لابنة ملك بيت المقدس. لقد كان لعقد اتفاقية السلام مع نورماندي إيطاليا أثر في تحرير أسطولها البحري مما سهل أمر المشاريع باتجاه مصر. وقد أخرجت الانشقاقات الحاصلة في القدس أمر تحقيق هذه المشاريع إذ اضمحل كل شيء في يوم واحد عند ميريو كفالوم (راجع أدناه).

الفصل العاشر

التجارة في القرن الحادي عشر

تنظيمها، العملة

إن الفترة التي تسمح لنا بالبدء في إدراك الكيفيات التي كانت تتم بها تجارة الشرق هي فترة أواسط القرن الثاني عشر. وإذا كانت العقود التجارية الخاصة المعروفة ترجع إلى فترة متأخرة في مدينة بيزا فإننا نملك منها، بالنسبة لمدينة البندقية، عدداً كبيراً كافياً فيما يتعلق بالقرن الثاني عشر^(١). وبالنسبة لمدينة جنوة، حيث حفظت فيها منذ نهاية هذا القرن نفسه عدد كبير من السجلات العدلية، نملك سجلات جوهانيس سكريبيا^(٢) التي ترجع لأعوام ١١٥٦ و ١١٦٤. لا يمكننا بالتأكيد أن نقول إلى أي حد تسمح لنا هذه الوثائق المحفوظة باستخلاص استنتاجات صحيحة، وبالنسبة لإعادة رسم المسارات التجارية فإن المعنى الغامض لتعبير «أولترا ماري» الذي يدل عادة على مجموعة موانئ الشرق اللاتيني يمثل عائقاً لنا ولو أن هذا التعبير يبدو أحياناً أكثر مرونة. ومهما يكن من أمر فقد ظهرت ثلاثة اتجاهات وهي القسطنطينية، والإسكندرية ومصر، وعكا وما وراء البحار وذلك بغض النظر عن التجارة المغربية. والمشكلة الأولى : ما هي نسبة الرحلات نحو هذه الاتجاهات الثلاثة بالنسبة لكل مدينة تجارية إيطالية ؟ إذا أجرينا العمليات الحسابية بالنسبة لمدينة بيزا من خلال ما نشره موروذو ولومباردو عن الفترة السابقة لعام ١١٧١ نجد أن اسم القسطنطينية قد تكرر ٢٠٠ مرة والإسكندرية ٦٤ ودمياط ٧ أي ٧١ مرة بالنسبة لمصر، وأخيراً يتكرر اسم مدينة عكا ٤٠ مرة وصور ٤ مرات وأنطاكية ٤ مرات وطرابلس مرة واحدة ويافا مرة وسوريا عامة ٤ مرات أي أن الشرق اللاتيني يتكرر ٥٤ مرة بشكل عام. فلهذه النتائج دلالتها، وذلك أن أولوية القسطنطينية بالنسبة للبندقية ليست أمراً مفاجئاً وليست كذلك أقل وضوحاً، وبذلك فاقت مصر الشرق اللاتيني، وداخل هذا الأخير فاقت عكا بقية الموانئ الأخرى رغم وجود المؤسسة الخاصة للبندقية في صور. وإذا أجرينا الإحصاء نفسه بالنسبة لجنوة التي كانت أقل اهتماماً بالإمبراطورية البيزنطية نجد بالنسبة للأعوام الثمانية في سجلات سكريبيا ما يلي: الإسكندرية ٨٤ مرة وما وراء البحار ٤٧ مرة. ولا نملك أرقاماً بالنسبة لبيزا غير أن كل ما قلناه عنها يُظهر أن النسب ربما تكون متشابهة.

وهذا شاهد على أنه إذا كان الشرق اللاتيني غير قابل للإهمال من قبل الإيطاليين فإن مصلحتهم الرئيسية مع ذلك كانت تتجه نحو مصر^(٣) الأمر الذي لا يمكن ألا تنتج عنه عواقب على سياستهم العامة.

إذا سعينا الآن لتحديد طبيعة البضائع المنقولة في كلا الاتجاهين فإن الوثائق التي في حوزتنا تجعلنا في موقف صعب؛ ذلك أن الأدبيات العربية الإسلامية^(٤) ووثائق الجنيزة^(٥)

تحدث أساساً عن الخشب والحديد بالنسبة للاستيراد وأحجار الشب والمواد الاستهلاكية المتنوعة بالنسبة للتصدير، ومع ذلك فإن هذه البضائع فى الواقع لا تذكر قط فى العقود التى تطلعنا على المواد التى كانت تحمل من إيطاليا كى تباع فى الشرق. فبيع الخشب والحديد وبالأحرى بيع الأسلحة للخارج كان محظوراً فى أغلب التشريعات آنذاك وكذلك عبر قرارات صريحة أصدرها البابوات والمجامع المسيحية بالنسبة لحالة المسلمين ^(٦)، فكان لابد أن يتم تحميل السلع خفية وأن تخفى المنتجات الممنوعة تحت البضائع المسموح بها وربما حدث تعويه بصدد الاتجاه المعلن للسفر. واستناداً للعقود كان الموضوع الرئيسى للتصدير يتمثل فى الأقمشة التى كانت معياراً لقيمة القروض التى ينبغى تسديدها، بيد أن الوثائق المصرية تكاد لا تذكر شيئاً إزاءها. وأكثر ما نستطيع افتراضه هو أنه فى هذه الفترة كان الأمر مازال يتعلق بأقمشة خامة كانت توزع، بعد صناعتها وصبغها بواسطة الحرفيين المحليين، فى الوقت نفسه الذى توزع فيه الأنسجة المحلية ^(٧). وكانت أغلب المنتجات الأخرى لدى الطرفين معدة للاستهلاك الأكثر شيوعاً. وفضلاً عن ذلك فإن الحكومة المصرية، مثلها مثل كل الدول التى توجد فى المرحلة الماركنتيلية كانت تشجع استيراد الذهب والفضة غير أنها كانت تعيد سبك العملات الأجنبية. وسنعود لاحقاً لمعرفة ما إذا كان قد تم إقامة توازن تجارى ونقدى وكيف كان ذلك. وحسبنا أن نقول حالياً أنه تم احتكار الخشب والحديد والشب من قبل منظمة حكومية كانت تضمن الشراء والدفع بشروط مرضية لكلا الجانبين. إنه من الصعب إجراء مقارنة مع الشرق اللاتينى، إذ لدينا بشأنه قائمة وردت فى فصلين من قوانين ملتقيات مملكة بيت المقدس وهى خاصة بالمنتجات المستوردة التى فرضت عليها الضريبة وبما أنه فى الفترة التى تم فيها التحرير النهائى لهذين الفصلين كان للغربيين إعفاء تام من رسوم الجمرک على المواد الاستهلاكية التى يجلبونها، لذلك كان هناك امتناع عن إحصائها ولم يكن الحديث يدور إلا حول البضائع التى تحملها القوافل البرية المحلية أو الأساطيل الصغيرة المتنقلة بين السواحل فى بعض الأحيان.

وكانت القوافل البرية تحمل التوابل الشهيرة من بين ما كانت تنقله. ومن المؤكد أنها كانت تصل إلى مصر كذلك. ويبدو أن كتاب «المنهاج» لا يكثر بما كان ينقل من مواد استهلاكية بدون أن نعرف جيداً السبب، ومن المحتمل أن تكون نسبتها فى مجموع التجارة المصرية أقل أهمية مما ستصبح عليه فيما بعد، كما يحتمل أن يكون اعتماد المصريين والإيطاليين فى تجارتهم على التوابل أقل مما كان يعتقد بشكل عام.

من المحتمل أن الغربيين كانوا يبيعون للفاطميين مواد أخرى غير الخشب والحديد، فابن طُوير وهو موظف كبير ومؤرخ معاصر للأحداث يذكر في وصفه لمخازن قصر الخليفة عشية سقوط النظام أنه كان يحوى مخزوناً من الأسلحة يشير على نحو غامض بأنها «صنعت بأيد فرنجية»، وثمة احتمال ضئيل فى أن تكون قد صنعت فى مصر من قبل المساجين كما لا يحتمل كثيراً أن تكون قد بيعت من قبل فرنجة سوريا الذين كانوا علاوة على ذلك يستلمون أسلحتهم من أوروبا. ربما كان الأمر يتعلق بأسلحة تركها عمورى أثناء حملاته فى مصر، غير أنه لم يتعرض لهزيمة حقيقية ولم يكن قد حارب الفاطميين. وإذا أقصينا هذه الفرضيات تبقى أمامنا فرضية التجارة. فالسيوف الفرنجية كما رأينا (١٠) كانت مشهورة فى الشرق بحدتها وكانت تشتري بثمن غال عندما يتم التحايل على الخطر الذى تفرضه أوروبا على البيع، ولم يكن الفولاذ المسمى بالدمشقى المشهور ببريقه مضاهياً لها؛ فالحرفيون الشرقيون كانوا يصنعون السيوف المعقوفة لا السيوف ذات النصل المستقيم (انظر ص ٥٢ - ٥٣). وفضلاً عن ذلك فإننا نعلم أن جيوش صلاح الدين الذى خلف الفاطميين كان لديها دروع كبيرة مختلفة عن الدروع التقليدية الخفيفة بالشرق والتى توحى أسماؤها، طارقة (تحريفاً لكلمة تارج التى تعنى الترس؟) وجنوية (نسبة إلى مدينة جنوة؟) أنها من مصدر غربى (١١). ونحن نعرف أن إحدى الوحدات العسكرية الفرنجية قامت بأدوار ثانوية فى بعض الجيوش الإسلامية إبان العصر الوسيط (كالموحدين وأتراك آسيا الصغرى (١٢)، وربما شارك بعضها حتى فى حطين) (١٣)، غير أننا لا نرى أن ذلك يمكن أن يفسر نص ابن طُوير.

ويقودنا هذا الأمر إلى مشكلة أخرى، ذلك أنه تم التسليم دائماً تقريباً بأن تجارة الشرق كانت تجارة خاسرة بالنسبة للأوروبيين وهى فكرة كانت تستند ضمناً على الاعتقاد بأن الشرق كان يبيع بضائع غالية بينما لم يكن فى إمكان الغرب أن يمدّه إلا ببضائع رخيصة الثمن. غير أن بعض الشكوك أثبتت فى الآونة الأخيرة اعتماداً على وثائق أخرى غير تلك التى تم استخدامها (١٤)، لكن يبدو أن المسألة لم تناقش فى مجموعها بعمق قط. ولنلاحظ على أية حال أنه كان فى إمكان الإيطاليين الحصول من داخل المغرب والغرب على ما يعوض خسائرهم المحتملة فى الشرق. وحتى بدون الخروج من الشرق يمكن التساؤل عما إذا كان ميزان الحسابات مع ما يتضمنه من المواد التجارية التى أحصيناها، سلبياً إلى هذا الحد كما كان يعتقد. وسنجد هذه المشكلة بصدد التداول النقدى والعودة إلى الذهب إبان القرن الثالث عشر بأوروبا. وقبل ذلك كان لابد من التفكير بأن التجار لم يكن ليواصلوا ممارسة تجارتهم

وتطويرها بالشرق لو لم تكن هذه التجارة مربحة؛ فهي يمكن بالتأكيد أن تكون كذلك بواسطة بيعهم للسلع في الغرب بسعر أعلى من سعرها بالشرق حيث كانوا يشترونها، لكن هل كان في إمكان الغرب أن يقبل بهذا الاقتطاع المالى لو لم يكن قد تمكن من زيادة منتجاته القابلة للتسويق؟

كان بإمكاننا أن نناقش بصورة أفضل هذه المشاكل لو كنا نعرف بشكل جيد طبيعة التجارة بالقسطنطينية مقارنة بتلك الموجودة في أماكن أخرى بالشرق. وبالتأكيد لم تظهر فيها البضائع الضرورية مثل الخشب والحديد والشب. ولا يعنى هذا أن عديداً من المنتجات الكمالية ولا سيما المنتجات ذات الاستخدام الشائع التى تكون الموارد الأساسية لهذه التجارة، لم يصل مجموعها إلى عدد ضخم. ولا شك أن الخسائر والأرباح يمكن أن تتوازن بعد العودة إلى إيطاليا، وغالباً ما كانت تقام كذلك رحلات ثلاثية حيث كانت الخسائر الناتجة في مكان تعوض بأرباح في مكان آخر، وفي النهاية فإن الإيطاليين عندما كانوا يقومون بدور الوساطة بين عدة موانئ متتالية فإنهم كانوا يحصلون بطبيعة الحال على «عمولة».

ومهما يكن من أمر فإن حصول الربح بالنسبة لكافة التجار في تلك الفترة بلا تمييز في الدين كان يتم أساساً من خلال الفرق الناتج من شراء السلع داخل الأسواق الرخيصة لبيعها بأثمان غالية في أسواق أخرى. أضف إلى ذلك أن فترة الحرب تلك كغيرها كانت مناسبة لاكتساب المال من تجارة الأسلحة لكلا الطرفين.

إن أعراف المجتمعات التى تتواصل فيما بينها هي أشد تشابهاً أو ميلاً نحو التقارب في ميدان التجارة. فكتاب المنهاج للمخزومى الذى حرر في عهد صلاح الدين استناداً على الوثائق الفاطمية أساساً يتيح لنا الآن أن نفهم بشكل أفضل المعلومات المتناثرة في العقود الإيطالية التى أخذت تكثر في الفترة نفسها، ومن المستحيل أن نتناول هنا بالتفصيل الجوانب التقنية للتجارة بالبحر المتوسط لكن يلزم ذكر بعض الملامح منها فيما يتعلق بالتاريخ العام^(١٥). وإذا كانت المبادئ والتوجهات تخضع تقريباً في كل مكان إلى الهموم ذاتها فقد كان لكل ميناء مع ذلك قوانينه المطابقة لسياسة السلطات المعنية.

وإجمالاً، كانت تعد عند اقتراب السفن الأجنبية من الموانئ المصرية على البحر المتوسط (الإسكندرية في الغرب من الدلتا ودمياط وتنيس في الشرق)، قائمة بأسماء الركاب والبضائع التى تفرغ بعد ذلك وتوضع في فندق (فنداقو). آنذاك كانت العملية الرئيسية تتمثل

فى تنظيم عملية واسعة من البيع بالمزاد من قبل موظفى الميناء ويأتى أثناءها الوسطاء المحليون للحصول على البضائع التى يقومون بتصريفها بعد ذلك لدى تجار المفرق بالداخل. فى هذه الفترة لم يكن الأجانب، فى الواقع، يمارسون البيع بأنفسهم داخل البلد إلا استثناءً، وعلى أية حال كان جهلهم باللغة والأعراف السائدة يجعل ذلك متعذراً. وكان لديهم أحياناً الحق فى الذهاب إلى القاهرة والقيام بعملية الفحص فى الدلتا للمحاصيل التى فى وسعهم أن يأمّلوا شراؤها (مثل الكتان)، وبطبيعة الحال كان لابد أن يحدث التوازن بين معظم عملياتهم التجارية فى الموانئ المختلفة التى يصلون إليها، بيد أن سياسة الحكومات كانت تهدف آنذاك إلى تشجيع الاستيراد أكثر من تشجيعها التصدير إذ كان هما الأول تأمين الإمداد الداخلى الذى يخص فى قسم كبير منه الطبقة الأرستقراطية. فخلال عمليات البيع بالمزاد صدرت الرسوم التى يجب على التجار الأجانب دفعها وقامت بتحصيلها. وكانت هذه الرسوم تتراوح وفقاً لجنسيات التجار وطبيعة البضائع فعلى سبيل المثال كانت الرسوم مخفضة جداً بالنسبة للمعادن الثمينة القابلة لأن تسك نقداً. ويبدو أن المبدأ الأساسى السائد فى كل مكان تقريباً (بما فى ذلك المحيط الهندى) هو اقتطاع العُشور، لكن كان يضاف إليه تكاليف بقية الخدمات وهو ما كان يضاعف المبلغ فى غالب الأحيان. ولم يكن يوجد فرق بين المسلمين وغير المسلمين إلا بالنسبة للممتلكات الشخصية غير القابلة للتسويق. وكانت الفنادق فى هذه الفترة تدار من قبل إدارة البلد لكن كان هناك اتجاه إلى توزيعها تبعاً للجنسيات الموجودة لأنها كانت تستخدم أيضاً بالنسبة للحياة الخاصة للجاليات أثناء عبورها. أما الشؤون القانونية الخاصة بالتجار فكانت من اختصاص الوكيل الذى لم يكن بالضرورة مسلماً.

ماذا يمكن أن يكون عليه دور الشرق اللاتينى فى هذا البحث عن التوازن ؟ من الصعب الاعتقاد بأن مشترياته لم تكن تتجاوز مبيعاته ولو أن الجماعات الدينية كانت تسعى لتنمية بعض المنتجات المدرة للأرباح مثل الزيت والسكر والخمر. لكن ماذا كان مصدر الموارد التى كانت فى حوزة اللاتين بالنسبة للبقية ؟ الإجابة تبدو بسيطة وتتمثل فى أعمال البر التى كان يقوم بها المؤمنون داخل الغرب (بما فى ذلك الأمراء والبابوات) سواء كان هناك وعى بها أم لا. ومن الصعب إحصاء الثروات التى أرسلت من أجل إنقاذ الأرض المقدسة إلا أنها كانت وفيرة بالتأكيد وهى تتكون من مساهمات بعض الأفراد والحجاج وغيرهم ولاسيما منتوجات الثروات الغربية للجماعات العسكرية وغيرها من المنتوجات المنقولة على ظهر سفنهم الخاصة، وتبرعات أخرى كثيرة عُهد بها إلى التجار الإيطاليين. وليس هناك ما يدعو للارتياب فى أن هؤلاء كانوا

دائماً وسطاء غير أوفياء لكن يمكن الظن بأنهم كانوا يستفيدون من الأموال التي حصلوا عليها بهذا الشكل في انتظار تسليمها النهائي. وهكذا كان الغرب يمول مشروعات التجارة بشكل غير مباشر بواسطة التبرعات.

أما بالنسبة للبلاد الأخرى فإن بعض الوثائق التي في حوزتنا غزير وبعضها أقل غزارة، الأمر الذي يتعذر معه عقد المقارنات. إن معرفة ما إذا كان الشرق اللاتيني قد تكيف مع الأعراف السابقة أو قام بتجديدها وكيفية ذلك، أمر له أهمية خاصة، لكن تعريفه عكا التي حفظتها لنا «قوانين ملتقيات البورجوازيين» ترجع إلى فترة عرفت تطوراً في أماكن عديدة، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً بشكل أفضل.

ومع ذلك فإن الاهتمام الذي أولته مملكة بيت المقدس للقانون البحري كما أُلحنا إلى ذلك يعود إلى هذه الفترة (١٦)، وبما أن تجارتها حتى ذاك الوقت كانت أقل أهمية فقد تركت تنظيم الأعمال التجارية للتجار الإيطاليين أنفسهم أو عن طريق المحاكم الصغرى للمدن (*) ومحاكم الموانئ والسفن ذات الأصول الغامضة (١٧)، والتي كانت بالضرورة محاكم عرفية لا دخل للقانون الجديد فيها إذ كانت تتضمن بلا شك الأهالي المحليين. أنشد كنا نجد قوانين عديدة، عكس ما كان في السابق، ومن بينها قانونان حدثا بالتأكيد في عهد عموري الأول والبعض الآخر يرجع إلى الفترة نفسها. فقوانين عموري تناولت موضوعاً عولج كذلك في كثير من الامتيازات الممنوحة للإيطاليين وهو موضوع الفرق في «المياه الإقليمية». فقد كان العرف الشائع في كثير من المناطق أن تعتبر ممتلكات السفينة الفارقة غنيمة قانونية للدولة الساحلية إلا إذا كانت هناك اتفاقية مخالفة لذلك، لكن منذ ذلك الحين ضمنت القوانين للناجين من الفرق أو لورثتهم الحق في استعادة ممتلكاتهم، وتناولت ملتقيات أخرى مسألة القروض للقيام بالرحلات البحرية. فعلى سبيل التذكير إذا كان طاقم الأسطول يتكون من الإيطاليين فإن الركاب قد يكونوا من السكان المحليين.

وفي مصر، وهي بمثابة النموذج الأعلى بالنسبة للدول التي تتدخل مباشرة في المجال الاقتصادي، كان هناك ما يسمى المتجر وهو جهاز خاص يتولى شؤون البضائع كالخشب والحديد التي كانت الدولة تحتكر شراءه بأسعار يتفق بشأنها بدون تدخل السوق الحرة. لكن

(*) اعتمدنا في ترجمة أسماء هذه المحاكم على ترجماتها الشائعة في كتب د. سعد عبد الفتاح عاشور، ومحمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني - المترجم -

يبدو أن موانئ البلاد الإسلامية الأخرى كانت تنفر تقريباً من هذا النوع من المؤسسات، أما فيما يتعلق بمملكة بيت المقدس ولم يسمع شيئاً عن هذا.

كان التجار يتجنبون التنقل بمفردهم عبر البر والبحر وكانوا يقومون بتنظيم القوافل البحرية والبرية. وكان للغربيين بموانئ الشرق اللاتينية فنادقهم بحسب جنسياتهم، ولا تتبين بوضوح ما إذا كان الأمر من قبل يسير على النحو نفسه في مصر حيث لم يكن الغربيون يتمتعون على أية حال بالاستقلال الذاتي. ففي مصر كانت إعادة التوزيع الداخلي مقصوراً بالفعل على المحليين وهو أمر كان فيما يبدو أقل وضوحاً في بيزنطة والشرق اللاتيني.

لقد رأينا أنه في بداية القرن كانت لاتزال هناك بعض الاتصالات البحرية عبر السفن الإسلامية بين مصر والمغرب بل حتى إيطاليا النورماندية^(١٨). ويبدو جلياً أن الإيطاليين خلال القرن الثاني عشر قد سيطروا سيطرة مطلقة على هذه العلاقات حتى بين الشرق والغرب الإسلامي. علينا أن نناقش لاحقاً إلى أي حد كان ذلك في خدمة توازنهم النقدي وعلينا أن نتجنب الآن الخطأ، فالحدث الحاصل عام ١١٥٢، الذي رأيناه سابقاً، يشير إلى أن السفن الإيطالية كانت تُقل بعض الشرقيين بما فيهم المسلمين، ونحن نعلم أن الناس كانوا يلتقون بهم في شوارع بيزا^(١٩). وفي عام ١١٨٣ نجد الرجل الورع ابن جبير، على الرغم من إرشاداته هو ذاته، قد قطع الجزء الواقع على البحر المتوسط من رحلته إلى الحج على ظهر سفينة جنوبية^(٢٠). وبطبيعة الحال كان المجال لا يسمح بعد للأوروبيين بالتمكن من ولوج البحر الأحمر. وفي فترة مماثلة نجد تجاراً مغاربة مسلمين بالشرق، والشاهد على ذلك التاجران الثريان اللذان التقى بهما ابن جبير في دمشق واللذان كان يستخدمان أرباح تجارتهما في افتداء مواطنيهما المغربيين الذين كانوا أسرى حرب الفرنج^(٢١) وهما يستحقان أن نتوقف عندهما لحظة. فابن جبير يعطينا أسماء ناقصة بحيث يتعذر علينا أن نستعلم بشأنهما. ولا بد أن كثيراً من المسلمين واليهود والأمازيغيين قد شاركوا في الفتح الفاطمي لمصر وسوريا، لكن الشهادات التي تسمح لنا باقتفاء أثرهم في سوريا كانت ضئيلة. ولعل البعض منهم قد رافق القوات العسكرية المغربية في سوريا ونحن نعلم أنه في القرن الثاني عشر كانت لاتزال توجد في هذه المدينة مكتبة مغربية^(٢٢). ومع ذلك سيكون من غير الطبيعي التذكير بالنسب الغابر لأذرياتهم فيما يحملونه من ألقاب بعد انقضاء قرنين من الزمان، ومن الأيسر فيما يبدو التسليم بأن الأمر يتعلق بتجار قدموا حديثاً للبحث في الشرق عما يعرض إفلاس تجارتهم بشمال إفريقيا (انظر أعلاه حالة اليهود)^(٢٣). ومن المؤكد أن حضور الفرنجة على الساحل لم يكن يسهل التغلغل في الداخل ولم يكن يمنعه في الآن نفسه.

ربما أمكن للبعض أن يصل كذلك من مصر بل وحتى من آسيا الصغرى لو لم يثبطهم التوتر بين الفاطميين والزييريين، ثم بين الأيوبيين والموحدين، عن المرور عبر القاهرة (٢٤). أما فيما يتعلق بالأسرى المغاربة بالشرق فمن المحتمل ألا يكونوا على الإطلاق منحدرين من البربر الغزاة المندمجين مع السكان وقد لا يكونون في حاجة إلى محسنين خصوصيين. كما أن ثمة احتمال ضئيل في أن يكون الأمر متعلقاً بمتطوعين في الحرب المقدسة والذين لا تفوتهم الفرصة لمحاربة الفرنجة في الغرب، فمن المحتمل أن نكون بإزاء بعض التجار ولاسيما الحجاج إلى مكة الذين أخذوا على حين غرة أثناء رحلتهم.

لقد رأينا أن مسلمي الغرب، منذ القرن الحادي عشر، كانوا أحياناً منقادين لاستعارة المراكب الغربية للرحلة إلى الشرق. وفي بداية النصف الأول من القرن الثاني عشر لاتزال هناك بعض عناصر الأساطيل الإسلامية ويصفة خاصة على امتداد السواحل الإفريقية من غير شك. وحتى نهاية القرن تقريباً سنرى أن «الحشاشين» على سبيل المثال، كانوا يملكون سفينة في تنقلاتهم الساحلية (٢٥). وسيؤسس صلاح الدين. وآخرون من بعده، أساطيل عسكرية لفترة ما على نحو ما ستفعله بيزنطة من جانبها (٢٦). لكن إذا كان الركاب المسلمون يبحرون على ظهر السفن التجارية ابتداء من أواسط القرن، فمن المؤكد أن كل هذه السفن صارت منذ تلك الفترة سفناً إيطالية (٢٧).

لقد تم التساؤل حول أسباب الاختفاء شبه التام للبحرية الإسلامية ووجهت أصابع الاتهام بشكل خاص إلى الصعوبة المتزايدة في التمكن من الخشب المستخدم في صناعة السفن (٢٨). لا يمكن إنكار هذا القول ومع ذلك فقد رأينا أن الإيطاليين أنفسهم كانوا يجلبون للدول الإسلامية كثيراً مما كان ينقصهم من الخشب، وكان منه بعد ذلك ما يكفي للملاحة الحربية، علاوة على أن هذا القول كان أكثر بُطناً في الجانب الغربي من البحر المتوسط وإسبانيا وجزر البليار.. إلخ. وفضلاً عن ذلك نلاحظ القول نفسه في الإمبراطورية البيزنطية مع أنه لم يكن ينقصها الخشب. فربما كان تسارع هذا القول ناشئاً عما حدث من انشقاقات بين مصر والمغرب وداخل المغرب ذاته. وقد تناقص نمو الأسطول الصقلي - النورماندي ذاته أو على الأقل الأسطول التجاري. وعلى الصعيد المحلي للعلاقات البحرية بين سوريا في مصر كانت المبادرة دائماً في أيدي السوريين الذين أبعدهم الإيطاليون في تلك الأونة. ويظهر من كل هذا أن السبب الرئيسي لاختفاء الأسطول الإسلامي يكمن في ازدهار الأساطيل الإيطالية بالشمال، بل إن العلاقات القائمة بين الدول الإسلامية نفسها صارت آنذاك مؤمنة بواسطة

تجارة العملات التي يقوم بها الإيطاليون، فقد وجدوا فيما يتقاضونه من أجور تعويضاً عن خدماتهم وبفضل ما يحصلون عليه من مال نتيجة اختلاف شروط التجارة في البلاد المختلفة، وسيلة لتحقيق التوازن بين الخسائر من جهة والأرباح من جهة أخرى للحصول على ميزان تجارى سليم.

وسيكون الأمر كذلك في الإمبراطورية البيزنطية التي كان يتم انتقاء العاملين بأساطيلها وأطقمها. عادة، ومنذ مدة طويلة من الأناضول الساحلى الذى أحدث التركمان المجاورون له خللاً بنظامه.

غالباً ما استغرب الناس واستنكروا ما قام به التجار المسيحيون فى عنفوان الحروب الصليبية من عقد ما أسماه الحقوقيون والمشرعون بالتعاقد مع «الكفار». والحق أنه يجب عكس فهمنا لهذه المسألة فلم يكن للطرف المسيحى ولا للطرف الإسلامى (ولا لطرف آخر بالتأكيد) نظرة شمولية عن الحرب السياسية أو حتى الطائفية بنفس الحدة التى هى عليها فى أيامنا هذه. فالتجارة وتنقل التجار كانت أموراً شبه مقدسة، فكان المس بها جناية كبرى بحيث أن العجز عن ضمان أمن الطرق وحماية التنقل داخل البلدان الإسلامية كان يعد إدانة لسوء تدبير الأمير، ولم تكن الحرب لتغير شيئاً من ذلك (٢٠). وقد طرحت الحرب مشكلة تتمثل فى إمكانية أن يكون فى مقدور البعض أن يشتغل يوماً تاجراً ويصبح عسكرياً فى يوم آخر وأن يشتغل بعض التجار جواسيس فى الوقت نفسه، مما استدعى الحيطة بون أن يلحق تغيير بالمبدأ. ومن ثم لا نرى فى عرف الناس آنذاك أن البيازنة مثلاً خالفوا المألوف بالتماسهم الامتيازات من الحكومة المصرية بينما كان أشقاؤهم فى حرب معها. وفى الإسلام كان الغزالى يعلم الناس أن مصلحة الأمة تبيح توسيع القواعد الشرعية الأصلية إباحة كاملة لتشمل مصالح الأجانب إذا ما اقتضت المنفعة ذلك. ربما كانت هناك حدود لا ينبغي تجاوزها وقد رأينا أن الدول والكنيسة كانت تسعى لمنع بيع الأسلحة والمنتجات الاستراتيجية للعدو. وفى تكرار مثل هذه الإجراءات ما يدل على قلة نجاعتها. ومن الجانب الآخر لم يحل قط اعتقال التجار الموجودين بالإسكندرية أثناء الحملة الصليبية بون عودتهم بعد انتهاء الحملة الصليبية.

ولم يكشف النقاب بعد كاملاً عن قصة التداول النقدى فى الشرق الأوسط وفى البحر المتوسط إبان الحروب الصليبية والمكانة التى احتلها الشرق اللاتينى فى هذه الحروب. ومن الصعب تبين ذلك بدون وصف عام لكل المناطق المرتبطة ببعضها.

كانت البلاد الإسلامية والبيزنطية الواقعة على البحر المتوسط، في بداية العصر الوسيط، تستخدم إجمالاً العملة الذهبية بصورة أساسية بدون تجاهل الفضة. وفي المقابل كانت أوروبا بما فيها أسبانيا المسلمة قبل القرن العاشر لا تعرف من السك المحلي للنقود إلا من الفضة. ويكاد يكون الأمر مشابهاً لذلك في المناطق الشرقية للعالم الإسلامي في إيران وآسيا الوسطى وبغداد عاصمة الخلافة وهي تكون منطقة اتصال بين منطقتين. لم يكن هناك من حيث المبدأ نظام العملتين^(*)، مادام أن السعر الخاص للمعدنين كان مقنناً بدقة لكن كان يتم التسديد أساساً بمعدن في بعض الأماكن وبمعدن آخر في أمكنة غيرها^(٣١). وتقدم لنا العروض التقليدية، التي تستند بصفة خاصة على مجموعة نماذج من المسكوكات النقدية، تغيراً ظرفياً طارئاً ابتداءً من عام ألف^(٣٢). وأخذت العملة الفضية تندر في كل مكان إلى درجة الاختفاء التام من بعض المناطق حوالى نهاية القرن الحادى عشر، على الأقل فيما يتعلق بالعالم الإسلامي والبيزنطى^(٣٣). وكانت العملة الذهبية تشمل إيطاليا الجنوبية التي كانت قد شكلت جزءاً من الإمبراطوريتين وأبقت على نظامها النقدي السابق تحت حكم النورماندين فكانت الحالة الوحيدة في أوروبا المسيحية التي استخدمت العملة الذهبية. يوجد في هذا الوصف جانب من الحقيقة ونحن نعلم مثلاً بصورة مؤكدة أنه في بغداد في بداية القرن الثالث عشر ونظراً لعدم إمكانية العثور على أية عملة فضية كانت المبالغ المالية المتوسطة تسدد بقراضات ذهبية^(٣٤). بيد أن هذا الوصف سطحي جداً ويشير هذا التأويل كثيراً من الجدل. وقلما تكرر القول بأن مجموعات النماذج النقدية كما تم تكوينها تقليدياً تعطى صورة غير واقعية عن التداول الفعلى. وللنصوص وحدها قيمة في هذا الشأن. والحال أنها تطلعنا على أن الفضة استمرت في التداول في أغلب المناطق ولو أن ذلك كان يتم بأسعار متباينة وفي شكل عملات مختلطة بوجه عام^(٣٥). وينطبق هذا بشكل خاص على مصر وذلك ربما بسبب علاقاتها التجارية مع أوروبا، ومن جهة أخرى فإن القيام بدراسة دقيقة للمسألة سيظهر بأنه لم يكن هناك تخفيض للفضة بأي شكل كان، فإنجاز السبائك كان استجابة لمقتضيات عملية. وعندما ثبتت عدم كفاية الفضة لم يكن ذلك فيما يبدو يفسر بندرة المعدن ولكن بزيادة الطلب بالنسبة للصفقات المالية المتوسطة وهي زيادة مرتبطة بتطور شروط الحياة والعلاقات الخارجية^(٣٦). ومهما يكن من أمر، فعند نهاية القرن الحادى عشر وفي الأرباع الثلاثة الأولى للقرن الثانى

(*) نظام العملتين نظام يجعل لكل من النقود الذهبية والفضية قوة إبراء مطلقة بعد تحديد النسبة بينهما (المترجم).

عشر، انتظمت الحياة في مصر حول عملة ذهبية وعملة فضية مختلطة سميت بالورق وذلك بنسبة ٣٠٪ من الذهب و ٧٠٪ من النحاس^(٣٧)، فكانت ٤٠ درهماً تساوي ديناراً فاطمياً واحداً يزن حوالي ١٣ هـ جراماً، في حين استمر في سوريا سك الدرهم من الفضة الخالصة (النقرة) خلال القرن الحادي عشر.

بعد هذه الإشارات، التي هي عامة جداً نجد أنفسنا أمام وضع غريب فيما يتعلق بالشرق الأدنى الآسيوي إبان الحروب الصليبية، فلنترك جانباً الشرق اللاتيني بصفة مؤقتة، فلم تعد هناك دولة من الدول الإسلامية سواء في العالم العربي التقليدي أو في الأناضول التركي تسك عملة ذهبية أو فضة (ربما سكت في سوريا عملات بها نسبة ضئيلة من الفضة؟)^(٣٨) وكان هناك اكتفاء بالعملة النحاسية لهذا لزم أن تزداد ثقتنا في مجموعات نماذجنا النقدية. وسواء تعلق الأمر بعملات من النمط التقليدي أو بعملات ذات صورة خاضعة للتأثير التركي أو البيزنطي (كما في الأناضول وحتى في دول سوريا وبلاد ما بين النهرين الشمالية) فالأمر سيان بالنسبة للمشكلة الاقتصادية. فقد استخدمت العملة النحاسية في المعاملات التجارية البسيطة دون احتياج دائم لضمان قيمتها الشرعية لكنها أصبحت بعد ذلك تستخدم كذلك في تسديد المبالغ المالية الكبرى. وبالنسبة لنور الدين. الذي تؤكد النصوص عدم افتقاره للموارد وأنه كان يمكنه أن تكون له عملته الذهبية وحتى الفضية لو ارتأى فضل ذلك فإن تفسير هذه الحالة لابد أن نلتزمه عنه في عوامل أخرى غير تلك التي تخص الدول الصغيرة والتي قد تكون آيلة للزوال. ولعل سك العملة الذهبية كان من شأنه أن يثير اضطراباً في عادات الأسواق المحلية كما يحتمل أن الحاكم الورع كان متصنعاً في اعتبار سك العملة الذهبية وفقاً على الخلافة إن لم يكن على السلطنة السلجوقية^(٣٩). غير أن هذه التفسيرات لا يمكنها أن تنطبق على العملة الفضية والتي وصل غيابها المؤكد حد المفارقة بما أننا في مجاورة للشرق اللاتيني حيث لم يكن بوسع الصليبيين وخلفائهم أن يجلبوا سوى الأنواع الفضية^(٤٠).

ذاك كان الوسط الذي عايشه الشرق اللاتيني. ومن البديهي أن يكون قد تداول فيه الناس بوفرة دينيرات فضية ذات قيمة مالية منخفضة كانت صادرة عن أوروبا وقد سجل المختصون في سك النقود وجود عملات قام العرب بتقليد صنعها على الأقل في بعض الفترات^(٤١). هل كان ذلك مجرد فضول بسيط؟ وهل تم سك هذه العملات تيسيراً على الأهالي؟ مهما يكن من أمر فإن المهم هو السك المتواصل للعملة الذهبية (ذات النقوش

اللاتينية) التى كان الفرنجة يسمونها «بيزنط»، ونظراً لأن معرفتهم بالعملة البيزنطية سبقت معرفتهم بغيرها من العملات فإنهم سيطلقون فيما بعد اسم «بيزنط عربى» على العملة العربية بدلاً من الدينار تفادياً لما قد يحدثه ذلك من التباس مع كلمة دنير(*)). وإذا لم يكن ثمة ما يدعو للمبالغة فى تقدير مجموع هذه البيزنطيات فلا ينبغى كذلك التقليل من شأنها طالما أننا نجدها متداولة فى أسواق سوريا المسلمة إلى جانب العملات العربية. ولا بد أن نتساءل فى هذه الظروف عن مصدر الذهب، فنحن لا نتبين البواعث السياسية أو الاقتصادية التى قد تجعله صادراً من مصر وليس فقط البلاد الآسيوية التى لم تكن تشتري إلا نادراً من الفرنجة.

من الواجب أن نولى وجهنا نحو جهة أخرى والدخول فى حلقة أكثر تعقيداً. فمنذ نهاية القرن الحادى عشر كان الذهب يجلب من السودان بكميات كبيرة إلى المغرب وإسبانيا وبطريقة غير مباشرة إلى الغرب المسيحى بواسطة المرابطين ومن بعدهم الموحدين فى القرن الثانى عشر^(٤٢). أما من قبل فقد كان للذهب قيمة دولية محدودة، وثمة شك ضئيل فى حصول التجار الإيطاليين من هذا الجانب بواسطة المبيعات الفائضة على الذهب الذى لم يكن فى مقدور أوروبا أن تمدهم به، فكان عليهم آنذاك أن يعيدوا استعماله فى الشرق، سواء بالنسبة لمشترياتهم أو بالنسبة لنقل الهبات الدينية التى تبرع بها المؤمنون الأوروبيون، ونحن لا نرى بالنسبة للشرق اللاتينى على الأقل تفسيراً آخر غير هذا، ويبدو أن الفرنجة القدس على الأقل فى البداية قد ساعروا عملتهم الذهبية من عيار مقداره (حوالى ثلثى الذهب) بالنسبة للعملة الإيطالية النورماندية نظراً للعلاقات الاقتصادية المميزة مع هذا البلد^(٤٣). ومن وجهة النظر الأوروبية فإن الشرق اللاتينى وإيطاليا النورماندية وكلاهما كان على اتصال بالمسلمين فى البلدان الوحيدة التى كانت تسك العملة الذهبية، ومن وجهة النظر الإسلامية كان للبيزنط أو الدينار الفرنجى قيمة رفيعة. ولا يتعلق الأمر بعملة منخفضة موجهة لمحاربة الدينار الإسلامى، رغم ما قيل فى هذا الشأن^(٤٤). فقد كان لها مثل العملات الأخرى المتداولة آنذاك فى الشرق الأدنى قيمة المقايضة الرسمية التى بمقتضاها كانت تحسب الأسعار ولم تكن هناك أية عملة مشابهة لقانون جريشهام^(٤٥).

وحتى نتمكن من مناقشة العلاقات القائمة بين العملات ينبغى أن نستحضر بقوة فى أذهاننا الاختلاف الجوهرى بين العصر الوسيط والعصر الحديث. ففي العصر الحديث يمكن أن نستبدل عملات أجنبية لكن لا تتداول إلا عملات النظام القومى الموحد، أما فى العصر

(*) دنير: نقد رومانى ثم فرنسى قديم وهو ضئيل القيمة. - المنهل - (المترجم)

الوسيط فإن التداول المتزامن للعملات «القانونية» المعمول بها في ذلك الزمان والعملات الأخرى (العملات الإسلامية ظلت متداولة حتى القرن الرابع عشر) التابعة لمختلف الدول والعصور والتي كان لديها سعر رسمي أو حر كان أمراً وارداً. وكان يوسع المرء أن يفاضل، بلا شك بين العملات الأيسر في الاستخدام لكن لم يكن هناك مجال لتمرير عملة محل أخرى فقلما كان يعمل بقانون جريشهام ومؤداه أن العملة السيئة تطرد العملة الجيدة.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين

إن شخصية صلاح الدين هي أكثر شعبية من بين كل الشخصيات الإسلامية إبان الحروب الصليبية نظراً للأهمية التي كانت لسياسته والتي لم تشهد لها سياسة نور الدين، ولأنها انتهت إلى استعادة القدس وتفكيك الشرق اللاتيني ومقاومة قادة الحملة الصليبية الثالثة، ولأن الحظ قد حالفه، ولتوفرة، بلا شك، على مهارة في العثور على مؤرخين كبار يشيدون به ^(٢)، ولأن الصليبيين قد حملوا عنه في أذهانهم حتى في الغرب ذاته صورة ستجعل منه شيئاً فشيئاً بطل رواية أصلية في الغرب المسيحي، وأخيراً ربما لأنه كان كردياً وليس تركياً، ويبدو هذا التعليل لدى بعض المحدثين بشكل غامض. لكل هذه الأسباب أريد وضعه في مواجهة نور الدين بوصفه تجسيدا لنموذج المعركة من أجل العقيدة بخلاف التركي الذي ربما لم تكن الحرب المقدسة بالنسبة إليه إلا ذريعة لخدمة طموحاته ^(٣). والحق أن هذا الخلاف، بالنسبة للمؤرخ، يبدو عديم الفائدة، فالبواعث العقلية ليس لها خطوط تماس واضحة كما أن القائدين قد مارس كل منهما في الواقع سياسة كان التجمع فيها من أجل العقيدة يساعد على نهج التدعيم السياسي الأمر الذي كان يشجع على تطوير الحرب المقدسة.

لقد واصل صلاح الدين إذن، سياسة قائده السابق، في ظروف مستجدة. ولنذكر من جهة أخرى أن نور الدين كان يستخدم قوات كردية مسلحة إلى جانب قواته التركية، وكان صلاح الدين يستخدم قوات تركية إلى جانب قواته الكردية كما كانت لهما السياسة نفسها على الصعيد الداخلي، ففي سوريا تمت تنمية المؤسسات «الأرثوذكسية» وربما مع إبداء المرونة في التعامل مع الشيعة التي كان نور الدين كسب الرهان ضدها إذ تحول آنذاك المنحدرون من العائلات الشيعية الكبرى بسوريا إلى المذهب السني. ومع ذلك ففي حكم صلاح الدين قام ابنه، الذي كان وصياً على عرش حلب، بإعدام الصوفي الإيراني السهروردي ^(٤).

لقد كان الوضع في مصر أكثر تعقيداً ؛ فالسكان كما قلنا كانوا غرباء عن العقيدة الإسماعيلية الفاطمية ولم يجد نظام الغزاة مشقة كبيرة في محو آثار العقيدة الممقوتة أو إسدال ستار النسيان عليها. ورغم كل ذلك كان الشعب المصري قد عاش بمعزل عن آسيا المجاورة، لذا فقد شعر بأن الحكم الجديد كان غريباً عنه ووجد الحكام الجدد مشقة ما في الاستعانة به لإدخال عاداتهم ونظمهم العائلية. وأمام ذهولهم من النفوذ الذي كان للأرمن قاموا بإبعادهم ويمكن القول بمعنى ما أن ذلك تم لصالح الأقباط، ولم يكن ذلك ليحدث من غير إثارة الحذر والغيرة تجاه هؤلاء المسيحيين الذين لم يكن لهم نظيراً بالشرق ^(٥).

منذ تلك الفترة أصبحت الحرب تتصدر كل ما يجري من أحداث، مهما كلف الثمن الذي تعرضه الانتصارات اللاحقة. وكان الهدف، بشكل أكثر تحديداً، هو استعادة القدس وهو ما

كان قد حدده من قبل نور الدين ^(٦). ومما يسر هذا الهدف فيما يبدو إصابة الملك الشاب بoudouan الرابع بمرض البرص والصراعات التي نشبت حول الوصاية على العرش والخلافة. لقد انتشرت الدعاية حول هذه القضية ولم يكن من قبيل المصادفة أن نرى آنذاك ظهور عديد من المؤلفات عن الجهاد ^(٧). ومن المؤكد أن أصول هذه المؤلفات كانت قد تأسست منذ مدة طويلة ولم يكن لها لتجدد في الفترات التي ضعف الاهتمام بها ^(٨). ومع ذلك فقد تم الرد على الدعاية الفرنجية حول الأهمية التي توليها هذه الأخيرة للمدينة المسيحية المقدسة وهو الأمر الذي أيقظ انتباه المسلمين إلى ما يميزها عن بقية المدن الأخرى فهي المدينة التي أسرى إليها الرسول ليلاً، وهي التي وضع فيها الخليفة عمر أول لبنة في مسجده إلخ. وإن لم تكن موازية في قيمتها لمكة والمدينة. ومن ثم فإن استعادتها كفيل بأن يلهب القلوب، ومن الأهمية بمكان أن نرى ازدهار أدب الفضائل بشأن القدس (وتعنى كلمة القدس بالعربية : المقدس) ^(٩).

في الفترة نفسها ألف مرضى الطرسوسى ^(*) لصالح الدين رسالة قيمة في التسليح، وهو رائد في مسار تأليف الرسائل العسكرية ^(١٠). وإلى هذه الفترة نفسها ترجع كذلك نشاطات الحاج الجاسوس «على الهوى» ^(١١) وربما تعود إليها كذلك الصيغ الأخيرة التي وردت بها الروايات الملحمية التي تذكر المسلمين بانتصارتهم ضد البيزنطيين وبأمجاد الفتوحات الأولى ^(١٢)، وربما كان لانتعاش فكرة الحرب المقدسة في البلاد الإسلامية التقليدية أثر في إخفاء الفجوة الأخلاقية بين الشعب والجيش.

وكانت الحرب بين المسلمين والمسيحيين تدور في البحر كما في البر. وقد ظل صلاح الدين لأمم طويل آخر أمير مسلم بالشرق حاول إعادة تشكيل أسطول حربي ^(١٣).

رغم موقع الصدارة الذي احتلته الحرب المقدسة بالنسبة لصالح الدين فقد كانت مرتبطة باهتمامات أخرى كانت تشغل أفراد عائلته الكبيرة والجشعة فقد تدخل خارج مصر وسوريا في ثلاثة اتجاهات. والحق أننا لا نتبين دلالة بعثة قراقوش الذي كان مملوكاً لأحد أشقائه إلى المغرب على رأس فريق من الأجوز ولهذا الاسم الذي كان يطلقه الكتاب المصريون والمغاربية على القادمين الجدد من الأتراك والتركمان دلالة غامضة فيما يبدو. فهل كان مبعث

(*) في التسليح، أو صنع الأسلحة هو مخطوط لمرضى بن على بن مرضى الطرسوسى، نشره وترجمه إلى الفرنسية كلود كاهن ويتناول موضوعات عن رمى القوس وجنوداً بالرماة المعلمين الذين كانوا في معظمهم مؤسسى مدارس، وقد ظهوروا جميعهم في خراسان أو في بلاد ما بين النهرين، وفي المخطوط أيضاً حديث عن كيفية ترتيب الجيوش الإسلامية عند اقتتالها مع الصليبيين. (المترجم)

هذه الحملة الرغبة فى إيجاد متنفس لنشاط العناصر المتحفزة ؟ وإلى أى حد كانت تستجيب لنداء بنو غانية لمحاربة الموحدين ؟ لقد فشلت الحملة فى النهاية ولم يحدث ذلك من غير أن تولد مناخاً من العداء بين صلاح الدين والموحدين الذين لا نعرف مبعث مناوئته لهم حيث سيكون عليه لاحقاً التقرب منهم فى مواجهة الفرنجة إبان الحملة الصليبية الثالثة (١٥).

إننا نستشعر جيداً البواعث التى تقف وراء التدخلين الأخيرين لصلاح الدين فى الجزيرة واليمن، فقد قيل أحياناً لاسيما عن تدخله فى الحالة الأخيرة (١٥) إن الأمر بالنسبة له كان يتعلق فيما يبدو بإعداد مكان يلتجئ إليه فيما لو سقطت مصر من سلطته. وببساطة أكثر كان عليه أن يقوم بتوظيف أشقائه وأبنائهم، غير أن ثمة مصالح أخرى لها دخل فى هذا الأمر؛ ذلك أن الأيوبيين (وهو اسم أسرة صلاح الدين بن أيوب) الذين وصلوا حتى بحيرة فان الواقعة بين موقع سلاجقة آسيا الصغرى وآل زنكى ببلاد ما بين النهرين مع حلفائهم الأراتقة وغيرهم، كانوا - أى الأيوبيين - أشبه بالوتد المنغرس فى أعماق الرمال، وعلاوة على أخذهم الحذر بما قد يحدث من تحالفات ضدهم فقد وصلوا إلى البلد الذى كان يتم فيه تجنيد بعض فرقهم العسكرية وهو بلد كردى فى قسم منه.

وكانت المصالح الكامنة وراء التدخل فى اليمن أكثر تعقيداً، إذ كان هذا البلد ملجأ لبقايا من النحل المختلفة، وكانت السلطة فيه تُمارس من قبل الصليحيين (١٦) الذين ظلوا إسماعيليين رغم ما حدث من انشقاقات (١٦). وكانوا على استعداد لاستقبال اللاجئين الفاطميين المهمتين بأخذ الثأر، ولم يكن لهذا التعارض إلا أن يضر بالعلاقات التجارية لمصر فى المحيط الهندى. فتقرر غزو البلد وعهد بذلك إلى ابن شقيق صلاح الدين. من المؤكد أن خصوصية اليمن حالت دون استمرار السيطرة الأيوبية المباشرة لمدة أطول لكن تمت إعادة الوحدة الطائفية بين السلطة اليمنية ومصر والعلاقات التجارية لمدة ثلاثة قرون. وبعد الغزو ببضع سنوات نجد مؤرخاً يشير إلى وصول تجار الكارم (١٧) إلى القاهرة.

فهل كان ذلك عودة إلى الوضع الذى كان سائداً فى عهد الفاطميين أم كان ذلك هو

(*) تتميز الصياغة الفرنسية لهذه الفترة بتكليف بالغ الصعوبة بحيث يصعب معرفة إذا كان الحديث يدور حول الجزيرة أم اليمن بعد ذلك خاصة أن المؤلف سيعود فى بداية الفقرة التالية للحديث عن المصالح الكامنة وراء التدخل فى اليمن. (المترجم)

(**) الصليحيون : سلالة حكمت بلاد اليمن ١٠٤٧ بين عامى ١١٢٧. كانت تابعة للخلافة الفاطمية. أسسها على بن محمد، واشتهر بين ملوكها أروى بنت أحمد التى حكمت اليمن ١٠٩٢ - ١١٢٨ وقامت بأعمال عمرانية جليلة - (المنجد فى اللغة والأعلام) - المترجم.

الظهور الأول لهم ؟ كانت تلك على أية حال واقعة مهمة، ومنذ تلك الفترة سنشهد التأثير المتعاظم لهؤلاء التجار في مصر كما في اليمن.

فيما يخص تجارة البحر المتوسط كان من المتوقع أن يضر المناخ السائد للحرب المقدسة باستمرار العلاقات التجارية مع الغرب أو استئنافها. غير أن متطلبات الحرب المقدسة ذاتها كان بوسعها أن تسير في الحقيقة في الاتجاه المعاكس. فبالنسبة لصالح الدين كان الخشب الضروري لبناء أسطوله البحري كما كانت الحاجة إلى الحديد والأسلحة ذاتها أشد مما كان عليه الأمر مع سابقه. ولم يكن في مقدوره أن يحصل على هذه الأمور من الإيطاليين إلا بمنحهم امتيازات كانت من الأهمية بمقدار التشديد المتزايد لمنع هذه التجارة في الغرب^(٢٠). وغاية ما في الأمر أنه تم أخذ الاحتياطات بواسطة حصر وجود التجار الأجانب بمصر داخل الإسكندرية وعدم السماح لهم بولوج المناطق الواقعة خلف السواحل أو القاهرة^(٢١). واستؤنفت التموينيات التقليدية بهذه الشروط، ونحن على علم بالخطاب الذي أرسله صلاح الدين إلى الخليفة حيث يتباهى بحصوله من المسيحيين أنفسهم على الأسلحة التي يحارب بها أشقائهم^(٢٢). على أنه كان يتدخل بنفسه ضد البدو الذين كانوا يخلون بقرار تزويد المسيحيين بالشب الذي كان يجلب من مقاطعة كاور(*) السودانية^(٢٣). ومن الجانب الإيطالي سبق أن رأينا أن التشدد الديني كان يتبدد طواعية أمام المصالح التجارية. وبلغ هذا الإغراء من القوة بمقدار الإضرار الذي كانت قد ألحقته القسطنطينية قبل فترة قصيرة بالمصالح الإيطالية في بيزنطة. فكان لابد من البحث عن عوض إلى حد ما في الشرق اللاتيني ولاسيما في مصر بطبيعة الحال على نحو ما تشهد به إحصاءات العقود المحفوظة^(٢٤).

من الطبيعي أن تتداخل في بداية القرن مواقف هؤلاء وأولئك في الصراعات السياسية مع التنظيمات الاقتصادية. وتطلعنا إحدى الأحداث التاريخية المهمة لعام ١١٧٤ على واقع ما جرى. ففي هذه السنة قامت إحدى السفن البيزية بتفتيش سفينة جنوية في المنطقة الشرقية للبحر المتوسط. وكانت تحمل على ظهرها الشب الذين كان ملوكًا للعادل^(٢٥) شقيق صلاح الدين. من خلال ذلك نلاحظ أن هذه التجارة قد تواصلت وأن الأسيرة الأيوبية كانت تعرف كيف توفق بين شؤونها الخاصة والمصالح العامة شأنها في ذلك شأن الفاطمي الذي ورد ذكره في

(*) يشار إليها باسم بلاد كوار أو كاور. انظر : تقويم البلدان - تأليف عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء - صاحب حماه. ص ١٢٨ - طبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٢٤ - المترجم.

الرسالة الموجهة إلى روجيه الثانى، كما نلاحظ أن علاقات الأيوبيين بالجنوية المعادين للبيازنة كانت علاقات طيبة وستتاح لنا الفرصة لاحقاً لنلاحظ هذه الروابط الدائمة التى توثقت بين الجنوية والأيوبيين. وهذا لا يعنى القول أن البيازنة لم يسعوا إلى مسالة السلطات الجديدة بعد أن أدركوا الطابع النهائى لأحداث مصر.

كانت هذه القضية صعبة فى أول الأمر حيث أنهم كانوا قد قاموا بمساعدة الفاطميين والفرنجة وقت تحالفهم آنذاك ضد صلاح الدين. ومع هذا فقد تم لهم ذلك فى عام ١١٧٧ (٢٦)، وثبتت العقود البندقية حصول الشئ نفسه بالنسبة للبنادقة بدون أن نعرف التفاصيل. وبالتأكيد لم يكن من قبيل المصادفة أن يستشهد المخزومى فى الأمثلة التى يقدمها عن التجار الأجانب فى مصر بأسماء التجار الجنوبيين والبنادقة ولا يستشهد بأسماء البيازنة. إلا أن هذه الوضعية لم يكتب لها الدوام. وكان من شأن تنظيم أعمال التجارة أن تساهم فى انضواء مسيحيى مصر تحت سياسة صلاح الدين. لقد كان التجار الإيطاليون بوجه عام يُدلّون على بضائعهم حتى فى ميناء الإفراغ ذاته وذلك فى ارتباط مع الإدارة المحلية وقد أعطيت لهم بعض الحريات فى التنقل لاسيما من أجل مشترياتهم. ومن ثم كانت مهمة توزيع البضائع تقع على عاتق السكان المحليين وبالأخص الأقباط المسيحيين الذين لم يسعهم إلا الاستفادة من الإجراءات التى قام بها صلاح الدين لتقييد تنقل الأجانب. وكان اليهود من جانبهم قد حصلوا من صلاح الدين على حق المشاركة كالأقباط فى عمليات إعادة توزيع المواشى على الأسواق (٢٧) ويبدو أن المسلمين كانوا قد طردوهم إلى المحيط الهندى فى هذه الفترة (٢٨). وسنرى أن علاقاتهم مع صلاح الدين ستكون فى المستوى نفسه من التحسن مثلما كان عليه الحال أيام الفاطميين.

أما فيما يتعلق بالنورمانديين فلم يكن يظهرون إلا على ظهر الأساطيل الحربية داخل السواحل المصرية فى بعض الأحيان وبعد ذلك بفترة قصيرة سيظهرون على سواحل سوريا، ولم تعد المسالة بالنسبة إليهم تتعلق بالتجارة بل كانت تتعلق فى أفضل الأحوال بكسب الهيبة والنفوذ تجاه غيرهم وذلك بوصفهم مدافعين عن الشرق اللاتينى (٢٩). ولو لم يحل الموت بين وليم الثانى ثم خليفة هنرى الرابع وبين المشاركة فى الحملة الصليبية لربما كانا قد واصلتا انتهاج السياسة النورماندية بجلاء حتى فترة فريدريك الثانى. فى تلك الأونة ظهر مدافع آخر عن الشرق اللاتينى فى شخص مانويل كومنين. وقد تبين منذ ذلك الحين أن العمليات الأساسية ضد المسلمين لا بد أن تكون موجهة نحو مصر. ولم تؤثر القطيعة مع التجار

الإيطاليين على العلاقات الجيدة مع اللاتين الآخرين التابعين للإمبراطورية ولا مع مملكة القدس. وكان لابد لهذه الأخيرة أن تتوافر على أسطول لمهاجمة مصر. ويمكن أن نتفهم بيسر صعوبة تقديم هذا الطلب إلى الإيطاليين الذين كانوا علاوة على ذلك يملكون قليلاً من السفن الحربية فوهب مانويل أسطوله (٣٠). لكن كما رأينا آنفاً لقد غرق كل شيء فى يوم واحد فى معركة ميريوكيفالون (عام ١١٧٦) (٣١). وبعد موت مانويل حالت السياسة العامة لخلفائه والتي كانت مناهضة لللاتين دون استثناء مثل هذه المشروعات.

لكن ماذا جرى ؟ لقد كان قلج أرسلان قد ارتضى سياسة الانفراج مع بيزنطة نظراً لما كانت تتطلبه مراقبة الحدود الجنوبية من احتراس إزاء القوة المتعاظمة لنور الدين الذى ساند آخر القادة الدانشمنديين ضده. إلا أن نور الدين توفى عام ١١٧٤ فتفككت ولاياته (قبل أن يعاد فتحها وتوحيدها من قبل صلاح الدين). ومنذ تلك الفترة لم يعد قلج أرسلان يتخذ أية تدابير احتياطية. وقد فضل مانويل كومنين أخذ المبادرة، فجهز جيشاً ضخماً لاجتياح الأراضى السلجوقية، غير أنه أثناء الاستعراض العسكرى بميريوكيفالون أخذ على حين غرة فأبىد جيشه (عام ١١٧٦) ومع أن السلطان التركى لم يشبث فى انتصاره فإن النتائج بالنسبة لبيزنطة كانت وخيمة. فمن جانب كانت الكارثة تعنى انقطاعاً تاماً للرجاء فى إعادة غزو الأناضول الذى أتم قلج أرسلان توحيدَه لصالحه، وسيصل التركمان عما قريب البحر المواجه لجزيرة رودس قاطعين استمرارية الساحل الذى ظل حتى تلك الفترة ساحلاً بيزنطياً (٣٢). وكان من شأن هذا الوضع وسقوط هيئة الامبراطور أن ساعدا على ظهور الاتجاهات الاستقلالية للأرمن فى قيليقية (٣٣) وأن تسترجع إمارة أنطاكية استقلالها كاملاً (٣٤)، ومن الجانب الآخر كانوا يدقون ناقوس الخطر تجاه كل ما ينهجه مانويل من سياسة مع مملكة بيت المقدس لفائدة صلاح الدين. وقد أتاح ذلك أيضاً للقسطنطينية وللأتجاه المناهض لللاتين أن يستجما قوتهما، فبعد وفاة مانويل أمر شقيقه وخليفته أندرونيك أو لعله سمح بتقتيل اللاتين المقيمين بالعاصمة فى عام ١١٨٢.

وقد استمرت هذه السياسة بعد عام ١١٨٥ فى ظل الأسرة الحاكمة الجديدة وهى أسرة الأنجيين. ولم يمنع هذا من استئناف النشاط التجارى مع إيطاليا نوعاً ما لكن فى ظروف أقل استقراراً مما كان عليه الوضع قبل عام ١١٧١، ولم تكن أسر المقتولين تميل للعفو، كما ظهر التغيير واضحاً كذلك فى السياسة الخارجية. ولم يعد هناك مجال لاستئناف مشاريع مانويل الضخمة لكن كان هناك ما هو أكبر منها. فقد أدرك صلاح الدين أنه بمقدوره أن يجعل من

الاباطرة المعادين لللاتين حلفاء له توقيماً لما قد يرسله الغربيون من مساعدات لأشقائهم بالشرق. ومع ذلك فإن المشكلة كانت تتمثل في كون أن جزيرة قبرص كانت محتلة من قبل أحد المتمردين البيزنطيين، ومع أننا لا نكاد نعرف شيئاً عن تاريخ هذه الجزيرة العظمى في القرن الثاني عشر فإن من البديهي أن ما جرى بها كان لابد أن يثير اهتمام كل من الفرنجة وصلاح الدين. لقد اتخذ هذا الأمير الأخير وسيلة للمحافظة على العلاقات الجيدة التي كانت تربطه في ذلك الوقت مع الأنجليين ومع متمرّد قبرص (٢٥). غير أن لدينا الانطباع كذلك بأن قبرص قد عرفت آنذاك بداية التغلغل الفرنجى أو على الأقل جماعات الداوية (٢٦).

ففى زمن صلاح الدين حدثت من الجانب الفرنجى حملة البحر الأحمر التى أذهلت خيال الناس وهى من تنظيم رينو الشاتيونى الذى كان آنذاك سيداً إقطاعياً على الكرك فى شرق الأردن باتجاه الأماكن الإسلامية المقدسة. وكان يحلو للبعض أن يرى فى هذه الحملة تجسيداً للرغبة فى منازعة المصريين واليمنيين احتكار التجارة بالبحر الأحمر، وهذا منحنى بعيد فى التأويل، إذ لا يمكن أن نتوقع من رينو الذى بدأ مسيرته فى الشرق بالقيام بعملية سطو ضد القبرصيين الذين لم يفعلوا له شيئاً يبرر ذلك، إلا أن يقوم بعملية نهب جديدة تكون أكثر تهوراً (٢٧). وقد انتهت بإعدام كل المشاركين فى هذه العملية وقام صلاح الدين نفسه بقتل رينو حينما وقع فى يده. وفى هذه الفترة أيضاً - وهى فترة معلمهم الأكبر سنان - تدخل الحشاشون بشكل أكثر حدة فى صراعات الأحزاب، سواء من جانب الفرنجة أو من جانب المسلمين (محاولة اغتيال صلاح الدين. اغتيال كونراد المونفيراتى.. إلخ) (٢٨). فى هذا السياق حدثت معركة حطين (٢٩) فى خريف ١١٨٧ وفيها تم انتصار صلاح الدين وهزيمة الفرنجة. لقد سمحت هذه المعركة لصلاح الدين باحتلال القدس، وبانتهازه لاضطراب الفرنجة وتشتت شملهم ونقص عددهم تم له فى بضعة أسابيع احتلال أغلب قلاعهم الكبيرة من الداخل وحتى الموانئ مما جعله يقطع استمرارية خطوطهم الساحلية. وثمة بعض الشك فى أن تكون الانقسامات داخل المعسكر الفرنجى قد ساعدت على حدوث الكارثة وتعاضم نتائجها (٤٠). ويظهر تاريخ القرن اللاحق أن الفرنجة ظلوا قادرين على المقاومة على الساحل وأنهم مارسوا به نشاطاً كبيراً. ومع ذلك فإن ميزان القوى ولا ريب جعل من المستحيل بالنسبة إليهم منذ تلك الفترة أن يحافظوا على المملكة والإمارات الأخرى فى الظروف السابقة نفسها. آنذاك أعاد صلاح الدين تعمير القدس وسمح للمسيحيين نوى الطقوس اليونانية واليهود بالإقامة بها.

كان من المتعذر على الحكام المسلمين ألا يجيبوا بتهانٍ حارة على رسائل الانتصارات التى بعث بها صلاح الدين إليهم، ولم يشذ الخليفة عن هذه القاعدة. ومع ذلك فمن السهل أن

نقرأ بين السطور أن تعاظم قوة صلاح الدين والهيبة التي أكسبته إياها انتصاراته لم تحصل على كامل رضاهم^(٤٢).

كانت الأخبار المتصلة بما يحدث في الغرب تصل إلى فرنجة الشرق عن طريق الحجاج والتجار وهكذا أدركوا تدريجياً أن طلب المساعدات لا يجب أن يوجه إلى كبار الإقطاعيين وإنما إلى الملوك. كالإمبراطور فريدريك بارباروس آنذاك، وملك فرنسا^(٤٣) وملك إنجلترا وإن لم يكن قد شوه بعد في عام ١١٤٨ وكذلك البابوات. لكن باستثناء ألكسندر الثالث، فقد شاء القدر أن يجدوا أنفسهم في تعامل مع بابوات كان لهم قدر ضئيل من التميز، ونظراً لانتخابهم في سن متقدمة فقد كانت رئاستهم قصيرة الأمد. فضلاً عن ذلك كانوا على استعداد لترك المبادرة للحكام وتسليمهم قيادة المعارك، وقد حال انشغالهم الشديد بالسياسة الإيطالية، على الرغم من الذكرى البعيدة لأوربان الثاني، دون أن يولوا اهتماماً حقيقياً بالشرق اللاتيني. وكان إينوسنت الثالث الحاكم الوحيد الذي كان له موقف مغاير في السنوات الأخيرة من القرن.

وبرغم أن ملوك فرنسا وإنجلترا قد أرسلوا بعض المساعدات المالية إلى الشرق فإننا لا نراهم آنذاك قد انتهجوا سياسة ما تجاه بيزنطة كما لم يتوصل الأمراء المسلمون لمثل هذه السياسة كذلك. أما بالنسبة لبارباروس الذي تعرف على بيزنطة أثناء مسيرته فالأمر يختلف ولا شك بعض الشيء. فقد أرسل سفارات إلى قلع أرسلان الثاني السلجوقي بآسيا الصغرى وإلى صلاح الدين وللأسف لا نعرف موضوعها^(٤٤). ونعلم أنه في نهاية حكمه كان يستعد للحصول على إرث النورمانديين في صقلية لابنه هنري وبذلك وضع حداً لخلاف طويل. بيد أن هذا الموقف لم يقربه من بيزنطة حسبما سيظهر في الحملة الصليبية الثالثة.

لا بد أنه لم يستقبل بحفاوة وترحيب في القسطنطينية، وإذا لم يكن قد حظى في آسيا الصغرى باستقبال أفضل فإن ذلك لم يكن بسبب قلع أرسلان بل لنزاعات كانت قد ظهرت بين السلطان العجوز وأحد أبنائه المدعوم من طرف التركمان^(٤٥). وكان قلع أرسلان دائماً على علاقة سيئة مع صلاح الدين الذي كان منافساً له على حدود جبال طوروس ولم تكن حملة فريدريك الصليبية لتزعجه في شيء.

لن نروى قصة الحملة الصليبية الثالثة وحسبنا أن نذكر بعض الوقائع منها. كانت الإسعافات الأولى للفرنجة قد أرسلت عن طريق أسطول نورماندى وبواسطة كونراد المونفيراتى وفي كلتا الحالتين لا نعرف شيئاً عن أسبابها. لقد مات بارباروس في قيليقية^(٤٦).

ولم يعد الألمان فى اضطرابهم وحيرتهم يلعبون دوراً كبيراً. وكان ريشار قلب الأسد وفيليب أوجست قد وضعوا حداً لخلافتهما فى الظاهر. وجاء ريشار على أسطول تابع لمدينة بيزا بينما لجأ فيليب إلى الجنوبيين^(٤٧). وفى الطريق انتزع ريشار قبرص بدون اكتراث من بيزنطة^(٤٨) وأعطاهما أولاً إلى جماعات الداوية الذين كانت لهم بالتأكيد من قبل مصالح فى الجزيرة لكن نظراً لعدم كفاية قواتهم العسكرية فقد نقلها ريشار إلى مقطعيه اللوزينين بأوروبا الذين كانوا يقيمون فى مملكة بيت المقدس غير أنهم كانوا يتعرضون للانتقاد.

وظلت الجزيرة طوال قرن من الزمان بمثابة ملجأ ومورد لبعض المصادر الإضافية بالنسبة للشرق اللاتينى كما كانت تستهوى كذلك اهتمام البارونات.

وقد سجلت الحملة الصليبية الثالثة تحولاً حاسماً فى تاريخ التجار الإيطاليين بالشرق الأدنى، فبقطعها لكل العلاقات التجارية مع مصر، جذبت انتباههم إلى ضرورة القيام بأنشطة بديلة وإلى أهمية الأماكن الآمنة بالشرق اللاتينى. ومن جانب آخر كان الصليبيون فى حاجة إليهم لنقل الجنود والحصول على إمداداتهم. ومن غير أن يتقدموا بطلب فى هذا الشأن تقريباً، منحهم أمراء الشرق امتيازات مهمة لم يكن يحصلوا على ما يماثلها فى مصر أبداً، وذلك سعياً لربط التجار الإيطاليين بهم. فإلى جانب إعفائهم من تسديد الرسوم الجمركية تم توسيع الأراضي التى حصلوا عليها بواسطة الامتيازات كما حصلوا على استقلال إدارى تام جعل من هذه البلدات التجارية ما يعادل الإقطاعات المدنية والدينية. منذ ذلك الحين نزعت تجارة الشرق إلى التوجه أكثر نحو الموانئ السورية مع محافظتها على طبيعتها وبدون أن تهجر مع ذلك مصر^(٤٩).

ومع ذلك فقد تعقد هذا التطور نظراً للمنافسات الداخلية. وسنلاحظ الغياب النسبى للبنادقة. والحق أنهم كانوا راسخى الجذور فى صور منذ عام ١١٢٣. وفى تلك الفترة أمكن للجنوية والبيازنة منافستهم غير أنهم كانوا فى خصام مع بعض. وكان الصراع على العرش الملكى يدور فى المملكة بين كونراد المونفيراتى وأسرة اللوزينين ثم مع هنرى الشامبانى وقد انحاز الجنوية إلى كونراد وملك فرنسا بينما انحاز البيازنة إلى اللوزينين وملك إنجلترا^(٥٠).

من جهة أظهرت العمليات الحربية الشاقة التى جرت حول عكا^(٥١) أن الغرب لا يمكنه أن يتغلب على صلاح الدين، حتى لو تمكن من جمع كل الوسائل على بعد مسافة مائة وأن صلاح الدين لا يمكنه أن يتغلب على الغرب. لقد حاول التصالح مع الموحدين^(٥٢) من أجل

الحصول على مساعدة أسطولهم ليعترضوا سبيل قوافل الصليبيين غير أن الموحدين كانوا نوى اهتمام ضئيل بما يحدث فى الجهة الأخرى من البحر المتوسط، إذ كان عليهم مراقبة مسيحيي أسبانيا الذين كانوا أكثر تهديداً بالنسبة إليهم فضلاً عن أنهم لم يشعروا بأى نوع من الولاء نحو خلافة بغداد التى كان صلاح الدين ينتسب إليها. لقد حصل صلاح الدين على مؤازرة من هم أقرب إليه من صغار أمراء بلاد ما بين النهرين الذين لم يكن يملكون أن يفعلوا شيئاً آخر غير ذلك من الناحية الأخلاقية أو المادية إلا أن رغبتهم فى عدم العمل من أجل مجده وقوته ظلت قائمة، وأمام هذه العمليات الحربية الطويلة كانوا ينتهزون كل ما يتاح لهم من فرص كي يطلبوا منه إعانات مالية إضافية أو الحق فى الانسحاب.

ومن جهة الصليبيين استؤنفت النزاعات بين الملوك ومات فيليب ولم يجد ريشار بدءاً من توقيع معاهدة سلام ترك بموجبها للفرنجة مدينة عكا وليس القدس. أضف إلى ذلك أن صلاح الدين قد مات بعد ذلك بقليل. وتمكن الفرنجة من انتهاز فرصة النزاعات القائمة بين أولاده وعمهم العادل لاستعادة السيطرة والتمكن فى معظم الساحل الفلسطينى واللبنانى. غير أنه بقيت حول اللاذقية أرض إسلامية مطوقة تعذر إخضاعها، فجعلت إمارة أنطاكية وجيرانها الأرمن القيليقين فى موقع الحياد. وتراجع فرنجة المناطق الخلفية إلى عكا والساحل فحلت مملكة عكا محل مملكة بيت المقدس وقد كلف الصراع كلا الجانبين ثمناً باهظاً وتلقوا درساً لا يُنسى ينسى.

لقد لاحظنا سابقاً أن الخلافة كانت غير مهتمة عملياً بالصراع الدائر ضد الفرنجة وهو أمر يدعو إلى الدهشة. وكون أنه لم يكن بوسعها طوال النصف الأول من القرن الثانى عشر إلا إرسال إرشادات ورعة على فترات طويلة عندما كان يشتد طلب الاستنجااد بها فهو أمر ليس فيه بعد ما يدهش؛ فقد كانت مشغولة بما يكفى من الصراعات الداخلية بين حُماتها السلاجقة ولم يكن لديها الجنود ولا الموارد المالية للتخلص منهم، ونظراً لضعف همة السلاطين لفترة من الوقت فقد عمت الفوضى نولهم. وكل ما كان فى وسعهم هو المساعدة على تأسيس سلطات سورية - جزيرية مستقلة قادرة بنفسها على أن تحارب فعلياً. ولقد رأينا كذلك أن اهتمام زنكى الملح بشؤون بلاد ما بين النهرين - العراقية كان مبعثاً للحرص والضيق بالنسبة له. لكن منذ النصف الثانى من القرن كانت الخلافة قد تحررت فصارت تحكم بصورة فعلية العراق ثم مقاطعات أخرى متاخمة واعترف لها أهل السنة جميعهم بهيبتها من جديد إن لم نقل سلطتها واتخذت لها جيشاً حقيقياً وتنظيماً مالياً. وكون أن خليفة مثل الناصر (٥٣) وهو شخصية

مرموقة وكان جاداً في البحث عن كل ما يمكن أن يعلى من مكانته، نجده لا يكاد يفعل شيئاً في مثل هذه الأوضاع ومبثطاً عزيمة صلاح الدين بإجاباته الفاترة على النداءات التي كان يرسلها إليه فهو أمر يستحق أن نجد تفسيراً له. من المؤكد أن الصراع ضد الفرنجة لم يكن يدر شيئاً على الخلافة من الناحية المادية، وكان خوض هذا الصراع من قبل الأمراء المستقلين كفيل بالإسهام في مجدهم وقوتهم دون أن يكون في ذلك نفع للخلافة. فالأحداث الخطيرة التي كانت إيران مسرحاً لها والانعكاسات التي كانت تخلقها غالباً في العراق كانت لابد أن تسترعى اهتمام الخليفة في المقام الأول. أضف إلى ذلك أنه نظراً للوصاية السلجوقية التي كانت ماتزال حية في الأذهان فقد كانت لديه حساسية خاصة إزاء تعاظم أمر الأمراء المجاورين التي لم تكن حدود بلادهم أو مناطق نفوذهم المجاورة لبلادهم واضحة التحديد كما كان يشتبه في مدى إخلاصهم سواء كان ذلك عن صواب أو خطأ. يبقى أن أيديولوجية الجهاد كانت بالتأكيد تشغل في فكره وسياسته حيزاً أقل بكثير من الجهد الذي بذله لإعادة تأسيس وحدة الاتجاهات الروحية والاجتماعية للإسلام حول الخلافة. كما تفرغ الأمراء أيضاً لهذا الأمر فهو شرط للانتصار على الفرنجة. أما بالنسبة للناصر فلم يكن هناك مجال لربط هذين الاتجاهين، فكان يعتقد فقط بالتصحيح الموحّد.

الفصل الثانى عشر

مؤسسات الشرق اللاتينى

قصدا أن نقوم بدراسة مفصلة عن مؤسسات الشرق اللاتيني التي صدرت بشأنها أعمال مهمة منذ نصف قرن وأخرى لاتزال فى طور النشر. غير أنه من الضرورى أن نحاول وضعها فى مكانها والتدقيق فى البعض منها، وأعنى بوضعها فى مكانها أن نرى كيف اندمجت فى التاريخ المؤسساتى الغربى والشرقى وفى أى شىء تأثرت بظروف الوجود الخاصة بالشرق اللاتينى، وأما تقديم بعض هذه المؤسسات فالمقصود به تلك التى توضح بشكل أفضل اندماج الشرق اللاتينى مع تقاليد السكان المؤازين له.

إن الأهمية التى نوليها لدراسة هذه المؤسسات تتجاوز الشرق الأدنى بالمعنى المحدود للكلمة حيث أننا لا نجد ما فقط فى قبرص، وإن كان ذلك فى سياق مختلف، بل أيضاً فى «رومانيا» أى فى المناطق اليونانية التى ظلت فى القرن الرابع عشر تحت السيطرة اللاتينية. ومع ذلك كانت أهميتها محدودة بالنسبة للغرب لأن فرجة الشرق الذين عادوا إليه كان عددهم قليلاً ولا يلاحظ أنهم قد حملوا معهم الخصائص الجوهرية للقانون الفرنجى الذى كان سائداً بالشرق.

ومن البديهي أن مؤسسات الشرق اللاتينى كانت تجمع بين مساهمات غربية ذات ملامح سورية شرقية فى جوهرها وبين تجديدات من وحى الضرورات الآنية.

لابد أن نميز بشأن المساهمات الغربية بين المناطق والفترات والشرائح الاجتماعية. فنحن لا نعرف ما إذ كانت الإمارة النورماندية أكثر اجتذاباً للنورمانديين بشكل خاص وإمارة طرابلس أكثر اجتذاباً للأنجودوكيين.. إلخ. ويبدو أن ثمة احتمالاً ضئيلاً ألا يكون قد حدث الامتزاج بين الأجناس ولاسيما فى المملكة التى كانت تجتذب بالتأكيد أغلب المهاجرين. أما الشرائح الاجتماعية فكانت مكونة من السادة الإقطاعيين الصغار والكبار والتجار وعامة الناس بالمدن وأحياناً بالريف. وفيما يخص المناطق كان الأمر يتعلق بنورماندى إيطاليا وفرنسى الجنوب والإيطاليين. وقد جاء كل هؤلاء الناس من بلاد إقطاعية تقريباً فحملوا معهم إلى الشرق أعرافاً وتصورات ذات نمط إقطاعى. ومع ذلك فإن الأمر يستدعى التذكير ببعض الاختلافات، فالتصور النورماندى لمناطق نفوذ صغيرة بقدر كاف وتابعة للأمير مباشرة كان هو السائد فى أنطاكية فى حين كان التصور الفرنسى لوحدات كبرى وسيطة هو السائد بالقدس. وقد قبلت إمارة أنطاكية ذلك على مضض نظراً لضيق مساحتها. وكان للإقطاعيات الأرمنية بإمارة الرها وقيليقية وضعية قانونية أقل تحديداً بينما كانت مملكة بيت المقدس وهى أكبر دول الشرق اللاتينى بحجم كونتية كبيرة أو دوقية فى فرنسا ومن ثم لا يمكن أن تقارن إلا

بكونتيات أو بوقيات فى الغرب وايس بمملكة فرنسا أو الإمبراطورية. وكان أغلب السادة الإقطاعيين بالشرق اللاتينى الذين سيحصلون على إقطاعات كبيرة بقدر كاف، من أسر متواضعة ونتيجة لذلك لم يكونوا ينتمون إلى وسط كبار الإقطاعيين الذين استقلوا بنواتهم طواعية واختياراً، بل على العكس كانوا من أولئك الذين ظل الإحساس بالوفاء والاخلاص قوياً فى نفوسهم. وعلى أية حال فإن الإقطاع الذى تم جلبه بهذا الشكل لم يوجد إلا على مستوى أعلى وهو مستوى الغزاة الذين حافظوا على تقاليدهم الخاصة بهم.

ويتم التمييز داخل المجتمع الناجم عن الغزو - سواء أكان فرنجياً أو عربياً أو تركياً كما كان الأمر سابقاً - بين الأرستقراطية الحاكمة والسكان المحكومين. وقد حافظت الأسر الأرستقراطية على بقائها ولو أنها فى بعض النواحي كانت تندمج فى المجتمع المحلى. لقد كان الفرنجة القادمون من الغرب ينقسمون اجتماعياً إلى مجموعتين : مجموعة أرستقراطية إقطاعية منحدره من أسر متواضعة فى الغالب غير أن وضعها الجديد كان يزيد من سلطتها؛ ومجموعة متكونة من عناصر حضرية أو ريفية قادتها الظروف للتجمع داخل المدن. وقد ظلت الأرستقراطية الإقطاعية متميزة عن السكان المحليين حتى النهاية ولو أنه بإمكاننا أن نستشهد ببعض حالات الزواج المختلط أو الترقية الفردية. ومن المرجح أن التداخل الاجتماعى داخل المدن كان أقوى. أما سكان الريف فقد ظلوا محليين ولم يختلطوا مع غيرهم رغم وجود بعض الحالات المحدودة جداً للاستيطان اللاتينى.

وكان على رأس دول الشرق اللاتينى الأربع، التى ستقلص بعد فترة إلى ثلاث، ملكاً أو أميراً أو كونتاً وكان ما ينتظر منهم، على نحو خاص، أن يكونوا قواداً عسكريين، وهو ما سيكون حائلاً دون تولى النساء. ومن ثم كان الموت المبكر لعدد منهم يستلزم التعجيل بتزويجهم بالوراثات الشابات إن وجدن. وبما أن البارونات كانوا يستثنون من الاختيار آباء المتوفين الذين لا يوجدون بالشرق فقد وجدوا أنفسهم فى حالات عديدة، يختارون شخصيات أجنبية عن الأسرة الحاكمة، لكن لم يكن ذلك فيما يبدو يمثل مشكلة ولا يقود إلى أية قطيعة مع «تقاليد» البلد.

بل وسنشهد فى نهاية القرن الثانى عشر. تسليم إمارة طرابلس إلى أمير أنطاكي من سلالة نورماندية أى إلى اتحاد شخصى لدويلتين. ولا نلاحظ بالنسبة لهؤلاء أن هذه الظروف قد أثارت نوعاً من التساهل فى سلطة الأمير. وسيكون الأمر على خلاف ذلك فى مملكة بيت المقدس حيث اتحدت مشاكل الخلافة مع الصراعات العشائرية والتأثيرات الخارجية وسلطة

بعض كبار الإقطاعيين (ومع ذلك فقد صمدت في نهاية القرن الثالث عشر ملكية قوية بقرص).

ووفقاً للصورة التقليدية فإن مملكة بيت المقدس الصليبية ربما عرفت في القرن الثاني عشر ملكية قوية أدت في القرن الثالث عشر إلى ترسيخ الإقطاعية خارج الأوساط الحضرية، ولعل المملكة المقدسية ذاتها قد عززت سلطتها في ظل بدوان الثالث وعمورى الأول ولاسيما بفضل «قوانين التبعية الإقطاعية»، التى جعلت من كل السادة الإقطاعيين للمملكة تابعين مباشرة للملك. وقد تمت الإشارة حديثاً إلى أن هذا الأمر كان يمثل سلاحاً ذا حدين. فمن المؤكد أن الإقطاع الذى كان هشاً في بداية القرن، حيث أدت خسائر الحرب إلى نقل مستمر لمناطق النفوذ، قد تدعم تدريجياً من خلال تأسيس بعض كبريات الإقطاعات المستقرة التى انبثقت منها السلطة الجديدة للأبليين. من الصعب أن نؤكد إذا كان فقدان الأراضى قد أضر بالملكية أكثر من إضراره بالإقطاع، كما يصعب كذلك أن نتبين إلى أى حد كان التدهور السياسى فى المملكة تدهوراً ظرفياً أم أصلياً إذ لم يكن له نظير فى أى من الدويلات الثلاث.

وكان الأمير والسادة الإقطاعيون يحكمون ويعدلون عن طريق محكمتهم الصغرى ذات النمط الغربى. وكان الاحتفال الرسمى المتواضع الذى يقام للملك أثناء تنصيبه يتضمن بعض الملامح المأخوذة من التقاليد البيزنطية (ربما كان من المتعذر أن تكون مأخوذة من الإسلام). وفى مجال الإدارة المحلية حافظ الفرنجة تقريباً على التنظيمات وبالأخص التنظيمات المالية التى كانوا يطلقون عليها الاسم اليونانى «سيكريتون» والعربى «الديوان» وذلك حسب الحالات والمناطق. وكان المحليون يشغلون بالضرورة الوظائف الثانوية، والمرجح أنهم كانوا كلهم تقريباً من المسيحيين بيد أننا لا نرى أحداً منهم قد تقلد إحدى المناصب الرفيعة (على النقيض مما حدث فى صقلية). وكان للمحكمة الكبرى للبارونات ومحكمة البورجوازيين أنوار قضائية بشكل أساسى لكن كان فى وسعها كذلك أن تعقد جلساتها لأسباب سياسية فى المناسبات الاستثنائية .

ثمة اختلاف أساسى يميز مبدئياً بين السيد الإقطاعى اللاتينى الغربى والسيد الإقطاعى الشرقى. فيما يتعلق بالأول، وباستثناء ما يتصل بالقانون الكنسى، فإن كل الإدارة الخاصة بميدانه كانت تأسر بأوامره بما فيها العدالة على نحو خاص ولو كان «العرف» موجوداً قبلها. بينما كان الثانى يهتم بالتأكيد بشؤون إدارة أراضيه ولاسيما من الناحية المالية، لكن العدالة بما أنها تطبيق للقوانين كانت من اختصاص القاضى الذى يعين بالتأكيد

من قبل الإقطاعى الشرقى غير أن هذا القاضى كان يتصرف بصورة مستقلة. والحق أنه ليس مؤكداً أن الفرصة قد سنحت حقاً لجماهير الشعب فى الشرق اللاتينى لملاحظة هذا الفرق. ولا يعرف السيد الإقطاعى الفرنجى. الفرق بين العرف والقانون إلا فيما يخص حفنة من مواطنيه. وقد ميزت القوانين المنظمة للعلاقات بين الطوائف بين أمور خاضعة للقانون العام وأمر خاضعة للقانون الخاص بكل طائفة وتخضع هذه الأخيرة، فى الواقع، لسيطرة رجال الدين بكل كنيسة. وليس هناك ما يدعو إلى التفكير بأن الفرنجة لم يحافظوا على هذا التقليد علاوة على أنهم كانوا يعرفونه فى الغرب بشأن اليهود. وصحيح أنهم قد ألغوا بشكل عام وظيفة القاضى الإسلامى لكن أغلب الظن أن المسلمين قد استمروا فى تطبيق قوانينهم الخاصة مع الوجهاء المحليين فيما يخص شؤونهم الداخلية. ومن ثم فقد بدا أن رعايا الشرق اللاتينى لم يلاحظوا بالضرورة فى حياتهم اليومية تغيراً كبيراً فى هذا الصدد. وسنرى أن الأمر سيكون كذلك فيما يخص التنظيم الاقتصادى والاجتماعى بالنسبة لجموع القرويين.

لقد جاءت الأرستقراطية الإقطاعية الفرنجية حاملة معها التقاليد الإقطاعية كما بالغرب. ولا يعنى هذا أن الانتقال إلى الشرق قد طرح مشاكل خطيرة بما أن كل شيء كان يحدث دائماً داخل المجموعة الاجتماعية نفسها. وكل ما فى الأمر أن حالة الحرب النشطة أو المضمرة كانت تؤدي إلى التشديد على الإلزامات ذات الطابع العسكرى ولن نلج هنا على ذلك^(٢). وكان المجتمع المحلى يمنح بالنسبة لاستيطان الحكام الجدد إطاراً لا يحتمل التعديل. وسواء كان الأمر يتعلق بمالكين نوى شرعية تامة أو بمستفيدين من نظام الإقطاع فقد كانوا يملكون مناطق نفوذ مطابقة بشكل عام لجماعة قروية حيث لم يكن يملك السادة الإقطاعيون الفرنجة إلا أن يخلفهم دون تعديل للحدود ولا الهياكل التقليدية؛ فلعل طابع التضامن الجماعى المميز لهذه الطوائف كان حائلاً دون أى تقسيم لهذه المناطق أو إعادة توزيعها اللهم إلا بتمكين السكان المهاجرين الجدد من الإقامة وهو ما لم يتمكن منه الفرنجة تحديداً. وكان المستفيدون من الدخل يتغيرون لكن الدخل لم يكن يتغير إلى الحد الذى صار فى الإمكان أن يقتسم داخل بعض المقاطعات الحدودية بين أمير فرنجى وأمير مسلم بدون أن يطرح ذلك أية مشكلة^(٣). وإذا نظرنا للأمور من وجهة نظر محلية فإن الغزو إذن لم يغير شيئاً يذكر بعد أن انتهت مرحلة العمليات العسكرية، بل لم يكن ثمة مجال فيما يبدو لإقامة تمييز عميق بين المقاطعات المسيحية والإسلامية. ربما كان هناك شعور بالتعصب إزاء الإسلام داخل المدن، غير أنه فى القرى التى لم يكن بها مسجد ولا كنيسة يمارس فيهما النشاط بشكل تام والتى لم يكن يعيش فيها أى

فرنجنى فإن ممارسة العبادات المحلية استمرت بالضرورة بدون صدام. ونظراً لتواتر أسماء الأماكن الخربة أو الأراضي الرطبة. ونظراً لبعض عمليات التوطين (لقد تعلق الأمر بجلب الفلاحين الأرمن غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل لأن الأمير الأرمنى لقيليقية قد طلب لمواطنيه امتيازات تفوق امتيازات غيرهم من الفلاحين بالشرق اللاتينى وهو ما رفضه ملك القدس) فقد ساد الاعتقاد بأن الأرياف خالية من السكان بسبب حالة الحرب، وقد يكون هذا أمراً ممكناً غير أن هذه الحركة كانت قد بدأت أثناء الفوضى السابقة على مجيء الفرنجة، ومن جهة أخرى كان هناك فى الغالب، فى حالة التقنيات الزراعية التى تتم بلا سماء بل دون دورات زراعية متحققة الانتظام، مجال للتنازل عن أحد المواقع لجار آخر بدون أن يكون لذلك دلالة على الخسارة أو النقص. وقد تعود الفرنجة، فى هذا الشأن، على ممارسة لم يكن بوسعهم نقلها إلى الشرق إلا أنهم لم يسعوا لذلك. فقد وجدت فى الغرب مفردات(*) إقطاعية يقوم بزراعتها فلاحون مسخرون، ولم تكن السخرة معمول بها إلا بالنسبة للأعمال الصغيرة الخاصة بالطرق القروية وذات المنفعة العامة(*). ومن جهة أخرى فإنه مهما بلغت أهمية القصور بالنسبة للسلالة الإقطاعيين الفرنجة فقد كانوا غالباً ما يقطنون فى المدن مثل أقرانهم الإيطاليين الأمر الذى كان يقلل فى أعينهم من قيمة المفردة القروية. ولاشك أن الفلاحين كانوا أقل هجرة وهروباً من سكان المدن الذين كانوا أقدر على الحصول بيسر على وظيفة.

ومن المعروف لدى الجميع فى القرن الثالث عشر أنه قد تمت كتابة المؤلفات القانونية التى تم تناقلها تحت العنوان العام «قوانين ملئقيات مملكة بيت المقدس». ومن المعروف أيضاً أنه كان يتم التمييز آنذاك بين نوعين من المنظمات الكبرى وهما محكمة البارونات ومحكمة البورجوازيين (وكان يديرها الفيكونت). ومن الممكن الاعتقاد أن محكمة البارونات قد أصبحت أكثر حجماً وأهمية بعد «قوانين التبعية الإقطاعية» التى جعلت من كل السادة الإقطاعيين رجالاً تابعين مباشرة للملك. وعلى أية حال أصبحت المنظمة الرئيسية فى فترات اختفاء الملكية، فى حين أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنا فى فهم تاريخ محكمة البورجوازيين. من البديهي جداً أن الفرنجة من غير النبلاء والمتجمعين فى المدن القريبة كانوا بحاجة إلى وضعية قانونية خاصة باستثناء السكان المحليين لكننا لا نستطيع أن ندرك ما إذا كانت هذه الوضعية ملازمة منذ البداية لوجود منظمة مستقلة(*).

ولم يكن الغرب يقدم آنذاك أى نموذج لما سيسمى فيما بعد بمحافل الدولة فهى ابتكار

(*) المفردة : هى الأرض المحجوزة فى بعض البلدان للسكان المحليين. (المنهل) - المترجم.

للشرق اللاتينى أملته الظروف. وقد نجم عن هذه الخصوصية البورجوازية التى ترجع لفترة موزلة فى القدم أن المؤلفين العرب فى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم يجدوا وسيلة أخرى لوصف البورجوازيين الفرنج إلا بالنقل الحرفى لكلمة «بورجوازي» ذاتها مع أنهم كانوا على علم داخل بلادهم بالسكان الحضريين المتنقلين والذين كانت لديهم كتائب يترأسها قائد يقوم بدور العمدة أمام الأمير الأجنبى.

ومن المرجح أن مناطق البنية الجديدة ودوائرها كانت غالباً ما تتطابق فى الواقع مع مناطق الأنظمة السابقة ودوائرها مع مراعاة فارق نسبة الأراضى التى تحتفظ بها السلطة المركزية، لكن الوثائق السابقة على الحروب الصليبية تعتبر هزيلة جداً بحيث لا تسمح لنا بإثبات أى شىء فى هذا الصدد. ويقدر تضائل الأرض وتعاضل الحاجات العسكرية أصبح من اللازم أن تضاف إلى الإقطاعات العقارية بالمناطق السهلة من البلاد المداخل المالية الحضريه أو تستبدل بها، وفى الغرب ظهر كذلك هذا التصور المتعلق بالإقطاعات الإيجارية غير أن السمة الأكثر عمراناً لأراضى الشرق قد سمحت بتطوير هذا التصور ونحن نعلم أنه كان مستخدماً فى دول الشرق تقليد تنازل العوائد حول المهن أو الضرائب الحضريه.

وتطورت فى الشرق اللاتينى «الإقطاعة التضامنية» بشكل أسرع وأشمل مما كان عليه الأمر فى الغرب. لقد قاد إليها التطور فى بلد عمرانى كانت فيه الأراضى القروية غير كافية كما كان الشأن دائماً، وكانت تتضاؤل كذلك بمقدار الاسترداد الإسلامى لأراضى الشرق اللاتينى فكان المستفيد آنذاك يتسلم مداخل ورشة ما أو حرفة أو موقع تجارى.. إلخ. ولا حاجة البتة إلى تخيل تأثير الدول الإسلامية بالأطراف لإدراك هذا الأمر غير أن التقارب بشأنها لم يكن أقل وضوحاً مع هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الظروف نفسها فمارسوا بالضرورة عادات مماثلة. وبغض النظر عن الطبقة العسكرية فإن الأعيان المدنيين كان بإمكانهم إثارة الحصول على الملكية أو حق الانتفاع من القرى أو مناطق النفوذ القروية، لكن تبين فى الغالب أنه كان من الأسهل منحهم عائد طاحونة أو فرن.. إلخ لفترة أقصر. وعلى أية حال فإن جباية الضرائب على المهن والتجارة كانت غالباً ما تسلم من قبل الدولة فى شكل قبالة (ومن هنا جاءت الكلمة الفرنسية جابل) (*) وكان المستفيدون منها بالمزايدة يحصلون على أرباح قيمة (٧). لقد تم التساؤل أحياناً عما إذا كان ثمة تأثير مارسه إقطاعات الشرق اللاتينى

(*) جابل : وتعنى ضريبة الملح. والامتياز التجارى الذى كانت الدولة بموجبه، فى النظام القديم، تفرض على كل شخص أن يشتري كمية محددة من الملح سنوياً (المترجم)

على تطور الإقطاع في سوريا المسلمة المجاورة. في الواقع كان ضباط الجيش الإسلامي يحصلون على رواتبهم كلياً أو جزئياً من خلال امتيازات ضريبية أو أراضى تسمى إقطاعاً. وكانت هذه الامتيازات في الأصل مؤقتة وفقاً لرغبة المستفيدين الذين كانوا يطلبون تغييرها عند حدوث أقل انخفاض في المداخل ووفقاً كذلك لرغبة الدولة وبذلك كانت تحتفظ بحقها في الرقابة كما كان الأمر كذلك في عهد السلاجقة الكبار مهما قيل في هذا الشأن. ومع ذلك فإن حكام المقاطعات أو الأقاليم أو صغار السادة الإقطاعيين (محلين كانوا أم لا) بالأمكن المحصنة كانوا أنفسهم يأملون البقاء في مناصبهم وتوريثها لمن بعدهم؛ فالأمر يتعلق بملكية عائلية حقة بالنسبة لهؤلاء الأخيرين وبرغبة الاستملاك بالنسبة للأوليين. وكانت السلطة المركزية في لحظات قوتها تعارض هذا الأمر إلا أنها كانت تتنازل عندما تكون في حاجة لمساعدتها ضد منافسيها. وتشير أحد النصوص إلى أن نور الدين حينما أراد إثارة حمية جنوده في حملة ضد الفرنجة وعدهم بأن يرثوا إقطاعاتهم ونظراً للتجاور مع الشرق اللاتيني وللتشابه الحاصل بين مساحات منطقة النفوذ والإقطاع الصغيرتين وهياكلهما - وكان يتعيش من كل منهما فارس - فقد تحدث البعض عن تأثير الأولى على الثانية. وتبدو هذه الفرضية عديمة الجدوى فالتطور كان متوازياً علاوة على أنه كان محدوداً من الجانب الإسلامي؛ فعلى خلاف النظام الإقطاعي الغربي حيث كانت الوظيفة العسكرية وراثية فإن الشرق الإسلامي - حفاظاً منه على التمايز العرقي الذي يسم الجيش - كان يتحاشى نقل الخدمة العسكرية الإلزامية للأبناء وهم أكثر اندماجاً من آبائهم، وكانوا يفضلون أن يشغلوا وظائف مدنية كعامة الناس، وكانت صيانة الجيش مؤمنة بواسطة تجنيد إضافي للمرتزقة ولاسيما شراء أعداد أخرى من العبيد^(٨).

ومهما بلغت علمانية النظام السياسي الذي أتينا على تحديده فإن أحداً لم يشك في أن قداسة الأرض المستعادة قد تأثرت بإنشاء المؤسسات الدينية المكلفة بعدة أمور من ضمنها تأمين إدارة الأماكن المقدسة داخل فلسطين بطبيعة الحال وكذلك الشأن في بعض المناطق الأخرى مثل الجبل العجيب في شمال سوريا. وبالتأكيد كانت توجد هناك مؤسسات من هذا النوع تابعة للكنائس اليونانية والشرقية ولاسيما للأديرة الموجودة في سوريا المسلمة والبيزنطية على السواء وذلك منذ أمد بعيد قبل الحملة الصليبية. غير أن اللاتين لم يرغبوا في الاشتراك معهم فحسب بل أرادوا إبداء تفوقهم عليهم دون تنحياتهم. ففي البداية أقاموا بدون شك إلى جانب اليونانيين حيث كانوا يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الكنيسة نفسها، وسرعان ما

تولد لديهم الحرص على إنشاء مؤسسات خاصة بهم، ولاشك أن النصف الأول من القرن الذي شهد ظهورهم كان يواكبه نشاط بنائى يؤكد التشابه الحاصل فى الأسلوب المعماري مع بنايات الغرب، عبر تسلسلها التاريخى على وجه التقريب. أما الأموال اللازمة لبناء هذه المنشآت فقد تيسر الحصول عليها فيما يبدو من خلال تبرعات المحسنين بالغرب ويدون صعوبات تذكر.

لقد تم تنظيم هذه المؤسسات بأشكال مختلفة، فكنيسة قبر السيد المسيح، وهى الكنيسة المقدسة بامتيان، والتابعة لبطرياركية القدس، كانت تدار من خلال مجلس كهنة شرعيين سرعان ما وجد نفسه على رأس ثروات مالية مبعثرة فى كل أنحاء العالم المسيحى فكان لابد من ترحيل عوائدها إلى الشرق. ومع ذلك كانت أغلب الأديرة بندكتية وينبغى التشديد على هذا الأمر لأنه لا يستتبع وجود أى تنظيم مشترك آخر غير نوع من التبعية للكنيسة الدنيوية وممارسة نشاط لا علاقة له بالوعظ أو التبشير كما لا علاقة له بالتطور العسكرى الذى سيكون عليه فيما بعد أمر الأسبترارية فضلاً عن الداوية ولم تصل الأنظمة الجديدة التى ظهرت فى الغرب إبان هذه الفترة إلى الشرق اللاتينى إلا بعد فترة طويلة؛ فجماعة السيتيين(*) رغم ما قامت به من مهام لبعث الحملة الصليبية الثانية وربط العلاقات مع غير المؤمنين فى أوروبا الشرقية فإنها لم تدخل إلى الشرق إلا مع بداية القرن الثالث عشر بمبادرة من الأساقفة القادمين من أوروبا - وستكون مهمتهم قصيرة الأجل على إثر ظهور «جماعات الصدقة» ذات المنشأ الأوروبى المباشر^(٩).

سنتحدث لاحقاً عن الدور العسكرى لجماعتين ظهرت فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر. على أن إحداها وهى جماعة الأسبترارية ظهرت فى شكلها الأولى غداة الغزو. ومن المعقول أن يستلزم تدفق الحجاج تجديداً كاملاً للمؤسسات الأسبترارية السابقة على الحملة الصليبية. وهنا أيضاً نجد أن تبرعات المؤمنين ومساعدات الأمراء سرعان ما أمدت الجماعات الدينية المتخصصة بالملكات والموارد التى جعلتها تمتلك نظاماً رهبانياً خاصاً. ومن وجهة النظر الكنسية كان الحصول على الاستقلال شبه الكلى مع الارتباط الوحيد وغير المباشر للبابا أمراً أساسياً مثلما سيحدث كذلك فى حالة جماعة الداوية. ولا نعرف بوضوح كيف أُستدرجَ الإسبترارية إلى القيام بنشاط عسكرى أدى إلى حجب الدور الإحسانى عن الحياة السياسية والرأى العام وهو الدور الذى لم يتخلوا عنه قط داخل الشرق اللاتينى ولاشك أنه لم يكن حكراً عليهم ويدون شك فإن هذا التطور يرجع فى منشئه إلى ضرورة ضمان أمن قوافل الحجاج، غير أن هذه فرضية لم يتم التأكد منها.

(*) السيتيون : نسبة إلى سيتو وهو دير بندكتى تأسس عام ١٠٩٨. (لاروس الصغير) - المترجم.

إننا لم نقل شيئاً تقريباً عن رجال الدين العلمانيين وهم يماثلون من كانوا في الغرب المسيحي بكامله. وحسبنا أن نوضح أن خريطة المناطق الخاصة بالأسقفيات كانت معاملة لخريطة الكنيسة اليونانية التقليدية. بما فيها بطريركيتي أنطاكية والقدس التي لم يكن للغرب ما يناظرهما غير أنه لم يكن لهما إزاء روما الاستقلال شبه الكامل الذي كان لمن سبقهم من البطاركة اليونانيين الملكيين. فالملك كان حريصاً على أن تجرى له مراسيم التقديس من قبل بطريرك القدس الذي لم يكن يحصل منه على سلطة فعلية أقوى مما كان عليه الأمر مع بقية العالم الغربي المسيحي.

* * *

إن المعلومات المتعلقة بالسهل السوري اللبناني قبل الحروب الصليبية هي معلومات ضئيلة. والوثائق اللاتينية هي أفضل مصدر لنا بشرط أن نعرف كيف نؤولها، وفي هذا شيء من المفارقة. كان يتم استغلال الضواحي الحضرية وواحات البساتين وربما أغلب البقاع اللبنانية الساحلية بواسطة تقسيمها إلى قطع صغيرة مَفْرَدَة. وبما أن هذه المنطقة هي أفضل منطقة معروفة لدينا فإن هناك اتجاه إلى تصور هذا النمط من الاستغلال كما لو كان النمط السائد في كل مكان تقريباً^(١٠)، والحقيقة أن ما نعرفه عن سوريا في مجموعها قلما يدع مجالاً للشك في أن القسم الأكبر من هذه المناطق التي هي على شكل حقول مفتوحة لزراعة الحبوب والخضروات.. إلخ قد تمت زراعتها جماعياً وأنها كانت تتكلف بدفع الضرائب والأقساط بشكل تضامني ومتكافل. لاشك أن التفاصيل تكشف عن كثير من التنوع إذ كان لكل طائفة صغيرة نظامها التقليدي وهو ما سيكون عليه الأمر كذلك في عهد المماليك. وكانت الزراعات متنوعة وإذا أمكننا افتراض أن الفرنجة ولاسيما الجماعات الدينية قد سعوا إلى تطوير بعض المنتجات التجارية (القصب والمزيتات والكتان والخمر والقطن) فالحق أننا لا نعرف شيئاً عنها ولا بالأحرى كيف أمكنهم أن يسلكوا عرضياً نحو هذه الغاية.

وكان على رأس الجماعة القروية رئيس لم يكن هناك ما يدعو الفرنجة للنيل منه. فهو من صفار النبلاء مكلف بالشؤون المحلية ومسؤول تجاه المالك أو السيد الإقطاعي لاسيما في مجال الاداءات المالية وبهذه الصفة كان يوسع السيد الإقطاعي الفرنجي أن يشركه في محكمته الصغرى^(١١).

وكان تداخل المجموعات العرقية ومؤسساتها في المدن أكثر تعقيداً. وكان للسادة الإقطاعيين الفرنجة في الغرب فيكونتات يمثلون سلطتهم لدى البورجوازيين وقد جلبوهم إلى

الشرق مع بعض الاختلافات الإقليمية في الأسماء غير أننا نجد لديهم مؤسسات تحمل أسماء محلية ولاسيما تلك الخاصة «بالرئيس» و«المحتسب»^(*). ويحلو للبعض النظر إليها بوصفها أجهزة في مرتبة «أدنى» داخل الإدارة الفرنجية^(١٢). فهذا تصور غامض إلى حد ما إذ كانت هذه الأجهزة تابعة بالطبع للمنظمات الفرنجية وقد أعطيت لها في الهياكل الجديدة وظائف أقل رسمية لكن ينبغي أن نفهم جيداً أن الأمر يتعلق بمؤسسات كانت قائمة بموجب الواقع أو القانون قبل نشوء الحملة الصليبية وأن الفرنجة حافظوا على وجودها بأشكال مصغرة بعض الشيء.

قبل فترة الحملات الصليبية وأثناءها كان «الرئيس» في سوريا وأعلى بلاد ما بين النهرين المسلمة عبارة عن قائد للسكان المدنيين وأحياناً لجيش شعبي بحيث يمثل الرأي الحضري بل ويمثل شكلاً أولياً من التنظيم البلدي أمام الأمير (الذي كان في الغالب أجنبياً)^(١٣) وجيشه. وكانت هذه الوظيفة موجودة في الواقع لكنها بخلاف وظيفة القاضي (وهو كذلك غالباً ما يكون من الأعيان المحليين) لم تكن تذكر إطلاقاً في مصنفات القانون الإسلامي لعدم النص عليها في الأصول الشرعية. لقد وجدت هذه الوظيفة كذلك لدى الطوائف المسيحية، ومن ثم لم تكن مقتصرة مطلقاً على المسلمين، وهذه السمة جعلت الفرنجة أكثر تقبلاً لها من وظيفة القاضي أو أى شخص آخر على صلة وثيقة بالسلطة السياسية والدينية للإسلام. ومن المستبعد أن يكون الفرنجة قد جعلوا من «الرئيس» قائداً ما لفرقة عسكرية، فقد كان الفرنجة وحدهم يحملون السلاح ويضمنون الأمن. بيد أن في وسع «الرئيس» أن يحتفظ بمسؤولية تمثيل جماعته أمامهم كما كان في وسعه أن يحتفظ تجاه أقرانه بممارسة القضاء على الصعيد الداخلي والمدنى.

ووفقاً للعقيدة السائدة التي تستند بصورة رئيسية على نص يوحنا الإبليني والتي يوضحها نص آخر «لقوانين ملتقيات البورجوازيين»^(١٤)، فإن «محكمة الرئيس» ربما كانت نظاماً بدائياً لعدالة ذات مستوى أدنى بين المحليين، وقد تم تنظيمها بناء على طلبهم غداة الغزو وانطلاقاً من أنظمتهم التقليدية. وبما أن محاكم «المدن» الجديدة، والخاصة بالطوائف المتعددة، قد أعطيت صلاحيات النظر في الشؤون التجارية بالمعنى الأوسع للكلمة (بيع العقارات

(*) في النص الفرنسى «المتحسب» و«المحتسب» وقد حذفنا الأولى لأنها لا تعنى وظيفة غير المحتسب، وربما سجلها المؤلف هكذا وفقاً لبعض اللهجات المحلية. ولا نملك تفسيراً دقيقاً لذكر المتحسب إلى جوار المحتسب. (المترجم)

والأملاك والديون، إلخ) فإن قاضى محكمة المدن ربما شغل عملياً مكان «الرئيس» فى كل ما يتعلق بالشؤون المحلية السائدة. فربما أندثرت محكمة «الرئيس». غير أن محكمة المدن لم تنظم إلا فى المراكز الكبرى للتجارة النشطة ويجب التدقيق حسبما يبدو فى هذه النظرية نظراً إلى أن الرؤساء المحاطين ببعض المحلفين المساعدين قد حافظوا على بقائهم فى كافة الضيع التى لا تتوافر على محاكم المدن. صحيح أن عدد «الرؤساء» فى المدن الكبرى كان ضئيلاً جداً وفقاً لما يمكن أن نعتز عليه من إشارات فى الوثائق التاريخية. ويتعلق هذا العدد أساساً بالفترات الأولى للشرق اللاتينى. ومع ذلك إذا تذكرنا أن الأمر يتعلق بشخص لا دخل له فى الوثائق اللاتينية، وهى الوثائق الوحيدة التى حفظت بشكل واسع، إلا لدوافع استثنائية، وإذا كنا من جانب آخر نرى أن أسماء «الرؤساء» ربما قد استبدلت داخل الأراضى اليونانية باسم القاضى وقد تثبت هذا الاسم كذلك (بالمعنى الشائع فى حوض البحر المتوسط وهو المعنى الذى يشير لرجل من الأعيان أو للقائد المحلى) أو اسم «نوميكوس» (أى قائد الحى، وربما كان هناك فى الواقع ثلاثة «رؤساء» فى طرابلس) فإن هذه الندرة غير مقنعة كثيراً فيما يبدو. وعلى العكس من ذلك فإن من المؤكد أنه قد تم تبني هذه المؤسسة فى قبرص باسمها العربى وحافظت على حيويتها حتى سقوط الهيمنة اللاتينية فى القرن السادس عشر. وحتى لو سلمنا بأنها قد شهدت هناك نمواً ذا خصوصية قبرصية فإننا نميل إلى الإقرار بأن النظام اللوزينيانى قد اقتبسها حوالى عام ١٢٠٠ من مملكة بيت المقدس حيث كانت موجودة بالضرورة.

وفى المقابل لم يتم الإبقاء على وظيفة القاضى، وهى وظيفة إسلامية محضة، فى التنظيم الفرنجى إلا استثناءً فى حالة الجماعة الإسلامية التى تتمتع بوضعية مميزة. وبهذا المعنى ينبغى أن تفسر الإشارة إلى قاضى جبله فى إمارة أنطاكية وهو من أسرة مشهورة بالمنطقة^(١٥) مع تفادى كل تعميم فى هذا الشأن. كل ما فى الأمر أن ثمة محاولة تمت عشية الغزو الذى قام به صلاح الدين من أجل تأمين ولاء المنطقة المسلمة المعروف أن إخلاصها غير ثابت.

ولم تكن قصة المحتسب أكثر وضوحاً من قصة «الرئيس» الحضرى. فالمحتسب فى أرض الإسلام كان موظفاً قرآنياً يقع عليه مبدئياً واجب صيانة الأخلاق العامة والحفاظ على الدين، وكان أساساً يمارس فى الواقع الرقابة على المهن والتجارة المحلية، فكان يوسعه التماس مساعدة القوة المسلمة إلا أن الشرطة لم تكن تابعة له. فكان من البديهي أن يختفى

الجانب الإسلامى لوظيفة المحتسب لدى الفرنجة، ويظهر فى النصوص بشكل عام أن قضية الأمن العام بما فيه الرقابة على التجارة كانت من اختصاص الفيكونت، والنص الوحيد الذى يشير إلى وظيفة المحتسب فى مملكة بيت المقدس هو جرد لممتلكات البنادقة بصور عام ١٢٤٣ ولا نعثر فى هذا النص إلا على حديث عن شخصية من مخلفات الماضى لم تعد موجودة. ولعلنا نميل أيضاً إلى أن ظهور المحتسب فى المملكة كان ظهوراً استثنائياً وليس له أى دور حقيقى، هذا إذا لم تدفعنا الوثائق القبرصية إلى الحذر مرة أخرى. أما فى قبرص خلال القرن الرابع عشر فقد كان للمحتسب فى واقع الأمر شخصية ذات شأن فعلى بوصفها تقوم بمهمة المراقب العام على المهن كما ينسبها إليه كتاب «مختصر القوانين»، بل إنه كان يتوفر هناك على مجموعة صغيرة من الرقباء تحت المسؤولية العليا للفيكونت.

وبما أن ثمة احتمال ضئيل فى أن يكون القبرصيين قد نقلوا هذه المؤسسة مباشرة من معاصريهم المسلمين، فلا بد أن نستنتج وجود محتسبين فى مملكة بيت المقدس مع أننا لا نعرف شيئاً عنهم وإن كانت قبرص قد طورت هذه المؤسسة بشكل مستقل^(١٦). وليسوء الحظ لم يكن هناك محتسبون فى أنطاكية حيث تعزو التقاليد البيزنطية بلا شك هذه المهام إلى حاكم شرعى كان تابعاً فى ذلك الحين إلى الفيكونت أو الدوق الفرنجى.

إننا لا نتبين المكانة التى كان يشغلها الرق فى الشرق اللاتينى. ونعلم أنه لم يكن مجهولاً فى الغرب ولا سيما فى إيطاليا على الأرجح، وإن كان قليل الانتشار فيها، ثم تضاعف بالضرورة منذ أن تحول الصقالبة والمجريون إلى المسيحية وهو التحول الذى منع تجنيدهم من داخل هذه الشعوب^(١٧). وكان الرق أكثر أهمية فى المجتمع الإسلامى الذى كان ينتقى عبيده من بين الأتراك والصقالبة والسود.. إلخ. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه فى الغرب كذلك لم يكن يتم استخدام العبيد فى أشغال الأراضى التى كان يقوم بها القيان فى أوروبا أما فى الشرق فقد كان من مهمة الفلاحين الأحرار شكلياً وإن كانوا فى الواقع مرتبطين على حد سواء بالأرض من خلال الإلزام الجماعى بتسديد الأقساط والوفاء بالأشغال. فالعبيد إذن كانوا يستخدمون فى الأعمال المنزلية، وفى مستوى أعلى من ذلك كانوا يعملون فى خدمة سلطة السادة فى القطاع الخاص أو العام. ولا يبدو أن هذه الحالة الأخيرة قد عرفت انتشاراً كبيراً فى الشرق اللاتينى، ومع ذلك ثمة احتمال ضئيل فى أن يكون الرق أكثر انتشاراً فى الغرب بواسطة استخدامهم فى التجارة وأغلب الظن أن يكون عددهم أكبر بين سجناء الحرب

الذين كانوا يعجزون عن دفع الفدية. فهرب العبيد كان أمراً متواتراً نسبياً لقرب الحدود مع البلاد الإسلامية التي كانوا يسترجعون فيها حريتهم.

ومن الصعوبة بمكان أن نتحدث عن البدو الرحل ضمن السكان المحليين، علاوة على أن أغليبيتهم لم تكن تعيش إلا في المناطق الداخلية التي كانت مساحتها تتقلص شيئاً فشيئاً من جراء الفتح الإسلامي. ويمكن التسليم بأنهم كانوا، أثناء مرورهم بالأراضي الفرنجية، يسدون نفس الرسوم المعمول بها في البلاد الإسلامية إما نقداً أو عيناً لكننا في الحقيقة لا نعرف عنها شيئاً.

الفصل الثالث عشر

السكان المحليون

لقد رأينا أن الصليبيين قد اعتبروا أغلب المحليين، وحتى المسيحيين منهم، هراطقة غير جديرين بالاحترام، ولم يجدوا حرجاً في نهب كنائسهم وأعيانهم، غير أن أحكام الضرورة والتعاضد جعلتهم يتخذون تدريجياً مسلكاً أكثر مرونة^(١). وتناقلت الطوائف فيما بينها بعض الاعتقادات المحلية وبعض أشكال العبادات^(٢). وقد رأينا في الأوساط الرهبانية، منذ القرن الثاني عشر بعض كبار رجال الكنيسة يتنبهون إلى ما يمكن أن يجلبه تبادل القروض من أرباح على كنائسهم^(٣). بل لوحظ أن البطريرك ميخائيل السوري المونوفيزي قد وجه رسالة إلى إحدى الجامعات الدينية الرومانية، ففي البدء لم يكن رجال الدين اللاتين يتخرجون من التدخل في الشؤون الداخلية لرجال الدين المحليين، ويبدو أن ذلك قد تضاعف كثيراً بعد ذلك فهؤلاء كان لهم إعجاب بموقف اللامبالاة الذي كان يتخذه رجال الدين اللاتين إزاء الخصومات الدينية^(٤) خلافاً لما كان عليه الأمر بالنسبة لرجال الدين البيزنطيين. ولقد ظهر أن المسيحيين اللاتين بالشرق، إبان القرن الثاني عشر، كانوا يجهلون كل شيء عن اتحاد الكنائس وكانت الحالة المارونية المستثناة التي تم التفاوض بشأنها من قبل أيمري بطريرك أنطاكية، وهو رجل فريد من نوعه بعض الشيء، تمثل خصائص لا تبطل هذه القاعدة^(٥)، فبالأحرى كانوا يجهلون أي فكرة عن تحول المسلمين عن دينهم، وهو ما سيحدث فيما بعد بالغرب إبان القرن الثاني عشر مع بطرس المجل^(٦) في علاقة مع الأوساط الأسبانية. لقد حدثت سابقاً في الشرق سجلات بين المسلمين والمسيحيين كما عُرِفَتْ أيضاً إبان الحروب الصليبية لدى حاشية الظاهر غازي الأيوبي الصغير بحلب على سبيل المثال، لكننا لا نرى أنها كانت تعنى اللاتين في شيء إذ من النادر جداً أن نجد من أهل الجدل المسلمين من يخصهم بالذكر في معرض حديثهم عن الكنائس المسيحية^(٨). وكان الصليبيون يفلقون المساجد^(٩). وكانوا يسمونها ماهومري^(١٠) «بالجمع» باستثناء ما يوجد منها في بعض الأماكن المميزة غير أن هذا لم يكن كافياً لتحويل المسلمين عن دينهم^(١٠).

كان المسلمون إذاً محرومين في أغلب الوقت من أطهرهم الاجتماعية والدينية الرسمية والتقليدية. ولو أنه ليس بوسعنا أن ندرك ما إذا كانت محاكمتهم تتم وفقاً للشريعة الإسلامية فيما يتعلق بشؤونهم الداخلية (وليس بالطبع فيما يتعلق بالقانون العام). من المرجح أنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بشأن الشؤون العائلية وأن هياكلهم الاجتماعية قد سلمت من الاضطراب والتغيير وكانت الوضعية القانونية لغير المسلمين في البلاد الإسلامية وكل الجماعات الأجنبية

(٥) ماهومري تحريف في النطق لاسم النبي محمد. (المترجم)

المعترف بها في دول العصور الوسطى بشكل عام، تجعل لهم نوعاً من الاستقلال الداخلي. وكانت تلك هي وضعية أعضاء الكنائس الشرقية في الشرق اللاتيني على نحو خاص. بيد أنه لم يكن يعترف حقاً بالطائفة الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك فقد حدث مراراً أن لجأ المتخاصمون بشأن الصراعات الداخلية إلى السلطات الفرنجية المدنية منها أو الدينية. وقد تتولى تلك السلطات من تلقاء نفسها أمر هذه الخصومات. وفي الجانب الآخر كان الشيء نفسه على العكس في الدول الإسلامية إزاء رعاياها من غير المسلمين. ونظراً للدور الذي كانت تؤديه الكنيسة إبان العصر الوسيط في ميدان الشؤون العائلية فإن الاختلاف بين الشرق والغرب لم يكن محسوساً في هذا الشأن.

لقد نشرت سابقاً في مجلة «سيريا» مقالاً أثرت الانتباه فيه إلى ضرورة مراجعة التفسير الشائع للفقرة الشهيرة التي يصف فيها الرحالة المسلم ابن جبير وضع الفلاحين الذين ينتمون إلى دينه في الشرق اللاتيني. ما قلته آنذاك يظل صحيحاً في مجمله ويمكن أن يدعم بملاحظات جديدة. غير أن إحدى النصوص التي كنت أستند إليها وهي لعماد الدين الذي استشهد به أبو شامة تستدعي ترجمة جديدة تعكس المعنى الوارد في كتاب «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» حسبما أشار إلى ذلك د. س. ريتشاردن، وكنت قد وضعت ثقة مفرطة في ترجمة هذا النص فقد انتزعت فقرة ابن جبير من سياقها في طبعة «المجموعة» وتم تأويلها في غمرة الغبطة التي صاحبت العصر الاستعماري على نحو يظهر محاسن الإدارة الفرنجية حتى بالنسبة للسكان المسلمين دون تدقيق في الأمر. وشددت في مقالتى على مقارنة النص المذكور مع نصوص أخرى ومن بينها نصوص لابن جبير ذاته. ومن جهة أخرى ينبغي أن نفهم نص هذا الكاتب انطلاقاً من موقفه السياسى والدينى المؤيد للحرب المقدسة وهو ما دفعه لتعبير غيره من المسلمين بالضعف والتقاعس. كما ينبغي التذكير بأن وضع المسلمين في مقاطعة صور التي كان يذهب إليها ابن جبير ربما كان أفضل من وضعهم في مقاطعات أخرى نظراً للشروط الخاصة التي لزم قبولها عام ١١٢٤ حتى تستسلم المدينة (١٢) وكان لهذه الشروط إيجابيات خاصة وهذا ما لم أكن قد ذكرته.

ويشكل عام ثمة انطباع بأن سكان الريف تعودوا على الخضوع للكثير من الأسياذ المتعاقبين، ما عدا في بعض المناطق، وأنهم فعلوا ذلك أيضاً أمام الفرنجة طالما ظهروا بمظهر الأقوى ثم انقطعوا عن الخضوع لهم تدريجياً حينما استعاد الأمراء المسلمون غلبتهم وهيبتهم واجتهدوا في توسيع شبكة دعائية خفية عن طريق الجواسيس.

ربما لم يول أهل الاختصاص في ميدان تصميم المباني العسكرية اهتماماً كافياً للدلالة

التي تكتسيها القصور التي كانت موضع بحوثهم. كانوا يعتبرون، ضمنياً، أنها كانت مخصصة في البداية للدفاع عن البلاد ضد العدو الخارجي. وبالطبع كان هذا شأن الذين وجدوا أنفسهم في النقاط الاستراتيجية الواقعة على الحدود المتتابعة، لكن لم يكن في وسع الكثيرين منهم (كما في الغرب كذلك) إلا القيام بمراقبة المقاطعات من داخل البلاد، وتشير بعض النصوص إلى أن هذه المراقبة لم تكن عبثاً^(١٢).

وسعيًا للقيام بتقييم سليم للأمور لابد من مقارنة للأوضاع السائدة في الشرق اللاتيني مع تلك التي في الدول الإسلامية المجاورة. وفي حالة ما إذا ظهر أن ظروف المسيحيين في هذه الأخيرة كانت تبدو لهم أشد قوة مما هي عليه في بلاد الفرنجة فلا بد أن نشهد من جراء ذلك قيام عامة الشعب أو على الأقل رجال الدين بالهجرة منها، والحال أنه كان هناك بعض الرحلات من حين لآخر غير أنه لم تحدث الهجرة قط، إذ كانت هناك علاقات حسنة بين بعض أعيان الكنائس المونوفيزية أو الأرمن والفرنجة ومع ذلك فلم تكن الرسالة التي بعثها البطريرك الأرمني إلى صلاح الدين لنعي بارياروس بالشئ الهين، كما أن ميخائيل السورى كان يتباهى بروابطه الطيبة مع قلج أرسلان، وكان يهنئه بانتصاراته على اليونان. ونعلم أشياء ضئيلة عن كنائس المسيحيين في أعالي بلاد ما بين النهرين وأنها ظلت قائمة وعلى رأسها أساقفة وكان بطريركها يقوم بزياراتها مراراً. ونجد هذا الوضع نفسه بالنسبة لنساطرة العراق ولو أن عددهم ربما كان قد تضاعف.

وكانت المستوطنات اليهودية^(١٣) في آسيا قليلة الكثافة أيضاً لكنها ظلت حية كما يبرهن على ذلك دور الوزيرين سعد الدين ورشيد الدين في عهد المغول. ربما كان لليهود نزعة لاعتناق المسيحية، مثل والد الموسوعى والمؤرخ ابن العبري. وهي نزعة تحتاج إلى تفسير. غير أنه في القرن السابق كانت مصر تعتبر دائماً بمثابة جنة لليهود. وفي هذا الشأن لم يكن صلاح الدين مختلفاً عن الفاطميين. وبما أن اليهود لم يكن لهم دور مماثل لدور الأقباط فلم يكن ذلك يستثير الغيرة نفسها ولا الارتياب نفسه في التفاهم مع الفرنجة. وفي مصر أيضاً أمضى الطبيب الكبير ابن ميمون، الذي قدم من الغرب، نصف حياته وألف أعماله الأكثر شهرة باللغة العربية والعبرية على السواء.

وأضف إلى ذلك أنه مهما كانت الحدود الطائفية قاطعة فإنها لم تكن تستيع مسلكاً «قومي» الطابع كما في العصور الحديثة، فالطبيب المسيحي أبو غالب، الذي أثرت الانتباه حوله فيما مضى، عمل أولاً في خدمة عموري الأول ثم مع صلاح الدين دون أن يعتبر نفسه خائناً أو ينظر إليه على أنه كذلك.

وحتى فى المنطقة التى عاد البيزنطيون لاحتلالها فى شمال سوريا زهاء قرن ونصف ظلت اللغة العربية هى المستخدمة، وهو ما كان يتذمر منه نيكون الجبل الأسود^(١٥) عشية الحملة الصليبية حسبما تشهد به الوثائق المكتوبة باللغة العربية فى أواسط القرن الثالث عشر والموجهة إلى المسيحيين الملكيين المحليين^(١٦). وقد حدث الشيء نفسه فى طرابلس كما يتبين ذلك من خطاب لجاك الفيتري الذى كان يقوم فيه بالتبشير بل ومباشرة الاعتراف بواسطة ترجمان^(١٧). ولا نرى للغة اللاتينية أو الفرنسية تأثيراً كبيراً فى السكان المحليين. وربما احتلت اللاتينية مكانة أفضل فى القدس ثم عكا حيث تكس اللاتين بعد سقوط المدينة المقدسة دون أن تبطل قط الحاجة للترجمان وعندما كانت كلمة فرنجية تفرض نفسها على اللسان العربى للدلالة على شيء جديد ذى أصل فرنجى كان يتم تعريبها كما تشهد بذلك القصة الطريفة للجزر ف.ص.ل الذى اشتق من الكلمة الفرنجية «فصال» (أى مُقَطَّع) ومنه أخذ اسم المفعول مفصول = فصاليلى (أى مُقَطَّع)^(١٨). وكان الموارنة وهم أقرب إلى اللاتين وكنيسة روما يتحدثون ويكتبون (بما فى ذلك كتبهم الدينية) باللغة العربية. وقد جعل أحدهم شاهدة قبره باللغة العربية بعد انتمائه للكنيسة اللاتينية^(١٩). وبالإجمال فإن الفرنجة كانوا يوماً أقلية من الناحية العددية مع بعض التحفظ بشأن مدينة عكا. ومن الصعب أن نصدق الانعدام التام للزواج المختلط، شرعياً كان أم لا، لكن بما أن الأطفال كانوا يُدمجون فى الأسرة الفرنجية فلم يستتبع ذلك تفرنج الأسر المحلية.

لقد رأينا المصاعب الشديدة لليهود فى بداية عهدهم بالشرق اللاتينى، ونلاحظ على إثر ذلك أنهم جاؤوا أيضاً من الغرب، دون أن نتمكن من معرفة ما كانت عليه علاقاتهم مع إخوانهم فى الدين من المحليين ولا علاقات هؤلاء وأولئك مع الذين كانوا فى البلاد الإسلامية^(٢٠).

الفصل الرابع عشر

الجيش

صار تكوين الجيوش بالشرق يعتمد على الأجانب ولاسيما على الأتراك بالنسبة لآسيا. ونتيجة للتطور الذى حدث فى فترة متأخرة أصبح الجيش البيزنطى يتكون كذلك من عناصر غير متجانسة فيما بينها كالمرتزقة وأتراك أوروبا والنورمانديين (فى القرن الحادى عشر) والأرمن (وكانوا رعايا للإمبراطورية).. إلخ. وكانت القوات العسكرية بالغرب المسيحى تعتمد، كما فى الحالتين السابقتين على خيالة أرسقراطية، ولكنها «قومية». ولما تم نقل الفرنجة إلى الشرق شعر السكان المحليون ولاسيما المسلمون منهم بنوع خاص من الغربة تجاههم بل وبنوع من العداء، ولم تحدث أية مساندة لهم من قبل الأهالى. أما الجيش الإسلامى فقد كان أهم جزء فيه يتكون من العبيد الذين ينحدرون من السلالات الأجنبية من المرتزقة الأحرار، حينما يتعلق الأمر بالمجندين المسلمين على أننا لا نلمس جيداً الفرق بين الوضعية القانونية للعبيد والمرتزقة. أما فى الجيش السلجوقى فقد حدث امتزاج بين العبيد من النمط التقليدى وبين التركمان الأحرار.

وفى ظل الزنكيين تم استدعاء أعداد مهمة من الأكراد المجاورين وذلك إلى جانب ما تم من تجنيد أساسى للأتراك وهو ما كان عليه الأمر بالنسبة للسلطات التى سادت بلاد ما بين النهرين قبلهم. وحتى ذلك العهد كان الأكراد يحاربون بالجبال مشاة على الخصوص بينما كان الأتراك فرساناً ذوى مؤهلات خاصة لخوض المعارك فى السهول. لكن تبين أن الأكراد فى الجيش الزنكى كانوا مدربين على المحاربة على طريقة الأتراك بحيث أن المصريين قلما كانوا يميزونهم حين مواجهتهم لهم. لقد تحاسدت هاتان الفرقتان من الجنود إلا أن الزنكيين قد عرفوا إجمالاً كيف يحافظون على التوازن مثلاً فعل الأيوبيون كذلك لفترة طويلة وقد استخدموا، وهم أكراد، وحدات تركية قوية. ربما كان الشعور بالغربة تجاه الأكراد الذين تعربوا تقريباً أقل حدة من شعور السكان المحليين تجاه الأتراك. وفى المقابل كان الأتراك أقل حذراً واحتقاراً للكفامات العسكرية للأكراد مما يكونه للعرب، ولقد قيل أنهم عملوا على امتصاص ما تبقى من الإقطاعات العربية بسوريا وبلاد ما بين النهرين.

من المؤكد أن الوعى المستمر بالحرب المقدسة كان يولد تقارباً بين المحليين والقوات الأجنبية المكلفة بالدفاع عنهم وذلك فى لحظات الإحساس بالخطر أو عند تحقيق الانتصارات الباسلة. ومن جهة أخرى كان يتم تعليم هؤلاء الأجانب اللغة العربية أو الفارسية أو أسلمتهم عندما يقتضى الأمر ذلك. أما أطفالهم الذين كانت أمهاتهم فى الغالب من السكان المحليين، أو يعيشن فى كل الأحوال داخل وسط محلى فقد كانوا شبه مندمجين. ولهذا السبب بالضبط لم يكونوا يواصلون المهنة العسكرية إلا استثناءً وكان يتم المحافظة على الطابع النوعى للجيش بواسطة تجنيد عدد آخر من الأجانب. لم يكن تجنيد المحليين لخوض الحرب المقدسة أمراً ممنوعاً بيد أن استخدامهم كان محصوراً ضمن فرق المتطوعين للقيام بمهام ثانوية ولم يكونوا يحصلون على راتب منتظم.

أما الجيش الفاطمي فقد ظل مؤلفاً لفترة طويلة من المغاربة بصفة خاصة ثم بدأ تدريجياً يفتح على الأتراك والسود بل وحتى الأرمن، وفي القرن الثاني عشر حيث أخذت الريبة تحوم حول الأتراك، قام الجيش الفاطمي على نحو خاص باستدعاء العرب البدو المقيمين بالبلد ولو لم تكن لهم المؤهلات الحربية التي يتميز بها الأتراك.

كان الوضع العسكري للفرنجة صعباً. وإذا كان المحليون يتحملونهم فإنهم لم يقدموا يد العون إليهم. وغالباً ما كان المسلمون يسلكون إزاءهم مسلك الجواسيس أو الأعداء، لذا كان على الفرنجة أن يوطدوا سلطتهم في الداخل وأن يكافحوا وحدهم تقريباً من أجل الدفاع عن حدودهم. وكما رأينا كان في إمارة الرها في البداية نوع من التفاهم بين القوات الأرمينية والفرنجية (كان الأرمن كذلك حديثي العهد بالهجرة نسبياً). ولم تكن الثقة سائدة هناك أيضاً إذ قام الفرنجة تدريجياً بطرد السادة الإقطاعيين الأرمن وبقوا وحدهم للدفاع عن ممتلكاتهم (باستثناء مشاركة سكان الرها في الدفاع أثناء الحصار الأخير).

ربما يجب أن ندقق قليلاً في الأحكام السابقة إزاء بعض الفترات. حيث لوحظ أحياناً وجود «التركوبول» الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الفرنجة في القرن الثاني عشر. لقد تم النظر في الغالب إلى التركوبول بوصفهم مساعدين محليين يحاربون على الطريقة التركية في شكل وحدات عسكرية خفيفة. ولا يبدو أن هذه النظرة كانت صحيحة. ففي الإمبراطورية البيزنطية أثناء القرن الحادي عشر والثاني عشر كان الجيش يستخدم «التركوبولوا» و«الفرانكو بولوا» على نطاق واسع. ويتعلق الأمر، فيما يبدو، بأتراك قد تحولوا إلى المسيحية وبفرنجة تزوجوا بنساء يونانيات أو بأبنائهن، وسيوجد تشابه فيما بعد مع المولدين الذين سماوا «بالجاسمول» في ظل السلطة اللاتينية.

كما نجد كذلك في الدولة السلجوقية بأسيا الصغرى من سماوا بالإيجديش (وتعنى حرفياً بغل) وهم مولدون اعتنقوا الإسلام ونساء تركيات مولدات وقد تم استخدامهن في مهن كثيرة منها الشرطة^(١). فهناك ما يدعو للتسليم بأن تركوبول الشرق اللاتيني الذين تشبهوا «بالتركوبولوا» البيزنطيين كان لهم ارتباط بهذا النمط من المؤسسات المنتشرة في كامل المناطق الشرقية بالبحر المتوسط. ولا شك أن الأمر يتعلق بالمحليين بل حتى بالسجناء الأتراك وبالجنود المنشقين الذين تزوجوا بنساء فرنجيات واعتنقوا المسيحية اللاتينية. ولا تحدد النصوص ما إذا كانوا يمتلكون خصوصية حربية محددة المعالم إذ يبدو أنهم كانوا أقل عدداً وأنهم لم يشغلوا سوى وظائف ثانوية.

لقد أدى عدم كفاية القوات الدائمة بالشرق اللاتيني، من بين نتائج أخرى، وبالموازاة مع ما كان يحدث في أسبانيا^(٢) إلى إنشاء جماعات عسكرية إحداها «جماعة الداوية» بمبارزة

غربية والثانية هي «جماعة الاسبتارية» نتيجة تطور محلى لعله كان متأثراً بالجماعة السابقة^(٥). وتبعاً لذلك نجد ابتداءً من الربع الثانى من القرن الثانى عشر مليشيتين كهنوتيتين كانتا تمولان من الهبات التى يتبرع بها المؤمنون الأوروبيون والامتيازات التى كان يقدمها القادة الفرنجة بالشرق بحساب مدقق. فالموارد المحصلة بهذا الشكل، وهى أعلى من موارد السادة الإقطاعيين العلمانيين قادت هؤلاء إلى تحويل ملكية القلاع الرئيسية إلى الجماعات العسكرية^(٦) حتى تقوم بتطويرها وصيانتها. وليس هناك ما يدعو للتذكير بالكيفية التى أدت بهذا النفوذ المكتسب على هذا الشكل، وهو نفوذ أكثر استقراراً من نفوذ الأمراء الذين كانوا يتغيرون، إلى أن تصبح الجماعات العسكرية بمثابة دول داخل الدولة ومن ثم صار ضررهم بقدر نفعهم فى غالب الأحيان بالنسبة لأولئك الذين كانت لهذه الجماعات مهمة الدفاع عنهم ويرجع ذلك إلى ما كان لديها من أطماع وما كان ينشب بينها من خصام. ولا نتبين أسباباً أخرى غير ما كان ينشأ من تنافس حول الامتيازات الأميرية أو التحالفات المحلية. هل كانت الاختلافات بين الجماعات العسكرية من حيث المنشأ تفضى إلى تعارض فى التصورات ؟ فى الواقع إن محاكمة الداوية التى تمت فى الغرب بعد سقوط الشرق اللاتينى وهى محاكمة تحوم حولها الألغاز ليس لها حظوظ كثيرة فى مدنا بالمعلومات عن هذا الشأن^(٧). وبجانب هذه الجماعات كان يوسع الحجاج الغربيين أن يشاركوا من وقت لآخر فى هذه الحملات ولاسيما فى عهد مملكة عكا. وكلما تحررت بعض المدن الكبرى على نمط شبه بلدى وجدنا كذلك مليشيات حضرية غير أن وظائفها كانت دفاعية فقط^(٨).

وفى العالم الإسلامى لم يكن الفرق بين الدولة العلمانية والدولة الكهنوتية واضحاً مثلما هو الشأن فى العالم المسيحى وكان التنظيم الجماعى للحياة الدينية مازال فى بدايته ولاسيما فى سوريا فى القرن الثانى عشر، وهو تنظيم يمكن مقارنته، بالرهبة المسيحية وحتى عند تطوره فيما بعد فإنه لم يأخذ طابعاً عسكرياً إلا بصورة استثنائية.

وفى المقابل كان المتطوعون من المؤمنين من بين عامة الناس يجندون أنفسهم لمحاربة أو مراقبة أهل الكفر من الوثنيين أو المسيحيين فى المناطق الواقعة على الحدود. وكانوا يسمون عادة بالغزاة وأحياناً المجاهدين أو المرابطين وذلك نسبة إلى المواقع المحصنة حيث كانوا

(٥) من المعروف أن جماعة الاسبتارية فى شكلها الأولى قد سبقت جماعة الداوية حيث تعود قصتها إلى عام ١٠٤٨ حينما سمع حاكم القدس المسلم لتجار أمالفى ببناء مستشفى للحجاج المسيحيين، ثم تأسست كنظام فى عام ١١١٢ للعناية بالمرضى من الحجاج وتضميد جروح المحاربين وأخذت شكلها العسكرى إنطلاقاً من عام ١١٤٠، وربما هذا ما أراد أن يشير إليه المؤلف بقوله إن جماعة الاسبتارية - فى تحولها إلى جماعة عسكرية وليس نشأتها - إنما جاء فى أعقاب تأسيس جماعة الداوية أو فرسان الهيكل فى عام ١١١٩. (المترجم)

يقيمون وهى الرباطات ولاسيما فى الغرب (ومنها أخذنا اسم سلالة المرابطين نقلاً عن اللغة الإسبانية، وقد تولدت هذه السلالة من أكثر الجماعات نشاطاً وتنظيماً على الحدود العربية السودانية) وقد ظل اسم «الغازى» شائعاً فى فترة الحروب الصليبية بينما انحسر كثيراً مضمون الكلمة حتى فى حالة «الحرب المقدسة». وأدى تراجع حدود الإسلام فى سوريا وتقدمها داخل الأناضول إلى اختفاء المؤسسات المستقرة التى نشأت تدريجياً عبر القرون. ومن المؤكد أن الأتراك بالأناضول كانوا يسمون أنفسهم «غزاة» غير أن الأمر لا يتعلق هنا بالجماعات المتخصصة وإنما بكل من يستطيع حمل السلاح من بين السكان.

لعل الكنيسة قد أدانت استخدام العساكر الفرنجة لمحاربة غيرهم من الفرنجة، وربما تجنب الأمراء المسلمون هذا الأمر. ولا ينجم عن ذلك استحالة استخدام الفرنجة من قبل القادة المسلمين. فقد أثر كثير من الأمراء المسلمين الاعتماد على المليشيات الأجنبية ضد الأحزاب المحلية وحتى فى زمن الحروب الصليبية والاسترداد، فلم يكن هناك داع للخروج عن هذه القاعدة بشأن الفرنجة الذين كانوا موضع تقدير خاص. وكان عدد هؤلاء كبيراً فى جيوش الموحيدين داخل المغرب وليس فى إسبانيا بطبيعة الحال. وقد تم ذلك حتى بموافقة رسمية من قبل كبار البابوات فى القرن الثالث عشر. وحدث الشيء نفسه فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر وربما تم ذلك على طريقة الجيوش «البيزنطية»^(*). وكان ذلك أمراً استثنائياً فى سوريا وفى المناطق الواقعة خلف السواحل العربية - الإسلامية ومع ذلك يمكن أن نسجل حالة أو حالتين ربما فى معركة حطين على وجه الخصوص^(١).

لقد تم تخصيص دراسات جيدة لفن المعمار الحربى لدى الصليبيين ولبعض القلاع الإسلامية. ومع ذلك لا يمكن القول إن المؤلفين وقد اتخذ البعض منهم وجهة نظر غربية فى الكتابة واتخذ البعض الآخر وجهة نظر شرقية قد وضع أحدهما الآخر فى الاعتبار. ولا توجد دراسة تأليفية حول الأعمال المتعلقة بموقع الفن المعمارى الحربى بالشرق اللاتينى فى مقابل الفن المعمارى الحربى بالغرب ولا حول التأثير المتبادل فى هذا الشأن بين بيزنطة والشرق الأدنى والشرق اللاتينى.

لقد رأينا أن قصور الفرنجة كانت تصلح لتأمين سيطرتهم على الأراضى الداخلية بمقدار تأمينها للدفاع عن الحدود. ولنذكر قصر شاهيون (ساوون) وصفد ومارقب (مارجان) وهى من بين القصور الشهيرة. لقد اكتفوا غالباً بتعليق القصور التى تعددت فى الفترة السابقة كما رأينا. وقد استردها المسلمون بعد ذلك، ويرغم النقوش العربية التى تعود لهذه الفترة

(*) الكلمة المذكورة فى النص الفرنسى تشير إلى «الأسلحة البيزنطية»، لكن المعنى يشير إلى الجيوش البيزنطية. فربما وقع خطأ مطبعى (المترجم).

الثالثة فإنه ليس من السهل دائماً التمييز بين المراحل الثلاث(*) وبالأحرى وصف ملامحها المميزة، ولا نملك سوى أن نؤكد على الجهود الضخمة التي بذلها الصليبيون لتدعيم ما وجدوه عند وصولهم. هذه الجهود التي بذلها السادة الإقطاعيون العلمانيون كانت لاتزال متواضعة في بداية القرن الثاني عشر غير أنهم سرعان ما اضطروا للإقرار في أنفسهم بعدم توافرهم على الوسائل اللازمة. وبناء عليه تم منح أهم هذه القصور للجماعات العسكرية بل لقد تم إنشاء قصور لهم وبأساطنتهم وبعضها تم تجديده تجديداً شبه تام مثل قصر «كراك الفرسان»(**) الشهير. وربما كانت جماعة الداوية أقل تجديداً، إذ لا يبدو أن ساحة بغراس وهي من الساحات الرئيسية لديهم كانت مختلفة جداً عن سابقتها. وقد شيدت القصور في مملكة أرمينيا الصغرى إبان القرن الثالث عشر، على غرار ما فعلته الجماعات العسكرية الفرنجية وبمساعدها وذلك بهدف تدعيم الشبكات القديمة الواقعة على الحدود البيزنطية. وهكذا قام التوتونيون(***) بجشيد قصر «أنازب»(****)

وتتمثل الإنجازات التي تحققت غالباً على جانبي الحدود، في اتساع الأبعاد وسمك الجدران وتكسيثها بأحجار كبيرة وبديعة ذات نقوش بارزة في الغالب، وكثرة الأبراج الدائرية ذات القواعد المنحدرة (كما هو شأن قاعدة الأسوار) والمداخل المتراصة ومقدمات الجدران إلخ. وغالباً ما كان المهاجمون يقومون بصناعة آلات الحصار في المكان عينه. ومما ساعد على عملية التأثير المتبادل، على الأقل من حيث التفاصيل أن الأيدي العاملة من كلا الجانبين كانت تتألف من أسرى الحرب. لكن ما قيل الآن لا يمكن أن يقال إلا مع الاحتفاظ بحق المراجعة.

لا شيء يسمح لنا بمعرفة ما إذا كانت هناك محاولات في الشرق اللاتيني لتحسين شبكة الطرق، على الأقل تلك التي لها أهمية استراتيجية أو الممرات التقليدية التي تعبر فوقها الأنهار.

وعلى وجه الإجمال لم تتغير التقنيات العسكرية لدى الجانبين الفرنجي والمسلم وذلك طوال الفترة التي قمنا بدراستها هنا. والاختراع الوحيد المؤكد كان من جانب الفرنجة وهو

(*) لا نعرف عن أي فترة تالتة يتحدث المؤلف فربما سقطت فقرة من النص الفرنسي أثناء الطباعة (الترجم).

(**) كراك الفرسان : حصن شيدته الفرنجة مكان حصن الأكراد، وتم تحريف الاسم إلى «كرات» ثم إلى كراك الفرسان ويقع في سهل البقية. (الترجم)

(***) التوتونيون : هم الفوساني الألمان الذين يمثلون دهبانية تأسست في القدس ١٢٢٨ للدفاع عن مصالح الصليبيين ثم انتقلت إلى ألمانيا. (المنجد) - المترجم

(****) قصر أنازب هو قصر عيرا رزية وهي بلدة تقع في جنوب تركيا الآسيوية (قيليقية) وكانت قد ازدهرت في عهد سيف الدولة الحمداني ثم خربتها الحروب. (الترجم)

نوع من المنجنيق كان ثقله المعاكس يمنحه قوة خاصة، وقد أوصى الإمبراطور فريدريك الثانى على بعض النماذج منه لنقلها إلى إيطاليا. ومن الجانب الإسلامى كانت ضرورة محاربة الفرنجة سبباً ولا شك فى استخدام الدروع الكبيرة والثقيلة التى تكشف أسماؤها طاريقاً(*) (تارج) وجنويه (نسبة إلى جنوه) عن أصلها. ومن المحتمل كذلك أن يكون الأتراك قد طوروا المنبل(**) الثقيل والقذافة(***) مثلما فعل الفرنجة، وفضلاً عن ذلك فقد كان التطور فيما يبدو ذا طابع كمى على وجه الخصوص إذ كان عدد القوات المسلحة على خط القتال يرتفع لدى كلا الجانبين فى المناسبات الكبرى كما كان عليه الحال فى مدفعية الحصار حيث كان يرتفع عدد الآلات وهو الاتجاه الذى طوره كذلك المغول باستخدامهم مساجينهم كأيد عاملة. وربما لم يتم تعلم استخدام النار الإغريقية(****) فى الحصار أو المعارك البحرية فحسب وإنما تم استخدامها فى المواجهات المخططة كذلك، وهذا ما يرويه أحد الكتاب بشأن معركة عين جالوت عام ١٢٦٠، وإن كان من المتأخرين حقاً. غير أنه لم يحدث أى تغيير جوهري حينما تم إدخال الأسلحة النارية الآتية من أوروبا بعد هذا التاريخ بفترة طويلة.

من المحتمل أن تكون هناك مشكلة قد حدثت من كلا الجانبين، ويتمثل فى التزود من أحصنة المعارك نظراً لأن الحصان العربى التقليدى لا يتكيف مع التسليح الثقيل وهذه مشكلة لا نعلم عنها شيئاً للأسف. وكان يتم استيراد الأحصنة من أوروبا إلى الشرق اللاتينى وربما كان يتم استقدامها من روسيا إلى بيزنطة والبلاد الإسلامية، وبفضل التركمان ستطور فى آسيا الصغرى عملية تربية الأحصنة بسرعة وإن كنا لا نعرف سلالتها ولا نملك أدلة على أنه تم فى فترة الحروب الصليبية تصدير الخيول من الشرق الأدنى إلى الهند كما كان عليه الأمر فى غيرها من الفترات(٧).

(*) الطرّاق: وهو قريب من المعنى الوارد ويشير إليه المنجد فى اللغة والأعلام على أنه الحديد ونحوه يُرَقَّق ثم يجعل على ترس أو شبهه. (المترجم)

(**) المنبل : «رمى النبال أو القذافات فى الحصون والقلاع». (المنهل) - المترجم.

(***) القذافة : قوس قديمة لقذف السهام والكرات والحجارة .. إلخ . (المنهل) - المترجم.

(****) النار الإغريقية : سميت هكذا لأن مخترعها مهندس إغريقى يدعى كالينكس من مواطنى مدينة هليوبوليس بسورية، اخترعها فى عهد قسطنطين الرابع بوجوناسوس (٦٦٨ - ٦٨٥م) ... وقد وصفت الأميرة أن كومنين - ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين - هذه النار فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها، وقالت إنها مزيج من النفط والزيت والكبريت مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال. وكان هذا المزج يوضع فى أنابيب من النحاس لها فم توقد منه، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره إلى الامام وكانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة وتلقى فى مدافع المنجنيق ثم تقذف على العدو. انظر : العدوان الصليبي على مصر - د. جوزيف نسيم يوسف. دار مؤسسة شباب الجامعة، مصر : ١٩٨٤، ص ١٥٦ (المترجم).

الفصل الخامس عشر

الفترة الايوبية

ابتدأ القرن الثالث عشر فى ظروف جديدة بالنسبة لكل بلاد الشرق الأدنى (الإمبراطورية البيزنطية وسلطنة أسيا الصغرى وسوريا وبلاد ما بين النهرين المسلمتين والشرق اللاتينى فأرمينيا - قيليقية). وقد أسس الأيوبيون خلفاء صلاح الدين (ابن أيوب) على غرار الإمارات السابقة وخلفاء للخلافة نوعاً من الفيدرالية العائلية التى أعادت تشكيل نوع من الوحدة وذلك حتى أواسط القرن فى ظل السيادة الأولية لحاكم مصر رغم الصراعات الداخلية ولاسيما بين ذرية صلاح الدين ذاته وشقيقة وخلفه العادل. ليس من المجدى هنا رواية تاريخ هذه الوحدة التى نملك عنها وثائق ذات ثراء خاص وكانت موضوعاً لدراسة تأليفية جيدة ولعدة أعمال مهمة فى المدة الأخيرة^(١). وتكفى الإشارة إلى بعض السمات. فقد واصل الأيوبيون على الصعيد الاجتماعى والثقافى سياسة سابقهم إلا أنهم بدوا أكثر مرونة منهم بل لقد أستأنفوا علاقاتهم بالتقاليد الإدارية التى كان صلاح الدين قد حاربها أحياناً أو أهملها. وقد تم لهم ذلك بعد أن تحقق لهم النصر على غير السنيين وفى الوقت نفسه كانوا يطورون تأسيس المدارس فى مصر بمساعدة المهاجرين السوريين أو الإيرانيين. وقد أدت الصراعات العشائرية بين موظفى الحكومة إلى هجرة بعض الشخصيات البارزة إلى حلب التى كانت إلى حد ما بمثابة ملجأ سلام أمين^(٢). وكان الأيوبيون مثل أغلب المصريين والأكراد ينتمون إلى المذهب الشافعى، الأمر الذى كان من شأنه أن يسهل عملية التقارب، بيد أن الأتراك كانوا ينتمون إلى المذهب الحنفى وهو ما يمكن أن يثير بعض أوجه التوتر داخل الجيش الكردى - التركى. وحتى داخل الأسرة ذاتها من جراء الزواج المختلط الذى اقتضته الضرورة السياسية. وسنرى أنه فى نهاية هذه الأسرة الحاكمة سيؤول التوازن إلى الإختلال لصالح المماليك الأتراك بدون أن نتبين ما إذا كان ذلك قد نتج، فى قسم منه على الأقل، من المصاعب الناشئة عن تجنيد الأكراد.

ليست لدينا النية فى أن نخوض فى الكلام عن أصول الحملة الصليبية الرابعة^(٣) وانحرافها بعد ما خاضه الكثيرون من مناقشات فى هذا الشأن، والدور الذى لعبته البابوية والبنادقة فى هذه الحملة. فاستيلاء اللاتين على القسطنطينية كان نتيجة ما حصل تدريجياً من سوء تفاهم واعتراضات وشكاوى بين اليونانيين واللاتين. وتفاقمت فى بيزنطة ذاتها من جراء الصراعات التى نشبت بين الأحزاب. وتفسر الحيلة التى استقبلت بها حكومة الانجيين نبأ إعداد الحملة الصليبية بأسباب كثيرة منها أن الكنيسة الرومانية كانت دائماً تعتبر أن الكنائس اليونانية التى تقع بين أيديها تصبح تلقائياً جزءاً من ممتلكاتها وذلك منذ وقوع الغزوات النورماندية فى إيطاليا الجنوبية والحملة الصليبية بالشرق. وحتى وقت حديث آنذاك حرصت

على ألا تبدى أى اعتراض على غزو قبرص وفرض اللغة اللاتينية على كنيستها (٤). ومن جهة أخرى من غير المجدى أن نركز على مصالح البندقية بالقسطنطينية وإرادتها فى ضمانها دون أن تجر على نفسها خطر تكرار المأسى كتلك التى حدثت فى العقود الأخيرة (٥). ولا يعنى هذا القول أن قادة الحملة الصليبية (٦) لم يكن لديهم فى البداية العزيمة الصادقة فى الذهاب إلى فلسطين بيد أن هذا يوضح أنهم توقفوا فى القسطنطينية. ربما اعتقد البعض أن الأرض المقدسة ذاتها ستستفيد من تحييد الطباع السيئة للبيزنطيين إزاء الحملات الصليبية. ونحن نعلم أنه لم يحدث أى شىء من ذلك إذ لم يكن بوسع الإمبراطورية اللاتينية أن تحتوى كل أراضى الإمبراطورية اليونانية وكانت مهددة تقريباً منذ بدايتها بالزوال من قبل جيرانها، فاستأثرت (٧) من أجل الدفاع عن نفسها بجزء من الطاقات الغربية التى ربما كانت ستصلح للاستخدام فى سوريا، وبالطبع لم تفعل سوى أن فاقمت من حقد اليونانيين على اللاتين فلم تخدم فى شىء عملية اتحاد الكنائس الذى كان تبتغيه البابوية. أما فيما يتعلق بالمصالح التجارية للبندقية فسنرى فيما بعد ما آلت إليه (٨).

إذ اقتصرنا سياسياً على القسم الآسيوى للإمبراطورية البيزنطية السابقة فإن كل ما حُفِظَ منه تقريباً قد شكل الدولة اليونانية فى نيقية (٩) فى الجانب الغربى من آسيا الصغرى فى مواجهة الأتراك والسلاجقة. وصار إقليم طرابزون الساحلى الممتد فى أقصى البحر الأسود، مستقلاً كذلك. وعقدت الإمبراطورية اللاتينية فى مناطقها الخلفية بعض العلاقات مع الأتراك (١٠) غير أن السلطات القريبة من الحدود اليونانية كانت تضمن الدفاع عنها إجمالاً بشكل أفضل مما كانت تقوم به القسطنطينية، وسيوجه السلاجقة أنظارهم آنذاك نحو الشرق كما سنرى ذلك. فلم يعد للهيمنة التى مارستها بيزنطة على أنطاكية أى معنى. وعلى الصعيد الدولى تحالف فريدريك الثانى مع الحكام اليونانيين لنيقية فى صراعه ضد البابوية الممثلة للإمبراطورية اللاتينية.

ولا غرابة أن يُقَابَل سقوط القسطنطينية بفرح داخل الكنائس الشرقية وأن يعتبر اللاتين خلفاء للرومان الذين كانوا حكاماً شرعيين للمدينة (١١). ربما بدأ الشرق اللاتينى يستفيد من كثافة سكانه الفرنجة بعد أن تقلصت مساحته إلى شريط ساحلى تقطعه البقعة الإسلامية للآذنية (وسنعاود الحديث عن دوره التجارى). وصارت إمارتا أنطاكية وطرابلس موحدين فى ظل الأمراء أنفسهم بيد أنهما لم يكونا فى الحقيقة موحدين نظراً للبقعة الإسلامية التى كانت تفصلهما. لم تعد أنطاكية تهتم إطلاقاً بشؤون الجنوب ونتيجة لذلك لم تعد تهتم بالحروب

الصليبية وقد كانت عدوة للأرمن - القيليقين قبل أن تصير فيما بعد مُقطّعمهم، كما لم يعد ملكُ القدس، الذي كان يطالب به فريديريك الثانى، يعنيها مباشرة. وكانت المملكة وقبرص تنتميان لفرعين مختلفين من عائلة اللوزينيان. وبينما ظلت الملكية محافظة على قوتها النسبية بالجزيرة وفى مرتبة أعلى من قوة الإقطاعيين المهاجرين فإن اضطرابات وراثّة الحكم بالمملكة قادت إلى تدهور المؤسسة الملكية، ولم يكن بوسع فريديريك الثانى الذى استولى على السلطة. وهو ما عارضه أغلب النبلاء المحليين، أن يضع حداً لهذا التدهور. على أية حال فإن الامتيازات المهمة التى مُنحت لبعض العائلات الكبرى والجماعات العسكرية والإيطاليين، لم تترك إلا القليل من الموارد للحكومة الملكية التى أصبحت آنذاك محرومة من المناطق الخلفية للسواحل. وحالت الصراعات الناشبة بين هذه السلطات على اختلافها دون القيام بأى عمل مشترك. وقد أدى التفكير فى مقاومة الأخطار الخارجية إلى تكوين جمعية بلدية بأنطاكية لم يعرف الشرق اللاتينى مثيلاً لها فى الاستقرار والدوام، فالمحاولات اللاحقة التى تمت فى عكا وغيرها من الأماكن كانت تقريباً سريعة الزوال نظراً للصراعات القائمة بين الأحزاب وهى محاولات أقرب إلى النموذج الإيطالى شبه الإشرافى وشبه البورجوازي.

وقد أدى الضعف الذى أصاب الشرق اللاتينى إلى أن صار فى موضع تبعية متزايدة للدول الأوروبية. ومع ذلك دفع غالبية فرنجة الشرق للبحث عن صيغة تعايش سلمى مع جيرانهم المسلمين لصالح الأمن العسكرى والنمو التجارى. وقد تعقد هذا الوضع بتدخل عوامل أخرى متنوعة. فقد لحق الغرب تشرذم من جراء صراعاته الذاتية، ولاسيما الصراع الجديد بين البابوية والإمبراطورية (أو حلفائها وورثتها) فى الربع الثانى والثالث من القرن الثالث عشر وهو صراع كانت له انعكاساته على الشرق اللاتينى فيما بعد. ومن جهة أخرى لم تقر البابوية بفشل الحملات الصليبية فاستعادت آنذاك المبادرة، بيد أن إرادة القيام بالحرب الصليبية ظلت واقعة غربية بحيث أن درجة اللامبالاة التى أبداهما الشرق اللاتينى إزاءها جعلت فكرة هذه الحروب وأمر قياداتها بمنآة^(*) عنه. وسواء كان الأمر يتعلق بالبابا أو فريديريك الثانى فإن الحملات الصليبية فى واقع الأمر هى جنوبية بصفة خاصة. ونحن الآن قد وصلنا إلى الفترة التى أخذت فيها المملكتان الفرنسية والإنجليزية فى النمو والتوسع.

لكن نظراً لانشغالهما بسياستهما الأوروبية فقد أهملتا الشرق. ومع ذلك يلاحظ فى

(*) يطرح المؤلف هنا مرة أخرى العلاقة بين الشرق اللاتينى والحروب الصليبية بصورة تثير الحيرة والتساؤل. انظر الفقرة الأولى من الفصل السادس وكذلك تقديمنا للكتاب (المترجم).

الوقت نفسه تعاظم تبعية الشرق اللاتينى إزاء الغرب. ففي القرن الثانى عشر تم اختيار رجال الكنيسة فى عين المكان على نطاق واسع. وفى القرن الثالث عشر تم إرسال كل الأساقفة من قبل روما ^(١٢) مع كل ما ينطوى عليه هذا الأمر من اختلاف العقليات. فنحن نعرف الاحتقار الذى كان يكنه جاك الفيتري لـ «البولين»^(*)، فذلك بالتأكيد كانت سياسة البابوية وقد حدث أن أثارت جملة من ردود الأفعال فى بلاد عديدة. غير أن النتائج المترتبة على ذلك كانت لها خطورتها فى الشرق اللاتينى الذى أكدنا على تبعيته وعدم استقلاليته، كما أن نقل الصراع إليه بين البابا والإمبراطور على الصعيد المحلى قد زاد من حالة الفوضى والضعف الذى سببته من قبل عدة عوامل. وسنتحدث لاحقاً عن مسألة المبشرين.

* * *

لم تكن هذه الظروف السائدة مفيدة لأحد من مسيحيى الشرق سوى الأرمن حيث عملوا بصورة تدريجية على تأسيس دولة إقليمية مستقلة، ففي عام ١١٩٧ وجد ليون الأول وسيلة لتسلم السلطة الملكية فى قيليقية حيث باركه فى آن واحد كل من الامبراطورين الألمانى والبيزنطى والبابوية. حيث أثار لدى هذه الأخيرة الأمل فى انضمام كنيسته إلى روما. لكن الموقف كان حرجاً ذلك أن ليون ومن خلفوه كانوا يعرفون أن مصيرهم مرتبط بمصير الشرق اللاتينى رغم أنهم لم يشاركوا فى أية حملة صليبية. فقد ساهم بعض بارونات الفرنجة الذين أقاموا فى السهل القيليقى، وبعض الجماعات العسكرية ولاسيما الجماعة التوتونية الجديدة، فى الدفاع عن البلد. وكانت الأرستقراطية الأرمنية، برغم طابعها القومى تطمح أن يعترف بها عضواً من أعضاء المجتمع الإقطاعى بالشرق الأدنى اللاتينى. وقد قدمت للتجار الإيطاليين مثلاً فعلت قبرص، قاعدة أكثر أمناً من الموانئ السورية فى حالة تعرضها للهجوم من قبل المسلمين. على أن عامة الناس من الأرمن كانوا مرتبطين ارتباطاً شديداً بكنيسة قومية بدون أن يقدموا أية مساومات فى هذا الشأن. من الصعب ألا يوضع فى الاعتبار الأرمن بأرمينيا الكبرى رغم أن مملكة قيليقية كانت منفصلة عنهم من وجهة النظر الكنسية، وكان يصعب بالخصوص ألا يوضع فى الاعتبار كل أولئك الذين بقوا بأعداد كبيرة فى منطقة الفرات الأوسط وكانوا يخشون عدوان حكامهم المسلمين لو ظهر انحيازهم للجانب الفرنجى.

وكان من شأن الخلاف الذى وقع بين أرمن قيليقية وفرنجة أنطاكية خلال نصف قرن أن

(*) البولين أو البولان : تسمية أطلقت على سبيل التحقير، إذ كانت تطلق عادة على الطفل المولود من أم فرنجية وأب سورى أو العكس. (المترجم)

يزيد من تعقيد الأمور دون أن يحدث تغييراً بالمعطيات الأساسية. وقد منحت المصالحة التي حققها سان لويس بين الدولتين، في آخر لحظة، تفوقاً رسمياً للسلالة الأرمينية الحاكمة على سوريا الشمالية، وفي الوقت نفسه كان إدخال القانون الفرنجي إلى قيليقية دافعاً لترجمة «قوانين ملتقيات أنطاكية» إلى اللغة الأرمينية بأمر من سامبا الذي كان قائداً عاماً وشقيقاً للملك. ومن المفارقات التاريخية أن تكون هذه الترجمة هي الصيغة الوحيدة لما وصلنا عن هذا النص.

ليس هناك ما يدعو للتركيز، في هذا المقام، على المملكة الجيورجية لكن يمكننا أن نذكر أنها وصلت إلى أوج قوتها في هذه الفترة، إذ وصل امتدادها حتى جزء من أرمينيا التقليدية وكانت في الآن نفسه تبحث عن ضمانات من الجانب الروسي وطرابزون ولدى سلاجقة آسيا الصغرى وفي أماكن أخرى. ولم يكن لديها علاقات مباشرة مع الشرق اللاتيني حيث لم يكن الكلام يدور حول الجيورجيين إلا فيما يتعلق بالأديرة التي كانت كنيستهم تقوم برعايتها في القدس.

كان سلاجقة الروم آنذاك في ذروة مجدهم، وكانت سياستهم التوسعية على الحدود الإسلامية السورية - الجزيرية قد توجت بالاستيلاء على مدينة أمد في عام ١٢٣٦، غير أن وضعهم على الحدود الأخرى المسيحية بشكل عام كان يقوم على مبدأ الحياد أو السلام. أما الأسباب التي دفعتهم للتركيز على سياسة الشرق فكانت غامضة جداً. هل كان الأمر يتعلق بإرادة توسعية طبيعية دفعتها للاستفادة من تشرذم الدول المنافسة لها كما هو شأن كل دولة قوية ؟ لقد قاموا من قبل بتوحيد شرق آسيا الصغرى لصالحهم، فهل كانوا يريدون أن يضيفوا إليه كل الدول التي يقطن بها جزء من السكان الأتراك أم كانوا يريدون إبطال الدسائس التي يمكن أن تحاك بداخلها ؟ هل كانوا يعتقدون بأنه كلما اتسع أحدهم العازل أمكنهم القضاء على الهجمات المتوقعة بشكل أفضل ؟ ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ أنه منذ بداية القرن ظهرت سياسة عدوانية على الطوروس الغربي الذي كان بيزنطياً في السابق وأصبح أرمينياً بعد ذلك، وهي سياسة سيقبلعون عنها في الربع الثاني من القرن، لكنها كانت قد دفعتهم، بالاتفاق مع الحاكم الأيوبي الصغير بطلب، إلى مساندة فرنجة أنطاكية ضد

(*) أمد : يشير أبو الفداء إلى موقعها الجغرافي على النحو التالي وتجرى دجلة من الشمال والغرب إلى جهة الجنوب والشرق ثم تغرب بميله إلى الجنوب إلى مدينة أمد.. ثم تأخذ جنوباً إلى جزيرة ابن عمر. انظر : تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بابن الفداء. ص ٥٢. وطبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة ١٨٢٤ - المترجم -

الأرمن الذين كانوا تقريباً حلفاء لكبار الأيوبيين. لقد غزوا منافذ البحر وهى ميناء سينوب وسمسون بالشمال وميناء أنطاكية^(١٤) فى الجنوب على حساب المقاطعات التى كانت تابعة لبيزنطة سابقاً لكنها لم تعد تابعة إلى دولة نيقية التى ورثت التقاليد البيزنطية. ومع هذه الدولة كانت العلاقات الرسمية علاقات سليمة وأحياناً ودية ولو أن التركمان أبقوا على نوع من التوتر على الحدود الواقعة بالشمال الغربى.

من المؤكد أنه تم فى السابق عقد علاقات جيدة مع الفرنجة القسطنطينية. على سبيل الاحتياط، لكن لم يصل الأمر إلى أن يعدوا لهم يد المساعدات، ربما لأنهم لم يحرصوا على استبدال جيرانهم بالتخلى عن اليونانيين المتركزين فى دولة نيقية والذين قاموا بتنظيم الدفاع عنها بشكل أكثر فعالية مما كان عليه الأمر فى عهد الإمبراطورية البلقانية - الأناضولية. وكان من شأن حملة القرم المشهودة أن تضر باليونانيين بطرابزون الذين خلفوا يونانيين القسطنطينية كقوة حماية بعد عام ١٢٠٤، وربما كان من شأنها أن تضر كذلك ببعض الإيطاليين لكن من المؤكد أنها لم تكن تضر بيونانيين نيقية. وتم السعى لإقامة علاقات تجارية مثمرة مع الإيطاليين أنفسهم ولاسيما البنادقة وكذلك مع بعض القبارصة. وما كان للآثر النفسى الشديد الذى خلفه الغزو الخوارزمى فى عام ١٢٢١ إلا أن يدعم هذه السياسة وإذا كان قد أحدث تحالفاً بين السلاجقة والأيوبيين لفترة مؤقتة فإن هذا التحالف قد أفسح المجال بعد زوال الخطر إلى قطيعة كانت من الخطورة بمكان بحيث قامت بتعزيز إرادة السلام داخل الحدود الأخرى. وقد أكدت الصعوبات الداخلية فى عهد كاي خسرو الثانى هذه السياسة كما أدت المصاهرة إلى بدء التعاون مع الجيورجيين، وثقت بعض أوجه الاتحاد الأخرى الروابط القائمة بين أتراك قونيا ويونانيين نيقية.

لقد جذب تطور الدولة ومصائب إيران عدداً متزايداً من الإيرانيين نحو سلاجقة الروم، وقد أسهم هؤلاء الإيرانيون فى تنظيم الجهاز الإدارى والازدهار الثقافى للبلد مع التحفظ بشأن التركمان الحدوديين الذين ظلوا بعيدين عنه^(١٥). وهكذا صارت الأراضى السلجوقية، بما تنفرد به من ميزات، فرعاً من فروع الحضارة الإيرانية - التركية الإسلامية أكثر من كونها فرعاً من فروع العالم العربى على أننا سنتكلم بعد قليل عن علاقاتها المتميزة مع الخلافة، وربما سنتكلم كذلك بعض الشيء عن علاقاتها مع الغرب المسلم.

لا يفسر لنا أى نص مسلك الأيوبيين العادل والكامل إزاء الفرنجة. ووفقاً للوقائع فإن من البديهي أن يرغبوا فى إقامة التعايش السلمى، ذلك أن سياسة صلاح الدين كانت قد

كلفتهم ثمنًا باهظًا، كما تبين أنه ليس بالإمكان الحصول مجددًا على ما حصل عليه صلاح الدين من مساعدات من قبل الأمراء المجاورين بمشقة كبيرة. وكانت المنازعات بينهما تتفاقم بمقدار اقتراب الخوارزميين منهما ثم المغول (انظر أدناه) وهو ما قادهم إلى التخلي عن القيام بحملات عشوائية بل والرغبة في الحصول على دعم من الفرنجة أو من أحد أحزابهم. على أية حال فقد زال خطر هؤلاء وبدأ أن ازدهار أوروبا كان يسمح بإقامة علاقات تجارية مربحة معهم. وكان من الضروري أن تظهر مساوئ هذه العلاقات فيما بعد بالنسبة لاقتصاد الشرق الأدنى، لكن لم يكن بوسعهم آنذاك التنبه إليها في النصف الأول من القرن الثالث عشر.

وكانت هذه السياسة تصادف - بالتأكيد - هوى في نفوس عدد كبير من فرنجة الشرق، وكذلك التجار الإيطاليين^(١٦). وفي هذه الأثناء بالضبط كانت الدول المسيحية بالغرب بصدد تنظيم حملات صليبية^(١٧) مما يخالف سياسة العادل والكامل تلك. ونحن نعرف أن هذه الحروب كانت تختلف في بواعثها وتنظيمها ونتائجها.

فحملة عام ١٢٠٠ تمت بإرادة البابوية، رغم أنه عهد بها إلى السادة الاقطاعيين العلمانيين نظرًا للوفاة المبكرة للإمبراطور هنري الرابع. وقد انتهت هذه الحملة بالاستيلاء على القسطنطينية في بداية عام ١٢٠٤. وكان عدد أولئك الصليبيين الذين وصلوا منها إلى سوريا - رغم كل شيء - من القلة بحيث لم يمارسوا أى تأثير فيها. ومن جهة أخرى فقد ترتب عن حصول البنادقة على القسم الأكبر من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، على حساب بقية المدن التجارية الأخرى، أن زادت حدة التوتر أكثر مما كانت عليه سابقًا ولاسيما مع الجنوية. ونعرف أنهم قد حاولوا بمساعدة مواطنيهم من كونتات مالطة منازعة البنادقة بشأن جزيرة كريت، وهى المرسى الرئيسى فى شرق البحر المتوسط على الطريق إلى مصر. ولم يتم التركيز كثيرًا على أنهم قد أرسلوا سفارة استثنائية لدى الملك العادل الذى استضافها لفترة أسابيع بل وطاف بالسفير فى أرجاء مصر مما أثار استنكاراً كبيراً لدى رعاياه. ويمكن للمرء أن يتذكر الروابط المميزة التى حافظ عليها الأيوبيون، ولاسيما الملك العادل، مع الجنوية. ومن الصعب ألا يخطر على بال المرء الانطباع بأن ثمة مفاوضة قد تمت بين السلطان وجمهورية جنوة ضد البنادقة. بيد أنه لم يترتب عنها شيء على الصعيد العسكرى لأسباب نجهلها. وعلى الصعيد السياسى كان من اللازم أن يستمر هذا الوضع، لولا أن نبأ الحملة الصليبية الخامسة قد قاد الملك العادل إلى إعادة العلاقات مع البندقية فى الوقت نفسه الذى اضطر فيه الجنوية للقيام بنفس الخطوة داخل الامبراطورية اللاتينية. وربما كانت لبيزا كذلك سياستها

الخاصة في البحر المتوسط، فهذه هي الفترة التي قام فيها المغامرون البيازنة بالاستيلاء مؤقتاً على ميناء سيراكوز في صقلية وميناء انطاليا في آسيا الصغرى التي كانت خاضعة لبيزنطة سابقاً^(١٨).

لقد تميزت الحملة الصليبية الخامسة التي قادها المندوب الرسولي للبابا بكونها أول هجوم ضد مصر، أو على الأقل، أول حملة صليبية جردت مباشرة صوبها، حيث كانت تعتبر آنذاك مركزاً للسلطة الإسلامية في الشرق الأدنى. لاشك أن الصليبيين لم يعقدوا عزمهم على غزو مصر، ولا كانت تلك نية التجار. غير أن احتلال الموانئ المصرية من شأنه أن يجعل منها عملة مقايضة لاسترجاع بلاد سوريا وفلسطين استرجاعاً كاملاً أو جزئياً. وقد انتهت الحملة الصليبية إلى حدوث الكارثة، لأسباب كثيرة، منها تأخر الملك فريدرىك الثانى الذى دفعه البابا للمشاركة بها^(١٩) وكان ما يزال شاباً.

بعد ذلك، بعدة سنوات، قام فريدرىك الثانى بحملة يعدها التاريخ الوصفى الكلاسيكى سادس حملة، وبما أن الأسرة الملكية بالقدس لم يبق منها سوى وريثة شابة، كان هدفه الاستفادة من ذلك ليضم إلى سلطته داخل الإمبراطورية، ومملكة صقلية تلك السلطة الرفيعة التى تمثلها مملكة القدس. وهكذا استأنف سياسة أسلافه النورمانديين^(٢٠) فى ظروف مستجدة. غير أن فريدرىك الثانى الذى كان قد تشاجر أثناء ذلك مع روما، ذهب إلى الحملة بعد أن تم نبذه مما أضفى على الحملة طابعاً مناهضاً للرومان، فانقطع كل أمل فى حصوله على المساعدات من المسيحيين^(٢١). لم يعد هناك حلول أخرى بالنسبة لفريدرىك الذى كان لابد له من تحقيق انتصار، سوى الطريق الدبلوماسى. وقد صادف ذلك هوى فى نفس السلطان الكامل (انظر أدناه) فتم توقيع معاهدة السلام، مع بعض التحفظات، مقابل إرجاع القدس للملكة. ومع أن الباعث كان سياسياً لدى هذين القائدين فقد تتضمن نوعاً من التقدير المتبادل والتسامح مما أثار استنكار الفرنجة ومسلمى سوريا على السواء^(٢٢). وفيما يتعلق بفريدرىك الثانى فقد أراد الناس تفسير موقفه ذاك فى غالب الأحيان باتصاله الطويل خلال فترة شبابه بمجتمع الحضارة المختلطة فى صقلية. من المؤكد أن هذه الخبرة يسرت له بعض التفاهم ويمكن التسليم بأن العلاقات العلمية التى عرف كيف يعقدها مع بعض العلماء المسلمين، لم يكن لها مقصدٌ دعائياً فقط. ومع ذلك لا ينبغي أن ننسى أن فريدرىك الثانى ذاته أخرج المسلمين من صقلية إلى لوسيرا بإيطاليا الجنوبية رغبة فى تحقيق السلام مع صقلية، وهناك حوصروا من قبل المسيحيين من كل الجهات فكان مصيرهم الهلاك. وكانت الواقعية السياسية

قد جعلته يطبق في الشرق سياسته إزاء العالم الإسلامي وهي السياسة التي ظل ينتهجها حتى فترة الحملة الصليبية التي قام بها سان لويس^(٢٣)، والتي كان لابد أن يسير عليها خلفه مانفريد^(٢٤). ومن الممكن كذلك أنه كان يأمل في النهوض بتجارة الموانئ الإيطالية الجنوبية مع الشرق^(٢٥). غير أن المواقع هنا كانت قد احتلت من قبل وظل إيطاليو الشمال يملكون زمام التجارة ولو أنهم كانوا يرسلون في الموانئ التابعة له. وعلى الصعيد السياسي العام تحالف فريدريك مثله في ذلك مثل المسلمين مع الإمبراطورية اليونانية لنيقية ضد الإمبراطورية اللاتينية للقسطنطينية^(٢٦).

آنئذ وقعت بالشرق أحداث كان لابد لها أن تترك انعكاساتها على الشرق الأدنى، بالرغم من أنه لم تكن لهذه الأحداث صلة به في البداية. فقد تأسست على أنقاض الإمبراطورية السلجوقية انطلاقاً من إقليم خوارزم (أمو داريا) دولة شاسعة شملت آسيا الوسطى المسلمة وقسماً من إيران.

وكان لديها جيش قوى من الأتراك الذين أطلق عليهم اسم الخوارزميين، وهم في الحقيقة قبائل قبجاق من السهول الأوروبية الآسيوية، وفي منطقة أبعد أخذ جنكيز خان في توحيد القبائل المغولية والتركية الشرقية. وقد أدت المذبحة التي تعرضت لها قافلة تجارية - كان هناك اشتباه في أنها تتضمن جواسيس - إلى قطيعة بين الدولتين. وفي عام ١٢١٧ تم سحق الخوارزمي شاه محمد، ومات بعد ذلك في جزيرة ببحر قزوين، بينما ألحق الغزاة خراباً فظيماً بالبلد، وتمكن ابنه جلال الدين منجبرتي من جمع الجنود الخوارزميين، وخلال إثني عشر عاماً، وكان ما يزال مطارداً من قبل المغول، استولى بحد السيف على الممتلكات بوسط إيران ثم بغربها قبل أن يتم سحقه بسبب عزمه على اجتياح آسيا الصغرى السلجوقية وأثناء فراره قام فلاح كردي بقتله. لقد دفع ما أثاره من رعب وما مثله من قوة إقليمية صغار الأمراء الأيوبيين وغيرهم إلى السعي للتحالف معه ضد بعضهم بعضاً. وكان هذا الإحساس بالخطر أحد الأسباب التي حثت الملك الكامل على التفاهم مع فريدريك الثاني. ولم يكن أي من هؤلاء الأمراء آنئذ قد اعتبر الغزو المغولي الذي لم يكن قد تجاوز بعد إيران أمراً يستحق الاهتمام.

ومع ذلك فإن نتائج هذه الأحداث هي التي أفسدت العلاقات بين الفرنجة والمسلمين. فقد مات الملك الكامل في عام ١٢٢٨ فتنازع ورثته. واستند الملك الصالح على الخوارزميين المروعين الذين كانوا يبحثون عن يقودهم بعد أن تجمعوا أكثر فأكثر جهة الغرب. وقام غيرهم من الأيوبيين بالاستعانة بالفرنجة عليهم مقابل أن يتخلوا لهم عن أراضٍ صغيرة. وتقاتل المتحالفون فيما بينهم وتم الاستيلاء من جديد على القدس في عام ١٢٤٤ مما تسبب في قيام

حملة سان لويس الصليبية، وفي هذه الأثناء أخذت قوة الخوارزميين تتضاؤل فأثر الملك الصالح في مصر أن يزيد عدد جيشه من الممالك الأتراك بصرف أموال كثيرة، وبما أن الأمر كان يتطلب استخدام هذا الجيش فقد استؤنفت عمليات الحرب المقدسة عشية وصول الصليبيين الجدد. وهنا حدث وفاة الملك الصالح وقدم الفرنسيين في الوقت نفسه، فاستولى جيش الممالك على السلطة لحسابه مستهلاً بذلك نظاماً جديداً تأكد دوامه لاحقاً^(٢٧).

وتظهر حملة لويس التاسع في شكل حالة اعتراضية تنطوي على مغالطة تاريخية في مسار تاريخي تكاد لا تُغير فيه شيئاً، وسنختصر الكلام بشأنها في بضع كلمات، ونحن نعلم أنه إذا كان المبادر وقائد الحملة في هذا الظرف حاكماً، فإن باعته هو ورع مشابه لورع الصليبيين الأوائل، ولو اصطبح بالروح التبشيرية التي أخذت آنذاك في الظهور. ولم تكن هذه الحملة الصليبية إلا حملة القرن الثالث عشر، بما نشأ عنها من مساومات مالية مع الناقلين الإيطاليين الذين كانوا من الجنوية هذه المرة، كما كان الأمر بالنسبة لفيليب أوجيست وبما اتخذته من توجه نحو مصر وهو توجه كاد يتم بدون مشاركة عسكرية للشرق اللاتيني. ومن المعلوم أنها انتهت إلى الكارثة، وإلى أسر الملك وفرسانه. وبعد إطلاق سراحه مقابل الفدية وقضائه أربع سنوات في الشرق حصل له الاقتناع بأنه لا يوجد هناك ما هو أفضل، آنذاك من محاولة الاستفادة من انشقاقات المسلمين (بين ممالك مصر وأيوبي حلب وغيرها من الانشقاقات) والسعى في المقابل لمصالحة الأحزاب الفرنجية المتعادية^(٢٨). وقد تمكن من إعادة السلام بين الملكية الأرمينية القيليقية وانطاكية (انظر أعلاه) بينما لم يتمكن من ذلك بالنسبة للجنوية والبنادقة. والشئ المؤكد أن لويس التاسع لم يتصرف كحاكم ولا كإقطاعي خلافاً لفريدريك الثاني وشقيقه شارل الأنجي^(٢٩).

يلاحظ المرء بعده بفترة قصيرة أن أغلب الطوائف المسيحية بالشرق قد عرفت آنذاك نوعاً من النهضة الثقافية من غير أن نتمكن من معرفة كيفية حدوث هذه النهضة، والسبب في نشأتها، علاوة على أنه من غير المجدي أن نعزو للشرق اللاتيني والمبشرين دوراً في هذا الشأن. ففي حالة الكنيسة المونوفيزية كانت أداة هذه النهضة هي اللغة السيريانية رغم أن المؤمنين كانوا يستخدمون اللغة العربية التي كانت لغة شائعة. وتعدّ حواريات ميخائيل السوري وحواريات الكاتب المجهول بالرُّها خير نماذج على ذلك، وقد تحقق أوج هذه النهضة في مناخ الإمبراطورية المغولية على يد جريجوار أبو الفرج المسمى ابن العبري، الذي كان قمة الإبداع فإنتاجه أكثر تنوعاً ومعلوماته مستقاة من لغات متعددة، أضف إلى ذلك أنه قام بترجمة

حواياته الضخمة إلى اللغة العربية في شكل مختصر بعض الشيء حتى يكون في متناول الجمهور العام وكانت الطوائف المسيحية الأخرى بالشرق تتحدث جميعها باللغة العربية كما هو شأن ماري بن سليمان بالعراق وكان نسطورياً وكذلك بعض المؤلفين الملكيين بسوريا بغض النظر عن الموارنة. وكانت الطائفة الأكثر حيوية هي طائفة الأقباط في مصر، إذ ظل دورهم مهماً في الإدارة والتجارة الداخلية للبلد وفي ذلك إجابة حاسمة عما يقال بشأن أقول نجم المسيحيين في دول آسيا. وقد نتج عن ذلك عداوة متزايدة ضدهم كما تشهد بذلك الكتابات النقدية العنيفة للنبلسي الذي كان يثير الشكوك حول توأمتهم مع الفرنجة^(٢٠) في فترة الحملات الصليبية وذلك قبل مجيء المماليك. وقد أنتجوا آنذاك مؤلفات تاريخية (المكين^(١)) وتشريعية (مؤلفات بني العسال^(٢٠))^(٣١) ومن المفارقات أن يتصادف ذلك مع توقف تاريخ بطارقة الاسكندرية.

غير أن النشاط الثقافي لليهود، بعد موسى بن ميمون، كان آيلاً للزوال، فربما لم يعد يجدون في الأوضاع المستجدة للعالم الإسلامي المناخ الذي كان سائداً في العصور الكلاسيكية، وكان مناخاً مشجعاً لهم. وسار اتجاههم في منحى مشابه بعض الشيء للمسلمين غير أننا سنشهد تطوراً لتيارات موازية في اتجاه الجانب الأوروبي أكثر وبشكل مستقل عن الإسلام.

وعلى صعيد آخر كذلك جاءت المبادرة من الغرب، فحركة التبشير التي تطورت في القرن الثالث عشر قدمت في الغالب على أنها حركة تابعة للحروب الصليبية. لقد ارتبطت هذه

(*) المكين: هو ابن العميد (المكين جرجس) ولد في القاهرة ١٢٠٥. وتوفي في دمشق ١٢٧٢. مؤرخ مسيحي خدم في ديوان الجيش في دمشق وله «المجموع المبارك» و«تاريخ المسلمين» المنجد في اللغة والأعلام - (المترجم).

(**) بنو العسال: عائلة قبطية كبيرة، خدمت الدولة طوال القرن الثالث عشر، كبير العائلة هو أبو بشر يوحنا، الكاتب المصري. وابنه أبو سهل جرجس الذي خلف الصفي أبو الفضائل. له مؤلفات عديدة أشهرها «المجموع الصفي» فيه قوانين الكنيسة القبطية وهو لا يزال مستعملاً حتى اليوم. «والصالح في جواب النصائح» و«نهج السبيل في تخجيل محرفي الإنجيل»، ومنهم كذلك الأسعد أبو الفرج الذي وضع كتاباً في قواعد اللغة القبطية وله ترجمة علمية للأنجيل اعتمد فيها على اليونانية والسريانية والقبطية. ومن أولاده أيضاً المؤتمن أبو اسحاق وهو أصغر أولاد العسال، سافر إلى دمشق مرتين لأغراض علمية وجمع في المرة الثانية مخطوطات قيمة له «السلم المقضي والذهب المصفي» وهو معجم قبطي عربي كبير «ومجموع أصول الدين» موسوعة دينية - المنجد في اللغة والأعلام (المترجم).

الحركة بالطبع بالاهتمام بالإسلام وكنائس الشرق، شأنها في ذلك شأن الحروب الصليبية، وكان في وسع بعضهم أن يتصور أن الحملة الصليبية كان هدفها السماح للكفار بسماع كلام المسيح. غير أن كل فكرة عن التنصير بدت غريبة عن الشرق اللاتيني في القرن الثاني عشر كما رأينا ذلك. فجماعة البندكتيين التي ترتبط بها المؤسسات اللاتينية المنقولة من الغرب وكذلك الجماعات المحلية لم يحددا لأنفسهما قط مهمة تبشيرية، وهي ربما كانت ممنوعة في بلد إسلامي. لقد كان السيتيون قد طوروا نشاطاً من هذا النوع. غير أن هذه الجماعة لم تنوطد في الشرق اللاتيني إلا مع بداية القرن الثالث عشر مع ممثلين غربيين تماماً، وقد ظهرت فكرة حقيقية فعلية عن التبشير مع جماعات الشحاذين الفرنسييسكان(*) والدومنيكان(**)، ففي البداية تولد لديهم الاهتمام بنشر العقيدة من خلال اتصالهم بالمسلمين بإسبانيا والمغرب، وقد لزم أن يظل الغرب مصدراً ملهماً لهذا الاهتمام حتى رامون لول ومن جاء بعده. وتُظهر إحدى الروايات شبه الأسطورية القديس فرانسوا ذاهباً للقاء السلطان الكامل، غير أن العمل الحقيقي لجماعته في الشرق لم يبدأ إلا بعد وفاته عندما واتت البابا انوسنت الرابع الإرادة نحو القيام بذلك، ولابد من التمييز بين فئتين من جماعات المبشرين التي أرسلت آنذاك. فالبعض منها قد أرسل نتيجة لاقترب المغول الذي ظهر واضحاً بعد انتصاراتهم على السلاجقة بآسيا الصغرى في عام ١٢٤٢، وكما حدث مع الكراختائين في القرن الماضي، آنذاك فقد وفق المغول بين كافة أديان آسيا الوسطى، بما فيها المسيحية، ويحملهم على أنفسهم قصة الكاهن يوحنا، فقد تم الاعتقاد في إمكانية إجراء المفاوضات السياسية والدينية. غير أنه من جانب آخر لم يكن الأمر آنذاك بالنسبة للبابوية يتعلق بتنصير المسلمين، بقدر ما كان يتعلق بمحاولة توحيد كنائس الشرق من أجل تشكيل جبهة مشتركة في مواجهة الإسلام، وهو نوع من التبشير كان بوسع الدولة الإسلامية أن تسمح به.

(*) الفرنسييسكان: رهبانية أسسها القديس فرنسيس الأسيزي عام ١٢١٠ وجعل الفقر أساساً لحياتها، فهي تعيش من التسول، انصرف رهبانها إلى التعليم والتبشير في المدن حيث نشطوا حياة العلمانيين الروحية. رهبانها في الشرق هم «حراس الأراضي المقدسة». حطوا في القدس بين عامي ١٢٢٩ - ١٢٤٤ ودمياط عام ١٢٤٩ والقاهرة عام ١٣٢٠ وبيروت عام ١٤٤٠ وحلب عام ١٥٧١ وطرابلس لبنان عام ١٥٨٢ - المنجد في اللغة والأعلام - المترجم.

(**) الدومنيكان: أو الأخوة الواعظون: هم أعضاء الرهبانية التي أسسها القديس عبد الأحد لدحض البدع عام ١٢٠٦، كانوا أرباب التعليم الفلسفي واللاهوتي في القرون الوسطى. دخلوا البلاد الشرقية في القرن السابع عشر، أسسوا إكليريكية الموصل عام ١٨٨٢، وكانت لهم فيها مطبعة عربية شهيرة، لهم في القدس مدرسة الكتاب المقدس. المنجد في اللغة والأعلام - المترجم.

ونظراً لاقتناع المبشرين بأنه يكفي التبشير بالعقيدة الحقّة، حتى يظهر الحق ويبلغ من كانوا يجهلونه اصطدمت سداجتهم تلك بمرارة التجربة، حتى في البلاد التي سادها المغول وأذنوا فيها للمبشرين بالاتصال بالمسلمين، وقد أخذ هؤلاء المبشرون، على الأقل، يتقبلون شيئاً فشيئاً إمكانية أن يكون للإسلام مزايا حقيقية، أما فيما يتعلق بالكنائس الشرقية فربما كان بوسعنا الاعتقاد بأن المبشرين قد يجدون دعماً لدى لاتينى الشرق وقد تضاعفت قوتهم إلى درجة يتعذر معها أن يتغلبوا وحدهم على المسلمين. في الواقع كان دورهم لا يقتضى سوى الحصول على قاعدة أرضية للقيام ببعض المهام، بل لقد وصل الأمر إلى تعيين بعض الفرنسيين والدومنيكان - نظراً لصعوبة إيجاد ما يكفي من رجال الدين في المكان عينه، مما جعلهم يعدّون الشرق اللاتينى ذاته بلداً تبشيراً، وكانت فكرة توحيد الكنائس فكرة طوباوية فلم تتحقق، ذلك أن أغلب المسيحيين كانوا خارج الشرق اللاتينى. وعلاوة على تعلقهم بخصوصياتهم الإقليمية، فقد كانوا يخشون غضب حكامهم فيما لو تقربوا من اللاتين، وأكثر من ذلك فإنه حتى عندما كان الأمر متعلقاً بالمسيحيين الذين يعيشون في أطراف الشرق اللاتينى - كما هو شأن الملكيين الشرقيين - فقد كان الكهنة اللاتين أنفسهم يقومون بإفشال مشروعات البابا، وكان هذا الأخير قد تمنى أن تكون الكنيسة اليونانية بالشرق قابلة للدمج مع الكنائس الأخرى التي كان يمكن أن تمنح وضع قانونية مستقلة، بحيث يوضع حد للشجار الدائم بين اللاتين واليونانيين، ولاسيما في أنطاكية، غير أن اتحاد الكنائس الذي ينشده البابا - أيّاً كان نوعه - ربما كان سيؤدى فعلاً إلى الطعن في سيطرة الكهنوت اللاتينى وتفوقه وضرورة التوزيع العادل للمداخل المحصلة، وبناء على ذلك فشلت هذه المشاريع، ولم يكن من شأن الكوارث التي أصابت الشرق اللاتينى أن تشجع على استئنافها، أضف إلى ذلك أنه خلال هذه الفترة ذاتها تلاشت الآمال المعقودة على المفاوضات المباشرة بين روما القسطنطينية التي استعادها البيزنطيون^(٣٢).

لقد رأينا أن الخلافة أهملت بعض الشيء الكفاح ضد الصليبيين، حتى في عهد صلاح الدين رغم الجهود التي بذلها هذا الأمير، ويرغم توافر بعض الوسائل لذلك من جراء تفكك السلطة السلجوقية في تلك الأثناء، وعلى صعيد السياسة الخارجية كانت بغداد دائمة الاهتمام بالخطر القادم من إيران أكثر من اهتمامها بالأخطار الأخرى مع أن فترة الحملة الصليبية الثالثة كانت أيضاً فترة التوسع الخوارزمي.

وظل الوضع على حاله، لا سيما في أوقات السلم بين الأيوبيين والفرنجة، وكذلك عندما

وجد الخليفة نفسه فى مواجهة سلطنة جلال الدين المنجبيرتى الناشئة قبل مجيء المغول، وقد كان بعضهم يتهم الخليفة الناصر باستدعائهم ضد الخورازميين، وهى أخطار لا بد من الاعتراف بأن الأمراء السوريين والمصريين لم يكن يباليون بها فيما يبدو، مثلما لم يكن الخليفة مبالياً بما يترتب به من أخطار، ولا يعنى هذا أن الخليفة الناصر بشكل خاص (١١٨٠ - ١٢٢٢) لم ينشغل بقوة الخلافة ومجدها - إنما كان يلتمس ذلك بطرق مختلفة. ونظراً لعدم تجمع العالم الإسلامى حوله سياسياً فقد سعى على الأقل إلى إعطاء المؤسسة التى يمثلها سلطة أخلاقية جديدة^(٣٢) بدءاً بالمحيط البغدادى الكفيل بأن يجعل كل شرائح المجتمع ملتزمة حوله، بغض النظر عن الاختلافات القائمة بين المذاهب الدينية. لقد اقتضينا الكلام أنفاً عن هذه التنظيمات الشعبية المسماة «الفتوة» فهو قد انضم إليها وأدخل إليها الإشراف خلافاً لسابقه الذين حاربوا هذه التنظيمات بلا جدوى، ثم ثابر على إقناع كل الأمراء المسلمين بالشرق الأدنى بالاهتمام الشخصى بهذا النمط من الجماعات التى عمل على تأسيسها بهذا الشكل، بحيث تعمل على إنجاز مشاريع اجتماعية مماثلة داخل بلدانهم، لكن لم يتحقق هذا الأمر على النحو الذى دعا إليه، لكن بقى منها لدى طبقة الإشراف نوعاً متميزاً من الجماعات الرياضية التى أعطت الانطباع لأول مستشرق اكتشفها فى القرن التاسع عشر بأنها شبيهة بجماعات الفروسية التى ترجع إلى الفترة المتأخرة من العصر الوسيط بالغرب. ومن جهة أخرى فإن الإصلاحات التى قام بها الخليفة الناصر تزامنت مع تنظيم الدولة الإسلامية من قبل سلاجقة آسيا الصغرى لم تشهد بداية تكونها إلا فى القرن الثانى عشر، وكان السلاجقة شأنهم فى ذلك التى شأن الخليفة غير مبالين بأية فكرة تخص التضامن الإسلامى لمواجهة الحملات الصليبية الجديدة، بل لقد كانوا قليلي الانشغال بمحاربة البيزنطيين، وفى الخارج كانت أنظارهم هم أيضاً تتجه أولاً إلى إيران التى كان أسلافهم قد عبروا منها وحيث كان يتوافد منها آنذاك الأطر المدنية والدينية التى ساعدتهم على تكوين نظامهم السياسى، وهكذا نشأ لديهم نوع من تنظيمات الفتوة مستوحى من تلك التى كانت لدى الناصر، وقد أسبغت على هذا الخليفة هبة سرعان ما قضى عليها الغزو المغولى.

نفهم من خلال هذه الأوضاع أن مفهوم الأمة لم يكن منتظماً حول الخلافة أثناء الفترة التى حافظ فيها على بقاءه، وكانت إيران تعيش من مواردها الخاصة وهو مالم يؤد إلا إلى تشديد الغزو المغولى بعد فترة قصيرة. وفى البلاد العربية أصبحت سوريا منذ تلك الفترة مركز الجذب قبل مصر، وذلك رغم الحملة الصليبية. ولقد رأينا لدى الحكام أن صلاح الدين لم يتمكن من إثارة اهتمام مسلمى الغرب بالكفاح المشترك ضد الفرنجة، أما مسلمى الشرق فقد

كانت لهم هموم أخرى غير الانشغال بأمر استئناف الهجوم المسيحى فى إسبانيا، وهو ما سيقصر مجال النفوذ الإسلامى فى مملكة غرناطة أو الاهتمام بنتائج سقوط الموحدين بالمغرب. أما على مستوى الآداب والعلوم فقد رأينا منذ القرن الثانى عشر ما كان عليه أهل صقلية من الشتات، وسنجد فى القرن الثالث عشر أن الشرق الأيوبى هو المكان الذى سيموت فيه الصوفى ابن عربى وعالم النبات ابن البيطار وابن ساعد الأندلسى صاحب المصنفات المتعددة وغيرهم، وسنعود إلى هذه المكانة التى كانت لسوريا.

الفصل السادس عشر

التنظيم التجاري والنقدى

لم تكن أوضاع التجارة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر مطابقة للأوضاع التى كانت سائدة فى الفترة السابقة. فقد تضاعفت الأهمية النسبية التى كانت لمصر، ولعل ذلك يرجع من جهة لانخفاض إنتاجها من التبر^(١) واكتشاف أحجار الشب فى الأناضول المنافس^(٢) لمنتوجها منه، ومن جهة ثانية للرقابة المتشددة التى فرضت من قبل البابوية على التصديرات الغربية ذات الأهمية العسكرية بما فيها الخشب والحديد^(٣) (وربما لم يمنع ذلك الإيطاليين من جلبهما من آسيا الصغرى). ومن جهة أخرى فقد أحدث سقوط القسطنطينية خلا كبيراً بالسوق البيزنطية، واستولت البندقية على نصيب الأسد من الأرباح المتوقعة، لكن أية أرباح كانت ؟ لقد اختفى بلاط الأباطرة البيزنطيين، ولم يكن بوسع خلفائهم اللاتين الصغار ولا أتباعهم اليونان أن يحلوا محلهم على الصعيد التجارى. من المؤكد أن الحملة الصليبية قد فتحت بوابة البوسفور بحيث أصبح فى إمكان البنادقة آنذاك التقلل فى البحر الأسود بدل اليونانيين، لكن هذا لم يكن كافياً لزيادة الطلب التجارى. وطالما بقيت دائماً تجارة الفراء والعبيد إلخ الصادرة من الأراضى الروسية، فإن اليونانيين وأهل القرم المحليين أخفوا منذ ذلك الحين يوجهونها إما نحو مدينة طرابزون التى صارت آنذاك حامية لهم، وإما نحو الدولة السلجوقية بعد أن أصبح لها منافذ على البحر الأسود^(٤) من خلال مينائى سمسون وسينوب فصارت منذ ذاك الحين مُحَكَّمة التنظيم مما أمد السلاجقة ببعض العمالة^(٥)، وصارت من يومها مدينة سيواس، وهى ملتقى رئيسى بآسيا الصغرى الوسطى، ميداناً ضخماً للتجارة بحيث يصعب الظن بأن القوافل التجارية لم تجعل سوريا المسلمة^(٦) تستفيد بدورها كذلك.

صحيح أن الذين عملوا على إقامة هذه العلاقات، على الأقل فى البحر المتوسط، هم أيضاً الإيطاليون وفى المرتبة الثانية يأتى الراجوزيون^(*) والانكونيون^(**) إلخ. ونلاحظ أنهم كانوا يرتادون عدداً متزايداً من الموانئ الصغيرة، خاصة من أجل مشترياتهم بلاشك، ومع سرعة اقتناعهم بعدم كفاية الأراضى اليونانية - اللاتينية بأوروبا لم يتوانوا فى التعامل مع يونانى نيقية^(٨) ولا مع السلاجقة الذين استولوا على ميناء انطاليا الواقع على شواطئهم الجنوبية من يد مغامر من البيازنة^(٩). ووصلوا، عبر قبرص إلى المملكة الأرمينية الناشئة بقليلية. وهكذا نعود إلى الشرق اللاتينى والشرق الأدنى المسلم.

(*) الراجوزيون : نسبة إلى مدينة «راجوز» الواقعة فى جزيرة صقلية (المترجم).

(**) الانكونيون : نسبة إلى ميناء انكون الإيطالى الواقع على البحر الألبانيكى (المترجم).

لقد كان في شأن تجمع الفرنجة على الساحل لاسيما في عكا أن جعل من هذا الميدان سوقاً تجارية مهمة. وليس من قبيل المصادفة أن تبتكر آنذاك التعريفة الجمركية التي حفظتها لنا «قوانين ملتقيات البورجوازيين» والتي سنعود للحديث عنها. في حين صار لمقاطعة حلب المسلمة منذ تلك الفترة منفذ على البحر بواسطة الميناء الجيد للاذقية. ومنح الإيطاليون أنفسهم الحق في ممارسة التجارة بداخله مع الحصول على امتياز على الموانئ الفرنجية التي كانت القوافل الداخلية تصل إليه دون أن تعبر الحدود، وكما حدث في الإمبراطورية البيزنطية السابقة فقد تغلغل الإيطاليون أنفسهم آنذاك حتى العواصم الداخلية كحلب ودمشق (وقد شوهد بها الفلورنسيون)^(١٠) وقونية بآسيا الصغرى حيث نجد شخصين من مدينة جنوة والبندقية قادمين من الشرق اللاتيني يتقاسمان احتكار تصدير أحجار الشب^(١١).

ولا تقل هذه الوقائع من أهمية موانئ الشرق اللاتيني^(١٢). ومع تكرار حدوث الحملات الصليبية اضطرب بعض التجار إلى البحث عن ملاجئ آمنة في البلاد المسيحية، ولو أن بعض الإيطاليين كانوا يشاركون بها من أجل الارتزاق، وحتى في فترة السلم كان من الأفضل بشكل عام بالنسبة لتجار السفن الذين يقومون برحلة ثلاثية إلى الغرب وسوريا ومصر أن يتبعوا هذا الترتيب بدل أن يمروا في البداية عبر مصر حيث قد تحتجز منهم البضائع الموجهة إلى الفرنجة، ومنذ الحملة الصليبية الثالثة صارت لهم في عكا وصور أراضٍ صغيرة حقيقية ومستقلة، لم يكن باستطاعتهم أن يجدوا مثيلاً لها في مصر حتى عندما كانت الإجراءات مناسبة لهم، غير أن هذا الأمر كان يعزز بالطبع التنافس بين المدن مما كدر صفو الشرق اللاتيني^(١٣). وتلاحقت في الحرب المسماة سان سابا (١٢٥٥ - ١٢٥٩) جملة من الأحداث جعلت البنادقة الذين طردوا من صور يستقرون في عكا حيث قاموا بطرد الجنوية.

لا نتبين جيداً إذا كان اختراع البوصلة قد عجل بتغيير أوضاع الملاحة، ربما لن نتمكن أبداً من حسم النقاش في مسألة أصل البوصلة فزيادة حركة الملاحة كانت بالتأكيد باعثاً على تحسين استخدام الإبرة المغنطة التي كانت معروفة لدى الصينيين، ويبدو أن أول شهادة مدققة في هذا الشأن ترجع إلى مؤلف مسلم قبجاكي^(١٤) وفيها يشير إلى سفينة فرنجية بطرابلس حوالي ١٢٤٠.

لقد حفظنا فيما يتعلق بعكا على قائمة (مكونة من جزأين) لتعريفات جمركية يعود بعض موادها إلى القرن الثاني عشر لكنها في مجملها كانت تعكس الوضع السائد في النصف الأول

من القرن الثالث عشر^(١٥)، بعد أن أضيفت إليها بلاشك إضافات متتالية وفقاً للظروف والحاجات. وما يميز هذه القائمة أنه لم تدرج بها أية بضائع مستوردة من أوروبا، ولا حتى تلك التي نعلم علم اليقين أنها كانت تصل بكميات وفيرة. لاشك أن هذا الغياب يرجع إلى أن البضائع التي نتحدث عنها كانت في الغالب الأعم تستورد من الأحياء الإيطالية معفاة من الرسوم^(١٦)، وثمة تلميح واضح إلى بعض البضائع التي تم جلبها عبر البحر (المثال الوحيد الذي يظهر بوضوح هو قسم من السكر) أساساً من مصر ومختلف «التوابل» الشرقية التي لم يحدد مصدرها، وهي ربما جلبت من داخل سوريا أو مصر عبر القوافل البرية أو بحراً عبر مصر كذلك، وعلى وجه الإجمال يكاد الأمر يتعلق هنا بالتجارة البرية والمحلية، وكانت بقية المنتجات الأخرى بكاملها صادرة إما من الأراضي الفرنجية ذاتها أو من بلد وثنى يقصد به هنا بالخصوص سوريا المسلمة القربية، وكان قسم مهم منها يتكون من بعض البضائع الصغيرة المخصصة للاستهلاك المحلي والتي لم تكن لتستثير كثيراً من الاهتمام من قبل التجار الإيطاليين، على أن من شأن التوابل وبعض البضائع الأخرى كالسكر والكتان والقطن والحرير والشب أن تثير عنايتهم ولو أنهم وجدوا بضائع مماثلة لها في أماكن أخرى. كما أنه ليس يوسعنا أن نعرف إلى أي حد كانت البضائع التي تدخل سوق عكا فائضة عن الاستهلاك أو إعادة التصدير المحلي.

لقد قلنا إن المستوطنات التجارية بالشرق اللاتيني تكاد تكون بولاً صغيرة مستقلة، وبالأحرى أن يكون الأمر كذلك إن لم يكن أكثر بالنسبة لبلداقة الإمبراطورية اللاتينية. وكان الوضع مختلفاً في الدول الإسلامية غير أن التطور سار في الإتجاه نفسه، فكان لكل مدينة إيطالية فندق أخذت تديره بنفسها منذ تلك الفترة، كما تهتم بعمليات التفريغ والتخزين وغيرها من العمليات التي كانت تنهض بها سلطات البلد في القرن الماضي، وصار بعد ذلك لكل مستوطنة قنصلها أو قناصلها الذين يهتمون بمصالح التجار وليس الوكيل، وإذا كانت عمليات تجديد الامتيازات قد أصبحت متباعدة فلأنه لم تعد هناك إضافات أو تغييرات. ولما نجد في موانئ الفرنجة ولا حتى في دمشق أو حلب تجاراً قادمين من البروفانس الشرقي البعيد، لكن كثيراً منهم كانوا يأتون من المناطق الواقعة خلف سواحل بلاد ما بين النهرين.

وسيكون لمدينة حران ومدينة الموصل فيما يبدو شأن خاص في هذا الصدد، فالموصليون الذين لا نجد لهم أثراً بهذا الوصف في النصوص العربية يظهرون في المقابل كفة طائفية أو مهنية في النصوص الفرنجية للقرن الثالث عشر^(١٧)، وبما أن طائفتهم الدينية (التي

تمثل الفرع الشرقي للمونوفيزية) لم تكن ممثلة في الجماعات المحلية بسوريا، فقد كانوا بلاشك قادمين من بلاد ما بين النهرين للتجارة مثل الشخص الذي كلفه^(١٨) ابن الاثير باستثمار قسماً من أمواله، وربما كان بينهم أيضاً بعض هؤلاء الحرفيين ممن اشتهروا بصناعة النحاس والذي يعود إليهم الفضل، على سبيل المثال، في بناء الحوض الكبير المسمى حوض تعميد سان لويس الموجود بمتحف اللوفر (وربما تم اقتناؤه من مكان آخر).

أما بالنسبة لمدينة حران الواقعة في وسط المنعطف الكبير بالجانب الغربي لنهر الفرات، والتي هي محطة كبرى على الطريق المؤدى من الموصل إلى حلب فقد كانت في السابق مركزاً للنحلة الأصلية للصابئة^(*)، غير أن هذه المدينة كان قد دخلها الإسلام منذ ثلاثة قرون، ومنها تنحدر أسرة الإمام الكبير ابن تيمية التي استقرت في مصر، وذلك قبل أن يخرب المغول هذه المدينة بفترة قصيرة، بيد أن مدينة حران فيما يبدو كان لها آنذاك دور تجاري على وجه الخصوص وذلك بالنظر إلى عدد التجار الحرانيين الذين كانوا موجودون في بغداد وسوريا، بل وحتى في عدن والصين، فمؤرخ المدينة حماد بن هبة الله أبو الثناء كان قد مارس التجارة من خراسان إلى مصر^(١٩).

وكان حرفيو الفن في نقوشهم على المواد النحاسية يشركون شخصيات إسلامية مع غيرها من الشخصيات المقبولة بالنسبة للمسلمين، ولو أنها كانت مستوحاة من الكتب اليهودية والمسيحية المقدسة، وذلك إما لأن هؤلاء الحرفيين كانوا من المسيحيين (فقد ظل كثير من المسيحيين يقيم في أعالي بلاد ما بين النهرين) وإما لسبب بسيط هو إمكانية تصريف هذه المواد للزبائن من مختلف الطوائف على السواء بما فيهم الفرنجة^(٢٠).

إن أهمية مدينة الموصل وقد كانت مركزاً ثقافياً (موطن المؤرخ ابن الاثير، إلخ) وصناعياً وتجارياً ترجع في جزء منها إلى وجود سلالة حاكمة مستقلة، كما ترجع كذلك بالتأكيد إلى تحول الطرق التي لم تكن تجتذبها بغداد^(٢١) كثيراً إلى الشمال في عهد الأتراك (ومن بعدهم المغول بفترة قصيرة) المتجمعين في الشمال الغربي لإيران.

وشهدت نهاية القرن الثاني عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر تحولات عميقة في السوق النقدي، والحق أنها تحولات لازال فهمنا لها قاصراً. ففي نهاية الحكم الفاطمي

(*) الصابئة : أتباع نحلة تؤله الكواكب. كان مقرهم في حران، ما بين النهرين، خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون، وزعموا أنهم المعنيون باسم الصابئة الوارد في القرآن... المنجد في اللغة والأعلام - (المترجم).

غالباً ما كان الذهب يختفى اختفاءً شبه تام من مصر، وذلك راجع إلى جملة من الأسباب ربما كانت النفقات العسكرية إحداها، وكانت للفضة في عهد صلاح الدين مهمة رئيسية في الحياة اليومية للبلد، غير أنه سعى إلى استبدال «الورق» الفاطمي بدرهم جديد أقرب إلى النظام النقدي السوري، لكن ظهر عدم ملائمة، للأوضاع المصرية، وقد جرى العمل بالعمليتين معاً جنباً إلى جنب.

وقد حافظ الذهب، في آسيا الأيوبية، على مكانة كبيرة وربما تم تصحيح وضعه إلى حد ما في مصر ذاتها في عهد العادل والكمال. فهذا الأمير الأخير كان صاحب إصلاح نقدي أضفى عليه لاحقاً المؤرخ المقرئزي^(٢٢) نوعاً من الشهرة وكان مناسبة لتأليف رسالة صغيرة قيمة من طرف ابن بكرة، على أن دلالة هذا الإصلاح ليست أقل إثارة للجدل إذ يبدو أن الأمر لا يتعلق بإصلاح للنظام النقدي بقدر ما يتعلق بتغيير بسيط بشكل الدينار. أضف إلى ذلك أنه في هذه الفترة تم تداول عدة أنواع من العملات الذهبية بصورة يغلب عليها طابع التنافس في الشرق الأدنى^(٢٣)، وكان لها سعرها الصرفي شبه الرسمي ومن بينها العملة الفرنجية المسماة بالصوري^(٢٤) (نسبة لمدينة صور التي كانت تسك بها في العصور التي سبقت الحملة الصليبية^(٢٥)).

في هذه الفترة نفسها ظهرت الفضة من جديد في بغداد كما رأينا ذلك، ولاشك أنها أستاذت انتشارها في كل الشرق الأدنى^(٢٦). ويشير الطرابلسي^(٢٧) حوالى عام ١٢٤٠ - وكان معاصراً للأحداث - إلى انهيار سك الذهب في مصر انهياراً رأسياً بدون أن نعرف سبب ذلك. وبعد اثنتي عشر سنة باشرت جنوة وقلورنسا أول عملية سك للذهب عرفها الغرب منذ خمسة قرون (باستثناء جنوب إيطاليا حيث واصل «الأوغسطيني» لفريدريك الثاني التقليد النورماندي مع تعريف جديد له). وقد ظهر أن هذه العملية كانت تامة وسرعان ما قامت البندقية والممالك الأوروبية^(٢٨) بعملية مماثلة وحتى الفضة آلت إلى الزوال في الشرق غير المغولي مما ألزم دولة الممالك بالتوجه نحو العملات النحاسية. إننا لا نتبين الأوضاع التي أدت إلى هذا التحول إلا أننا نعلم أن مناجم التبر في أعالي مصر كانت تستنفذ مخزونها أو على الأقل كانت تكاليف استغلالها آنذاك تفوق عائداتها، لكن إذا كان هذا السبب يمكن أن يفسر انخفاض الذهب في الشرق فإنه لا يفسر توافره في الغرب. وهناك أمثلة مشهورة تظهر أن الذهب لا يظل بالضرورة في متناول من استخرجه في الأصل، وقد تم استغلال مناجم التبر بأوروبا بعد أن ظلت مهمة حتى ذلك الوقت، ومعنى ذلك أن العبرة بالسوق الدولي أولاً. وإذا

تزايدت حاجات الأوروبيين فقد تداولوا عملات فضية كبيرة الحجم لتسهيل عمليات الدفع غير أنه قد تبين نقص هذه العملات ذاتها. ومع أن عملاتهم الذهبية الجديدة قد عمت بلاد الشرق في القرن التالي فلم يحدث قط ضياع للذهب في أوروبا، ولا يمكننا تقدير المكانة التي كان يحتلها آنذاك الذهب بالسودان، فعلى الصعيد المحلي كانت العملات الأوروبية الجديدة تعنى أنه صار ممكناً آنذاك الاستغناء عن العملات المستخدمة بمدينة عكا، أضف إلى ذلك أن هذه المدينة سرعان ما لحقها الانهول قبل أن تسقط آخر المدن اللاتينية. وعلى الصعيد العام فإننا نعود إلى المشكلة التي أثرت من قبل حول التوازن في تجارة الشرق، ويبدو من المتعذر علينا الاعتقاد بوجود عجز في الميزان التجاري بالغرب^(٢٨). في الإطار العام الذي حددنا بعض ملامحه.

الفصل السابع عشر

الفترة المغولية

إن الفترة المغولية، في الواقع هي بمثابة فترة تكميلية تقريباً، ولا يمكن أن نعطي عنها هنا إلا بعض الملامح الأولية، بوصفها نتيجة لما قلناه سابقاً وبدون أن يكون هناك مجال بأية حال من الأحوال لاعتبار عام ١٢٩١، وهو تاريخ سقوط آخر مدينة فرنجية في سوريا بوصفه تاريخاً يسجل نوعاً من القطيعة حتى بالنسبة للفرنجة حيث أنهم سيظلون في قبرص لمدة ثلاثة قرون أخرى.

ويعتبر تشكيل الإمبراطورية المغولية، وهو من الأحداث الأكثر إثارة في التاريخ، أمراً غريباً في أصله عن الشرق الأدنى والشرق الأوسط، فليس لدينا هنا ما يمكن أن نقوله، وحسبنا أن نذكر أن ظهورهم في صورة كائنات مرعبة يرجع بالذات إلى كون هؤلاء الرجال نوى المظاهر والأسماء المحيرة (بقدر أكبر مما كان عليه الأمر مع الأتراك) كانوا عبارة على أناس مجهولين قدموا «من خلف سور ياجوج وماجوج»، وقد عرفوا كيف يمثلون هذه الصورة المرعبة بمهارة لزيادة فرص نجاحهم المادي^(١) عن طريق التأثير النفسي^(٢)، أفلا يروى أن أحد صغار الأمراء اكتفى بإلباس عساكره زى المغول ليضمن لنفسه الانتصار على خصمه^(٣)؟ ومهما يكن من أمر فقد دمروا الدولة الخوارزمية واجتاجوا آسيا الوسطى^(٤) في عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وخلال العقود الأربعة التالية احتلوا من جهة إيران وحتى آسيا الصغرى ذاتها عام ١٢٤٣، كما احتلوا في الوقت نفسه روسيا وصولاً إلى سيليزيا^(٥) (عام ١٢٤٢) والصين، وقاموا في أولى هذه البلدان بتدمير السلطة الرهيبة للحشاشين بقلعة الموت، وفي عام ١٢٥٨ وضعوا حداً لخمسمائة عام من الخلافة ببغداد، وفي عام ١٢٦٠ قاموا بغزو سوريا ذاتها ووصلوا إلى الحدود المصرية، وتكمن أسباب هذه الانتصارات - وهي واحدة من أعظم ما سجله التاريخ - في الرعب الذي كان يثيرونه في النفوس من جهة كما يرجع كذلك إلى انضباطهم المشهود، ومهارتهم في استخدام كل مصادر التجارة والاختلافات بين النحل والطوائف الدينية للقيام بالتجسس وتشتيت العدو، والجمع بين القسوة المرعبة تجاه المعارضين (رغم ما يجب من حيطة إزاء الأرقام فقد كانوا أكبر السفاحين في التاريخ الوسيط) وبين الوعود والضمانات تجاه المتحالفين والمستسلمين، كما ترجع هذه الانتصارات أخيراً إلى نوع من الفن في إدارة الأنظمة الناشئة عن غزواتهم وفقاً لما تبقى لهم من إمكانيات.

وقد ضم أولئك الذين أطلق عليهم حقاً اسم المغول - وقد كانوا بمثابة الأداة والمركز

(٥) سيليزيا : منطقة في أواسط أوروبا تتقاسمها تشيكوسلوفاكيا وبولونيا. المنجد في اللغة والأعلام - المترجم.

المنظم - عددًا من السكان الذين اجتذبوهم إليهم وأغلبهم من أصل تركي، وقد تعرضوا في الوقت نفسه لتأثير مختلف الدعوات الدينية وكانوا يحترسون من شدة الارتباط بإحداها على حساب البقية. وإلى جانب البوذية واصلت عندهم المسيحية النسطورية المسيرة التي بدأتها قبل سبعة قرون في آسيا الوسطى وتابعتها لدى الأتراك غير المسلمين، لذلك شهدت الآمال شبه القيامية التي تفصح عنها أسطورة الكاهن يوحنا^(٦) في القرن الثاني عشر ازدهاراً جديداً حتى بين السكان المسيحيين بالشرق الأدنى وكان ذلك لصالح المغول آنئذ، فحتى طابع هذه الآمال كان يساعد على التخيل بأنها مؤذنة بالقضاء القريب على الإسلام مع نهاية العالم، وزهاء أكثر من نصف قرن أُديرَت بلدان إسلامية قديمة من قبل القادة الذين لم يكونوا يضطهدون المسلمين بالتأكيد غير أنه نظراً لمساواتهم بين كل الطوائف فقد انتزعوا منهم بعض الامتيازات، وكانوا يعتمدون سياسياً على من كانوا يشكون من الأنظمة السابقة مع إحياء الأمل في قلوب المسيحيين والشيعة، وقد بدأت نتائج ذلك حتى سواحل البحر المتوسط. وبينما كان الرعب يبدد النداءات المتفرقة للجهاد في الوسط الإسلامي ضد المغول، فإن بعض الأوساط المسيحية ولا سيما الأرمن بقليلية وكذلك المسيحيين الدمشقيين^(٧)، قد اعتبروا أنفسهم بمثابة الإدلاء^(٨) بالنسبة للحكام الجدد للحصول على بعض المكاسب^(٩)، وحتى الفرنجة أنفسهم ولاسيما فرنجة أنطاكية المرتبطين بالأرمن - كانوا يتبعونهم في ذلك وهو ما سيؤدي كلاهما ثمنه باهظاً بعد فترة قصيرة، والحق أن بعضهم الآخر لم يتمكن من التغلب على الذعر والاضطراب الذي أحدثه أولئك الذين ظهروا في منتهى الوحشية والعداء لكل حضارة في مواجهة عالم كان فيه المسيحيون والمسلمون يمثلون فرعين لحضارة واحدة كان لديهم إحساس غامض بالانتماء إليها على السواء، رغم ما كان بينهم من عداوة. وكان الابتعاد الجغرافي لمصر عاملاً مساعداً لها لتنظيم المقاومة التي قام فيها هؤلاء الممالك ببعث الأمل في نفوس المسلمين، ولعل كونهم كانوا أتراكاً من روسيا الجنوبية جعلهم أقل ذعراً من العرب - الإيرانيين.

(*) يوضح كلود كاهن هذا المعنى بصيغة أخرى في كتابه «تاريخ العرب والشعوب الإسلامية» إذ يقول : «والحق أن نفراً من نصارى المشرق قد تمرغوا على أقدام المغول وتبرعوا لكي يكونوا لهم أدلاء ومرشدين... ولم يغفر المسلمون خارج الدول المغولية لأولئك الذين تأمروا - بوصفهم جيراناً أم عملاء - مع الشعب المغولي الذي هدد الإسلام بالزوال والحضارة معه. وبدلاً من التعايش السلمي الذي استقر بينهم وبين فرنجة سوريا عزم المسلمون عزمًا أكيداً على إلقائهم في البحر أما حلفائهم الأرمن من قيليقية الذين لا ملاذ لهم فقد أبيدوا على مر الزمن. وحامت الشبهات حول النصارى من أهالي البلاد وانحط شأنهم منذ ذلك الحين، كما انحط شأن اليهود أحياناً لأسباب أخرى...» ص ٢٦٢ من الترجمة العربية للكتاب التي أعدها د. بدر الدين القاسم - دار الحقيقة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧ - المترجم -

وفى عام ١٢٦٠ سحقوا الجيش المغولى الصغير الذى جازف بنفسه فى فلسطين، وهو انتصار عسكرى محدود القيمة بالنظر إلى التفاوت فى عدد المشاركين بيد أنه كان عظيم الشأن من الناحية المعنوية فتتبعوها إلى إمكانية التغلب على المغول، أو على الأقل الصمود فى وجههم، فى الواقع لم يتم اختفاؤهم لكن تم استعادة سوريا وإنشاء الحدود لمدة طويلة وسط أعالي ما بين النهرين والصحراء التى كانت تحميها، كما تسارع انهيار العراق وقطيعة مع إيران من جهة ومعظم العالم العربى من جهة أخرى، وهو تطور كان قد بدأ فى عهد السلاجقة، وصار الانحطاط والقطيعة أمراً مبرماً، ومنذ ذلك الحين لم تعد بغداد مركز الحضارة العربية الإسلامية، وإنما القاهرة وبغداد، واختفت معرفة اللغة العربية فى إيران، وتمكنت اللغة الفارسية وهى لغة الثقافة الإيرانية التى يحكمها المغول من الانتشار التام فى آسيا الصغرى التركية.

وعلى الصعيد السياسى آل التوسع المغولى إلى تأسيس أربع دول، وهى دولة آسيا الوسطى (بقيادة جغتاي^(*)) التى بدت ضعيفة، وكانت دول الصين وإيران (مع العراق والحماية على آسيا الصغرى) والقبيلة الذهبية^(**) أو الأوردو^(١) (وهى روسيا الجنوبية مع الحماية على الإمارات السلافية) أقوى منها، وقد قامت هاتان الأخيرتان بمواجهة بعضها بعضاً دون أن يؤدى ذلك إلى حد تدمير ذاتهما، واستمرت دولة إيران (الإيلخانيون) حتى حوالى عام ١٢٢٥ لكنها خلفت عدة توابع مثل القبيلة الذهبية التى لم تندثر إلا مع بداية القرن السادس عشر بعد فترة طويلة من الضعف، وحافظ البيزنطيون بشكل عام على علاقات طيبة مع مغول إيران حتى يتمكنوا من مقاومة أفضل للتركان بالمناطق الحدودية (لكن بلا جدوى) والقبيلة الذهبية المتحالفة مع الممالك الذين كانوا يقومون بتجنيد جيشهم داخل أراضيها، وكانت المساهمة العرقية واللغوية ضعيفة بالإجمال، وكانت التركية لغة كامل الشعوب الموجودة

(*) جغتاي خان : أمير مغولى (١٢٢٧ - ١٢٤٢) تانى أبناء جنكيز خان. اشترك فى الحرب مع أبيه ضد الصين ومملكة خوارزمشاه وقد سميت دولة جغتاي باسمه وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على اللهجة التركية المستخدمة فى هذه المنطقة. (المترجم)

(**) القبيلة الذهبية : فرع من المغول اتجه إلى روسيا وبلغاريا وأسس إمبراطورية استمرت حتى أوائل القرن العاشر الهجرى/ بدايات القرن السادس عشر الميلادى، وقد أسس هذه الإمبراطورية باتوخان حفيد جنكيز خان على نهر الفولجا عام ١٢٤٢ وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوبى روسيا، وكانت عاصمتها صارى، واشتهرت بفظائعها فى الحروب وسميت بالذهبية نسبة لسرايق ملوكها الذهبى (المترجم).

فى روسيا والتى كانت تسمى بالتتار(*)، وهو الاسم المرادف للمغول فى القرون الوسطى، وعلى الصعيد الدينى لم تدم فترة التعدد الطائفى، لأن المغول اعتنقوا الإسلام الذى كان دين الأغلبية لدى رعاياهم الحضريين والرحل، واكتفوا بإقامة التوازن بين الشيعة والسنة، وانحسرت المسيحية عن بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى، ولم يكن ذلك من جراء الاضطهاد، وإنما بسبب انهيار الجماعات الزراعية التى كانت المسيحية حتى ذاك الوقت الدين السائد بها.

وكان هذا فى الواقع واحداً من أسوأ الآثار الناجمة عن الغزو المغولى، وأقلها إثارة للجدل، وعلى نقيض الرحل السابقين فقد قام هؤلاء بمهاجمة الفلاحين^(١٠)، ولو لم يصدر ذلك ربما عن خلفية مذهبية، حيث لم تكن مساكنهم العتيقة قد عودتهم على الجمع بين الاقتصاد الزراعى والرعى المألوف فى الشرق الأدنى.

كيف صار الشرق الأدنى، الإسلامى والفرنجى والأرمنى فى كل هذه الأحوال ؟ لم يكن الممالك يعيشون إلا بواسطة الحرب ومن أجل الحرب، واستطاع الأيوبيون أن يتركوا بعض الجزر الفرنجية، وهى ذات خطورة أقل، فى العيش بسلام، لكن التجربة أثبتت أنذاك أن حضورها، الذى كان غالباً ما يصحبه تواطؤ مع المغول، شكل خطراً كبيراً، وأن هذا التواطؤ لا يمكن أن يفتقر. وبناء عليه كان النشاط الخارجى للنظام الجديد موجهاً بالأساس نحو تصفية عنيفة لآخر القلاع والمدن الفرنجية، وربما سلمت بعض الموانئ لفترة مؤقتة مراعاة للمصلحة التجارية. وبعيداً عن الفرنجة كان الممالك قد هاجموا من قبل أرمن قيليقية وكانوا يحيكون الدسائس مع العناصر المعادية للمغول بآسيا الصغرى^(١١).

لقد قلنا سابقاً أن العالم المسيحى قد اعتقد للحظة أنه بإمكان الاستفادة من المغول لتطوير العالم الإسلامى من الخلف، ومن هنا تم إرسال المبشرين الفرنسيسكان والدومينكان الذين ندين لهم بروايات قيمة جداً عن رحلاتهم غير أنهم لم يحققوا أية نتيجة، وكان سوء الفهم بين هذه المجتمعات الشديدة الاختلاف أمراً لا مفر منه، وحتى فى الجانب المسيحى كان رأى أبعد ما يكون عن الاجماع، وكان الإيلخانيون وقد صاروا أقل ثقة بقوتهم ينشدون التفكير فى مشروعات مؤلفة من التدخل العسكرى الغربى والهجوم المغولى فى سوريا التى لم يكن الشرق

(*) اختلفت آراء المؤرخين فيما يتعلق بأصل كل من المغول والتتار، والفرق بين اللفظين، والتطورات التى داخلت كلا منهما. ويكاد يجمع الباحثون على أن المغول قد تسلطوا على البلاد قبل التتار لكن عندما دخل التتار وأصبحت لهم اليد الطولى فى الفتوحات التالية تسلطوا بدورهم على المغول واشتهروا بونهم. انظر دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. جوزيف نسيم يوسف ص ١٢٩. (المترجم)

اللاتيني يؤدي أية وظيفة بداخلها، وقد حال الحذر - بل حتى بعد المسافة - دون تضافر هذه الجهود، فقد بقى المغول بمعزل عن الدولة المملوكية ولم يخدموا الفرنجة الأرمن في شيء. ويبدو أن بعض المؤرخين المحدثين كان لديهم الشعور بالندم إزاء أوروبا المسيحية التي لم تعرف كيف تنتهز هذه الفرصة التي أتاحت لها بشكل أفضل وقد صدروا في ذلك عن حنين مغلوط تاريخياً، إذ أن هذا الشعور يغفل ما كان يديه المغول من قسوة تجاه المسيحيين عقب اعتناقهم الإسلام، ومن ذا الذي كان يجرؤ على الاستتجاد بهؤلاء المريخيين(*) مهما كانت الإغاثة المطلوبة ؟ .

على صعيد اقليمي هام توافق ظهور المغول في الشرق الأدنى، مع استعادة اليونانيين للقسطنطينية. وهي استعادة كان لها نتائج محدودة بحيث لم تستبعا أية إعادة لتشكل أراضي الإمبراطورية البيزنطية لما قبل عام ١٢٠٤، وكانت هذه النتائج محدودة أيضاً لأنها قد تمت بمشاركة الجنوبية، فكون هؤلاء قد سمحوا بعد فترة قليلة للبنادقة بالعودة إلى البحر الأسود لم يحل دون قيام الإيطاليين بإبعاد متزايد لليونانيين من الميدان التجاري الذي أخذت أهميته تتعاضد كما سنرى ذلك، وفضلاً عن ذلك فإن البابوية المتشددة قامت بمطاردة خلفاء فريديريك الثاني بإيطاليا وسلمت إرث مملكة صقلية وإيطاليا الجنوبية إلى شارل الأنجي شقيق لويس التاسع(١٢). لم يكن لازماً علينا التحدث عن هذا الأمر هنا لو لم يستأنف شارل الأهداف المعادية لبيزنطة التي كانت لأسلافه ويجاهر بالثأر لللاتين المبعدين، وفي الوقت نفسه حملته الفوضى القائمة داخل الأسرة الحاكمة في قبرص وعكا على استئناف الأطماع القديمة للإمبراطور في الشرق اللاتيني لحسابه الخاص، وقد حول خصومه أبصارهم نحو ملك أرجونه - كاتالونيا وكان يملك أسطولاً ذا مهام حربية وتجارية وقرصنية في آن معاً وقد شهد نمواً حديثاً في شرق البحر المتوسط، وانتهى الصراع في عام ١٢٨٥ إلى مذبحه الفرنسيين المعروفة باسم الصلوات المسائية(*) الصقلية التي حصرت وجود الإنجليز بإيطاليا الجنوبية بدون جزيرة صقلية، وبذلك قضت على أطماعهم الشرقية كما بددت في الوقت نفسه الأمل فيما

(*) ربما كان المقصود من تشبيه المغول بالمريخيين بأنه لا يمكن التعامل معهم لإمكاناتهم المخيفة وكثرتهم جاوا من كوكب آخر (المترجم).

(*) الصلوات المسائية الصقلية : عرفت هذه المذبحة التي تعرضت لها الحامية الفرنسية في صقلية بهذا الاسم لأنها اندلعت في عيد الفصح عام ١٢٨٢ - خلافاً للتاريخ الذي يذكره كلود كامن وهو ١٢٨٥ - وبمجرد أن دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء. ويشروق الشمس كان كل الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم وانتشر التمرد الذي عرف باسم صلوات المساء الصقلية في سائر أنحاء الجزيرة، ويقول نورمان ف كانتور عن هذا الحدث إن العبقرية التأميرية لأهل صقلية قد تجلت للمرة الأولى في =

يمكن أن يفكر فيه فرنجة عكا من مساعدات، ولم يكن ثمة ما يدعو الممالك في هذا الصدد للمفاضلة بين أحد هذين الأمرين فاكتفوا بشكل عام بالاستفادة من المساومات مع من تعاقب من الذين يَسْتَجِدُونَ تحالفهم دون أدنى اهتمام بما تبقى في الشرق اللاتيني^(١٣). ويمكن القول إنه لم يعد لهذا الشرق وجود قائم بذاته باستثناء جزيرة قبرص، وذلك نظراً لتأرجحه في سياق الرهانات الكبرى، ولولا الذكريات العالقة بهذا الشرق لأوشكنا أن نقول إن زواله كان زوالاً لما تبقى منه من مظاهر لا غير.

والأهم بالنسبة إلينا هو وقع هذه الأحداث على العلاقات التجارية والثقافية، وغيرها بين الشرق والغرب. ومن وجهة النظر الدينية، فإن التسامح المغولي قد سهل تغلغل المبشرين في أعقاب التجار وتنظيم الأساقفة في البلاد التي احتلها الكفار لعدة عقود (بل وستوجد أسقفية في أقصى العالم المغولي بيكين^(١٤)). وقد نتج عن ذلك لبعض الوقت اتصال أفضل مع الطوائف المسيحية الشرقية، بل وتقدير أفضل للإسلام^(١٥). لكن لا ينبغي أن نغالي في هذا الشأن، فالنصوص الشرقية لا تحدثنا عن شيء من ذلك، فضلاً عن أن كل ذلك سينهار مع الانهيار الذي أصاب الدولة الأيلخانية في الثلث الأول من القرن الرابع عشر، وفيما يتعلق بالتجارة فإن الرأي الشائع هو أن السلام المغولي في الفترة المحدودة التي وجد فيها، كان العصر الذهبي للعلاقات القائمة بين أوروبا وآسيا، ومن وجهة النظر الأوروبية فإن هذا الرأي قد تعزز من خلال وجود الرحلة الفذة التي خلفها الرحالة البندقي ماركو بولو، وذلك خلافاً لما عهدناه من صمت لدى التجار، وكون أن الأوروبيين استطاعوا أن يندمجوا آنذاك بالقوافل الآسيوية فهذا بالطبع أمر رئيسي بالنسبة لتوسيع آفاق الغرب. لكن لا ينبغي أن نستخلص منه نتائج متعسفة^(١٦)، فلنذكر أولاً أن كل هذا لم يستمر بالكاد إلا لفترة لم تتجاوز نصف قرن، ثم إن تنوع الأصول العرقية للمشاركين لا يعنى ازدياداً في حجم التجارة التي ربما تكون بعض أرباحها، التي حصل عليها الإيطاليون قد سحبت ببساطة من أيدي الشرقيين، ومن جهة ثانية فإن ازدياد التجارة حتى ولو كان ازدياداً حقيقياً لا يعنى بالضرورة وجود رخاء اقتصادي. فربما كانت الأرستقراطية المغولية أو غيرها، والتي أغتنت من سلب الشعوب المقهورة، تلجأ للتجارة من أجل سد النقص الحاصل في اقتصادياتها الإقليمية، وأخيراً فإن تقدم بعض الطرق التجارية يمكن أن يتم على حساب طرق أخرى.

= عام ١٢٨٢ وإن كان من الواضح أن البيزنطيين كانت لهم الزعامة في إشعال نار التمرد وأن دورهم كان كبيراً في توجيه الكراهية المريرة التي كانت تضطرم في وجدان أهل صقلية.. انظر في ذلك - التاريخ الوسيط لنورمان ف. كانتور - القسم الثاني - ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم ص ٦٢٧ (المترجم).

وبالإجمال فإن المغول، سواء كانوا من بلاد أوراسيا (*) أو من إيران، والذين يقيمون بالخصوص في الشمال الغربي للبلد قد اهتموا بطبيعة الحال بالقوافل القارية أكثر من اهتمامهم بالتجارة البحرية، وصحيح أن الأيلخانيين فكروا في فترة ما، وبمساعدة بعض الإيطاليين على تطوير الأسطول البحرى بالخليج الفارسى ربما لقلب أوضاع الممالك وحلفائهم اليمنيين، وفشلت المحاولة لكن لابد أن يكون التجار الجنوبية قد ذهبوا إلى الهند حيث تم العثور على بعض الآثار التى تدل على ذلك ومن المؤكد أنهم لم يعبروا عبر مصر^(١٨). وقد مد مغول الصين نشاطاتهم البحرية نحو الشرق الأدنى، بل وحتى إفريقيا الشرقية، لكن من المرجح أن ذلك قد تم من غير أن تكون لهم نية معادية للممالك أو أن يلحق ذلك ضرراً بتجار الكارم أو بغيرهم من التجار المسلمين^(١٩) (من هذا الجانب لم يكن الأمر يتعلق بالمسيحيين ولا باليهود). وبالإجمال كان هناك نوعان مهمان من المسارات بعضها بحرئ يؤصل إلى مصر، وآخر برئ يؤصل إلى موانئ البحر الأسود والشرق غير العربى للبحر المتوسط، وكانت البضائع بطبيعة الحال تختلف تبعاً لذلك.

وفى الواقع حدث تغير فى الطرق مرة أخرى، فطرق البحر الأسود كانت تبتدى من طرابزون فى الجنوب الشرقى، وكافا وبصورة ثانوية، تانا بالقرم وبحر أزوف، وثمة طريق آخر يعبر الأناضول الشرقى ويميل نحو قيليقية الأرمينية وهى مَقْطَعَةٌ للمغول حيث منح ميناء «أياس» الجديد للإيطاليين آنذاك مرفأ أكثر أماناً من الموانئ السورية^(٢٠). ومن جهة أخرى كانت هناك تجارة مكثفة بين روسيا الجنوبية ومصر لتزويد هذه الأخيرة بالعبيد، وكان هؤلاء العبيد يشكلون حقاً نواة جيش الممالك الذى كان يحارب فرجة سوريا بما فيهم الجنوبية، إذ كان هؤلاء هم الذين يستأثرون آنذاك بالاحتكار شبه الكامل لهذه التجارة^(٢١). ولا نلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية التى كانت علاقاتها مع مغول الشمال أقل تحسناً مما كانت عليه مع مغول إيران وآسيا الصغرى^(٢٢)، قد حاولت أن تفعل شيئاً ضد السفن العابرة أو لعلها لم تستطع ذلك إذ أن المستوطنات الإيطالية بالقسطنطينية كانت على درجة كبيرة من القوة.

كما رأينا كان الجنوبية وغيرهم من الغربيين، كالبنادقة سابقاً والكتالونيون^(٢٣) فى تلك الفترة يعرفون كيف يؤمنون لأنفسهم المواقع الجيدة فى مختلف الدول ولو كانت دولاً متعادلة فيما بينها، وقد وقع الجنوبية معاهدة مع السلطان المملوكى قلاوون قبل بضعة أشهر من هجومه على عكا^(٢٤). ويمكن التساؤل فى غمرة الفوضى التى عمت المناطق الواقعة خلف

(*) أوراسيا : اسم أطلق قديماً ولا يزال على أقدم قارتين فى العالم أوروبا وآسيا باعتبار كونهما من الناحية الطبيعية قارة واحدة ولا تفصل بينهما البحار - المنجد فى اللغة والأعلام - المترجم.

السواحل عما إذا كانت الموانئ الفرنجية لاتزال صالحة للعمل مادام أن أيا من المسارات التجارية الكبرى لم يعد بوسعها أن تعبر سوريا ومادام أن للإيطاليين مواقع مؤمنة فى الموانئ الأكثر امتيازاً لهم، ولا بد من الاعتقاد بأن هذه الموانئ الفرنجية كانت تحتفظ بميزة أخرى غير توفير الملاجئ فى حالة الحرب (بيد أن جزيرة قبرص كانت أفضل) حيث نجد أن تجاراً مصريين كانوا يطالبون باستعادة ميناء ثانوى مثل ميناء اللاذقية^(٢٥) الذى أتاح الزحف المغولى للأنطاكيين احتلاله من جديد، بينما يتضح أنه عندما تم زوال الشرق اللاتينى من الشواطئ السورية لم تعد له أية أهمية حسب وجهة نظر التجار، وبدون أن يكون السبب الوحيد وراء سقوطه فإنه مع ذلك كان أحد هذه العوامل، وبرغم التحريمات الكنسية لم تشهد تجارة الشرق أى توقف^(٢٦).

ولا يسعنا هنا إلا التلميح إلى التحولات التى أحدثتها الغزو المغولى فى النظام النقدى فمفعولها لم يكن سارياً إلا فى القرن اللاحق وحسبنا أن نقول إن النظام المطبق فى المنطقة المغولية أصبح منذ تلك الفترة نظاماً مستقلاً بالمقارنة مع النظام السائد بالبحر المتوسط.

ولعل النشاط الثقافى قد شهد فى هذه الفترة أوج ازدهاره، لاسيما فى عكا وكان هذا النشاط ذا نمط غربى بكل تأكيد وهى مفارقة ظاهرة للعيان، والواقع أن الأبحاث الحديثة قد أتاحت العثور على عدد مهم من المخطوطات (مهما حامت الشكوك حول بعضها بشكل خاص) التى كتبت فى عكا وبعضها مزخرف وهى تثبت وجود دار نسخ حقيقية للمخطوطات^(٢٧).

وفيما يتعلق بالتجارة القائمة بمصر، فإن ما يشهد على أهميتها فى البحر الأحمر، وهى أهمية لا نستطيع قياسها إحصائياً، تكرار الإشارات المتزايدة لتنظيمات تجار الكارم الذين ظهروا فى القرن السابق كما رأينا^(٢٨). وسيكون من المجدى معرفة ما إذا كانت تجارة نقل البضائع الخاصة بالشرق الأقصى لم تبدأ فى المشاركة بها مشاركة سليمة بعض الشيء، وقد تعرضت العلاقات البرية مع بلاد ما بين النهرين للأخطار نظراً للحروب الجارية بين المماليك والمغول وما نتج عنها من تصحر جزئى^(٢٩).

ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر - التى كان يحكمها المماليك - القطب السياسى والثقافى بالشرق الأدنى العربى، ونجح بيبرس الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للنظام فى إقامة الخلافة بالقاهرة بعد أن دمرت فى بغداد ولاشك أنها كانت خلافة بدون سلطة بيد أنها أعطت المشروعية للسلطان المملوكى - على الأقل - فى أعين رعاياه وضمنت له هيبة ما (برغم محاولة

منافسة قام بها الحفصيون في تونس) وتوافد المهاجرون من كل البلدان إلى مصر وهو الأمر الذي عزز حركة الاندماج الثقافي التي كانت قد بدأت في ظل الأيوبيين، وكانت سوريا جزءاً من الدولة الجديدة التي أسدى لها المغول خدمة تمت بصورة غير إرادية وتتمثل في قضائها على صفار الأسر الحاكمة المستقلة وكان الوضع الحدودي يساعد أحياناً على التمرد لكن لن تحدث قط دسائس مع الفرنجة أو الأرمن، بل لقد حدث أن قام أحد صفار السادة الإقطاعيين الفرنجة بالتجسس للماليك.

وفي آسيا الصغرى دمر الغزو المغولي تدريجياً نظام السلاجقة لصالح التركمان الحدوديين، وسرعان ما تسبب هؤلاء في سقوط الامبراطورية البيزنطية، غير أن نشاطهم على الجبهة الجنوبية كان يتسم بالاعتدال حتى ضد قيليقية، فالضربة القاضية التي أتت على المملكة الأرمنية الصغيرة لم تصدر منهم، بل من الماليك في القرن الرابع عشر.

الخاتمة

خلال ثلاثة قرون أو أربعة تعايش المجتمع الغربى والشرقى الأدنى دون أن تتوثق علاقاتهما ببعض (باستثناء الوسيط البيزنطى)؛ فالمجتمع الذى ساد الإسلام اكتسب تجربة التعدد الطائفى التى كانت تنقص الطرف الآخر. وحوالى عام ألف للميلاد بدأ الفرنجة الجنوبيون فى توسيع علاقاتهم التجارية مع الشرق، لكن سرعان ما حدثت انطلاقة اجتماعية ودينية استنهضت أجزاء واسعة فى الغرب لمواجهة العالم الإسلامى بحرب مقدسة أخرى فى نفس الوقت الذى شهد فيه أرجاء العالم الإسلامى انبعاث روح الجهاد. لقد حدث ذلك عبر تزامن فجائى دون أن ينتج عن ذلك أى تعارف حقيقى بينهما. ومع اتساع هذه الحركة فإنها لم تلغ أياً من العناصر الأخرى السياسية والاقتصادية للحياة الغربية. لقد تعززت الاتصالات بين العالم المسيحى والإسلامى فيما بعد، غير أنها اتخذت أشكالاً مختلفة وفقاً للأماكن والأوقات، إذ أن الحملة الصليبية والشرق اللاتينى هما أحد عناصر هذه الاتصالات فلا ينبغى إنكارها أو المغالاة فيها.

لقد احتل العرب فى القرون الأولى للإسلام أراضى مشبعة بالثقافة القديمة فاستوعبوا عناصرها القابلة للنقل وهى ذاتها التى اقتبسها منهم الغرب لاحقاً^(١). ولقد قام الغرب بهذا الاقتباس داخل أسبانيا على وجه الخصوص، أى داخل بلد تعايشت فيه هاتان الثقافتان لبعض الوقت، وكان لقربها أثراً فى تسهيل ذلك. وفى المقابل تم الاتصال بين الشعوب الإسلامية وإسبانيا من خارج مركز العالم الإسلامى واستتبعته نتائج ضئيلة، فزيارات التجار الغربيين ومجاورة اللاتين الذين لم يكونوا يمثلون سوى عناصر غربية لم تكن كافية لحمل الشرقيين، مع رغبتهم فى ذلك، على البحث عما يمكن اقتباسه من هذا الغرب، بل لدينا الانطباع بأنهم قلما سعوا من أجل ذلك، وأنهم تمسكوا بفكرة أن أوروبا بلد «بربرى» لا يمكن أن يقتبس منه أى شئ وهى فكرة كانت صحيحة قبل بضعة قرون. ومن ثم لا نرى ماذا استطاع المسلمون فى العصور الوسطى أن يأخذوا من أوروبا، باستثناء الجانب العسكرى، ويبدو أن رد الفعل كان انطواء دفاعياً عن الذات^(٢).

هل خضع السكان السوريون - الفلسطينيون، على الصعيد الإقليمى، للتأثير الإيجابى أو السلبى للجيران اللاتين ؟ لا نملك إلا أن نمهد لذلك ببعض الإجابات.

ثمة ملاحظة تتم عن المفارقة - وإن كانت ملاحظة مؤكدة - وهى أن سوريا المسلمة التى قد نعتقد بأنها تأثرت بحالة الحرب المتكررة مع الفرنجة، عرفت على العكس تطوراً هائلاً أثناء هذه الفترة لاسيما فى القرن الثالث عشر، وهذه مفارقة يصعب علينا أن نفهم جيداً الأسباب الكامنة خلفها. لاشك أن الحرب المقدسة كانت تقود إلى التكفل بعدد مهم من القوات المسلحة وإن كان من الصعب علينا الظن بأن ذلك استتبع مثل هذه النتائج، وأكثر من ذلك علينا أن نسلم أن هذا الأمر لم يحل بون التطور المذكور الذى يعود إلى أسباب مختلفة، ولعل تكثيف التجارة مع الفرنجة كان له دخل فى هذا الشأن غير أن دمشق بوصفها سوقاً تجارياً لم تكن فى مستوى الأهمية التى كانت تكتسبها القاهرة أو الإسكندرية، منذ إعادة توجيه الطرق التجارية التى سبق الحديث عنها أعلاه^(٣). لذا لابد من النظر بعيداً فى العالم الإسلامى فبغداد كفت تدريجياً عن أن تكون الحاضرة الكبرى بالقرن الثالث أو الرابع الهجرى، وإذا كانت قد أبقت على هيئتها فإنه لم يعد لها دور إلا على الصعيد الإقليمى، ونسيت إيران اللغة العربية تحت تأثير الصحوة اللغوية الفارسية فى ارتباطها مع الغزو التركى، وقد بلغ هذا التطور ذروته ابتداءً من الهجمة المغولية. والسبب ذاته كذلك صارت بغداد بالنسبة للعالم السامى الناطق بالعربية موقعاً خارجاً عن المركز، فأصبحت القاهرة آنذاك المدينة الأولى للعالم الإسلامى، بيد أن القطيعة التى حدثت بين الدولة الفاطمية والدول السنية بآسيا الأدنى كانت قد قلّصت من دورها الثقافى، ولم يكن بوسع الغزو الأيوبرى الذى كان بالنسبة لمصر بمثابة غزو أجنبى إلى حد ما أن يعجل بادماج البلد ضمن المجتمع الإسلامى بالشرق الأدنى، ولم يكتمل هذا الاندماج إلا فى عهد المماليك دون أن يفقد دمشق مكانتها لمدة طويلة، فقد أصبحت هذه المدينة آنذاك ثانى مدينة بالشرق الإسلامى من ناحية عدد السكان والمركز الرئيسى للثقافة، وإلى جانبها تطورت حلب تطوراً ملحوظاً^(٤)، وحتى بعض المراكز الصغيرة كحماة كانت تتوافر على حيوية أكيدة^(٥). ويظهر أن الحروب بين الأمراء المتنافسين لم تحدث أضراراً تذكر برخاء هذه المدن، ومهما تطرق الشك إلى هذه الملاحظات التى قد يلزم أن تضاف إليها عوامل أخرى فالواقع أن الحملة الصليبية - فيما يبدو - كان لها دخل ضئيل فى هذا الشأن.

وكان من نتائج هذه الأولوية التى كانت لسوريا ثم لمصر أن احتل الشرق اللاتينى حيزاً وثائقياً قد لا يتناسب مع الحيز الذى شغله فى مجموع الشرق الأدنى وهو إجمالاً حيز محدود. وربما كانت هذه الواقعة مبعثاً لبعض الأوهام التى تولدت لدينا غير أنها

قد أكسبت الحملة الصليبية والكفاح الذى شنه الشرق صدى مازال وقعه قائماً إلى اليوم ولم تسهم السياسة المعاصرة فى تخفيفه.

لقد كانت إقامة الفرنجة فى نظر الشرق غزواً تم باسم أيديولوجية ظلت غريبة عن البلد^(٦)، ولو أنها كانت من بعض النواحي رداً على «الجهاد الإسلامى». كانت هذه الحركة تقف عند حدود الكنيسة اللاتينية، ولم تكن مقصورة على «الفرنجة»، فقد شارك فيها المجريون، لفترة، غير أنهم كانوا ينتمون إلى هذه الكنيسة كما كان أمراؤهم مرتبطين بأسر الأمراء الغربيين، وقد قام البيزنطيون وبعض السكان المقيمين حول البحر الأسود بمحاربة المسلمين لكن لم تكن حروباً صليبية حقيقية، كما أنهم لم يشاركوا فى تعمير الشرق المسمى باللاتينى. أضف إلى ذلك أن مهاجمة اللاتين لهم تمت باسم الحرب الصليبية، ولم يندمج هؤلاء اللاتين حتى فى أقاليم اليونان التى أقاموا فيها لفترة طويلة، كما لم يندمجوا فى الشرق إلى درجة جعلت عدداً من اليونانيين يؤثرون عليهم الأثر^(٧) ذات مرة.

وبناءً عليه لم يتمكن الفرنجة من الذوبان فى السكان المحليين برغم مرور قرنين من التعايش ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى علاقاتهم مع الغرب، وربما كذلك إلى بعض الملامح المميزة^(٨). لقد عرف الشرق الأدنى خلال مساره التاريخى الطويل كيف يحمل دائماً المجموعات العرقية أو الدينية المتجاورة، وإن كانت متميزة، على التراضى والاندماج فيما بينها تقريباً لكن هذه المرة لم يحدث شئ من ذلك وإن كنا لا نعرف ما إذا كان الأمر سيصير مختلفاً لو مكثوا فترة أطول^(٩). ومع ذلك فإن الفرنجة أقاموا فى هذا البلد وعاشوا فيه لمدة قرنين فلم يفكروا فى مسألة الرحيل، ومن تمكن من الرحيل منهم انطوى داخل قبرص حيث ليس بوسعنا اقتفاء أثرهم، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من لا نعرف شيئاً عن مصيره إذ لم يعودوا إلى أوروبا ولم يذهبوا أيضاً إلى الإمارات الفرنجية باليونان^(١٠)، برغم وجود بعض الاتصالات إننا لا نتحدث هنا بطبيعة الحال عن عابرى السبيل من التجار الذين واصلوا ارتيادهم للشرق ولا عن بعض أعضاء الجماعات الدينية.

واليوم يقابل المرء بالشرق الأدنى بعض الأفراد الشقر نوى العيون الزرق ويحلو لهم أحياناً القول إنهم منحدرين من سلالة الصليبيين، ولعل من المفارقة الزعم بأن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، فثمة امتزاجات «أرية» كثيرة حدثت فى غضون التاريخ ابتداءً من

الفلسطينيين حتى الصقالية العبيد بالعصر الوسيط، غير أن هذه التأملات تعتبر مجانية فلا يمكن أن ندخلها في عملية التأثيرات الاجتماعية والثقافية.

لقد حدثت الحرب الصليبية ولا نملك أن نجادل في حمية وصدق القناعات التي حملت كثيراً من الناس على القيام بها بما فيهم أولئك الذين كانت لديهم كذلك اهتمامات أخرى غيرها، فأحياناً تكون القضايا أكبر من حاملها، وبهذا المعنى ظلت روح الحرب الصليبية متيقظة حتى عهد سان لويس بل لقد استمرت بعده؛ فالمكانة والشهرة التي احتلتها هذه الحروب منذ يومها الأول حتى أيامنا هذه، بل وكون هذا التعبير أصبحت له دلالة مجازية تتجاوز دلالاته الحقيقية، هي أمور تشهد طريقتها بما خلفته من صدى في نفوس الناس^(١١). لكن رغم صحة كل هذه الأمور فإنها لا تمنع من وجود حقائق أخرى كذلك.

لقد قيل منذ فترة بعيدة أن المشاعر الفظة المجردة لدى الصليبيين ولدى بعض رفاقهم قد داخلتها مشاعر ومساك أقل فظاظاً بكثير، لكن لعل هذه الطريقة غير مناسبة في طرح المشكلة، ذلك أن المكانة ذاتها التي اكتسبتها الحملة الصليبية جعلتها تحتوى عدة أشياء تحت هذا الاسم بحجة حدوثها في الفترة التاريخية نفسها تقريباً مع أنها لا تدين للحملة الصليبية بشيء رغم التداخل الحاصل معها. لقد حدثت الحروب الصليبية داخل عالم اختلطت فيه مصالح أخرى كثيرة وأهداف مختلفة، فالطريقة التي توافقت (أو تعارضت) بها هذه المصالح والأهداف هي التي تمثل المشكلة الرئيسية، ويتعبير آخر مأساة تاريخها، والتطور الذي يمكن أن نلمسه منذ أول حملة اتضحت ملامحه بعد ذلك شيئاً فشيئاً مع تلاحق الحملات الصليبية، حيث لاحظنا انحراف بعضها، ولو أنها كانت تعبر بدقة عن الواقع التاريخي، أما بالنسبة للشرق اللاتيني فإذا كانت نشأته ترجع إلى الحملة الصليبية الأولى، وإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قامت بالتشويش عليه وزعزعته، وإذا كانت فكرة الحرب الطائفية قد فرضت عليه رغماً عنه أحياناً فلا يمكننا القول إن تاريخه كان تاريخاً صليبيّاً بالأساس. فقد كان يتكون من دول لا تختلف عن الدول الأخرى.

إن كل ما قيل عن هذه الأمور تم من منظور أوروبي، وهي وجهة نظر مشروعة، حيث أن الأمر يتعلق بمبادرات صادرة عن أوروبا الغربية إلا أنها تركت آثارها في عالم الشرق الأدنى الذي يستوجب القدر نفسه من الاعتبار. إذ لقي اهتماماً ضئيلاً حتى داخل الشرق حيث اقتصر الأمر على تحويل الهزائم المعروفة من طرف المؤرخين المسيحيين إلى انتصارات. فمن المناسب كذلك العناية بها - أي الحروب الصليبية - عن كُتب داخل العالم الإسلامي بالمعنى الواسع للكلمة، وداخل المنطقة التي تمت فيها الاتصالات مع الفرنجة.

من الغريب أن نلاحظ إلى أى مدى كانت فكرة الحرب الصليبية مجهولة فى الشرق اللاتينى، صحيح أنه تمت محاربة المسلمين بداخله، لكننا نلاحظ أن اللاهوتيين والمشرعيين لم يفكروا فى ادماج محاربى الشرق ضمن الوضعية القانونية التى كانوا يقومون بصياغتها بشأن الصليبيين بالغرب، لاشك أنه لم يكن فى الشرق ما يدعوا لوضع شروط خاصة بطول فترة الغياب (بالنسبة للديون مثلاً) لكن فى هذه الفترة التى كان «الجهاد» يقود المسلمين إلى الجنة، لا يبدو أنه تم تمديد الامتيازات التى من الله بها على الصليبيين لمغفرة ذنوبهم^(١٢) لتشمل المحاربين المسيحيين بالشرق حتى ضمن جماعات الداوية والاسبتارية. ومن وجهة النظر المادية لم يكن فى الإمكان أن تنطلق الحملة الصليبية إلا من الغرب، لكن انعدام الربط على المستوى الروحى كان أمراً ملحوظاً. ولو كانت الحروب المسيحية قد دارت فى الشرق فى مناخ الحرب الصليبية لربما كان من اللازم أن تظهر بعض الشخصيات الدينية مباشرة فى مملكة بيت المقدس والحال أن الكنيسة لم تضيف صفة القداسة على أية شخصية من الشرق اللاتينى، ولا حتى على الملك المسكين المتواضع الذى كان مصاباً بالبرص، ولم تصل إلينا أية خطبة تحت الشعب المسيحى على الحرب ضد المسلمين.

على صعيد آخر لم تظهر فى الشرق اللاتينى أية رواية ولا ملحمة تتعلق بالحملة الصليبية، وفى الغرب كان بعد المسافة يمنع من إرجاع انتصارات الصليبيين إلى أبعادها الإنسانية، فقد ألهمت الحملة الصليبية أناشيد المأثر والروايات الملحمية^(١٣) لعدة قرون ولم يحدث شئ من ذلك فى الشرق. وفى التاريخ العام لمملكة بيت المقدس الذى ألفه وليم الصورى حوالى عام ١١٨٢، نجد أن ما كان هذا الكاتب يعرفه عن الحملة الصليبية الأولى يكاد يكون مقتبساً بكامله من كتاب المؤلف الغربى ألبير الإكسى، كما كان يعرف أيضاً رواية فوشيه الشارترى للأحداث، وهو صليبي بقى مستقراً فى الشرق غير أن أحداً لم يواصل المسيرة التى بدأها فوشيه داخل هذا الشرق، وسيعترض البعض مستشهداً بـ «أنشودة الأسرى» التى ألقت لريمون الأنطاكي وهى حالة خاصة جداً، وقد عرضت للسبب الذى يبدو لى من خلاله أن هذه القصيدة ترتبط بالأدب الذى ظهر إبان الأسرة الحاكمة ببوايته التى ينتسب إليها ريمون^(١٤). وعلى أية حال فإن خطأً واحداً لا يأتى بفصل الربيع^(*)، وتظل المفارقة مثيرة للدهشة.

(*) مثال فرنسى شائع مؤداه أن مثلاً واحداً لا يؤدى إلى استنتاج (المترجم).

أوضحنا بما فيه الكفاية أن الحملة الصليبية لم يكن لها إلا تأثير ثانوى على التجارة الغربية بالشرق، إذ كانت التجارة قائمة قبلها وظلت كذلك بعدها، وكان للحملة الصليبية أن شجعت هذه التجارة فى عدة جوانب، بيد أنهما ألحقا ببعضهما الضرر كذلك، وإذا كانت الحملة الصليبية قد أحدثت تعديلاً ببعض الطرق التجارية وبعض الكيفيات والأوضاع فقد يكون من السهل أن نثبت أنها زادت من الحجم التجارى أكثر مما كان سيحدث بدون تدخلها، والحق أننا أمام شكلين من أشكال التوسع الأوروبى.

من المتعذر معرفة النتائج الاقتصادية المترتبة على بداية الازدهار الأوروبى داخل الشرق. ومن البديهي أن الغزو الاقتصادى الأوروبى فى الأزمنة الحديثة قد ألحق بالاقتصاد التقليدى بالشرق أضراراً خطيرة. ومنذ نهاية العصر الوسيط لدينا الانطباع بأن عدد ما كانت تباعه أوروبا للشرق من المنتجات المصنعة يخل بالتوازن السليم، بل وكانت تفرض عليه بعض عملاتها. هل يمكن أن نكشف عن بداية هذا التطور فى القرن الثانى عشر ولاسيما فى القرن الثالث عشر ؟ حسبنا أن نأمل قيام أبحاث جديدة توضح هذا الأمر، كما أن تزايد الطلب الأوروبى يمكن أن تترتب عليه كذلك نتائج يمكننا أن نقوم بتقديرها فى هذه اللحظة، فلعن هذا الطلب قد ساهم فى تعاظم تجارة النقل انطلاقاً من الشرق الأقصى بنسب أظهرت الأيام فيما بعد أنها كانت خطيرة^(١٥).

ومع نهاية الشرق اللاتينى والحملة الصليبية، وفى انتظار حصول التطورات اللاحقة، يمكن التساؤل عما كانت عليه حصيلة علاقات الأسر المسيحية فيما بينها ومع المسلمين، فقد لاحظنا وجود عداوة منذ زمن بعيد بين مسيحي الكنيسة اليونانية ومسيحي الكنائس الشرقية وصلت أحياناً إلى أن يؤثر هؤلاء الأخيرين السيادة العربية أو التركية على السيادة البيزنطية، كما لاحظنا فى البلاد اليونانية عداوة مشابهة بين المسيحيين الرومانين واليونانيين، ولو أن الفجوة القائمة بينهما لم تكن قديمة بنفس المقدار ولا خطيرة فى الأصل بنفس الدرجة وبالطبع فإن موقف الغرب وربما يتحمل قسطاً من المسؤولية فى هذه العداوة، إذ أثارت هذه المشاعر الاضطراب فى العلاقات بين الملكيين واللاتين بصورة أقل حدة. ومع نهاية جيل الحملة الصليبية الأولى أصبحت علاقات مسيحي الشرق مع اللاتين علاقات سليمة دون أن يؤدى ذلك إلى تقارب حقيقى بينهما^(١٦) برغم مساعى المبشرين باستثناء حالة الموارنة والأرمن القيليقين. ولم تتغير مشاعر الشرقيين إزاء اليونانيين حيث كانوا عابدين فى الصراع الحاصل

بين الفرنجة والمسلمين. وكانت السلطات الإسلامية وتعتبر الملكيين الذين ربما كان عددهم قد تضاعف رعايا أمناء وكان اليهود يعتبرون أنفسهم نوى انتماء للدول الإسلامية التي كانت تعتبرهم كذلك رغم وجود يهود بالشرق اللاتيني. ومن المؤكد أن العلاقات بين مختلف الطوائف سيطر عليها التوتر ولاسيما في مصر على أن الأمر كان يتعلق بحركة عامة ظهرت في نهاية العصر الوسيط في كل من العالم المسيحي والإسلامي، وهي ترجع إلى أسباب ذات طابع اجتماعي واقتصادي أكثر منها ذات طابع عقائدي. وكان للحملات الصليبية (كما في بعض فترات الاسترداد الإسباني) أثر إقليمي لكن من المؤكد أنه كان أثراً سلبياً، فصعوبة التمييز بين التجار والمحاربين قد طرح شكوكاً حول الأقباط الذين كانوا يُحَسَدُونَ على دورهم الإداري، وقد أدى استمرار الخطر الفرنجي المهدق بالبحر المتوسط إلى اتخاذ جملة من الإجراءات ضد موارد الساحل السوري سواء كانت هذه الإجراءات مبررة أم لا. وكانت انعكاسات الغزو المغولي وقتئذ أشد قوة بيد أن التهديد المغولي لم يستمر لمدة طويلة وقد تغيرت ملامحه حينما اعتنق المغول الإسلام.

أما فيما يتعلق بالمعرفة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين^(١٧) فيمكن القول أولاً إنه لا يبدو أن المسيحيين والمسلمين قد كرسوا اهتماماً لمعرفة العالم المسيحي الروماني^(١٨)، ومن جهة أخرى فإن معرفة اللاتين المقيمين في الشرق بالإسلام ظلت منعدمة^(١٩) إلا في مرة أو مرتين. ويعود الفضل في التقدم الذي حدث في هذا الشأن بأوروبا إلى حركة التبشير التي نشأت في الغرب وإلى مجاورة إسبانيا أكثر من أي عامل آخر، وكان هناك بعض التأثير للمبشرين على الأوساط المسيحية بالشرق غير أنه كان تأثيراً على مستوى يمكن أن نصفه بأنه كان فلكورياً^(٢٠).

وتثبت السير التي كتبها ابن القفطى حول الحكماء من مختلف الطوائف حوالي عام ١٢٠٠ في حلب، وسير الأطباء التي ألفها ابن أبي إصبيعة حوالي عام ١٢٥٠ في دمشق أن ثمة نوعاً من التآلف قد حصل بين «العلماء» المسلمين والمحليين اليهود أو المسيحيين، ولعل ما لاحظناه من ظهور الخرافة القائلة بأن العرب ربما قاموا بتقديم مكتبة الإسكندرية الشهيرة عند غزوهم لهذه المدينة كان صدى للمناقشات الدائرة في نهاية القرن الثاني عشر، مع أنه تبين أنها لم تكن موجودة آنذاك^(٢١). والأمر الغريب أننا نجد أول إشارة لهذه الخرافة لدى الكتاب المسلمين ولو أنها لا يمكن إلا أن تكون مطابقة بالطبع لاتهامات المسيحيين. وقلم أحسن الصليبيون بمسلكهم في طرابلس كما رأينا لكن لا يبدو أنهم كانوا ضمن موضوعات

الحديث، وفضلاً عن ذلك استقرت عملية تأليف المصنفات العقائدية التي لم يكن يقرؤها الخصم قط، وذلك كان شأن اللقاءات الجامعية التي كانت نتائجها تحدد سلفاً^(٢٢). ومهما بلغت حقيقة التباين الحاصل بين صقلية وإسبانيا فلا ينبغي المغالاة بشأنه^(٢٣). لقد أبعد العرب تدريجياً عن صقلية كما قلنا أو ربما رحلوا منها بأنفسهم، أما في إسبانيا المستعادة فإن التعايش دام لفترة أطول نظراً لوجود أعداد كثيرة من المسلمين ومرحلة ماضية من التداخل الأعرق غير أن هذا التعايش انتهى إلى المأسى التي حدثت في القرن الخامس عشر، ويعنى ذلك أنه لم ينشأ أى مجتمع متعدد بشكل نهائى.

ماذا عن التأثير ؟ لقد عرف الشرق اللاتينى فيما يبدو نشاطاً مكثفاً في بناء المنشآت الدينية على وجه الخصوص غير أن الأمر كان يتعلق بحرفيين أوروبيين كانوا قد قدموا للحج ومعهم الكراريس الحاوية للنماذج وفي نفوسهم الأمل في الحصول على الربح، ولم يكن قد شاهدوا كنيسة شرقية قط. ولاشك أن الرهبان والكهنة القانونيين اللاتين قد استقروا في مبانٍ كانت موجودة قبل وصولهم، ومن الممكن أن يكونوا قد أحدثوا بها تعديلات، لكن ليس هناك ما يدل على حدوث تأليف بين النماذج المعمارية الموجودة من جراء هذه المجاورة ولم يحدث أكثر من ذلك حينما قام مسيحيو الشرق أو المسلمون باستعادة مبانيهم الدينية السابقة مع سقوط الشرق اللاتينى. لقد أرسل اللاتين تحفاً فنية إلى الغرب بدافع من ورعهم الدينى تجاه الكنيسة الواقعة بالمدينة التي كانت موطناً لأسلافهم، وهذه التحف تشكل حتى اليوم ثروة بالنسبة لبعض الكنائس أو المتاحف التي ورثتها ولا نرى أنها ألهمت الحرفيين الذين توجهوا إلى المناطق المذكورة.

ربما يحتاج هذا الحكم إلى التدقيق بالنسبة للفنون الصغرى، ويبدو أنه قد تطورت إبان هذه الفترة في كل مكان تقريباً مصانع الخزف المزخرف الشائعة التي تُسمى أحياناً «المنع» حيث نجدها في كل أنحاء الشرق الأدنى، بما فيه الشرق اللاتينى، كما نجد أنواعاً مماثلة لها في إيطاليا. وبشأن التأثيرات التقنية ربما لزم أن نسجل للشرق اللاتينى نوعاً من الإسهام في نشر صناعة الزجاج التقليدية وهي صناعة سورية انتشرت في البندقية ثم في جميع أنحاء الغرب^(٢٤). وربما كان هناك كذلك تأثير متبادل فيما يخص زخرفة المخطوطات من قبل الرهبان اللاتين والمسيحيين المحليين ولاسيما الأرمن، غير أنه لا ينبغي أن يُحتج بجامع الأناجيل^(٥) الذى كان بحوزة الملكة ميليزند وكان أحد أبويها أرميناً، فهو عمل فريد لم يكن له نظير فيما بعد^(٢٥). وضمن نمطين آخرين من الأفكار نشير إلى أنه من الممكن أن تكون النباتات أو حبوب

(٥) جامع الأناجيل : هو الكتاب الذى يحتوى على أناجيل القدايس - المنهل - المترجم.

الأنواع النباتية الجديدة قد جلبت من الشرق اللاتينى، وربما تم التعرف بداخله كذلك على لعبة الشطرنج. وفى دراسة تتعلق بعملية التأثير يجب أن نحاول تحديد المسارات المتخذة فى هذه العملية (حيث يمكن أن تجتمع عدة مسارات) حينما توجد عدة إمكانيات تتحرك فى ميادين شاسعة، فبعض الأشياء والمنتجات قد يحالفها كثير من الحظ فى أن تصدر عن هذه المنطقة وليس من غيرها، بيد أن الاختيار عملية مستحيلة فى كثير من الحالات، ويمكن أن تكون دراسة المفردات ذات مغزى لكن عندما تستعير إيطاليا كلمات مثل الديوان (الدوان)^(*) وقبالة^(**) (جابل) فقد يحدث هذا فى أى بلد ناطق بالعربية، بل وحتى فى الشرق اللاتينى عند اللزوم^(**).

* * *

ولا نرى أن الشرقيين أو اللاتين قد اهتموا بدراسة الأنظمة السياسية والاجتماعية الخاصة بهما، ذلك أن المجتمعين المتجاورين يوجدان بشكل عام فى العمر العقلى نفسه كما قال ج. إ. جرنباوم. وذلك كان شأن مجتمعات الشرق الأدنى وإلى حد ما العالم المسيحى القروسطى وعالم الإسلام فى الحقبة نفسها. وهذا الأمر لا يكفى لكى نثبت وجود علاقات عميقة بينهما.

ويمعزل عن المشاكل الدينية الخاصة فإننا نعلم أن المسلمين المحافظين لديهم نفور من كل أنواع البدع، لكن هل هناك اختلاف بين هذا الموقف وموقف العالم المسيحى المرتبط بـ «العرف»؟ بالطبع توجد أولاً قرابات بين الأوساط الاجتماعية الثقافية المتناظرة، ويمكن أن نجد أوجه التقارب بين الفرسان الفرنجة والأتراك أو الأكراد شبه المؤتركين بعد اختفاء الإقطاعيات العربية، كما يمكن أن نجد أوجه التقارب بين الشعارات الأشرافية^(***) التى استخدمها الغرب وبين النموذج التركى، والحق أن تبنى هذا الشعار قد حصل فى فترة متأخرة، أما شعار المماليك فى هذا الشأن فقد كان معروفاً جيداً غير أن هذه المسألة لا بد أن تدرس بعمق إذ يلزم

(*) الدوان : وتعنى الجمرك (المترجم).

(**) القبالة : اسم لما يلتزمه الإنسان من عمل وبين وغير ذلك، من الفعل قبل، - المنجد فى اللغة والأعلام (المترجم).

(***) يتعلق الأمر هنا بالشعارات التى ترسم داخل مساحة على شكل ترس وهى تتألف من الشكل الخارجى بأقسامه المختلفة بحسب المناطق الجغرافية والألوان والمعادن المستخدمة كالذهب والفضة والفرو الذى يدخل فى تزيين الأشكال المرسومة.

أن نحترس من المقارنات السطحية التي تبني عليها الاستنتاجات دون أن يوفى التسلسل الزمني حقه من الاهتمام.

ولا يمكن أن ينكر تأثير الإسلام في إسبانيا على الغرب المسيحي على أنه لا يجب أن نجهل أن هذا التأثير لم يحدث إلا عندما هب هذا الغرب للبحث عنه بنفسه كما يجب أن نتذكر بأن التأثير المذكور تم بواسطة المترجمين وأن الأوروبيين لم يكن بوسعهم أو لم يريدوا البدء بتعلم اللغة العربية إلا في الوسط التبشيري في أقصى نهاية القرن الثالث عشر^(٢٨) ويُشار في الشرق اللاتيني إلى بعض الأفراد الذين كانوا قادرين على التحدث باللغة العربية^(٢٩) لكنهم كانوا حالات استثنائية حقاً^(٣٠) ولم يظهر قط أى نشاط في مجال الترجمة^(٣١).

لقد كان هناك ميل في الغالب إلى تفسير عدم التناسب بين ما اقتبسه الغربيون عن الشرقيين، والعكس، بالإستناد إلى تفوق الحضارة الإسلامية، وبالطبع لا يمكن إنكار هذا التفوق بمقياس العصر الذي عاش فيه شارلمان أو هوج كابي، لكن الأوضاع كانت قد تطورت في فترة الحروب الصليبية، فلم تعد الفلسفة والعلوم القديمة تهم كثيراً الدول الإسلامية الجديدة التي اعتكفت على الجوانب الدينية المغرقة في الصوفية ولم تحافظ الفلسفة والعلوم على بقائهما حقاً حتى القرن الثاني عشر إلا في إسبانيا. وكان الغرب قد تقدم من جهته بيد أن الأوضاع كانت جد مختلفة في إسبانيا. أو صقلية والشرق الأدنى، ففي صقلية طلب روجيه الثاني من الإدريسي المسلم تأليف مؤلفه الجغرافي الضخم وهو أمر لا مثيل له في الشرق اللاتيني، وفي صقلية ذاتها انعكست هذه النزعة بعده فلم يحدث التأثير المتبادل في صقلية ولا في إسبانيا بمعنى أننا لا نرى أثراً للتأثير الفرنجي في بلد إسلامي. إنها مشكلة لا نملك إلا أن نمر عليها مروراً عابراً وتتعلق بمعرفة السبب الذي جعل الإسلام الذي أظهر انفتاحاً كبيراً إزاء الحضارات المجاورة يبدو في هذه اللحظة راغباً في تجاهلها حتى عندما كان عديد من التجار الأجانب يرتادون موانئه. وإذا سُمح لي بالقفز بضعة أجيال فإني أنبه إلى حقيقة كون أن ابن خلدون نفسه في نهاية القرن الرابع عشر كان على معرفة حقة بتوافر الغرب على حياة ثقافية، ولو لم يكن يعرف عنها شيئاً، وعودة بنا إلى الشرق الأدنى حيث تجاوزت الثقافتان وكانتا تقفان منذ ذلك الوقت على قدم وساق من عدة مناح فإن المثير للدهشة أن تنعدم الصلات بينهما انعداماً تاماً. لقد تحدثنا سابقاً عن الفن، فلنأخذ بعض الأمثلة، بالمصادفة، من ميادين أخرى. لقد امتدح وليم الصوري نظراً لمعرفته شيئاً من اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، وهذا غاية ما في الأمر، إذ حتى هذه الأشياء غير مؤكدة فقد عرف التاريخ الموجز لأوطيخوس

(سعيد بن البطريق) أى لكاتب مسيحي عاش قبل قرنين ولا يتضمن هذا التاريخ أى اتصال مع المسلمين. وفى المقابل فإن ابن الأثير وهو أكثر مفكرى زمانه ذكاء واطلاعاً على الأخبار لم يعرف الفرنجة إلا من جانب الكفاح الدائر ضدهم، ولم يسمع قط عن وليم الصورى الذى كان نظيراً له بالتأكيد على المستوى الفكرى، كما حدث تجاهل متبادل بين كبار المشرعين أمثال فيليب النوفارى وحنّا الإبلىنى وأقرانهما من الناطقين باللغة العربية، وحتى داخل وسط الأطباء الذى يتسم أكثر بتعددية الطوائف لم يسمع أحد فى الوسط اللاتينى عن «الدورة الدموية الصغرى» التى اكتشفها ابن النفيس على بعد بضعة كيلو مترات، فالرسائل الطبية التى ربما كانت موضع الاهتمام هى رسائل لكبار الأسلاف مما يستتبع عدم وجود أى اتصال^(٣٢).

وبعد فترة قليلة حينما أراد رشيد الدين الحديث عن الفرنجة أرتأى بحق أن يشير إلى كتيب الحوليات لمارتن البولونى الذى كان مهاجراً أرمينياً على الأرجح^(٣٣)، وذلك داخل الإمبراطورية التى كانت من أكثر الإمبراطوريات المغولية سعياً لتوحيد الكنائس المسيحية.

ويتضح هذا التشخيص أكثر إذا لاحظنا أنه لم يحدث الاتصال الذى يترك أثراً فى كل الأحوال، بين المسيحيين بالغرب والمسيحيين بالشرق إلا نادراً. لقد نشأت القضايا الفلسفية التى هزت العالم المسيحي ابتداء من أيبيلار إلى القديس توما فى أسبانيا وليس فى الشرق. وفى المغرب تعلم ليوناردو البيزى معرفة الأرقام العربية، وفى المقابل كان بول الأنطاكى وهو أسقف مدينة صيدا يتحدث عن المسيحية كما لو لم يكن للكنيسة اللاتينية وجود قط (بيد أنه لا يمكن التأكيد حقاً بأن ذلك^(*) لا يعود إلى القرن الحادى عشر^(٣٤)).

ورغم أنه لم يحدث قط أن مؤرخاً أوروبياً إبان العصور الوسطى قد اعتبر الشرق اللاتينى مصدراً رئيسياً لتأثير الشرق على الغرب فقد نزع مؤرخو الحملات الصليبية أنفسهم إلى الإشادة بالنور الذى لعبه الشرق اللاتينى فى هذا الشأن، ومن ثم الإشادة بدور الحملات الصليبية، فمن الضرورى ألا نخلط بين كافة هذه الأمور.

وسيكون من المفارقة الادعاء بأن الصليبيين وخلفاءهم المقيمين بالشرق لم يضطروا إلى التكيف بداخله؛ فقد سكنوا بالمنازل التى وجدوها واقتاتوا من الطعام الذى كان يقدمه لهم البلد، واكتسوا بالملابس المتوافقة مع المناخ. وليس ثمة نص يطلعنا عما إذا كانت الاختلافات

(*) ربما كان المقصود بذلك حديث بول الأنطاكى، فثمة صعوبة بالغة بالنص الفرنسى إذ لا يكشف القارئ بسهولة على من يعود الحديث. (المترجم)

بشأن الأثاث أو الملابس قد تسببت لهم فى المشاكل بيد أننا لا يمكن أن نتحدث عن التأثير بالمعنى العام إلا إذا كان ما تحقق من مكتسبات فى الشرق قد انتقل إلى أوروبا، والحال أن الفرنجة المقيمين فى الشرق لم يعودوا بالطبع إلى أوروبا ويمكن أن نتساءل عما إذا كان قد توفر لهم الوقت الحجاج أثناء عبورهم ليستوعبوا بما فيه الكفاية ما يمكن أن يجلبوه إلى بلادهم. كانت عقلية العصر كما نعرف، وكان ما حملوه أو ما أرسله مواطنوهم بالشرق إلى كنائس بلدانهم الأصلية يتمثل فى رفات القديسين أو ما كان يجعلهم يعتقدون بأنها كذلك، وأيضاً المنسوجات والأعمال الفنية التى حصلوا عليها من غنائم الحرب. ولا يجوز لنا الحديث عما تمكنوا من تعليمه لأوروبا بشكل غير مباشر. على أية حال ظلت المعارف التى اكتسبها فرنجة الشرق بين أيديهم، أو على الأكثر انتقلت مع المتبقين منهم إلى قبرص وبعض الكنائس بإيطاليا الجنوبية.

وإذا أثرنا هذه المسألة على نطاق أعم فينبغى أن نميز ضمن كل هذه التأثيرات بين تلك الآتية من أوساط المسيحيين المتعربين وتلك الآتية من بعض الأوساط اليهودية خلال فترة مؤقتة. لابد من ملاحظة أن الفرنجة لم يحتلوا أياً من المراكز الثقافية الكبرى بالشرق ولا حتى سوريا المسلمة أو المسيحية (لم تعد القدس آنذاك مركزاً ثقافياً شرقياً). وعندما كانوا يحتلون منطقة ذات تراث ثقافى كانوا يدمرون المكتبات ويجبرون العلماء على الهجرة، ذلك أن المجتمع لا يأخذ من غيره إلا ما هو فى حاجة إليه، ولم يكن العالم المسيحى فى حالته تلك بحاجة إلى العالم الإسلامى كما كان، ولم تعد المشاكل الفلسفية ولا سيما المشاكل المتعلقة بالعلاقات الطائفية موضع اهتمام، علاوة على أن التواصل بين مجتمع وآخر كان يستلزم وجود مترجمين أكفاء، هذا إذا أمكن العثور عليهم بالشرق. وبالإضافة إلى ذلك لم تكن الحرب تشجع الاتصالات الثقافية التى لم تكن مجدية لها بل مضرّة وغاية ما كانت تستطيعه هو أن توحى بإقامة تبادل للتقنيات العسكرية (انظر أعلاه).

لم نبحث فى كل ما سبق إلا ما أخذه الغربيون عن الشرق، وليس ما أخذه الشرقيون عن الغربيين الذين اعتبروا ضمناً على قدر كبير من الوحشية التى لا تؤهلهم لتقديم أى شىء. وبالفعل لم يذكر إلى حد الآن أى تأثير ثقافى للغرب على الشرق، باستثناء بعض الخرافات الدينية التى نقلها المبشرون إلى الأوساط المسيحية بمعزل عن الحملات الصليبية^(٣٥).

فلنتناول المسألة تناولاً عكسياً، إذا راجعنا أهم ما نقله الغرب عن العالم الإسلامى بشكل عام، فالسؤال المطروح هو أن نعرف المكان الذى تم النقل منه وموقع الشرق اللاتينى

فى هذه العملية. ثمة منطقتان أو ثلاث مناطق يمكن أن تحدث بها الاتصالات، فمن جهة هناك إسبانيا وبشكل ثانوى صقلية اللتان استعادهما المسيحيون، وكان ما يزال عديد من السكان المسلمين أو اليهود - المسيحيين يقيمون فيهما، وقد اندمجوا فى الحضارة المحيطة إلى جانب عدد من المترجمين ولاسيما اليهود، فكان من الأسهل بالنسبة لمن يرغب فى التعرف إلى الحضارة «العربية»، مثل بطرس المجل وعدد كبير من المثقفين الغربيين الذين أتوا بعده، التوجه بالطبع نحو أسبانيا القريبة، وقد حدث أن التطور الروحى المشار إليه أعلاه بشأن الشرق لم يصل إلى أسبانيا فابن رشد عاش فى القرن الثانى عشر، وما تبقى من إسبانيا المسلمة التى هاجر منها طالبو العلم والمعرفة إلى الشرق أصبح آنذاك على درجة من القصور بحيث لم تعد له أهمية دولية، وفى الواقع نجد أن معظم الأعمال العلمية المترجمة من العربية إلى اللاتينية وأحياناً بواسطة الترجمة العبرية قد صدرت من إسبانيا كما صدر كتابان أو ثلاثة على الأكثر من الشرق اللاتينى خلال قرنين. وهو أمر له دلالة حتى لو سلمنا بما حصل من ضياع فى الكارثة النهائية.

إن المجال الذى يظهر فيه التأثير بديهياً وواضحاً فى انتشار المفردات ذات الأصل العربى المتوسطى وحتى على المستوى الدولى هو مجال التجارة، ومهما كان عليه أمر التجارة التى مارسها الإيطاليون فى سوريا الفرنجية فإنه من البديهي أنها لم تكن بحاجة لهذه المفردات كى تدرك الخبرات المنجزة فى الحواضر التجارية الكبرى داخل البلدان العربية وأحياناً قبل الحملة الصليبية، وباختصار فإن مكانة الشرق اللاتينى التى يصعب تحديدها فى كل حالة خاصة على حده وهى مكانة ثانوية فى هذا الصدد إلى درجة تدفع إلى الاعتقاد بأنه لو لم يوجد هذا الشرق لما تضاعلت مكتسبات الغرب، أما مكتسبات الشرق فقد كانت تافهة حتى فى الوسط المسيحى.

لقد سعى الباحثون مرات عديدة ومن وجهات نظر مختلفة لتناول الحملات الصليبية من منظور التاريخ الاستعماري المقارن^(٣٦) بل لقد انتهى بهم الأمر إلى المقارنة مع المشروع الإسرائيلى المعاصر، نظراً لأن الأمر يتعلق بالأمكن نفسها. لا بد أن نتحرز من الغموض الذى يشوب مصطلح «مُسْتَعْمَرَة». فإذا رجعنا للنموذج اليونانى القديم فإن المُسْتَعْمَرَة تعنى قيام جماعة من الناس بالاستقرار ضمن تنظيم سياسى داخل أرض أجنبية وفى منطقة نائية تقريباً، فالمستعمرات ليست تابعة حقاً لحاضرة البلد الأصلية، وقد تظل تابعة لها لفترة من

الوقت، فقد أمكنها أن تستجيب لحاجيات الحاضرة لكنها لا تعود عليها بمنفعة أخرى، فذاك كان شأن قرطاجنة بالنسبة للفينيقيين، وبالطبع تعبر مثل هذه المبادرة عن الاكتظاظ السكاني الشديد (باستثناء حالة المنفى السياسى)، ولا يبدو ثمة إمكانية للكلام عن البواعث الأيديولوجية حتى لو كانت الوقائع محاطة بهالة أسطورية.

أما فى الأزمنة الحديثة فإن الاستعمار الأوروبى هو أمر مختلف تماماً. من المؤكد أنه يفترض كذلك إمكانات ديمغرافية وقد يتضمن أحياناً منافع دينية (الأخوة الحجاج). لكن يتعلق الأمر إجمالاً بإرادة إمبريالية مرتبطة بالبحث عن المنافع الاقتصادية، فالأراضى المحتلة تظل تابعة للحاضرة التى تحتفظ بها حتى ولو تبين أنها مكلفة أكثر من المتوقع، وقد يحدث أن يتخفى المشروع وراء الحثيات الأيديولوجية (كما فى القرن السادس عشر حينما تم نشر العقيدة المسيحية فى أمريكا التى أصبحت تلقب باللاتينية)، بيد أن الأمور لم تحدث بهذا الشكل دائماً وحتى لو وجد من كانت لديهم قناعة صادقة، فإن هذا لم يكن الباعث الوحيد ولا الرئيسى وعلى أية حال لم يعد لهذا الباعث مجال منذ القرن الثامن عشر، فقد استبدل بفكرة الرسالة الحضارية التى كانت تلازمها مصالح أخرى حتى لو كانت هذه المهمة صادقة.

إذا وضعنا الحملة الصليبية بين هذين القطبين نجد أنها لا تطابق أيّاً منهما، فهى تفترض إمكانات ديموغرافية (لا ينبغي المبالغة فى أمرها) وبعض القلائل الاجتماعية (وليس المنافع الدينية). فهى فى المقام الأول ومهما بلغ نقاؤها ذات باعث أيديولوجى، ومن الصعب أن نتبين فى نقطة الانطلاق المصلحة السياسية أو الاقتصادية التى كان يتوخاها القادة العلمانيون، أما فيما يتعلق بالبابوية فإنها كانت تتوقع بلاشك الحصول على امتياز دينى كفى بأن يخدم مصالحها السياسية بأوروبا بطريقة غير مباشرة. وكانت الهياكل الاجتماعية والسياسية فى معظم الحالات تحول دون التفكير فى جعل الأراضى المحتلة تابعة للحاضرة، وبالأحرى كانت تحول دون تحقيق تلك التبعية، وكانت الدولة الإيطالية، النورماندية وفريديريك الثانى بمثابة الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، والحديث عن التبعية الشاملة لأوروبا التى ربما كانت هذه التجربة ستجعلها أجلى وعياً بذاتها لا يمكن أن ينطوى إلا على دلالة فضفاضة جداً فى أحسن الأحوال، وعلى الصعيد الاقتصادى لم يمد الشرق اللاتينى أوروبا قط بمنافع أخرى غير بقايا رفات القديسين والتحف الفنية التى كانت تؤخذ من الغنائم من حين لآخر، ومن المؤكد أن التجار الغربيين قد تمكنوا من تحقيق أرباح طائلة، غير أن ذلك كان يتم فى الشرق بشكل عام وليس فى الشرق اللاتينى بصفة خاصة. وعلى أية حال فقد حققوا هذه الأرباح من

خلال الزبائن الأوروبيين وما جلبوه إلى الغرب، عدا بالنسبة إليهم أنفسهم، كان بعيداً عن أن يقارن بما اضطر الغرب لإنفاقه بدافع من نزعة دينية وسياسية حتى يظل الشرق اللاتيني تحت سيطرته، وحينما انهار الشرق اللاتيني استمرت الأرباح تتدفق بدون نفقات هذه المرة لصالح أولئك الذين كانوا قد تخلوا عنه بعد أن استنفعوا منه؛ ذلك أن من خصائص الإيديولوجية رغم أنها ترفع الناس لفترة إلى مقام أعلى من مكانتهم، فإنها تتستر بعد ذلك على كثير من الوقائع الأخرى.

وعودة بنا إلى الحرب الصليبية يمكن بالطبع أن ندرجها ضمن التاريخ العام، غير أن مقابلتها بظواهر أخرى من أجل فهمها يحول بونه أن خصائصها متفردة جداً.

وثائق الكتاب

النصوص التي يعاد نشرها هنا اختيرت من بين نصوص أخرى كثيرة، كان يمكن أن تدرج في هذا الكتاب نظراً لما لها من عدد مماثل من المبررات، إذ لم يسبق لها أن نشرت من قبل، وبعضها لم ينشر في ترجمة فرنسية وأخيراً، فإن بعضها الآخر يتعذر الحصول عليه ببسر. لذا لا ينبغي أن يصاب القارئ بالدهشة، إن لم يجد بعض النصوص الشهيرة التي ربما ترقب قراءاتها عن حق(*).

١ - مقطع من رسالة الجهاد التي كتبها السلمي في دمشق حوالى عام ١١٠٥ م.

(تحقيق سيفان، 1966. Journal asiatique).

فوثبت طائفة على جزيرة صقلية على حين تباين وتنافس وتملكوا - بمثل ذلك - بلدًا بعد بلد في الأندلس، ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها وتقرض أكابرها مع اختلالها واضطرابها أمضوا عزائمهم على الخروج إليها وكانت القدس مهائر أمانهم منها.

فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك مفترقة غير متفقة وأراء متباينة مقترنة بذحول كامنة فقويت بذلك أطماعهم وامتدت إلى ما يروونه أنواعهم. ولم يزالوا دائبين في جهاد المسلمين. والمسلمون عنهم متناقلون ومتطافرين (كنا) على حريهم وهم في لقائهم متواكلون حتى تملكوا في البلاد ما لم تنته إليه غاية آمالهم وبلغوا أضعاف ما أراوه من إهلاك أهلها وإذلالهم. وهم إلى الآن متمسكون في الاجتهاد مجدون في طلب الازدياد تتضاعف في كل وقت أطماعهم لما يظهر لهم من الإحجام عنهم وتنسفا آمالهم بحكم ما يروونه من رضى أعدائهم

(*) قد أوردنا الأصول العربية للوثائق التي الحق كاهن بها كتابه، عندما استطعنا إلى ذلك سبيلا، أي بالنسبة لما هو متوفر في المكتبة العربية (الوثائق رقم ٢، ١٣، ١٧) وما حققه المستشرقون ونشروه في دورياتهم (الوثائق رقم ١، ٩، ١٦). أما بالنسبة للوثائق العربية الأخرى فاضطررنا إلى نقلها إلى العربية على أساس الترجمة الفرنسية، نظراً لاستحالة الحصول على أصولها. أما الوثائق رقم ٣، ٥، ٧، ١١، ١٤، ٢٠ فهي محررة أصلاً بلغات أخرى غير العربية أو الفرنسية، فلا ضرر من نقلها إلى العربية على أساس الترجمة الفرنسية الواردة في كتاب كاهن. (المترجم).

بالسلامة منهم حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم وأن جميع أهلها أسرى في أيديهم. والله بكرمه يخبت ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة إنه قريب مجيب. (...)

فقد تحقق عندكم ما كنتم فيه شاكين من وجوب هذه المجاهدة على أعيانكم سيما من قد خصه الله سبحانه بتملك شيء من هذه البلاد فإن وجوب ذلك عليه أكد من وجوبه على غيره منكم لما قد فوضه الله تعالى إليه من أمور رعيته وفوضه عليه من النظر لأهل طاعته والزمه إياه من المحاماة عن حوزة الإسلام وبيضته لا بل ينبغي له أن يرتبط - نعم الله عليهم - بمجاهدة أعداء الله سبحانه في ديارهم كل عام وإزعاجهم عنها كما ينبغي لكل أمير وإمام لتكون أبدأ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ولتضعف أطماع أعداء دين الله عن الاهتمام بمثلها مرة أخرى.

فالعجب كل العجب من سلطان يتهنى بعيش أو يخلد إلى استقرار مع إضلال هذه النازلة التي مغبتها استيلاء هؤلاء الكفار والإخراج من البلاد بالقهر والاقتسار أو الإقامة معهم والتكبل والتعذيب في الليل والنهار.

٢ - أسباب الحملة الصليبية الأولى كما رآها المؤرخ المسلم ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ

(الجزء العاشر، سنة ٤٩١ هـ (١٠)).

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداد أمرهم، وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، وقد تقدم ذكر ذلك.

ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها، وقد ذكرت أيضاً، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية، فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره على ما تراه.

فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم برنويل (١) جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رُجار الفرنجي (٢) الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعتُ جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك، وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها، وأكون مجاوراً لك.

(١) ٤٩٧ في الأصل الفرنسي والأرجح أنه خطأ مطبعي (المترجم).

فجمع رُجار أصحابه، واستشارهم فى ذلك، وقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم،
وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رجله وحبق حبة عظيمة وقال : وحق دينى، هذه خير من
كلامكم ! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : إذا وصلوا إلى احتاج إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم
إلى إفريقية، وعساكر وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يُفلحوا
رجعوا إلى بلادى، وتأذيتُ بهم، ويقول تميم غدرتُ بى، ونقضتُ عهدي وتنقطع الوصلة
والأسفار بيننا؛ وبلاد إفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها.

وأحضر رسوله، وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فافضل ذلك فتح بيت
المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، وأما إفريقيا فبينى وبين أهلها أيمان وعهود.
فتجهزوا، وخرجوا إلى الشام، وقيل : إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة
السلجوقية، وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى
تمنعهم، ودخول أقبس إلى مصر وحصرها، خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج
إلى الشام^(٣) ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم^(٤)،^(٥).
فلما عزم الفرنج على قصد الشام. (...)

٢ - الرواية الوحيدة المحفوظة لشاهد عيان محلى على استيلاء الصليبيين على أنطاكية
(مترجم عن اللاتينية عن ترجمة الأب بيطرز عن النص الأرمنى).

رواية الراهب هوفائنس (يوحنا) موجودة فى نهاية مخطوطة قام هو بنسخها بدير سان
بارلام فى أعالي مدينة أنطاكية أثناء العمليات العسكرية لعام ١٩٠٨.

هذه السنة «افقد الله شعبه» كما هو مكتوب : «لا أهملكم ولا أترككم»، وصارت يد الله
القوية هادياً لهم. حملوا الصليب ويحملهم له فى البحر قتلوا عديداً من الكفار وجعلوا الآخرين
يفرون على الأرض، استولوا على مدينة نيقية التى حاصروها خمسة أشهر، ثم وصلوا إلى
بلدنا فى أقاليم قيليقية وسورية وعمروا حاضرة أنطاكية من خلال انتشارهم حوالىها. وزهاء
تسعة أشهر عرضوا أنفسهم والمناطق المجاورة إلى محن قاسية. وأخيراً لما لم يكن فى مقدور
البشر الاستيلاء على مكان مُحصَّن مثل هذا، أمدهم الله بالخلاص بواسطة تعاليمه وفتح لهم
باب الرحمة. فاستولوا على المدينة وبحد السيف قتلوا التينين المتكبر مع جنوده. وبعد يوم أو
اثنين تجمع حشد غفير حاملاً النجدة لأمثاله. ومن جراء ضخامة عددهم واحتقار قلة عدد
غيرهم كانوا متغطرسين على غرار قول فرعون : «سأقتلهم بسيفى وستغلب عليهم يدي».

وخلال خمسة عشر يوماً حل بهم القلق الأكبر وسحقهم الحزن إذ افتقر رجالهم ودوابهم لضرورات العيش، ونظراً لضعفهم الشديد وذعرهم من كثرة الكفار تجمعوا في البازيليك الكبرى للرسول القديس بطرس، ومع اشتداد الضخب وانهمار سيل من الدموع الغزيرة صدر صوت جماعي مدوي. وكان يطلبون على وجه التقريب ما يلي : «ربنا ويا مخلص المسيح ويا من نأمل وباسمه» «دعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً». واقتدنا إلى هذا المكان فإذا كنا قد أخطأنا في حقك فإن لديك كثيراً من الوسائل لمعاقبتنا، فلا تسلمنا إلى الكفار حتى لا يقولوا في زهو وتكبر : أين إلهكم ؟». لقد شجع بعضهم بعضاً بعد أن أسبغت عليهم الصلاة نعمها فقالوا : «الرب يعطى عزاً لشعبه وسيبارك الله شعبه بالسلام».

وبعد أن انطلق كل واحد منهم على فرسه وهجموا على الأعداء الذين كانوا يتهددونهم فشتوا شملهم وألجأهم إلى الفرار، فمزالوا يقتلونهم حتى غروب الشمس. فكان فرح غامر للمسيحيين وزاد نمود القمح والشعير بوفرة كما في أيام المتنزه على أبواب السامرة. لهذا تماهوا مع النشيد النبوي : «سامجدك يا ألهي لأنك تكفلت بي ولم تمنح بسببي الفرح إلى أعدائي»^(١).

٤ - احتلال الفرنجة لطرابلس (ابن أبي طي مذكور في تاريخ ابن الفرات).

كانت في طرابلس «دار العلم» التي لم يكن لها نظير في غناها وجمالها وقيمتها. فقد روى لي أبي أن شيخاً من طرابلس قال إنه كان مع فخر الملك بن عمار^(١) حينما كان موجوداً في شيزر^(٢) فجاءه. خبر استيلاء الفرنجة على طرابلس بفترة قصيرة أغمى عليه ثم عندما استفاق قال منتحباً «لا شيء يؤلنى قدر ضياع دار العلم ففيها ثلاثة ملايين كتاب^(٣) كلها في شؤون الفقه وعلوم القرآن والحديث والآداب. ومن بينها خمسون ألف نسخة من القرآن وواحد وعشرين ألفاً من كتب التفسير لكتاب الله العلي القدير». وأضاف أبي أن دار العلم هذه كانت واحدة من عجائب الدنيا وقد خصص لها بنو عمار ثروات ضخمة إذ كان بها مائة وثمانون من النساخين كانت تصرف لهم رواتب ومنهم ثلاثون ناسخاً يقيمون بها ليلاً ونهاراً. وكان لبنى عمار وسطاء في كل البلاد يقومون بشراء الكتب النفيسة والحق أن طرابلس في زمنهم كانت كلها داراً للعلم يأتى إليها جهابذة الفكر من كل البلاد وكان بها اهتمام بشتى أنواع العلوم من قبل هؤلاء الأمراء لذا كان يأتى إليها، بشكل خاص، أتباع علم الإمامة ممن لهم محبة بالدار والانتساب لها. وعندما دخل الفرنجة طرابلس وغزوا المدينة قاموا بحرق دار العلم لأن

أحد كهنتهم، عليه اللعنة قد أصابه الذعر عندما رأى هذه الكتب فقد وقع على ذخيرة من المصاحف، ومد يده نحو نسخة فوجدها قرآناً، ثم مد يده نحو أخرى فوجدها كذلك وثالثة حتى وصل إلى العشرين، فقال «هذه الدار لا يوجد بها غير نسخ من قرآن المسلمين» ثم قاموا بحرقها، على أنه تم انتزاع بعض الكتب التي انتقلت إلى بلاد المسلمين.

لقد دمروا أيضاً كل المساجد وكانوا على وشك قتل كافة المسلمين، غير أن مسيحياً قال لهم : ليس من الحكمة أن تقوموا بذلك فهذه مدينة كبيرة فمن أين لكم بالناس الذين سيقمون بها، ما ينبغي القيام به هو أن تفرضوا عليهم ضريبة الأعناق بعد أن تصادروا ممتلكاتهم وتجبروهم على السكن بالمدينة ولا تسمحوا لهم بالخروج منها وبذا يصبحون فيها كالمساجين فتستفيدون من إقامتهم بها. ثم إنهم... بعد أن ذبحوا عشرين ألفاً منهم.

أما الحاكم وبعض العساكر فقد التجأوا إلى قصر الإمارة، ودافعوا عن أنفسهم بداخله عدة أيام ثم طلبوا الأمان فكان لهم وبعد ذلك طربوا من المدينة وذهبوا إلى دمشق. ثم أمسك الفرنجة بالأعيان والمسيحيين (المحليين) الذين اعترفوا بأنهم أغنياء فضربوهم وعذبوهم إلى أن سلموا ثرواتهم. ومات الكثير منهم تحت التعذيب. وقسمت المدينة بين الفرنجة إلى ثلاث أقسام: إحداها للجنوية والآخران لبودوان ملك الفرنجة بالقدس وصنجيل اللعين.

لقد ذهل الناس من الاستيلاء على طرابلس وما أصاب أهلها من محن فقد تجمعوا في المساجد حداداً على موتاهم. واستبد بهم الخوف جميعاً، واقتنعوا بميزة الهجرة فرحل عدد كبير من المسلمين إلى العراق والجزيرة. والله أعلم... فقد جاء نبأ وصول الأسطول المصري إلى صور بعد ثمانية أيام من سقوط طرابلس. ولم يكن قد خرج من مصر أسطولاً مشابهاً له قط، فقد كان يحتوى على إمدادات ومؤن وأموال تكفى لتموين طرابلس لمدة عام. وعندما علم قائد الأسطول بنباء سقوط طرابلس، قام بتوزيع الإمدادات والأموال على صور وصيدا وبيروت وغيرها من المناطق الإسلامية القوية وعاده بالأسطول إلى مصر.

وأثناء الاستيلاء على طرابلس كان حاكمها فخر الملك بن عمار في ضيافة الأمير ابن منقذ ثم ذهب إلى جبلة واستقر بها بعد أن حمل إليها الإمدادات والأسلحة. وكان تانكريد (دنكري) قد قام قبل فترة قصيرة بمهاجمتها وشن معركة ضارية عليها، فاستنجد القاضي فخر الدين بالأمراء المجاورين وأشعرهم بغدر الفرنجة وأنهم إذا احتلوا هذا المكان فيزحفون على آخر وستعاضم قوتهم ربما لدرجة تسمح لهم بالاستيلاء على سوريا بكاملها فيطربون منها المسلمين. كانت رسالته مطولة تدمى القلوب وتدمع العيون لكن لم يجبه أحد.

ه - فقرات من رسالتين يهوديتين كتبتا صبيحة استيلاء الصليبيين على مدينة القدس (وفقاً لـ د. س. جواتين في نشرة الدراسات اليهودية، ١٩٥ ص ١٦٢ - ١٧٧ مقاله «الرسائل المعاصرة للاستيلاء على القدس»).

الرسالة الأولى :

كما تعرف، يا مولاي، فإننى قد تركت بلدى (١) منذ عدة سنوات راجياً رحمة الله باحثاً عن الرزق ومن أجل التعب بالقدس ثم العودة بعد ذلك. غير أننى عندما كنت فى الاسكندرية أحدث الله ظروف كان من نتيجتها بعض التأخير. ثم «صار البحر هائجاً» وظهرت عدة عصابات مسلحة فى فلسطين (...) وكان أن تمكن أحد الناجيين من الهرب من فلسطين بالتعام والمجىء إلى هنا ليخبرنا أنه كاد ألا ينجوا أحد بسبب كثرة العصابات التى قامت بتطويق كل المدن. كما كان هناك أيضاً الرحلة عبر الصحراء وسط البدو بحيث لو فر أحد من أيدي هؤلاء وقع فى أيدي غيرهم. وعلاوة على ذلك كانت التمردات تجتاح كل أنحاء البلاد وتصل حتى الاسكندرية بحيث حوصرنا نحن أنفسنا عدة مرات وخربت المدينة (٢) (...) غير أن النهاية سعيدة لأن السلطان (٤) - عظم الله انتصاراته - استعاد المدينة وأحل بها عدالة لا نظير لها فى تاريخ أى ملك فى العالم، إذ لم يسرق أحد درهماً واحداً من غيره. ونظراً لعدالته وقوته انتهى بى الأمر إلى أن أتمنى من الله أن يعيد إليه البلد وأن أتمكن من الذهاب إلى القدس. لهذا السبب جئت من الاسكندرية إلى القاهرة لأبشر منها الرحلة. ولكن عندما أعاد الله له القدس المباركة لم يستمر هذا الوضع كثيراً حتى أستطيع القيام بالرحلة، إذ وصل إليها الفرنجة وقتلوا كل من كان فى المدينة سواء من ذرية إسماعيل أو إسرائيل ومن نجا منهم سجن. ومذاك أطلق سراح بعضهم لكن بعضهم الآخر مازال فى الأسر فى كل أنحاء البلاد (٥). ويكل تأكيد كان أملنا جميعاً أن يجهز سلطاننا (٦) - عظم الله انتصاراته - حملة ضد الفرنجة ويطردهم لكن خاب أملنا مراراً. غير أننا فى هذه اللحظة (٧) بالذات لنا رجاء قوى من الله أن يخضع له أعداءه إذ لا مناص من أن تتضارب الجيوش فى هذه السنة. فإذا منحنا الله النصر من فضله واسترجع القدس إن شاء الله قلن أكون من أولئك الذين يتقاعسون بل سأتعبد فى المدينة وسأعرج على دياركم. وإذا لم يشأ الله ذلك واستحال القيام بالحج هذه المرة مثل المرات السابقة، فإن الله سيرفع عنى التكليف فى ذلك لأنه من كان فى مثل عمرى لا يسمح لنفسه بالتباطؤ. أرغب فى العودة إلى موطنى فى كل الأحوال غير أن أمامى احتمالين ممكنين فأما أن أرى القدس وإما أن اتخلى عن هذا الأمل. وأنت تعلم بالطبع

يا مولاي، ماذا حدث لنا منذ خمسة أعوام. فقد توالى علينا الأوبئة والأمراض والمتاعب بلا انقطاع طيلة أربع سنوات. وصار الأغنياء فقراء ومات عدد كبير من الناس بسبب الأوبئة التي قضت على أسر بكاملها، وأنا بنفسى أصبت بمرض خطير لم أبرأ منه إلا منذ عام كى أصاب بمرض آخر أيضاً..

الرسالة الثانية

(...) شكراً لله الذى منحنا الفرصة لإتمام هذا العمل الصالح ومنحك الفرصة للمشاركة معنا فى إتمامه. لقد أنفقنا الأموال لافتداء بعض المساجين بعد أن تمعنا فى التعليمات المتضمنة فى خطابك، وهذا يعنى أننا أرسلنا ما كان متوفراً لدينا إلى من تم افتدائهم من قبل (٩). ولم نتأخر فى الاستجابة لما طلبته منا غير أننا كنا نبحت عن يحمل إليك جوابنا. ثم انقضت علينا هذه الأمراض : الوباء والطاعون والجزام والتي ملأت قلوبنا بالقلق خشية أن نصاب نحن أنفسنا بها أو أحد أقاربنا. لقد ذهب رجل ثقة، من طرفنا ولا بد أنه فسر لك ما صار إليه أمر المبلغ الذى أرسلته لنا (...) لقد وصلتنا بعض الأخبار التى تفيد أن من بين الرجال الذين تم افتدائهم من الفرنجة ظلوا فى عسقلان (١) مع أنهم على وشك الموت بؤساً. وهناك مَنْ ظل فى الأسر، وبعضهم الآخر قد قتل أمام عيون الآخرين الذين قتلوا بعد ذلك خلال شتى أنواع التعذيب (..) فى النهاية أطلق سراح كل من أمكن افتدائهم مع بعض الاستثناءات، بما فيها حالة طفل عمره تسع سنوات ألح عليه الفرنجة فى التنصير بملء اختياره لكنه رفض (...) وحتى هذا اليوم فإن هؤلاء الأسرى لا يزالون فى أيدي الفرنجة، وكذلك عدد قليل ممن كان قد أُسِرَ فى أنطاكية، وذلك بغض النظر عن أولئك الذين ارتدوا عن دينهم يأساً من عدم افتدائهم وتحريرهم. ولم نسمع بالقول إن أولئك الألمان (٢) الملعونين قد اغتصبوا النساء كما كان يفعل الآخرون. ومن بين الذين تمكنوا من الخلاص كان هناك بعض من الذين أنقذوا اليوم الثانى أو الثالث من المعركة أو تركوا مع الحاكم الذى حصل على جواز مرور. وبعضهم من الذين وقعوا فى أيدي الفرنجة ظلوا بعد ذلك فترة من الزمن ثم دبوا خطة للفرار. غير أن أغلب من أطلق سراحهم كانوا من أولئك الذين تم افتدائهم. وللكسف فإن كثيرين قد أمضوا بقية حياتهم فى شتى صنوف المعاناة والآلام. لقد دفعتهم مظاهر الحرمان المختلفة التى توجب عليهم مكاببتها إلى مغادرة البلد بلا زاد ولا ملابس يقيهم من البرد فماتوا أثناء المشى مثلما مات غيرهم غرقاً. (..) [ويُفسر بقية الخطاب أن الثمن العادى لافتداء ثلاثة أسرى ربما بلغ مائة دينار (٣) غير أن كثيراً من المساجين الفقراء قد تم افتدائهم بمال أقل

ومع ذلك فقد اضطر كثير إلى الاقتراض ولا بد من حث كل الجماعات على إرسال الأموال في سبيل هذا العمل الصالح].

٦ - صراع جوسلين (١) وحلفائه المسلمين ضد تانكريد وحلفائه المسلمين.

رواية عربية معاصرة للأحداث مذكورة في تاريخ ابن الفرات (قارن : كاهن، سوريا الشمالية ص ٢٤٩).

... كان هناك بين جوسلين الفرنجي وتانكريد حاكم أنطاكية معارك عديدة وعداوة شديدة من جراء ظروف أثارت الشقاق والحرب. وكان تانكريد أقواهما نظراً لامتلاكه أنطاكية وكان جوسلين الأضعف نظراً لضآلة منطقة نفوذه وقلة موارده. لذا فإن جوسلين حينما رأى أنه عاجز على القضاء التام على تانكريد، عهد إلى ابنه رعاية البلد وتموين أماكنها الضخمة، وذهب إلى ملك الروم حيث توسل إليه طالباً دعمه. وقد حصل منه على خمسة عشر ألف دينار. وأثناء عودته لم يكن يمر في أية مدينة مسيحية، إلا وطلب منها المساعدات وحصل عليها. ثم ذهب الملعون إلى أمه نون أن يغير ثيابه المعزقة التي سافر بها ووزع الأموال على جنوده وحشد جيشاً كبيراً من الفرنجة وغيرهم.

في تلك الأثناء كان الملعون بودوان ابن (... ؟ البورجي) قد أطلق سراحه قبل فترة قصيرة. وقد لحقه جوسلين بجيش كبير وشرع في الإغارة على تخوم أراضى تانكريد وعندما اضطر الشاقلي (جاولي) (٢) إلى اللجوء لدى جوسلين نهب قرية من أراضى (تانكريد) الذي عدّ عدته للحرب ثم خرج من أنطاكية، وقد تم دعمه من قبل رضوان (٣) الذي تحدثنا عنه آنفاً (٤). وحدثت المعركة بالقرب من تل البشير في مكان يدعى (عبر). لقد خاف تانكريد من المسلمين الموجودين في الجيشين، وتقدم من بين الصفوف منادياً على جوسلين الذي تحدث معه. وكان الشاقلي (جاولي) ينظر إلى ذلك وهو لا يعلم أن من التقاليد الفرنجية أن يلتقى العدو مع عدوه لتوضيح الوضع ومقابلته، نون أن يخشى أحدهم أذى من الآخر، وخشى جاولي أن يتآمرا عليه، لكن تانكريد كان يحادث جوسلين في أمر المسلمين غير أن جوسلين لم يوافق على شيء فعاد تانكريد إلى رجاله ونودي أنذاك إلى المعركة.

لقد رأى جوسلين أن الشاقلي (جاولي) يقف بمنأى عن الجيش فذهب للقائه وقال له :
« لا يا سيدي هذه هي طريقتنا فلا تتخيل أمراً غير هذا، لكن جاولي لم يأخذ هذا الكلام مأخذ

الجد وظل على انفراد. ومع ذلك أمر صديقه سنقر دراز بأن يخرج بنفسه في أتون المعركة وقد وضعه الفرنجة في الميمنة. ووجه تانكريد هجمات عنيفة ضد جوسلين، وتلا هذه الهجمة الأولى التي هي من أعنف الهجمات شجار صاخب. وقتل سنقر عدداً كبيراً من الفرنجة.

ثم ابتعد الجيشان، وذهب كل منهما إلى معسكره استعداداً للهجمة التالية، وكان كل واحد من القائدين يهاجم خصمه متبوعاً بجيشه وكان جوسلين لا يبحث إلا عن تانكريد، وتانكريد لا يبحث إلا عن جوسلين، وكانا يوجهان لبعضهما بعضاً ضربات بالرمح والسيف، وكان كل منهما يظهر بسالته للآخر. ثم عاد الجنود من جديد إلى معسكرهم وقال تانكريد : «بقيت هجمة واحدة فإما أن يقتلني أو أن أقتله» وغير حصانه وأخذ رمحاً جديداً وأطلق صيحة الانتظام ثم هجم وفعل جوسلين الشيء ذاته والتقى وضرب كل منهما الآخر، إلا أن ضربة تانكريد سبقت ضربة جوسلين الذي سقط من فوق حصانه. عند ذاك هجم حاكم مرعش(ه) على تانكريد وأسقطه كذلك على الأرض. وساد الاعتقاد بأن جوسلين قد قتل وبما أن حاكم مرعش كان حامل بيرقه وأن الضربة التي وجهها إلى تانكريد كانت بهذا البيرق فإن رجال جوسلين لم يشاهدوا فقط قائدهم ملقى على الأرض بل رايتهم أيضاً ففروا. ولم يقتل أى فرنجى فرنجياً لكن تدخل المسلمون وقتلوا بأنفسهم بعض الفرنجة.

أما جوسلين فقد نهض وتوجه نحو قلعته. غير أن أمه منعتة من الدخول وقالت له : إلى أين أنت ذاهب ؟. بريك، أجب، أنا لم أهرب لقد أنهال تانكريد على بضربة رمح شديدة وواجهته في معركة حقيقية وهذه يدى تشهد على صدق أقوالى. لكنها ردت : كنت أفضل أن يصلنى خبر موتك على معرفة هزيمتك، لا أريد أن أصدقك قبل أن أذهب إلى تانكريد لأتأكد من صحة ما تقول. وخرجت فوراً وذهبت إلى تانكريد الذى استقبلها استقبالاً مميّزاً، وقالت له : «أتعرف سبب مجيئى إلى هنا» فأجاب لا، فقالت «وددت أكثر لو أماته الله عن أن أراه هارباً»، فقال لها، يا خالتي، إنه لم يهرب ولم يخش من ضربات الرمح، لقد سقط أرضاً رغماً عنه فهرب رجاله منهزمين. لقد ضربنى في ثلاث هجمات فوجهت إليه ضربات عديدة». لقد أكد فرسان عديدون ما قاله تانكريد فانصرف أم جوسلين (١).

٧ - رسالة مقترحة، مأخوذة من مجموعة نماذج مراسلية كتبت حوالى سنة ١١٢٥

(طبعة فانتيناخ :

Archiv Für Kunde österreichischer Geschichtsquellen XIV - 1855.

ج... ابن وليام الإمبرياكو إلى ف... شريكه ومواطنه... إن التجار العائدين من الاسكندرية لا ينقلون منك شيئاً مؤكداً سوى أنهم قد تركوك فى حالة جيدة، ولقد أدهشنى أنك لم تحاول أن ترسل لى التحيات عبر الرسائل ولا عبر مجرد كلمات وأنت قد استصغرت أو نسيت أن تبعث لى بمودتك. وأنا لا أريد مع ذلك أن أعود (إلى الاسكندرية) غير أننى أزورك عبر المراسلة زيارة الصديق الطيب والشريك الوفى مادمت غير قادر على المجيء بنفسى.

فلتعلم إذن بصورة واضحة أن زوجتك تدير شئون منزلك باتزان وحكمة كما هو جدير بسيدة بيت، وأن كل شىء يسير على ما يرام بلا أية حادثة وأن أبنائك نوا أخلاق حسنة وصحة جيدة، وأنا سعيد برفاهيتهم. ليس هناك ما يدعو للقلق، قم بأعمالك بعناية وانتظرنى فى الخريف القادم بالقسطنطينية حيث سأتى للقائك على باخرة بارى، وأجبنى بواسطة فيتال البندقى ابن بيير جيراردى، وقم بما قد ينفعنا من أعمال تجارية ويمكننا من تحقيق أفضل الأرباح.

أضف إلى ذلك أن زوجتك وأطفالك يحيونك، وزوجتك تطلب بإلحاح أن ترسل لها... من جزيرة أندروس مع... ومشط من العاج.

الجواب :

إلى ج... ابن وليام الإمبرياكو من ف... شريكه وصديقه الوفى... لقد قلقت لأننى لم أرسل لك التحية كتابة ولا حتى شفاهية، لكن ليس هناك ما يدعو للقلق لو عرفت أسباب ذلك. لقد ذهبت فى الحقيقة إلى الإسكندرية لأمضى بها نصف يوم من أجل أعمال نافعة، وانتظرت ثلاثة أيام التجار المصريين الذين أنهيت معهم بنجاح كل الأمور. ومع عودتى آنذاك لم أجد شركائى لأنهم ذهبوا مع مبعوثى أمير بابل (القاهرة) الذين كان يمكننى أن أذهب معهم فى أمان إلى القسطنطينية.

بعد ذلك أصابتى حمى شديدة ألزمتنى الفراش لمدة شهر، وبمنعمة الله شفيت منها بفضل طبيب ماهر، وأنا الآن فى صحة جيدة. لقد عالجت بجدية كل الشؤون التجارية حيث بعث كل البضائع التى حملتها بالثمن الذى اتفقنا عليه معاً، واشترت البضائع التى أعرف مقدرتى على تصريفها تصريفاً مربحاً بإيطاليا.

تعال إلى فى التاريخ المذكور فى خطابك، وأحضر لى معك... لأن كل هذه الأشياء مفيدة جداً بالقسطنطينية والاسكندرية إذا مكثت بها وقتاً طويلاً.

بلغ سلامى لزوجتى التى هى قطعة من جسدى، وقد أرسلت إليها كل الأشياء المذكورة

فى خطابك وأكثر من ذلك فقد أرسلت لها خاتماً ذهبياً جميلاً حتى تضعه فى إصبعها كل يوم حتى إذا ما شاهدته عدت إلى قلبها، وانقل لأبنائى بركتى الأبوية.

٨ - رسالة العباس، وزير الخليفة الفاطمى الظافر، إلى البيازنة،

(Amari, Diplomi Arabi, I, p. 241 sq.)

عندما وصل إلينا سفيركم راينيرو بوتاسيو حمل إلينا رسالتين من رئيس الاساقفة فيلانو وقناصلة وأعيان مدينة بيزا، ومن خلالها أعلمتمونا أن تجاراً من عندكم وهم أخوتكم وأقربائكم الذين أوفدتموهم إلينا كما يفد الابن إلى أبيه قد اعتقلوا السنة الماضية، وانتزعت منهم كثير من ممتلكاتهم، وهو أمر غير جدير بمملكة كبيرة أكثر هيبة من كل ممالك الأرض، لهذا السبب أرسلتم لنا هذا السفير فى ظروف لا تتصرفون فيها كما فعلتم إلا فى القضايا الكبرى على متن سفينة شراعية حربية، بينما كان يأتى عادة على متن سفينة مدنية، بغرض أن يسوى الأمور وفقاً لتقديره، وقد طلبتم أن نهتم بهذه المسألة على وجه السرعة وأن نعيد إرساله لكم كذلك، مع الإيضاح بأن أحداً من تجاركم لن يأتى بعد عندنا حتى عودته وأنكم تصرحون بالموافقة (مقدماً) مع أى اتفاق يوقعه سفيركم.

لذا أوضحنا لسفيركم أن الضرر الذى لحق بتجاركم والذى شكاه منه لم يكن ضرراً صحيحاً والحقيقة هى كما يلى :

لقد علمنا أن تجارنا بالاسكندرية الذين صعدوا، بثقة كاملة، مع تجاركم على الباخرة نفسها قد قتلوا غدرًا، فقد قيل لهم إنهم لمحو قراصنة فرنجة، ولهذا أنزلوهم فى حوض السفينة حتى ألقوا بهم الواحد بعد الآخر فى البحر، وبعدها استولى رجالكم على زوجاتهم وأطفالهم وثرواتهم. ويقضى القانون باعتقال المذنبين وأقربائهم وفقاً للمعاهدة الموقعة بيننا وبينكم وأن نسجن تجاركم الموجودين عندنا حتى ترسلوا لنا المذنبين مع الغرامة وعائلات الضحايا. ومن جهة أخرى أوضح لنا سفيركم أن كثيراً من رعاياكم تم احتجازهم عندنا فأجبناه بأن الأمر يتعلق ببيازنة قبضنا عليهم أثناء محاربتهم لنا مع الفرنجة وإمدادهم بالنجدة والتموين^(١) بينما المعاهدة الموقعة بيننا وبينكم تنص على أنه إذا وجدنا البيازنة مع الفرنجة على نفس السفينة فإن البيازنة يعاملون معاملة الفرنجة.

وبعدها قمنا بمفاوضات طويلة مع سفيركم (...) وقد وعد سفيركم مع شركائه (...)

بالمحافظة على الإخلاص التام لنا ومعاملة رعايانا، الذين يلتقون بهم، بدون خداع، وأنهم لن يعتقدوا أى اتفاق مع الفرنجة ولا مع أى أحد يمكن أن يكون عدواً لنا لا براً ولا فى موانئنا. ولن يقوموا بأى اعتداء على جيشنا سواء أكانوا وحدهم أو مختلطين مع غيرهم، وألا يأتى أحد من تجاركم بفرنجة سورى متخفياً فى ثوب تاجر عن عمد. وأنكم لن تنالوا من مملكتنا بواسطة أى وعد كبير من قبل شعب آخر سواء كان مسيحياً أو مسلماً... وأن البيازنة الذين سنجدهم فى سفن الذين يحاربوننا سنقبض عليهم وسنعدمهم (...) وإذا حدث أن عاد أحد من جانبكم من جديد ليرتكب جريمة مشابهة لتلك التى تحدثنا بشأنها فينبغى عليكم تسليمه لنا فى أقرب مكان ممكن مع تقديم كل التعويضات المستحقة. وقد طلب سفيركم أن نمنحكم مهلة عام لتسوية الأمر وبعد هذه المدة سيعتقل كل البيازنة القادمين عندنا وستحتجز ثرواتهم وحقوقهم أيا كان نوعها.

والآن نمنحكم امتيازاً بالنسبة للذهب والفضة وكل شؤونكم التجارية بالاسكندرية، والآن بالإقامة فى فندق بالاسكندرية. وكل ما ستبيعونه، بعد دفع ضريبة الجمر، يمكنك حمله داخل مملكتنا كما يمكنك أخذه عندكم كما تشاعون باستثناء الخشب والحديد والقطران حيث أن هذه المواد الثلاثة يتم شراؤها من قبل جمرتنا بالأسعار الراهنة. وإذا مات أحد رعاياكم عندنا فإننا نسلم ممتلكاته لأحد أقربائه إن وجد أحد منهم هنا، فإذا تعذر ذلك سلمناها شركائه الذين يمكننا العثور عليهم وذلك عن طريق إيصال مكتوب. من جهة أخرى طلب منا سفيركم راينير بوتاسيو أن نعيد، فى الوثيقة التى نحررها بشأن إقامة السلام، ذكر الامتيازات التى منحناها لكم سابقاً، كما يلى : العرف و... إعفاء كامل، الزوارق الصغيرة التى تنزلون منها أو تبحرون فيها من جديد (إعفاء)، وحول المزايدات تكون الأسبقية فى البيع للسفن التى تاتى أولاً، ويجب أن يدفع لكم كل ما تبيعونه بالجمر كل سبت، كما نمنحكم أيضاً فندقاً فى بابل (القاهرة) والإعفاء من الضرائب على الفضة. وقد طلب سفيركم أنه فى حالة إذا ذهب أحد البيازنة إلى القبر المقدس على سفينة من غير سفن العصابات وتم القبض عليه من قبل أسطولنا فإننا نفرج عنه وعن أمتعته عند استلام خطابكم. ونأذن لتجاركم بالمجئ إلى القاهرة متى أرادوا وينبغى أن يعامل تجاركم معاملة حسنة فى كل مملكتنا (...). فقد وعد سفيركم باسمه وباسم مدينة بيزا بالبحث عن مرتكبى الجريمة ضد رعايانا وإذا لم يمكنكم العثور عليهم أرسلوا لنا الممتلكات والأسر و(ضريبة) الدم.

[ألحق بهذا الخطاب الوجه إلى رئيس الأساقفة خطاباً آخر موجه إلى المدينة يعيد ذكر

هذه المصطلحات مع توضيح أن البيازنة يمكنهم العيش بالاسكندرية «وفقاً لقانونهم» وأن الحكومة المصرية منذ زمن بعيد قد منحت البيازنة تخفيضات فى الضرائب أعلى من التى أعطتها للروم وحتى للمسلمين. وأن سفيراً سابقاً قد أقسم بأن البيازنة سيعاملون التجار المصريين، الذين فى إمكانهم الالتقاء بهم، براً أو بحراً، معاملة مستقيمة وأنه ليس من اللائق طلب تغيير العرف وأن ضريبة الجمرک هى ١٢٪، وأن كاتب هذه الرسالة يبعث إلى البيازنة قارورة من البلسم. إن من يجب إطلاق سراحهم من البيازنة هم تسعة عشر وقد مات عشرة منهم. وتسعة قالوا أنهم من الجنوية. وقد أخذ عبد الله ثلاثة منهم ألقوا بالجيش، وثمة أحد عشر لم يتم التمكن من العثور عليهم، وقد سلم إلى داينديو خمسة وعشرين (هكذا). ١٧ فبراير ١١٥٤]

٩ - العاملون بمزادات جمرک الإسكندرية وأجورهم

(المخزومى، كتاب المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، ملحق حوليات إسلامية رقم ٨، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦).

ما يجب على التجار الصقليين المعشرين^(١) من جميع البضائع وغيرها وهو عن كل مائة دينار العشر عشرة دنانير وليس يلزمهم قوف ولا غيره.

الطرح الذى يقرر فى حلق الخمس فى كل يوم يعقد فيه حلقة^(٢) من المشترين على ما يتقرر بقدر المباشرة^(٣) وبقدر المبيع، وهذا شئ يشعر به المشتري والبائع عند عقد الحلقة. ويُعين مبلغ الطرح فى كل بيعة، والذى يجمع من ذلك يُطلق منه على أرباب الحلقة على ما يأتى تفصيله : دينار واحد وثلاثى.

المنادى : ربع دينار

المستخدمين : دينار واحد وربيع وسُدس، تفصيله :

من يقبض كل منهم قيراطين و(المجموع) دينار واحد : حامل مفتاح الصناعة^(٤)،
الوزان بالقبان، الرقاصين الذين يجمعون الحلقة، المقلبين الذين يقلبون البضائع ويظهرونها من

(١) المعشرون : الخاضعون للعشر.

(٢) الحلقة : حلقة بيع بالمزاد.

(٣) المباشرة : المعاملة.

(٤) الصناعة : المصنع أو الورشة.

أوعيتها، الجبابة، الخازن بخزانة الصناديق وغيرها، الأمناء على المراكب، الختم لمن يتولى ختم المخازن وقت فتحها وغلقها، المفتشين بباب الصناعة، صبيان الخيمة (٩) الذين يحفظون البضائع، صبيان القارب الذين يترددون في القارب لإحضار البضائع من المراكب إلى الصناعة.

من يقبض كل منهم ثمن دينار (والمجموع) ربع دينار : الحراس بالصناعة، الحمالين في وسط الحلقة برسم تنقيب البضائع.

من يقبض كل منهم قيراط (والمجموع) سدس دينار : قيم المسجد بالصناعة، الضعفاء، المدين (٩)، الصيَّاح وهو الذي ينذر بالأصناف الذي تعقد (التي تعقد) عليه (عليها) الحلقة.

١٠ - مقطع من مخطوط سيريانى كولوفون Colophon القدس ١١٤٨.

(طبعة وترجمة إنجليزية في حولية المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس رقم ١١ - ١٩٢١ و. ر. تايلور).

في هذه السنة التي اندلعت فيها الأحداث، أى عام ١٤٥٩ وفقاً للتقويم اليونانى (١١٤٨ الميلادى) كانت القدس ممثلة بأعداد هائلة من الفقراء، وكان هناك نقص فى المواد الغذائية وكافة الأشياء الضرورية (...). كثير من فقراء القدس ماتوا جوعاً وكثير غيرهم كانوا يهاجمون الأديرة بحثاً عما يقيم أودهم. فى نفس الفترة لم تكن أديرتنا غنية بحيث تسمح بتلبية حاجات هؤلاء الفقراء لأن مصادرها كانت تكفى بالكاد لتلبية حاجات الرهبان غير أن الفقراء ألحوا على مطالبهم، وكان أهل الرها الذين هزموا (١) وكان عليهم أيضاً أن يهتموا بأسراهم فى الحرب، قد قدموا إلى القدس بشكل خاص لأنه لم يكن هناك أى ملجأ آخر إلا أديرتنا حيث كنا سعداء بمساعدتهم سواء بالذهب لافتداء أسراهم أو بالخبز لسد حاجتهم أو بالملابس من أجل كسوتهم.

كان أبونا المقدس انياس يسد حاجاتهم بفرح لأنه كانت به شفقة على كل الفقراء سواء كانوا من طائفتنا أو من طائفة الفرنجة لكنه كان حزيناً ومتضيقاً لعدم قدرته على القيام بما هو أكثر. عندما لمح ربنا إرادته الطيبة أشار إليه بأمر قرية تدعى دكارية (٢) كانت تنتمى إلى الدير قبل الفتوحات الإسلامية ثم أخذها المسلمون وهى الآن فى أيدي الفرنجة بوصفهم

حكاًماً للبلد. وثقة بالله ويعونه ذهب إلى لقاء الملك السير بودوان ابن فوك وأمه الملكة مليزنيـد وطرح عليهما القضية. وبما أنهما كانا ملهمين من الله وكان لديهما احترام كبير لأنياس فقد قدما له مساعدة كبيرة. فقد طلبا من مالك القرية إرجاعها إلى دير مريم المجدلية المقدسة وطلب الملك من أبينا أن يعطى المال للمالك فيسترد القرية شراء ويحصل بذلك على وثيقة مشهود بها ومختومة رسمياً. وامتنالاً لهذه الأوامر استرد أنياس القرية بمبلغ طائل يناهز ألف دينار من الذهب الأصفر واستلم وثيقة مشهود بها ومختومة بالختم الملكى.

وبما أن أنياس كان يتخذ من محبة الله وسيلة للامتثال لأوامره بإطعامه الفقراء فقد أمدّه الله بثمن القرية من مصادر غير متوقعة. ويعون الله كذلك بدأ ببناء قصر وكنيسة وحولهما بعض المنازل. ونحن ندعو الله بإتمام هذه المشروعات كما كان المعين دائماً فى كل شىء. وبارك الله فى أسقفيته وحياته وأذل أعداءه.

١١ - رسالة من سجين مسلم لدى الفرنجة

(نص من وثائق الجنيـزة نشره س. د. جواتين ترجمة كلود كاهن فى Mélanges Labande سنة ١٩٧٤).

أعلم (القائد معز) حفظه الله ورعاه بعنايته وصحبته ولا ... أنه لم تعد تصلنى أى أخبار منكم... روحى قلقة لا أعرف من هو حى ومن هو ميت، ولم تصلنى أدنى رسالة تطلعنى على أخباركم وما يتعلق بكم، ومع ذلك فإن قلبى معكم. عندما يصلكم هذا الخطاب أسرعوا بالرد مع أول قادم حتى يهنا قلبى فاللمرء أهل حيث ينهض ويسجد وهو ما يحفظه، وأنتم قد توقفتـم عن إيصال أى خبر عنكم لى. أنا لا أعاتبكم لأننى لم أقسم بأى شىء يقتضى إلقاء اللوم عليكم ولكن الإنسان ينهض ويسجد والناس فى مصر عددهم كبير، كما هو عدد الناس الذين يتصدقون ويسيرون فى طريق الله العلى القدير. فلا تنسونى أبداً وأنتم تعرفون المحنة والأسر الذى أنا فيه وعجلوا بالإجابة على هذا الخطاب بسرعة، وأطلعونى عن الأحياء والأموات وأخبرونى (بما صار إليه أمر) مرهف ولا تخفوا عنى شيئاً من أموركم، وسلموا على معز الدولة وأولاده ولكم منى جميعاً خالص وأتم السلام وسلامى إلى كل من تشملهم عنايتكم، وأجيبوا بسرعة على خطابى بدون تعطيل ولا باعث مع أول قادم.

على الظهر : من قبل أخيكـم سـمسم السجين فى نابلس(١). عليه أن يصل إلى القاهرة

بمصر - حفظها الله - بحى الباطلية (تحت الممر) إلى منزل معز الدولة... العربى والذى سينقلها إلى ورثة صارم الدولة القو(٢)...

١٢ - حالة سجن بسبب الدين

(رسالة من وثائق الجنيزة وفقاً لترجمة إنجليزية نشرها س. د. جوايتين استناداً إلى مقاله المنشور باللغة العبرية فى مجلة «هيروشلايم» ٢/ ٥ - ١٩٥٥ ص ٦٠ - ٦٢) (١).

باسمك يا رحيم

«مبارك الرجل الذى يتكل على الرب، إلخ» (سفر أرميا ٧ - ١٧).

هدف هذه السطور يا بنى العزيز، أطال الله عمرك وحفظك ورعاك، أن أخبرك بنفاد صبرنا وقلقنا لغيابك فعسى أن يجمعنا الله قريباً فى ظروف أسعد.

والآن لو كنا نعرف أن بمقدورك أن تنسى طفلك وزوجتك وأن تنزعهم من قلبك لما ساعدناك قط على القيام بهذه الرحلة لكننا كنا نحرص على أفضل مصالحك واعتقدنا أنك ستعود سريعاً غير أنك لم تفعل ذلك فاقمت فى عدة جهات من مناطق أجنبية. قل لنا : ما هى نواياك ؟ من الذى لا يفكر فى زوجته وطفله ؟ هل شاهدت أحداً يتصرف مثلك حملك على أن تتخذ مسلكه ؟ انظر سعيد، هذا الغريب(٢) الذى كتب خطاباً - والناس تشهد بصدق ما كتبه- جاء فيه أنه يصوم أغلب الوقت على أمل أن يجمع الأموال اللازمة لإطلاق سراح زوجته وطفله أما أنت الذى يعرف جيداً عاقبة هذا الأمر فتظل بارداً فى قلبك وعقلك.

والآن أسرع بالعودة إلينا فور إطلاعك على هذه السطور ولن يتخلى الله عنك ولا عنهم فأهل(٣) دمشق وصور وعكا يبذلون كل ما فى وسعهم فى سبيل الأجانب. والحق أننا لم نكن نخال أنه من الضرورى أن نكتب لك كل هذا. عد إلينا مهما كانت الظروف وعندما تكون هنا يمكننا أن نعطى وعوداً إلى الكونت والسيدة الحاكمة بطبرية(٤) وأن ندفع لهم مقدماً مبلغ عشرين ديناراً حتى يفرجوا عنهم وستكمل فيما بعد ما عليك أن تدفعه.

إنهم لم يعاملوا بهذه القسوة إلا لغيابك عنهم طوال هذه المدة. وحتى لو كنت فى الهند لأمكنك أن تعود. ولاشك أن مصاحبة المصريين ومطعمهم ومشربهم وموسيقاهم قد سحرتك. ألم نتفق سوياً على ألا يمتد غيابك أكثر من شهرين ؟ ما الذى استبقاك كل هذه المدة ؟ لم تقل لنا قط -ها الذى تفعله على وجه الدقة ولم نتسلم منك أى رسالة تتضمن وصفاً مقنعاً أو تبين

المبلغ الذى جمعت بل تركت زوجتك وطفلك فى السجن بدون أن تكثرث لذلك. نتوسل إليك إذن أن تعود فوراً وستعاون نحن الاثنين لإخراجهم من هنا وسينجيهم الله برحمته حتى ولو اقتضى الأمر أن أهب للبحث عنك فى جميع البلدان. لا تيأس فإله لن يتخلى عنك. خالص تهنئتي إليك وإلى أصدقائك. «الرب يعطى عزا لشعبه، الرب يبارك شعبه بالسلام» (المزمور : ١١ - ٢٩). والسلام...

العنوان : إلى مصر (الفسطاط). إلى أبى الحسين بن أبى الخير العكاوى حفظه الله من قبل خاله زادوك بن ر. نامير عضو الاكاديمية.

١٢ - طبيب لدى الملك عمورى وصلاح الدين

(وفقاً لابن أبى أصيبعة ترجمة كلود كاهن فى «محلين وصلبيين»).

كان طبيباً نصرانياً بمصر فى زمن الخلفاء، وكان حظياً عندهم، فاضلاً فى الصناعة الطبية، خبيراً بفقها وعملها، متميزاً فى العلوم. وكان من أهل القدس، ثم انتقل إلى الديار المصرية. وكانت له معرفة بالغة بأحكام النجوم.

حدثنى الحكيم رشيد الدين أبو حليقة بن الفارس بن أبى سليمان المذكور قال : سمعت الأمير مجد الدين أخا الفقيه عيسى، وهو يحدث السلطان الملك الكامل بشر مساح عند حضوره إليه، بعد وفاة الملك العادل، ونزول الفرنج على ثغر دمياط من أحوال جدى أبى سليمان داود ما هذا نصه قال : كان الحكيم أبو سليمان فى زمان الخلفاء، وكان له خمسة أولاد، فلما وصل الملك مارى (عمورى) إلى الديار المصرية أعجبه طبه فطلبه من الخليفة بها، ونقله هو وأولاده الخمسة إلى البيت المقدس، ونشأ للملك مارى ولد مجذم فركب له الترياق الفاروقى بالبيت المقدس، وترهب وترك ولده الأكبر وهو الحكيم المذهب أبو سعيد خليفته على منزله وأخوته.

واتفق أن ملك الفرنج المذكور بالبيت المقدس أسر الفقيه عيسى، ومرض فسيره الملك لداواته. فلما وصل إليه وجده فى الجب مثقلاً بالحديد فرجع إلى الملك وقال له : إن هذا الرجل نونعمة. ولو سقيته ماء الحياة وهو على هذا الحال لم ينتفع به. قال الملك : فما أفعل فى أمره؟ قال : يطلقه الملك من الجب ويفك عنه حديدته ويكرمه فما يحتاج إلى مداواة أكثر من هذا. فقال الملك : نخاف أن يهرب وقطيعة كثيرة. قال للملك : سلمه إلى وضمانه على. فقال له : تسلمه

وإذا جاءت قطيعته كان لك منها ألف دينار. فمضى وشاله من الجب وفك حديدته، وأخلى له موضعاً في داره ستة أشهر يخدمه فيها أتم خدمة. فلما جاءت قطيعته طلب الملك الحكيم أبا سعيد ليحضر له الفقيه المذكور فحضر وهو صحبته، ووجد قطيعته في أكياس بين يديه فاعطاه منها الكيس الذي وعده به. فلما أخذه قال له : يا مولانا هذه الألف دينار قد صارت لي أتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم ؟ فقال له : نعم. فاعطاها للفقيه في المجلس وقال له : أنا أعرف أن هذه القطيعة ما جاءت إلا وقد تركت خلفك شيئاً وربما قد تدنى لك شيئاً آخر فتقبل مني هذه الألف دينار اعانة نفقة الطريق. فقبلها الفقيه منه، وسافر إلى الملك الناصر.

واتفق أن الحكيم أبا سليمان داود المذكور ظهر له في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة، فقال لأحد أولاده الخمسة وهو الفارس أبو الخير بن أبي سليمان داود المذكور، وكان هذا الولد قد تربى مع الولد المجذم ملك البيت المقدس، وعلمه الفروسية، فلما توج الملك، فرسه وخرج المذكور من بين أخوته الأربعة الأطباء جندياً. وكان قول الحكيم أبي سليمان لولده هذا بأن يمضى رسولا عنه إلى الملك الناصر، ويبشره بملك البيت المقدس في الوقت المذكور. فامتثل مرسومه ومضى إلى الملك الناصر. فاتفق وصوله إليه في غرة سنة ثمانين وخمسمائة، والناس يهنتونه بها وهم على قاميه، فمضى إلى الفقيه المذكور ففرح به غاية الفرح، ودخل به إلى الملك الناصر، وأوصل إليه الرسالة عن أبيه، ففرح بذلك فرحاً شديداً، وأنعم عليه بجائزة سنية، وأعطاه علماً أصفر ونشابة من رنكة. وقال له : متى يسر الله ما ذكرت اجعلوا هذا العلم الأصفر والنشابة فوق داركم فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم. فلما حضر الوقت صبح جميع ما قاله الحكيم المذكور فدخل الفقيه عيسى إلى الدار التي كان مقيماً بها ليحفظها، ولم يسلم من البيت المقدس من الأسر والقتل ووزن القطيعة سوى بيت هذا الحكيم المذكور. وضاعف لأولاده ما كان لهم عند الفرنج، وكتب له كتاباً إلى سائر ممالك برأ وحرراً بمسامحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى، فاعفوا منها إلى الآن. وتوفى الحكيم أبو سليمان المذكور بعد أن استدعاه الملك الناصر إليه، وقام له قائماً وقال له : أنت شيخ مبارك، قد وصل إلينا بشراك، وتم جميع ما ذكرته فتمن على. فقال له : أتمنى عليك حفظ أولادى. فأخذ الملك الناصر أولاده واعتنى بهم، وأعطاهم للملك العادل، ووصاه بأن يكرمهم ويكونوا من الخواص عنده وعند أولاده، وكان كذلك.

١٤ - خطاب إنوسنت الثالث إلى بطريارك أنطاكية (١١٩٩ هـ يناير ١١٩٩)

(مقطع من سجل إنوسنت الثالث - السنة الأولى - الخطاب ١٢ هـ وفقاً لميني Migne, Patrologie Latine, t. 214, col. 474.)

... إن السهر على منع الإضرار بالحرية الكنسية أو اضطهاد وزراء الكنائس من قبل رجال منحرفين، يعود إلينا بعناية خاصة نظراً إلى وظيفتنا - وهي خدمة الغير - فنحن مسؤولون من الجميع بصفة خاصة. والحال أنه قد ترمى إلى مسامعنا أنه عندما تدعو الحاجة إلى القيام ببعض النفقات داخل مدينة أنطاكية فإن مجلس هذه المدينة يفرض على الكنائس والكهنة ورجالهم مهما كانت ظروفهم ولغاتهم، ابتزاز ضريبة متعارضة مع العرف القديم والإدعاء بالحصول عليها وصرفها وفقاً لإرادتها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه مع سوء المعاملة نحوك ونحو كنائسك من نواحٍ عديدة، يريدون إرغام كل كهنة أنطاكية على المثول أمام القضاء المدني تحت ذريعة تعهدهم (المدنى). ومع سعيهم للتعامل مع الممتلكات الكنسية ذاتها وفقاً للأحكام والأعراف اليونانية يتعسفون في تحويل حقوق كنيسة اللاتين إلى أعرافهم. لذا نرفض الصبر على مثل هذه التجاوزات ونحرم تحريماً قاطعاً باسم هذا المكتوب، التجرد على القيام بمثل هذه الانتهاكات والأضرار تجاهك أو تجاه الكنائس أو الكهنة أو رجالك. فإذا جازف أحد، رغم ذلك، بإقدامه على مثل هذه الأعمال فإننى أبيع لك أن تصدر بشأنه رقابة كنسية متشددة باسم السلطة البابوية، لذا لا لأحد أن ...

محرر في لاتران في يناير.

١٥ - وثيقة أنطاكية العربية المسيحية الوحيدة المحفوظة

(Cuza, *I Diplomi ed arabi di Sicilia*, 1 - 2, p. 645 - 49). كلود كاهن، وثيقة

متعلقة بالملكيين في مجلة الدراسات البيزنطية ١٩ - ١٩٧٩، ص ٢٨٥ - ٢٩٢. قارن : جان ريشار، الكنيسة اللاتينية والكنائس الشرقية في دول الصليبيين في (Mélanges Dau-villiers, 1979).

باسم الأب والابن والروح القدس، أقول أنا يوحنا شماس الحرم المقدس لكنيسة سان بطرس إن أرنو رئيس دير نوتردام جتسمانى، أعطانى الكنيسة المخربة المسماة بالشبوية مع

كل ملحقاتها من الأرض والأشياء الأخرى وحرر وثيقة لاتينية فى هذا الشأن. وظل المكان فى حوزتى حتى اللحظة الراهنة. لكن تراكمت على الديون دائماً نظراً لخراب الكنيسة. ثم ... عرفت كاهناً رضى الله عنه واسمه كيرمارى ابن الابريقىلى (؟) وطلبت منه أن يمتلك المكان وأن يعيد بناء الكنيسة وهو ما كنت سأساعده عليه من جانبى حتى يخلد اسمى واسم ولدى بها غير أنه لم يقبل إلا بشرط ملكيته لها ملكية كاملة ودائمة بالشروط نفسها التى تحققت لى وتوقف الأمر عند هذا الحد لأننى لم أجد شخصاً آخر غيره يريد استغلال المكان نظراً لخرابه وتلفه.

عند ذاك علمنا أن رئيس دير كنيسة سانت مارى لاتين الأخ بايان، وهو إنسان نبيل، كان يدير ممتلكات كنيسة نوتردام جتسمانى بأنطاكية. وهو حامل لأمر من رئيس دير نوتردام جتسمانى، الأخ آدم وكل الأخوة فى الدير المذكور، ينص على أن كل ما سيفعله بخصوص شؤون الدير سيصبح أمراً نافذاً. لذا ذهبت إليه للقاءه وإيضاح الموقف له. وقد جاء إلى المكان المذكور ووجده مخرباً فلم ير للدير فائدة صغيرة أو كبيرة تجنى منه. وعندها استقدمت الراهب المذكور وسلمته الوثيقة اللاتينية التى كانت فى حوزتى فسجل رئيس الدير المكان بواسطة السيد قاضى الحرم المقدس لكنيسة سان بطرس وهو السيد سيمون أدام الله حفظه، وقد صرح بأن المكان يصبح منذ ذاك اليوم ملكاً دائماً له ولورثته وأنه تؤدى للدير المذكور مبلغ دينارين ونصف دينار منها دينار واحد يؤدى نقداً كل سنة فى شهر أغسطس وذلك بعد تسليم الضريبة لمدة عامين ابتداء من السنة الحالية بهدف أن يساعد ذلك الأمر الشخص المستفيد على إعادة بناء الحرم المذكور، وكانت بداية تسديد المال لصالح نوتردام دى جتسمانى فى شهر أغسطس من السنة الثالثة. وكان لزاماً على الراهب أن يبدأ فوراً فى إعادة بناء الكنيسة وإدارة شؤونها وترميمها وضربيتها السنوية... ويكون مسؤولاً دائماً عن ضربيتها.

ولن أفرض عليك أنا بايان رئيس الدير ولا الدير ولا أحد من خلفائى فى إدارة نوتردام دى جتسمانى زيادة درهم واحد أو ما يعادله، منذ الآن فصاعداً لك ولن يحل مكانك التصرف الكامل فى هذا المكان وبهذه الطريقة فإن كل المسجلين المكلفين بالضرائب يديرون ضرائبهم بصفة دائمة ومستمرة مع تحكم كامل وسلطة فعالة فيزدهر المكان ويكبر تحقيقاً لحقوقك واحتياجاتك كما تريدها وتختارها بدون أن تنشأ أى عقبة من أى نوع لك أو لمن ينوب عنك. وإذا تأخرت فى دفع الضريبة فى الموعد المحدد وإذا انصرفت سنة مهما كان هذه السنة ومرت خمسة عشر يوماً من السنة التالية فإن الدير المذكور يمكنه احتلال المكان وتحصيل الضريبة

كاملة ويعدّها يؤول المكان إليك، وإذا ما تمكن أحد المغرورين من تمزيق هذا المكتوب (والعيان بالله) حقداً عليك بسبب هذا المكان أو على من ينوب عنك، أو على كل من توصل بهذه الوثيقة فإنه يقع على الدير المقدس مهمة تقديم المعارضة وإبعاده والدفاع عنك أو عن من ينوب عنك دفاعاً قانونياً بمستندات جاهزة وأن يضمن المكان لك أو لمن يحل مكانك بدون أى ضريبة.

وهذا المكان محدد من الجهات الأربع على النحو التالى : فى جهة الشرق بالشارع الذى يحيطه وفى الغرب بالميدان والخراب تحت الدير ومن جهة الجنوب بمنازل وحديقة يانى الكاميدارى وحديقة يارى بن ماردلا. أما فى الشمال فيحده الشارع كذلك وأرض السيد... وهى اليوم فى أيدي وريثه النوميكوس رومانوس ومن هذه الجهة ينفتح الباب الذى يعطى منفذاً للدخول والخروج من الشارع المتاخم لهذا المكان. إثباتاً لذلك كتبت لك هذه الوثيقة لتكون لك أنت وحدك بعد أن قرأت لى أنا رئيس الدير بايان والشماس يوحنا وترجمت وفهمناها ووضعنا بأيدينا الصليب فى أعلاها وطلبنا الشهود وقد وقعت عليها أنا بايان رئيس الدير بختم الشمع فى طرفها. وقد حررت فى العشر الاواخر من شهر أذار (مارس) فى السنة الجارية للعالم ٦٧٢١ (١٢١٣م) وإلى الله نلتجئ.

١٦ - قضايا مالية فى مصر الأيوبية

(مقاطع من كتاب لمع القوانين المضية للنايلسى - تحقيق س. بيكر وكلود كاهن فى نشرة الدراسات الشرقية XVI / ١٩٥٨ - ١٩٦٠، وترجم فى نشرة كلية الآداب باستراسبورج ١٩٤٨ - ص ١١٣).

ومن إهمالهم العجيب أمر دار الضرب، كانت بحُسن التدبير تجيء فى الشهر قريب ثلاثة آلاف دينار حتى عملت فى سنتى ست وثلاثين وسبع وثلاثين ما يزيد على ثمانين ألف دينار وآل أمرها اليوم إلى دون المائة دينار فى الشهر.

ومن قبيح إهمالهم أن العادة كانت جارية فى دور الضرب أن كل تاجر أو مورد^(١) يرد بذهب إلى دار الضرب يكتب اسمه وماله من عين وخشر وسبائك وغيرها ويجعل ما لذا مع ما لذا مضبوطاً ويُسبك عمل الموردين حيلة عجيبة والله ما تتم على النساء المغفلات فضلاً عن نظار الديوان وذلك أنهم سألوا أن لا يكتب ديوان الضرب أسماء أرباب الأموال لتلا يلزمهم ديوان الزكاة بالزكاة كأن ديوان الزكاة لغير صاحب دار الضرب، فيتفق أن التاجر يورد إلى

الموردين ثلاثة آلاف دينار أو أكثر أو أقل ليعملوها دنائير^(٢) فيروح إلى ثغر إسكندرية يبيع الحرير فيتفق أن يموت، فيروح المال على الديوان ويأكله الموردين وجعلوا في مقابلة ذلك زيادة يسيرة على الواجب المقرر. وهذه الحالة مما لا يسوغها أحد من العقلاء وهي أن يجعل له شيء على أن يخفى عنه ما يستحقه. هذا ما لم يُسمع بمثله في الوجود أنه يتم على من جعل له النظر.

ومن جملة أعمال أهل دار الضرب أن الموردين يأخذون الذهب وقيمته مختلفة، منه ما هو صوري^(٣) قيمته ستون ديناراً المائة ودوقى^(٤) قيمته أكثر من ذلك بقليل، وغير ذين الصنفين من الذهب من المصرى وغيره ما يقع معدله ثمانون دينار المائة.

يجمعون من ذلك ستة آلاف دينار أو سبعة آلاف دينار أو أكثر وأقل ويحمى عليها فيُنقص ما يقرب من عشرة دنائير المائة فيفضل لهم في كل ألف دينار مائة دينار في الهرجة إذا كانت ستة آلاف دينار فضل منها ستمائة دينار في ثلاثة أو أربعة أيام فما يعلم ما حصل لهؤلاء الموردين في هذه المدد إلا الله سبحانه، وإن كان الموت قد أفنى فيها قريب أكثرهم وضاعت أموالهم.

١٧ - تجارة غير مشروعة مع الصليبيين

(فقرة من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى)^(*)

(..) فانتدب النجيب كاتب بكجى^(١)، أحد مستوفى^(٢) الدولة، لرافعة الشجاعى، وبرز له بموافقة القاضى تقي الدين نصر الله بن فخر الدين الجوجرى. أنهى إلى السلطان عنه أموراً وحاqqه بحضرة السلطان. ومما قاله إنه باع جملة من السلاح - ما بين رماح ونحوها مما كان فى الذخائر السلطانية - للفرنج؛ فلم ينكر (الشجاعى ذلك)، وقال : «بعتُّ بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة، فالغبطة أننى بعتهم من الرماح والسلاح ما عتق وفسد وقل الانتفاع به، وأخذت منهم أضعاف ثمنه، والمصلحة أن تعلم الفرنج أنا نبيعهم السلاح هو أنا بهم، واحتقاراً بأمرهم وعدم مبالاة بشأنهم»؛ فقال السلطان لذلك وقبله. فقال النجيب : «يا مكثر! الذى خفى

(*) اعتمد كاهن على ترجمة غير كاملة أعدها كاترمير الذى جعل عنوان الكتاب فى الترجمة الفرنسية «تاريخ السلاطين المماليك» والجدير بالذكر أنه صدرت ترجمة أخرى بالفرنسية لهذا الكتاب أعدها بلوشيه وأكمل فيها ما فات كاترمير وقد أسماها «تاريخ مصر للمقريزى» (المترجم).

عنك أعظم مما لمحت. هذا الكلام أنت صورته بخاطرك لتعده جواباً، وأما الفرنج وسائر الأعداء فلا يحملون بيع السلاح لهم على ما زعمت أنت، ولكنهم يشيعون فيما بينهم، ويتناقله الأعداء إلى أمثالهم، بأن صاحب مصر والشام قد احتاج حتى باع سلاحه لأعدائه». فلم يحتمل السلطان هذا، وغضب على الشجاعى وعزله فى يوم الخميس ثانى شهر ربيع الأول، وأمر بمصادرته على جملة كثيرة من الذهب، وألزمه ألا يبيع فى ذلك شيئاً من خيله ولا سلاحه ولا رَحْته، بل يحمل المطلوب ذهباً^(٣).

١٨ - استعادة المسلمين لعسقلان (١٤٢٧) وفقاً لشهادة سعد الدين

(ترجمة كلود كاهن فى «الشعوب الإسلامية» ص ٤٧٢ - ٤٧٣).

(بعد الاستيلاء على طبرية) ذهبنا جميعاً، حاملين آلاتنا الحربية إلى عسقلان التى سبقنا إليها الأمير شهاب الدين الغرز كانت قواتنا تحاصر المكان، وفى أسفل كان هناك الأسطول الفرنجى، وكانت سفنتنا نحن راسية على الساحل. إن عسقلان قلعة جميلة بأبراجها الستة عشر المتتالية على شاطئ البحر. لقد عسكرنا بها وأطلقنا الأحجار من منجنيقاتنا. وجاء الأسطول الفرنجى لمهاجمة أسطولنا فكان يوماً ساخناً ثم هاج البحر وصارت الأساطيل مضطربة فتحطمت سفنتنا بالساحل وعددها خمسة وعشرون سفينة بينما لم تصب السفن الفرنجية التى كانت راسية فى عرض البحر بأذى من العاصفة. وقد أخذنا الخشب من سفنتنا وصنعنا منه متاريس للهجوم. كان لدينا مجموعة أربعة عشر منجنيقاً تقذف الأحجار ضد القلعة ولم تكن منجنيقات العدو تتوقف لحظة واحدة، وقام الفرنجة بحرق المتاريس الحامية لمنجنيقاتنا ورشقوها من القذافة بأسهم كبيرة حامية فحطموا لنا منجنيقين ثم قاموا بهجمة أهلك الكثير من البشر وبعد بضعة أيام عملنا بأسرع ما يمكن على سد الثغرة من جهة المنجم ثم حصلوا بعد ذلك على نجدة مكونة من اثنى عشر سفينة (جاءتهم كما جاعتنا نحن كذلك) وقاموا أيضاً بعدة هجمات وفى العاشر من جمادى الأولى (١٣ سبتمبر ١٢٤٧) قمنا بهجوم من كل الجهات وخاض المسلمون معركة عنيفة واستولوا على مقدمة الساحل. فقتل نحو ستين رجلاً وجرح حشد كبير. وأمضينا الليل فى الخنادق وبدأنا شيئاً فشيئاً فى حفر برج وجدار بين استحكامين وبعد يومين انطلقنا فى الهجوم. وفى لحظة استعادوا المنجم حيث هرب رجالنا منه غير أننا استعدنا فى اليوم التالى. وفى اليوم السادس عشر وضعنا النار فى منجم البرج إلا أن العدو قام بلغم معاكس وأطلق النار، إلا أن البرج قد سقط فى اليوم التالى

فسقط تحت أنقاضه اثنا عشرة من فرسانهم حيث قام رجالنا بإخراجهم حتى يأخذوا ما كان بحوزتهم. وقد وصلتهم أيضاً سبع سفن كبيرة. ويزن حجر المنجنيق الذى فى حوزتى مقدار قنطار سورى وربع.

وامتد الحصار ووقعت أحداث كثيرة. وقد انضم إلينا فارسان افرنجيان وحصلا من فخر الدين^(١) على ملابس الشرق. وقد أخبرانا أن الشقاق قد احتدم بين الداوية والاسبتارية. وانهار الجدار الأمامى فمات ثمانية من رجالنا تحت الانقاض. وفى ليلة الخميس الثالث والعشرين من جمادى الثانية (٢٥ سبتمبر) صعد رجالنا على البرج المغم واستولوا عليه وأطلقوا صرخة كبيرة ودقت الدفوف فى الليل فازداد الصخب الشديد وهرع الناس وقد أصيب الفرنجة بالدهشة فهربوا نحو مراكبهم أو فى الأبراج التى يحتمون بها ودخل المسلمون القلعة فى الليل. وتنافسوا فى التقتيل وربما تقاتل البعض منهم فى الظلام داخل هذا الحشد سعياً وراء الغنائم، وما فتئوا يستولون على الأشياء الثمينة والأسلحة حتى آخر الليل. وفى الغد دخل الأمير فخر الدين وأعطى الأمان للفرنجة المجتمعين فى أبراجهم ما عدا ممتلكاتهم. وكان من بينهم ثلاثة قادة مبعولين وكان هناك مائتان وستون سجيناً. ووجدنا فى البحر غرقى وآيادى مقطوعة لأن الفرنجة قد تشبثوا بالسفن طلباً للفرار فخاف من بداخل السفن من الفرق فقطعوا أيدي هؤلاء بسيوفهم. بعد ذلك أخذنا بتهديم القلعة ثم ذهبنا وتركنا المدينة مسقاة لليوم ومسكنا للظباء والغزلان وسبحان الله الدائم والمجيز.

١٩ - الحملة الصليبية لـ سان لويس وفريدريك الثانى كما رآها المؤرخ المسلم.

(قرطاي العزى، جوتا، مخطوط عربى، ترجمة كلود كاهن المجلة الآسيوية ١٩٧٠ ص ٩

- ١٠).

عندما ترك الإمبراطور أمير الفرنجة الأرض المقدسة، واستأذن الملك الكامل بالانصراف، تعانق القائدان فى عسقلان وتواعدا، بصورة متبادلة، على الصداقة والمساعدة والأخوة^(١). والحال أن الطريق الوحيد الذى يمكن للفرنجى أن يسير منه إلى مصر كان يمر عبر أراضى الإمبراطور. وقد قام هذا الأخير أولاً باستقباله واللقاء معه وقدم له مساعداته من الخيالة والفضة والمواشى. غير أن القائدین قابلا بعضهما بعضاً بعد ذلك فقال الإمبراطور للفرنجى : «إلى أين تنوى الذهاب والله سأنهب قطعاً إلى مصر والقدس» ومن ضمن ما رد

عليه الإمبراطور قوله : « هذا الأمر لا يلائمك، لا تذهب إلى مصر، وراجع هذا الأمر في نفسك ومع أمراك أولئك الذين يؤيدونك وأولئك الذين لهم رأى آخر (٢) ». ولقد كنت قبلك بها في سنة كذا وكذا تحت حكم الملك الكامل. وقد انتزعت من المسلمين القدس وكل القرى الواقعة بين هذه المدينة وعكا، واشترطت مع الملك الكامل أن تكون هذه المناطق ملكاً للفرنجة وأن لا تظل أى قوة إسلامية بالقدس. وإذا كنت قد اقتصررت على ذلك فأننى أدركت أنه من المستحيل محاربة الملوك والأمراء وكل العساكر الموجودين بالبلد، كما تأكدت من عجزى على مواجهتهم فكيف لك تريد الاستيلاء على دمياط والقدس (٣) ومصر (٤). وعندما سمع الفرنجى هذه الكلمات استشاط غضباً فقال للإمبراطور « لا تستمر، والله ثم والله وحتى الإيمان لن يمنعنى شيء عن مهاجمة دمياط والقدس ومصر وإن يحول بينى وبين ذلك سوى موتى أنا ورجالى » (٥).

وأمام استياء الإمبراطور من هذا العناد كتب إلى الملك الصالح رسالة من ضمن ما قاله فيها : « فى هذه السنة جاء إلى بلدى ملك الفرنجة مصحوباً بجمهور غفير، وذكر بعد ذلك «احترس يا مولاي نجم الدين» (٦) جيداً وأعلم أن قصد مهاجميك هو الاستيلاء على القدس، وقبل ذلك إخضاع مصر لأجل هذا الهدف» وقال أيضاً «إن ملك الفرنجة على اقتناع بأنه ستستولى على مصر فى بضع ساعات» وهذا الفرنجى هو الأكثر قوة من بين أمراء الغرب. وتقوده الغيرة على الدين ويختلف عن أى أمير آخر من جهة أفعاله كمسيحي وتعلقه بدينه، ويختتم خطابه بالكلمات التالية : «يا ابن أخى (واصفاً بهذه الكلمات الملك الصالح) لقد حاولت عبثاً مواجهة مشروعاته، وأردت تحذيره من الخطر الذى سيحقيق به لو هاجمك. ولكنى أؤثر فيه ألحاح على عدد وقوة المسلمين وعلى استحالة الاستيلاء على القدس إن لم يتم قبل ذلك إخضاع مصر وهو أمر غير قابل للتحقق. لكن الفرنجى لم يعمل برأى وتزايد باستمرار عدد من يتبعونه، الذى يزيد على ستين ألفاً وسينزلون خلال السنة إلى جزيرة قبرص» (٧).

٢٠ - معاهدة سلام بين السلطان المملوكى قلاوون وجمهورية جنوة (١٢ مايو ١٢٩٠).

Liber Jurium Reipublicae Januensis, II, 243. 248, ترجمة موجزة قارن هوات، الفصل السابع عشر، ص ٢٣.

١ - يجب تأمين كل الجنوية فى أشخاصهم وممتلكاتهم بالأراضى التى يملكها السلطان أو ستكون فى ملكه وكذلك فى حالة الفرق.

٢ - يجب أن يكون لهم الحق فى حرية التنقل داخل البلدان بما فى ذلك سوريا ولو أثناء الحملات العسكرية للسلطان.

٣ - كل الجنوى تابعون قضائياً لقنصل جنوة بالاسكندرية وعليهم أن يوجهوا إليه تظلماتهم من المسلمين أو الرعايا الآخرين للسلطان. ولا بد أن توجه تظلمات الجنوى ضد رعايا السلطان إلى الديوان العام أمام الأمير.

٤ - فيما يتعلق بإسهامهم من الذهب أو الفضة فإن على الجنوى أن يدفعوا ستة دينارات بيزنطية وستة عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للذهب، وأربعة دينارات بيزنطية واثنى عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للفضة وإذا كانوا يحملون عملات فإن عليهم أن يدفعوا أربعة دينارات بيزنطية واثنى عشر من القيراطات فى المائة بالنسبة للذهب والفضة. وتستثنى الجلود والفرو والأحجار الكريمة من أى ضريبة.

٥ - أن يكون لهم كاتب بالجمرك يصير المسؤول عن ديونهم إذا ما رحلوا.

٦ - أن لا يعتقل جنوى بسبب أخطاء جنوى غيره إلا إذا كفه.

٧ - كل صفقة تجارية يتم عقدها فى الجمرك بحضور الشهود أو الترجمان يجب أن تكون ملزمة.

٨ - على الجنوى أن يدفعوا لجمرك الاسكندرية ١٢ فى المائة من بضائعهم الموزونة ولا يتم ذلك إلا بعد إنجاز البيع واستلام الثمن.

٩ - وعليهم أن يدفعوا ١٠ فى المائة على المنسوجات الحريرية والصوفية من كل الألوان (ذكرت سلسلة منها) وحول شعائر الذهب والأخشاب يدفع ١٠ فى المائة.

١٠ - يجب أن تسجل كل البضائع التى توضع بالجمرك بهدف بيعها بالمزاد العلنى، كما يسجل ما تحقق من سعر عند البيع، وأن يتم دفع الضرائب عن الكميات المباعة لا عن الفائض وبعد استلام الثمن ولا يدفع المشتري شيئاً. وإذا لم يرغبوا فى بيع كل بضائعهم فلهم ذلك ولا ضريبة عليهم.

١١ - لا يجب أن يجبر جنوى على بيع ما حمله من بضائع وإذا أراد أن يعود بها فله ذلك ولا ضريبة عليه.

١٢ - إذا باع جنوى ذهباً أو فضة إلى مسلم فعلى هذا الأخير أن يسدد له المال نقداً دون تقسيط.

- ١٣ - ينبغي على رجال الجمرک أن يتركوا البضائع فى حالة جيدة.
- ١٤ - إذا باع جنوى أمام شهود أو عن طريق سمسار جمرکى كان هذا الأخير ضامناً للمشتري ويرجع إلى القاضى بشأن كل خصام حول بيع تم فى الخارج وبدون شهود.
- ١٥ - يمكن للجنوى إذا كان مدينًا للجمرک وفى الوقت نفسه دائئًا لمسلم أن يرحل بعد أن يحمل المسلم مسؤولية تسديد الدين الذى عليه.
- ١٦ - إذا أراد أحد الجنوية أن يأخذ معه ما يحتاج إليه من الجبن والمواد الغذائية الأخرى إلى الفندق فإنه يمكنه حملها ولا شىء عليه.
- ١٧ - يجب أن يكون للجنوية متاجر كافية يمكن أن تغلق بالأقفال وأن يعين لها الجمرک حراساً.
- ١٨ - لا ينبغي على الجمرک أن يفرض عليهم أى ضرائب أخرى وكذلك الوكلاء المكلفون بمعانيه السفن.
- ١٩ - الجنويون أحرار فى تفریغ بضائعهم أو تحميلها بواسطة زوارقهم الخاصة بدون عقبات (لم ترد البنود ما بين رقم ٢٠ و ٢٤).
- ٢٥ - لا يجب أن يجبر أى جنوى على شراء بضائع أخرى غير تلك التى يرغب فى شرائها.
- ٢٦ - وإذا باع بضاعة ما إلى الجمرک وجب أن يتم التسديد بالعملة الذهبية أو الفضية.

٢١ - ملاحظة حول «مخاضة الحوت»

هذه قضية لم تتح لى فرصة التحدث بشأنها. فالنصوص المكتوبة باللغة الفرنسية القديمة تتحدث عن مخاضة الحوت Gué de la Baleine فى منطقة ما بسوريا الشمالية حيث من الصعوبة بمكان أن نتخيل ما الذى يمكن أن يفعله الحوت هناك. والواقع أن هذه العبارة هى ترجمة من اللاتينية لكلمتى vadum Balaneae. وفى رسالتى الجامعية عن «سوريا الشمالية» أثبت أن الأمر يتعلق بممر يقع على إفرين وهو أحد روافد نهر العاصى ويتجه نحو قرية تسمى اليوم الحمام. وكان استنتاجى صائباً غير أن دليلاً مباشراً كان قد فاتنى فكلمة الحمام كما نعرف تستخدم بهذا المعنى بالفرنسية أما فى اليونانية فتسمى بلانيا Balaneia

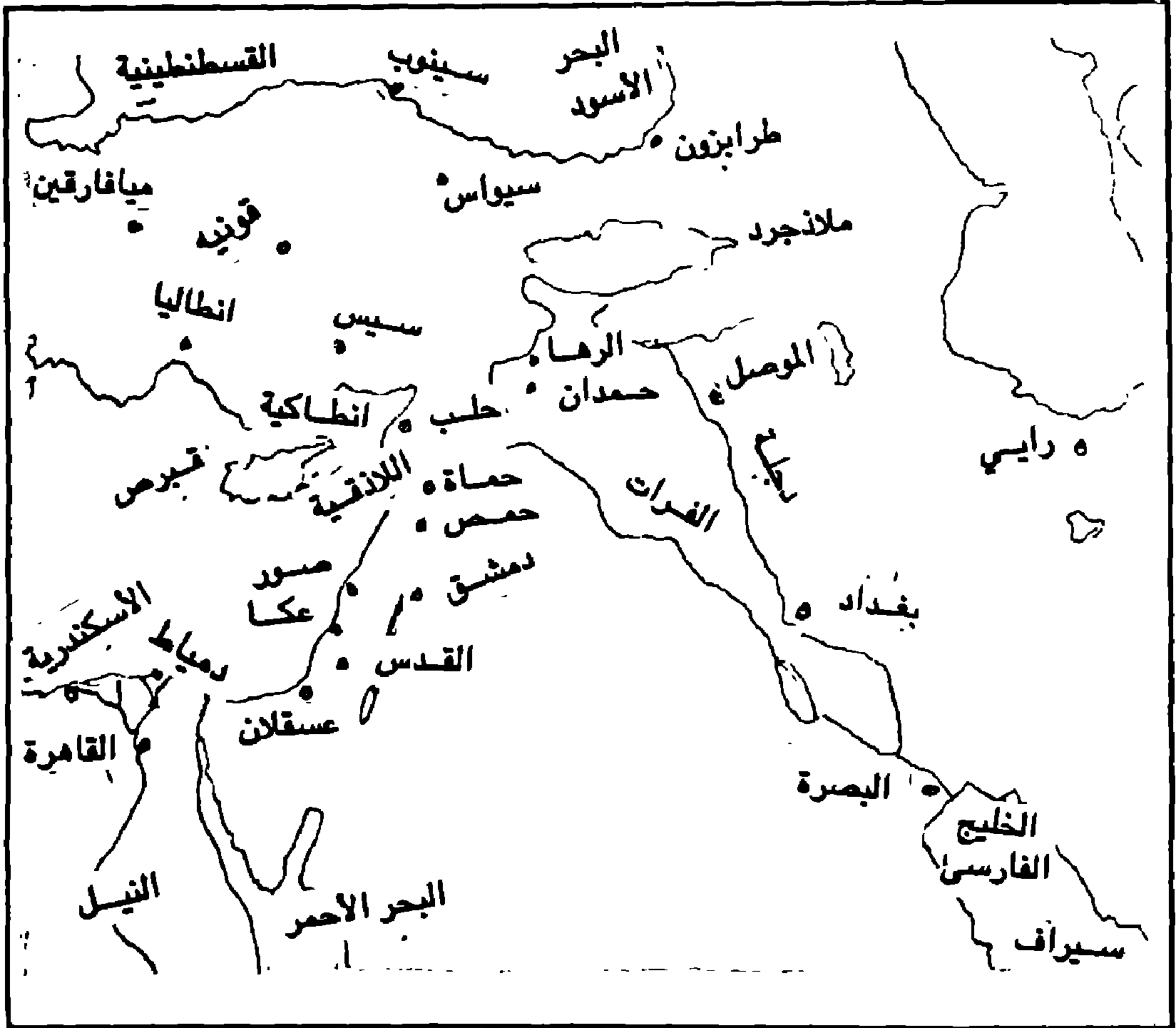
(بالجمع) إضافة إلى أن هذه الصيغة قريبة من الكلمة اللاتينية. كما أن العرب قد احتفظوا بها أحياناً مع ربطها بالجذر بلل. لقد كانت هذه المنطقة فيما مضى منطقة بيزنطية. وقد عرف الأرمن هذا المكان باسمه اليوناني. فلا مجال للبحث عن مصدر آخر لحوتنا هذا.

جدول زمنى عام

عام	٦٣٢	:	وفاة محمد.
عام	٦٣٤	:	بداية الفتوحات العربية.
عام	٧١٢	:	الفتح العربى لاسبانيا.
عام	٩٦٩	:	استعادة البيزنطيين لأنطاكية واحتلال الفاطميين لمصر.
عام	١٠٥٤	:	الانفصال بين روما والقسطنطينية.
عام	١٠٥٥	:	احتلال السلاجقة لبغداد.
عام	١٠٧١	:	هزيمة البيزنطية فى ملاذ جرد.
عام	١٠٧٨	:	إتمام النورماندين لفتح صقلية.
عام	١٠٨٠	:	هجوم النورماندين على بيزنطة.
عام	١٠٨٢	:	أو ١٠٨٤ الامتياز الذى أعطاه الكسيس كومنين للبنادقة .
عام	١٠٩٢	:	وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه.
عام	١٠٩٥	:	مجمع كليرمون.
عام	٩٧ - ١٠٩٨	:	محاصرة أنطاكية والاستيلاء عليها.
عام	١٠٩٩	:	الاستيلاء على القدس.
عام	١١٢٣	:	الاستيلاء على صور.
عام	١١٢٨	:	إقامة زنكى فى حلب.
عام	١١٣٥	:	تخريب البيازنة لأمافى.
عام	١٠٤٤	:	استيلاء زنكى على الرها.
عام	١٠٤٦	:	ظهور نور الدين فى حلب واستيلاء النورماندين على طرابلس الأفريقية.
عام	١٠٤٨	:	الحرب الصليبية الثانية.
عام	١١٥٣	:	استيلاء الفرنجة على عسقلان.

عام	١١٥٤	:	عقد معاهدة بيزا مع الفاطميين.
عام	١١٥٧	:	مانويل كومنين في أنطاكية.
عام	١١٦٩	:	احتلال صلاح الدين لمصر.
عام	١١٧١	:	مذبحة التجار الايطاليين في القسطنطينية.
عام	١١٧٤	:	وفاة نور الدين.
عام	١١٧٦	:	هزيمة البيزنطيين في ميفارقين.
عام	١١٨٧	:	هزيمة الفرنجة في حطين وفتوحات صلاح الدين.
عام	٩٠ - ١١٩٢	:	الحرب الصليبية الثالثة؛ وفاة صلاح الدين.
عام	١١٩٧	:	التتويج الملكى لليون الاول في قيليقية الأرمينية.
عام	١٢٠٢ - ١٢٠٤	:	الحرب الصليبية الرابعة وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية.
عام	١٢١٧ - ١٢٢٠	:	الحرب الصليبية الخامسة.
عام	١٢٢٨	:	حملة فريدريك الثانى الصليبية.
عام	١٢٤٣	:	غزو المغول لآسيا الصغرى.
عام	١٢٤٤	:	استيلاء الخوارزمين على القدس.
عام	١٢٤٨	:	حملة سان لويس الصليبية.
عام	١٢٥٨	:	استيلاء المغول على بغداد.
عام	١٢٦٠	:	غزو المغول لسوريا وهزيمتهم أمام المعاليك.
عام	١٢٦١	:	استعادة البيزنطيين للقسطنطينية.
عام	١٢٦٨	:	استعادة بيبرس لأنطاكية.
عام	١٢٩١	:	سقوط عكا.

خريطة العالم الإسلامي زمن الحروب الصليبية



المراجع

- F.-M. ABEL, *Géographie de la Palestine*, 1967.
- ABULAFIA, *Two Italies: Economic Relations between the Norman Kingdom and the Northern communities*, 1977.
- H. AHRWEILLER, *Byzance et la mer. La marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VII^e-XV^e siècles*, Paris, 1966.
- Etudes sur les structures administratives et sociales de Byzance* (Variorum Reprints), Londres, 1971.
- KARL H. ALLMENDINGER, *Die Beziehungen zwischen der Kommune Pisa und Ägypten im hohen Mittelalter*, Wiesbaden, 1967.
- P. ALPHANDERY et A. DUPRONT, *la Chrétienté et l'idée de Croisade*, 2 volumes, Paris, 1954-1959.
- B. ALTANER, *Die Dominikaner Missionen*, 1924.
- MICHAEL ANGOLD, *A Byzantine Government in exile. Government and society under the Laskarids of Nicaea, 1204-1261*, Oxford, 1975.
- H. ANTONIADIS-BIBICOU, *Recherches sur les douanes à Byzance*, Paris, 1963.
- E. ASHTOR, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval*, Paris, 1969.
- A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, London, 1972.
- AZIZ S. ATIYA, *A history of Eastern Christianity*, Londres, 1968.
- DEREK BAKER, éd., *Relations between East and West in the Middle Ages*, Edinburgh, 1973.
- MICHEL BALARD, *la Romanie génoise*, 2 volumes, Paris, 1978.
- RASHID AL-BARAWI, *Hālat Misr al-Iqtisādiyyat fi 'ahd al-Fatimīyīn* (« La vie économique en Egypte aux temps des Fatimides »), Le Caire, 1948.
- M. BENVINISTI, *The Crusaders in the Holyland*, Jérusalem, 1970.
- B. BLUMENKRANTZ, *Juifs et Chrétiens dans le monde occidental, 960-1096*, 1960.
- T.S.R. BOASE, éd. *The Cilician Kingdom of Armenia* (recueil d'articles), Edinburgh-Londres, 1978.
- H. BUCHTAL, *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Oxford, 1957.
- CL. CAHEN, *la Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, 1940.
- Turco-Byzantina et Oriens Christianus*, (Variorum Reprints), Londres, 1974.
- Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval*, Paris, 1983.
- MARIUS CANARD, *Histoire de la dynastie des Hamdanides*, volume I, Alger, 1954 (volume II non paru).
- Byzance et les musulmans du Proche-Orient* (Variorum Reprints), Londres, 1973.
- P. CHALMETA, *El señor del Zuoco en España*, Madrid, 1972.
- M.A. COOK, éd. *Studies in the Economic History of the Middle East*, Oxford, 1970.
- NORMAN DANIEL, *Islam and the West*, Edinburgh, 1958.
- The Arabs and Medieval Europe*, Londres, 1975.
- PAUL DESCHAMPS, *les Châteaux des Croisés en Terre sainte*, I-II-III, Pais, 1934-1973.
- R. DUSSAUD, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, Damas, 1932.
- A. DUCELLIER, *le Miroir de l'Islam*, Paris, 1971.
- A.S. EHRENKREUTZ, *Saladin*, New York, 1972.
- EKKEHARD EICKHOFF, *Friedrich Barbarossa im Orient*, Tübingen, 1977.
- N. ELISSEFF, *Nur-ad-Din*, 3 volumes, Damas, 1967.
- C. ERDMANN, *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, Stuttgart, 1937, a été récemment traduit en anglais.

- A. FATTAL, *le Statut des non-musulmans en pays d'Islam*, Beyrouth, 1958.
 FOLDA, *The Crusaders Manuscripts illuminated at Acre, 1275-1291*, 1976.
 S.D. GOITEIN, *A Mediterranean Society*, volume I, 1967 (volumes II, III, IV concernant plus strictement l'histoire juive).
 HANS GOTTSCHALK, *Al-Malik al-Kamil von Ägypten*, Wiesbaden, 1954.
 A. GRABOIS, « Banyas et Subaida pendant les Croisades », *Cahiers de civilisation médiévale*, 1970-1971.
 RENÉ GROUSSET, *Histoire des Croisades et du royaume latin de Jérusalem*, 3 volumes, 1933-1938, Paris.
 BERNARD HAMILTON, *The Latin Church in the Crusader States*, Londres, 1980.
 ANGELICA HARTMANN, *Al-Nasir li-Din Allah*, Berlin, 1975.
 HANSGERD HELLEN-KAMPER, *Burgen der Kreuzritterzeit in der Grafschaft Edessa und im Königreich Lein-Armenien*, Bonn, 1976.
 D. HERLIHY, *Pisa in the Early Renaissance, a study of urban growth*, New Heaven, 1958.
 WILHELM HEYD, *Histoire du commerce du Levant*, trad. fran. améliorée, 2 volumes, Paris, 1885.
 PH. K. HITTI, *History of Syria*, Londres, 1957.
 P.M. HOLT, éd. *The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades*, Warminster, England, 1977.
 G.-F. HOURANI, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times*, Princeton, 1971.
 STEPHEN HUMPHREYS, *From Saladin to the Mongols*, New York, 1977.
 KALervo HUURI, *Zur Geschichte des Mittelalterlichen Geschützwesens aus orientalischen Quellen*, Helsinki, 1941.
 H.R. IDRIS, *la Berbérie orientale sous les Zirides*, 2 volumes, Paris, 1959.
 A. TH. KHOURY, *les Théologiens byzantins et l'Islam*, Louvain, Paris, 1969.
 JAMES KRITZECK, *Peter the Venerable and Islam*, Princeton, 1964.
 SUBHI LABIB, *Vierteljahrschrift für Social- und Wirtschafts-geschichte*, Wiesbaden, 1965.
 JOHN LA MONTE, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Cambridge Mass., 1932.
 IRA LAPIDUS, *Muslim Cities in the later Middle Ages*, Cambridge, Mass., 1967.
 A. LEWIS, *Naval Power and trade, A.D. 500-1100*, Princeton, 1951.
 A. MALVEZZI, *L'Islamismo e la cultura europea*, Florence, 1956.
 HANS E. MAYER, *Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge*, Hanovre, 1960; supplément : « Literaturbericht über die Geschichte der Kreuzzüge » dans un Beiheft de *Historische Zeitschrift*, Sonderheft 3, Munich, 1969.
 – *Bibliographie sélective préparée pour History of the Crusades. Geschichte der Kreuzzüge*, Stuttgart, 1965, trad. ang., Oxford, 1972.
 R. MENENDEZ-PIDAL, *La España del Cid*, 2 volumes, Madrid, 1947.
 HANNES MOHRING, *Saladin und der Dritte Kreuzzug*, Wiesbaden, 1980.
 MICHEL MOLLAT, éd., « Sociétés et compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien » (8^e Colloque d'histoire maritime), Beyrouth, Paris, 1966-1970.
 ALFREDO MORABIA, *la Notion de gihad dans l'Islam médiéval des origines à al-Gazali*, Lille, 1975.
 V.J. PARRY et M.F. YAPP, eds, *War, Technology and Society in the Middle East*, Oxford, 1975.
 JOSUAH PRAWER, *Histoire du royaume latin de Jérusalem*, 2 volumes, Paris, 1969-1970 (trad. de l'hébreu).
Latin Kingdom of Jerusalem, Londres, 1972.
Crusader Institution, Londres, 1980.

- H. PRUTZ, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, Berlin, 1883.
 MAUREEN PURCELL, *Papal Crusading Policy*, Leiden, 1975.
 Y. RENOARD, *les Villes d'Italie de la fin du X^e siècle au début du XIV^e siècle*, nouvelle édition par Ph. Braustein, 1976.
- JEAN RICHARD, *le Royaume latin de Jérusalem*, Paris, 1947, trad. angl. mise à jour, 1980.
La Papauté et les missions d'Orient au Moyen Age (XIII^e-XV^e siècles), Ecole française de Rome, 1977.
Le Comté de Tripoli, Paris, 1943.
Orient et Occident au Moyen Age : contacts et relations (Variorum reprints), Londres, 1976.
 D.S. RICHARDS, éd., *Islam and the trade of Asia*, Oxford, 1970.
Islamic Civilisation, 950-1150, Oxford, 1973.
 JONATHAN RILEY-SMITH, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277*, Londres, 1973.
The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, 1050-1310, Londres, 1967.
What were the Crusades?, Londres, 1977.
 R. RÖHRICHT, *Geschichte des Königreichs Jerusalem (1100-1291)*, Berlin, 1897.
 G. ROSSI-BATINI, *L'espansione di Pisa*, Florence, 1924.
 S. RUNCIMAN, *A history of the Crusades*, 3 volumes, Cambridge, 1951, 1952, 1954.
The first Crusade, Cambridge, 1951, deuxième édition, 1980.
 ADOLF SCHAUPE, *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zum Ende der Kreuzzüge*, 1906.
 ULRICH SCHWARTZ, *Amalfi im frühen Mittelalter*, Tübingen, 1978.
 KHALIL SEMAAN, éd., *Islam and the medieval West*, New York, 1980.
 EMMANUEL SIVAN, *l'Islam et la Croisade*, Paris, 1968.
 R.C. SMAIL, *The Crusaders*, 1973.
Crusadin Warfare (1097-1193), Cambridge, 1956.
 R.W. SOUTHERN, *Western views of Islam in the Middle Age*, Harvard, 1961.
 B. SPULER, éd., *Handbuch der Orientalistik*, 1953 et suiv.
 W.B. STEVENSON, *The Crusaders in the East*, 1907.
 P.A. THROOP, *Criticism of the Crusade*, Amsterdam, 1940.
 A.L. UDOVITCH, *The Islamic Middle East, '00-1900, Studies in Economic and Social History*, (Colloque, 1974), Princeton, 1981.
 O. VAN DER VAT, *Die Anfänge der Franziskanermissionen...*, 1934.
 A.A. VASILIEV, *Byzance et les Arabes*, 3 volumes, Bruxelles, 1935-1968.
 GIULIO VISMARA, *Impium Foedus. La illiceità delle Alleanze con gli infideli nella Respublica Christiana medioevale*, Milan, 1950.
 JOHN WILKINSON, *Jerusalem Pilgrims before the Crusaders*, Warminster, England, 1977.
- Cambridge History of Islam*, 2 volumes, 1971.
Cambridge History of Iran, volumes IV et V, 1968-1975.
Index Islamicus, Pearson, éd., volume I, 1906-1955, suppléments jusqu'en 1975 et suite...
La Navigazione mediterranea nell'alto medioevo, 2 volumes, Spolete, 1977.
L'Occidente e l'Islam nell'alto medioevo, Spolete, 1964-1965.
Septième Centenaire de la mort de Saint Louis, Paris, 1970.

فهرس المراجع

ليس من الضروري أن نطيل حجم هذا الكتاب باستعراض فهرس كامل للمراجع وهي فهرست قد تكون شديدة الطول نظراً لسعة المسائل المعالجة. وسيكون من السهل في هذا الشأن مراجعة الكتب العامة المذكورة أثناء^(١) حول الحروب الصليبية والعالم الإسلامي والشرق الأدنى والتجارة الدولية الخ. وسنقدم من وجهة نظرنا أهمها بصدد كل فعل. لكن يجب أن نبدي هنا بعض الملاحظات.

حينما يتعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين الشرق والغرب أو بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى فإن من البديهي أن تتعدد لغات مصادر وثائقنا. وفيما يتصل بأوروبا إبان الفترة المعنية فاللاتينية تظل تقريباً اللغة الوحيدة المستخدمة رغم انضمام بعض اللغات العامة إليها تدريجياً، وأما بالنسبة للشرق فإننا نجد أنفسنا بصدد مزيج لغوي أكثر تعقيداً، فالإلى جانب اليونانية والعربية توجد أدبيات ووثائق بالسريانية والعبرية والآرمينية والجيورجية والفارسية والتركية والصينية الخ. ولا يمكننا أن نطالب أى مختص بإتقان كل هذه اللغات ولو أننا لا نقبل ألا يتقن أيّاً منها. وحينما يعتمد على الكتب المترجمة فيجب عليه معرفة الكيفية التي تمت بها الترجمة ومراقبة الجوانب التي تتطلب التدقيق بالاستعانة بمن يلزم من أهل الاختصاص. ونجد أنفسنا حقاً ملزمين بالقول إن كتاب: «مصنّف مؤرخى الحروب الصليبية» *Recueil des Historiens des Croisades* رغم شهرته فنحن لسنا مرتاحين له كثيراً في هذا الشأن. إذ كان بالإمكان تفادي كثير من الأخطاء. وحتى طبعات هذا الكتاب جاءت متفاوتة القيمة كما أن بعض الكتب القيمة لازالت غير منشورة^(٢). ومن جهة أخرى يجب أن نمك الوعي بعدم التطابق التام بين التخطيط التصوري والألفاظ المستخدمة من لغة لأخرى. فمن الأفضل في الغالب ألا يقدم المرء على الترجمة عوض ارتكاب الأخطاء أو الإبهام^(٣).

وحتى بالنسبة للغة الواحدة فإن مختلف المصادر لا تغطي المجال نفسه جغرافياً ولا زمانياً ولا اجتماعياً بالخصوص فأحرى حينما تنتقل في لغة لأخرى. لذا يجب إحداث التكامل بينها والوعي بما قد ينتج من اختلال من جراء هذا التوزيع المتفاوت.

إن المؤرخ ينزع بطبيعة الحال إلى الأخذ بعين الاعتبار المصادر الحكائية قبل غيرها^(٤). ومن البديهي أن تلزمه معرفة الاعتراف كذلك من المصادر القانونية والإدارية والدينية والعلمية^(٥) الخ. فلا يمكنه إذن أن يقتنع بالاطلاع على فصل واحد من فصول الجداول والبيانات^(٦).

ما قلناه الساعة ينطبق على المصادر الوثائقية مع إلحاق التفسيرات المناسبة. وإذا لم نكن نفتقر تماماً إلى المراجع الخاصة بالشرق إلى الدرجة التي سمعنا عنها أحياناً^(٧) بتوان واسترخاء فإن ثمة اختلال في هذا الصدد لاسيما فيما يتعلق بالواحد العصر الوسيط، فالمجالات التي استعملنا حولها بالنسبة لمختلف الدول لا تتطابق جيداً فيما بينها في الغالب. وحتى داخل نفس المنطقة قد تتولد مشاكل عويصة من جراء التفاوت الحاصل في مجموع الوثائق المحفوظة^(٨).

وبالنسبة لفهرست المراجع المتداولة فحسبنا أن نذكر أنه تم مؤخراً إنشاء (أو إعادة إنشاء)^(٩) جمعية تاريخ الشرق اللاتيني، التي تقوم بإصدار نشرة لها. والرئيس الحالي لهذه الجمعية الجديدة هو الأستاذ جان ريشار من جامعة ديجون. وقد انعقد في الولايات المتحدة الأمريكية بجامعة أن أريور وكالامازو عام ١٩٨١ مؤتمر عالمي خصص للحروب الصليبية والشرق اللاتيني والعلاقات بين الشرق والغرب (ستطيع أعماله).

إن دراسة الظروف المعيشية للبلد ولاسيما في المناطق السهلية منها يمكن أن تستفيد إلى حد ما في الاستقصاءات التي تمت في فترات تاريخية متعاقبة عبر القرون. غير أن هذه الاستقصاءات تتطوى على مصاعب بسبب ما يعانيه المرء غالباً من مشقة في التصرف على ذات المناطق التي تحمل أسماء مختلفة^(١٠) داخل الأراضي التي كانت خاضعة طوال القرون لسادة كانوا يتكلمون لغات متباينة.

ثم إن نقل الأسماء من مختلف اللغات ولاسيما من اللغة العربية وكتابتها بالحروف اللاتينية يطرح عدداً من المشاكل نظراً لأن النغمات الصادرة عن مختلفة الحروف الهجائية لا تتطابق دائماً فيما بينها. ولا يوجد لسوء الحظ نظام موحد للنقل. وأكثر هذه الأنظمة شيوعاً في العالم هو النظام المعتمد في الموسوعة الإسلامية. وبما أن هذا الكتاب يتوجه إلى جمهور واسع فقد استخدمنا هذا النظام مع حذف العلامات الدخيلة على الأبجدية اللاتينية العادية توخياً للتبسيط.

توجهات المراجع

(نتقدم المراجع الخاصة في مختلف الفصول)

لا يوجد أي تاريخ يشمل الشرق الأدنى بكامله في العصر الوسيط. لذا يجب دراسته ضمن تاريخ المجموعات السياسية الكبرى ثم بعد ذلك ضمن تاريخ بعض الشعوب الخاصة.

وبالنسبة لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فإن المؤلفات الرئيسية هي: Georg: OSTROGORSKY, *Geschichte des Byzantinischen Staates*, München, 1952, 496 p.,

وثمة ترجمة فرنسية لهذا الكتاب هي: *Histoire de l'Etat byzantin*, Paris 1954.

وكتاب: ZAKYTHINOS, *Histoire de l'empire byzantin*, vol. I jusqu'en 1071,

وهو مؤلف باليونانية وقد ترجم إلى الانجليزية والألمانية. والجزء الثاني من هذا الكتاب قيد الإعداد.

كما تتوفر على كتاب عن: *Histoire de l'Arménie*, 1982, par Gérard DÉDÉYAN

وبالنسبة لجورجيا هناك كتاب: K. SALTA, *Histoire de la Nation górgienne*, 1979.

وبالنسبة للعالم الإسلامي تتوفر منذ فترة على عدة عروض تاريخية عامة ذات مشارب مختلفة، منها:

Robert Mantran, *l'Expansion Musulmane*, collection Nouvelle clío Paris 1968.

وهو يقدم إلماماً جيداً للفائدة للطلبة وبه مادة كاملة حقاً حتى هذا التاريخ، وكتاب:

Claude Cahen, *L'islam*, Paris (Bordas).

وقد حاول إعطاء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الإسلامي نفس المكانة التي تعطى للتاريخ
الأندلسي.

وكتاب: Dominique et Janine Sourdél, *la Civilisation de l'islam classique*
Paris 1968.

وهو كتاب رائع لاسيما بالنسبة للفصول المتعلقة بتاريخ الفن وقد جاءت موضحة بصورة ورسوم رائعة.
ويجب إن نقول إن كتاب موريس لومبار الذي ظهر بعد وفاته:

L'islam dans sa première grandeur.

رغم لمحاته المنيرة لم تعد مادته كافية. أما كتاب.

Dominique Sourdél, *L'islam médiéval*, Paris, 1979.

فهو صغير الحجم ومفيد لفكر القارئ المطلع.

وتقدم الموسوعة الإسلامية ذخيرة أساسية من المعارف في طبعاتها الفرنسية والإنجليزية الثانية. وقد
ظهر منها ست مجلدات (وصلت حالياً إلى حرف الميم؛ وبالنسبة للبقية يمكن الرجوع إلى الطبعة الأولى).
وبالنسبة للتاريخ اليهودي هناك كتاب: S Boran *History of the Jews*

وهو كتاب رائع وضخم صدر في ثمانية أجزاء ترجم منها أربعة إلى الفرنسية، وهو التاريخ الوحيد
الذي يجعل مكاناً سورياً لليهود الشرقيين.

لقد تضمن تاريخ الحروب الصليبية جملة من العيوب التي ذكرت أعلاه. فأشهر كتاب بفرنسا وهو:

René Grousset, *Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem* 3 vols 1934 - 1939.

يعد مع الأسف أخطر كتاب بسبب نقص المعلومات وهشاشة المنهج والأفكار المسبقة التي نشرت به.
وأفضل عرض بالفرنسية حالياً الكتاب الذي ترجم من العبرية وهو من تأليف:

Josuah Prawer, *Histoire du Royaume latin de Jérusalem*, 2 vols 1969 -
1970.

ولدينا بالإنجليزية عرض جيد المباحث لمختص بدراسة بيزنطة:

Steven Runciman, *A History of the Crusade* 3 vols Cambridge 1952 -
1964.

والكتاب الذي ألفه جماعة من الكتاب: *History of the Crusades* بإشراف ك. سيتون ظهر
منه أربعة أجزاء ج ١ (1955) وج ٢ (1962) وج ٣ (1975) وج ٤ (1977) (ومن المتوقع أن يصدر جزآن

أخران). ويحتوى على ضبط متين للوثائق التاريخية التقليدية وقت صدور هذه الأجزاء دون القيام بمحاولة تجديدية حقيقية. ويمكن أن نوصى بكتاب:

Hans E. Mayer, *Geschichte der Kreuzzuge* Stuttgart 1965.

وبالترجمة الإنجليزية: The Crusades. Oxford 1972.

وبالنسبة للتجارة في الشرق نجد أنفسنا ملزمين بالعودة مرة أخرى إلى:

Wilhelm Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, deux volumes Leipzig 1885.

وهو كتاب فذ بالنسبة لعصره لكنه بالضرورة متخلف عن الوثائق المعاصرة ومتجاوز في جوهره.

وهناك كتاب أحدث منه بعض الشيء من تأليف

Hans Schaube, *Handels geschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zum Ende der Kreuzzuge* München 1906.

والعرض الذكى جداً لروبير س. لوبيز في :

Cambridge economic history of Europe ed M. Postan vol. II Cambridge 1952.

وهو عرض سريع بعض الشيء ولم يعد كافياً تماماً في مادته.

١ - المصادر:

إن كثيراً من النصوص المتعلقة بالحروب الصليبية وبالشرق اللاتينى تم نشرها وترجمتها في كتاب *Recueil des historiens des Croisades* لمجمع التدوين (ومع ذلك انظر بصنده Cl. Cahen dans le *Journal des savants* 1970) تتضمن هذه المجموعة خمسة أقسام: المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات من الحجم الصغير، والمؤرخون الشرقيون (العرب) في خمسة مجلدات من الحجم الصغير، والمؤرخون اليونان والأرمنيون والقوانين. وليس ثمة سلسلة سيربانية ولا عبرية.

النصوص العربية:

- أبو شامة. «كتاب الروضتين»، مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، 4.

أبو شامة. الذيل، طبعة القاهرة 1947.

- ابن أبى طى، نصوص مستخلصة منه ذكرت من قبل ابن الفرات وأبى شامة انظر:

Claude Cahen, *Syrie du Nord*

- ابن العديم (كمال الدين)، الزبدة. نشره سامى دهان، ٢ ج، المعهد الفرنسى بدمشق 1954.

الترجمة الفرنسية، مجموع وثائق المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، ٢، إلى سنة ١٩٢٥.

و Blochet dans *Revue de L'orient atin*, III - IV 1895 - 1898

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، في طبعات مختلفة، الترجمة الفرنسية للأجزاء المتعلقة بالحروب الصليبية مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية، ١ و ٢.

- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم، طبعة حيدر آباد أجزاء.

- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ترجمة جودفروا ديمومبيتز، ٤ أجزاء، 1952 - 1967

- ابن الفرات. لم تحفظ آثاره كاملة وهي تغطي القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، وقدم تم نشر أجزاء منها بالشرق. وهناك نصوص مستخلصة منها قام بترجمتها ريلي - سميث، 1971، وسيتم قريباً نشر وترجمة الجزء المتعلق بالنصف الأول من القرن الثاني عشر وهو يحوى على النصوص المستخلصة من كتاب ابن أبي طى الأكثر أهمية.

- ابن المجاور، وصف عدن، طبعة لوندون، 1951 - 1954

- ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ترجمة الجزء الثاني قام بها:

H.A.R. Gibb. *The Damascus chronicle of the crusade* 1932

و Roger le Tourneau, *Damas de 1075 à 1155*, 1952

- ابن ميسر. حوايات مصر، طبعة ماسي، 1921، وهناك طبعة جديدة قام بها أ. فزاد السيد، ١٩٨١.

- ابن شداد (بهاء الدين). «حياة صلاح الدين» في: مصنف المؤرخين الشرقيين للحروب الصليبية ٣.

- ابن شداد (عز الدين)، أعلق الخاطرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، نشره سامي دهان ٣. أجزاء. دمشق: المعهد الفرنسي، ترجم دومينيك سورديل الجزء الخاص بحلب وقامت أن ماري أدى تيراس بترجمة ما يتعلق ببقية سوريا الشمالية. وقام كلود كاهن بتحليل الجزء الخاص بالجزيرة في:

Revue Etudes islamiques 1934.

وقد تم نشره بكامله مؤخراً بدمشق، 1978.

- ابن واصل، تاريخ الأيوبيين المعروف بعنوان مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشره الشيبال، وقام بعده ربيع بنشره في ٥ أجزاء، وتمتد حتى عام 1248، أما الفترة التي تصل لتاريخ 1262 فهي مخطوطة.

- الإدريسي، الجغرافية، الطبعة الكاملة في طور الإنجاز بإيطاليا، ترجمة جوبير بشكل مؤقت 1820.

- عماد الدين الأصفهاني، برق الشام، تم استخلاص عدة نصوص منه وطبعها وترجمتها في كتاب:

Abu Shama, *La prise de Jerusalem*. trad Massé, 1970.

- المخزومي، المنهاج، تم استخلاص عدة نصوص منها وترجمتها والتعليق عليها في كتاب:

Claude Cahen, *Makhzumiyyat*, 1978.

- المقرئزي، «تاريخ الفاطميين» (الامتاع)، نشر الشيبال. ثم نشر في كتاب:

Histoire des Ayyubides et des Mamluks, trad. Blochet dans *rev.or. lat.*, 10 - 12.

وبالنسبة لأوائل الممالك، كاترمير 1837 - 1845 (مع حواشي مهمة). «وصف مصر والقاهرة» (الخطوط). طبعة بولاق، جزان، 1890. أما الطبعة النقدية التي شرع فيها ج. فييت فهي لا تتجاوز الربع الأول من الكتاب.

- مرضى الطرسوسى. رسالة إلى صلاح الدين فى تجارة الأسلحة وصناعتها، نشر وترجمة وتعليق كلود كاهن، المعهد الفرنسى بدمشق، 1949.

- القلقشندى، صبيح الأعشى، طبعة القاهرة. ٢٠ جزء مع الفهرست، ١٩٢٠

- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، طبعة حيدرآباد.

- السلامى. انظر الفصل السادس.

- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ترجمة أ. ميكيل، 1982.

- ياقوت الحموى معجم البلدان، عدة طبعات، غير مترجم.

النصوص اللاتينية والفرنسية:

- Albert D'Aix, *Liber Christianae expeditionis pro ereptione, emundatione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, *R.H. Cr. Occ.*, IV; Peter Knoch, (Studien für Albert von Aachen), des Stuttgarte Beotrage für Geschichte und Politik, I, 1966; voir aussi *Syrie du Nord*.

- FOUCHER DE CHARTRES, (*Historia Hierosolymitana*), *R.H. Cr. Occ.*, III.

- GUIBERT DE NOGENT, (*Gesta Dei per Francos*), *R.H. Cr. Occ.*, IV.

- GUILLAUME DE TYR, nouvelle édition critique, par R.B.C. Huyghens, en préparation; (Continuation de Guillaume de Tyr), dans *R.H. Cr. Occ.*, II, cont, laf. 1183 - 1193, Marianne Salloch, *Die Lateinische Fortsetzung Wihelms von Tyrus*, 1934; cont. franc. manuscrit D, éd. M.R. Morgan, 1982; cf. *The Chronicle of Ernoul and the Continuations of Wiliam of Tyre*, Oxford, 1973.

- MARCO POLO, *Le devisement du monde*, commode présentation française, 2 volumes, éd. Maspero, 1980.

- RAYMOND D'AGUILERS, (*Hist. Francorum Hierusalem*), *R.H. Cr. Occ.*, III; nouvelle édition Hill dans les Documents pour servir à l'histoire des Croisades de l'académie des Inscriptions.

- ROBERT LE MOINE, *R.H.Cr. Occ.*, III.

- WILBRAND OLDENBURG, dans *Peregrinatores medievi quator*, 1880.

- *Assises de Jérusalem*, *R.H. Cr.*, Lois, 2 volumes.

- *Assises d'Antioche*, éd. trad., Venise, 1876.
- *Chanson d'Antioche*, I, II, éd. Suzanne Duparc - Quioc, Paris, 1977 - 1978.
- *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum* (Histoire anonyme de la Croisade), éd. Louis Bréhier, 1928; Tudebode, éd. Hill, dans *Documents pour servir à l'histoire des Croisades*.
- *Gestes des Chyprois*, Société de l'Orient latin, 1887.

النصوص الآرمينية:

- MATTHIEU D'EDESSE, dans *R.H. Cr. Arm.*, I, et sa continuation par Grégoire le Prêtre, *ibid*.
- *La Chronique attribuée au Connétable Smbat*, éd. Dédéyan, 1979.

النصوص السريانية:

- BAR - HEBRAEUS (Abul Faraj), *The Chronography*, éd trad. Budge 2 volumes, 1932.
- MICHEL LE SYRIEN, *Chronique*, éd. trad. J.B. Chabot, 4 volumes, 1910.
- *Chronique anonyme syriaque*, éd. J.B. Chabot, 1935, trad. Abuna, Louvain, 1974.

النص العبري:

Benjamin de Tudéle, ed. trad. Adler, 1907.

إن الشخص الراغب في قراءة ترجمات النصوص الشرقية يمكن أن يجدها في كتاب *Bibliothèque des Croisades* de Michaud et Raynaud, وهو قديم، وفي كتاب حديث لصاحب *Fr. Gabrieli, Storici arabi delle Crociate* (trad. fr., 1976). وذلك إلى جانب مصنف: *Recueil des Historiens des Croisades* والكتب الخاصة المذكورة في الصفحات اللاحقة.

مجموعة الوثائق المستخلصة من الارشيفات:

- Geniza, voir Goitein, et Sh. Shaked, *A tentative bibliography of Geniza documents*, 1970.
- Röhrich, *Regesta regni Hierosolymitani*, 1 volume et un additamentum, Oeni Ponti 1893 - 1904, reprod. New York.
- Notaires génois: Johannés Scriba, R.C.I., 19/ 20, Rome, 1935.
- لقد تعددت سجلات الأديرة والكنائس ابتداء من نهاية القرن الثاني عشر وقد نشر عدد منها. انظر:
- documents vénitiens: Morozzo et Lombardo, *Documenti del commercio veneziano nei secoli XI - XIII*, Rome et Turin, 1940.
- Morozzo, *Famiglia Zusto*, 1900.
- documents pisans: Amari, *I diplomi arabi del Reale archivio fiorentino*, Florence, 1863, 2 volumes.
- JINS - MÜLLER, *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll' Oriente cristiano et coi Turchi fino all'anno 1531*, Florence, 1879.

أهم سجلات المنازل الدينية:

- Hôpital: Delaville - Le Roulx, *Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de Saint - Jean - de - Jérusalem*, Paris, 1894 - 1906.
- Notre - Dame - de - Josaphat: H.F. Delaborde, *Chartes de la Terre sainte provenant de l'abbaye de Notre - Dame - de - Josaphat*, Paris, 1880.
- Saint - Sépulcre: le cartulaire incomplet publié par Rozière, en 1849, devra être très prochainement remplacé par l'édition de Geneviève Bresc - Bautier.

لم نحفظ بسجلات جماعة فرسان هيكل سليمان، وما نشره المركز البابوي ليس سوى مجموعة من النصوص وجدت في مواضع أخرى. ويجب أن نولي أهمية خاصة لمراسلات البابوات، وهي محفوظة جيداً ابتداء من اينوسنت الثالث، وقد تم نشرها أو تحليلها ابتداء من جريجوار التاسع تحت رعاية المدرسة الفرنسية بروما.

انظر بصدد الوثائق الأثرية:

Histoire de l'Art, et Salina de Salvadi, *Corpus Inscriptiorum...*
Jérusalem, 1974, etc.

٢- المراجع:

لا نقدم إلا فهرساً انتقائياً محدوداً بالمظاهر الأساسية للتاريخ المعالج أدناه. وقد تم تفضيل المؤلفات الحديثة التي لم تدرج في الفهارس السابقة، ونجد فيها بالمقابل الإحالة على الأبحاث القديمة.

هوامش المقدمة

١ - إن قائمة المراجع التي أوردها م.أ. مايير عام ١٩٦٢ تتضمن ٥٢٦٢ مرجعاً.

٢ - *Saeculum 1957.*

٣ - 1933 - 1938 René Grousset *Histoire des Goisades* يظن هذا الكاتب الذي لا ينكر فضله في مجال تعميم الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط والأقصى على أوسع نطاق أن بإمكانه - نظراً لاشتغاله في علاقة مع المختصين - أن يؤلف لوحده هذا الكتاب حتى وهو لا يعرف أية لغة من اللغات التي لا بد منها في هذا الشأن، وإن الانتشار الكبير الذي عرفه هذا الكتاب بفرنسا وحتى في الخارج يدعو إلى نوع خاص من الحسرة رغم ما يجده القارئ من متعة في بعض الجوانب منه.

٤ - أبحاث موريس جرانديكلود (انظر مايير، رقم ١٦١٤ و ٤٢٢٧) وجون لامونت وخاصة أبحاث جان ريشار ويوشع براوير وهانس أ. مايير وأبحاثي إلى حد ما وأبحاث بعض الباحثين الشباب الآن. قارن مع: Franco Cardini, "Gli studi delle Crociate dal 1945 adoggi" *Riv. st. It.*, 1968.

أنا أول من يعلم أن أطروحتي التي كتبتها عام ١٩٤٠ عن «سوريا الشمالية زمن الحروب الصليبية» لا ينبغي أن يعاد طباعتها كما هي الآن ولهذا السبب انتهيت إلى منع إعادة طباعتها رغم الدعوات الكريمة التي وجهت لي في هذا الشأن، واست أنكر ما أسدته من خدمات وقت صدورها غير أنها تتضمن ثغرات ونقائص فكرية يمكن لقارئ هذا الكتاب لو قدر له الاطلاع عليه أن يتنبه إليها بيسر.

٥ - أبيع لنفسى أن أؤكد بعض الشيء على الغرابة الكامنة في محاولة رد الاعتبار من طرف أحد الغربيين، فباستثناء بعض الحالات النادرة لم يفعل الشرقيون سوى استخدام الأبحاث الغربية في دراساتهم بعد تغيير رموزها بحيث تصبح الانتصارات هزائم والعكس بالعكس. على أنى أنه بأبحاث نورمان دانييل المخصصة لتاريخهم الإسلام من قبل الغرب ولو أن معرفته بالشرق قاصرة، إنه غالباً ما يحصل لدينا الانطباع بشكل أعم أن المؤرخين يعتقدون في إمكانية الاكتفاء بمعرفة تقريبية في حديثهم عن الشرق في حين أنهم أول من ينتقد مثل هذه المعرفة حينما يتعلق الأمر بميدان اختصاصهم.

هوامش الفصل الأول

- ١ - عرب «جارد فرينى» الذين هم موضوع دراسات كفيّة بتجديد طرح هذه المسألة وجزر البليار والمواقع الموجودة بجزيرة سردينيا والتي نجهلها أشد الجهل (انظر: P.Martini *Storia delle invasiani degli arabi e delle Piraterie dei Barbareschi in Sardegna*, Bologne, reimp, 1963.
- ٢ - انظر موسوعة الإسلام (٢)، مادة الفاطميين.
- ٣ - من المحتمل أن تكون هذه الرسالة القيمة «محاسن التجارة» وهى رسالة صغيرة الحجم لصاحبها أبو الفضل الدمشقى قد ألفت فى هذه الفترة، وبهذا الصدد يمكن الرجوع إلى: Cl. Cahen dans *Oriens*, 1967 و H. Ritter dans *Der Islam*, 1927, إن أبا الفضل هو نموذج لهؤلاء السوريين والعراقيين الذين كانت لهم أهمية متعاظمة فى الميدان التجارى بمصر.
- ٤ - لقد كتب الشيء الكثير عن مسألة التجار المدعويين بـ «الرهدانيين» فى المدة الأخيرة. ومن ضمن ما كتب انظر: Claude Cahen dans *Revue des Etudes juives* 1963. و E. Ashtor dans *Revue suisse d'histoire* 1977.
- ٥ - وهى شعوب تركية تحولت تقريباً إلى اليهودية. قارن مع: Dunlop, *History of the Jewish Khazars* princeton, 1904.
- ٦ - انظر: A. Morabia (*Djihad*) وانظر كذلك رغم ما يشيّر به من جدال: Albrecht Noth, *Heilige in Islam and Christentum* Bonn 1966. وكذلك: Khadduri, *war and Peace in the Law of Islam* 1941.
- ٧ - موسوعة الإسلام (٢) : و. أ. فقال (انظر قائمة المراجع): Michel le Syrien ed. Chabot vol III - ٨
- ٩ - راجع مقالى: (l'accueil des chretiens à islam) dans la *Revue d'histoire des religins* 1963.
- ١٠ - انظر موسوعة الإسلام، مادة ذات الهمة (كتار)؛ وهى موضوع سيد بطال غازى انظر أدناه ص ١١٠. أما من جانب البيزنطيين، فإن أهم آثار فى هذا الشأن هو قصيدة «بيجنيز أكريتاس» وتعنى «المولد الحنودى».

١١ - لقد كتب عن هذه المساجلة أكثر مما تستحق من حيث أهميتها الحقيقية، ولنذكر ضمن الأبحاث الأكثر انصافاً ما كتبه أرمان أبل، كما نجد على وجه الإجمال قائمة بالأعمال الحديثة تقريباً بمجلة الفاتيكان: *Islamica Christiana*, 1975.

١٢ - انظر: Khoury (*Théologies et Ducellier (Miroir)*).

١٣ - إن رسالة البابا سيرج الرابع الذي عاش إبان فترة الاضطهاد تم اختلاقتها لاحقاً للدعوة للحملة الصليبية وذلك حسبما بينه جيسستور في: *Medievalia et Humanistica*, V - VI, 1948 - 50 ووبالنسبة لانعكاسها في الغرب انظر: Raoul Glaber, éd. Prou, 3 - 7.

و Adhémar de Chabannes, 149; (*Chronique de Saint Martial*), Bouquet, *Hist. France*, X, 262.

هوامش الفصل الثانى

١ - لقد قام الإسبان بالإغارة على الإسكندرية فى بداية القرن التاسع كما احتلوا جزيرة كريت لمدة قرن، وحسب *Medieval Jewish Chronicles, I, 67* فقد قام القراصنة الإسبان بنهب بحر إيجة والساحل الفلسطينى حتى فى عام ٩٧٢.

٢ - انظر: *Goitein Memorial Levi - Provencal 1960*

٣ - *Zothenberg, cat. Miss syr Bibl nat, 12*

٤ - *Claoxde Cahen, Turcabyzantina*

٥ - انظر مقالاتى فى: *Past and Present, 1954* و *Bulletin de la Faculté des*

Lettres de Strasbourg, 1951 وقد تم نشرها فى مجموعتى: *Turcobyzantina*.

٦ - المرجع نفسه.

٧ - *Monumenta Germ, Hist, Scriptorum VII 497*

٨ - يمكن أن نستشهد برحلات الحج التى قام بها روبرت الذى كان كوتاً على الفلاندر، وقد تمت بتاريخ ١٠٨٨، ورحلات كل من جيوم الرابع التولوزى حوالى عام ١٠٩٢ (وقد تم الخلط بينه وبين ريمون الضجلى فى الكتابات اللاحقة، انظر:

(L. Lalanne, Des pèlerinages en Terre sainte avant les Croisades dans *Bibl. Ec. Chartres, VII, 1845*).

والتورماندى سان جليوم فيرمات (*Acta Sanctorum, 24, avril, p. 366*) وتيبرى أسقف مدينة فردان (M.G.H.S., X, 495)، ويبيون أسقف مدينة طول مع كونراد الذى كان كوتنا على اللوكسمبورغ، وذلك حوالى عام ١٠٨٥ (*VIII, 647*) والأسقف السويدى روسكيلد عام ١٠٨٦ (M.G.H.S.,

(Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte, 126*) ، وجماعة من الإيطاليين من مدينة أريزو

(Muratori, *Antiquitates, V, 219*) والناسك يوسف الكانتربورى

(Leib, *Rome, Kiev et Byzance, 84*; Haskins, "A Canterbury monk at Constantinople", *Eng. Hist. Rev., 1910*)

وربما جودفروا البويونى وبطرس الناسك، ولعل هذا الأخير قام برحلته إلى الحج عبر مدينتى بارى والإسكندرية، وثمة رسالة بعث بها أوربان الثانى إلى جماعة من الإسبان ترفع عنهم نذر الحج نظراً لاضطرارهم محاربة المرابطين (Riant, *Inventaire, 68*). إن رسالة فكتور الثالث المذكورة فى هذا المرجع والتى نُجدها ضمن ("Lettres historiques des Croisades", *Arch. Orient Lat.*,

(1881 هي في الحقيقة مكتوبة من قبل فكتور الثاني إلى ثيودورا البيزنطية في أواسط القرن الحادى عشر، ذلك أن ليب يرجع رحلة الحج التى قام بها أسقف مدينة لانجر إلى عام ١٠٧٥ خطأ، حيث أن رواية AASS (١٧ غشت، ٤٤٣) تجعلها معاصرة للحملة الصليبية الثانية.

٩ - راجع مقالاتى المذكورة سابقاً.

.

هوامش الفصل الثالث

١ - بالنسبة لحملة الإمبراطور يوحنا تزميسكيس حيث يحلو لبعضهم أن يرى فيها ما يشبه استباقاً للحملات الصليبية، فإن أحدث دراسة هي:

P.E. Walker, "The Crusade of John Tzimiscés in the light of new Arabic evidences", *Byzantion*, 1977, P. 301 - 327.

وانظر كذلك أثناءه ص ٥٤.

٢ - حول هذه التواريخ، انظر فرانسيس في: *Byzantioslavica*, 1968. لا يظهر أن لهذه المسألة سابقة لا في بيزنطة ولا في الإسلام، ولا أظن أن ثمة مجالاً للتفكير في إمكانية الربط بينها وبين الوقائع المماثلة لها في الصين وربما في الهند رغم ما ذهب إليه لوبيز سابقاً، إذ يكفي الاعتماد في التفسير على التماثل بين الحالات.

٣ - في هذه الفترة كانت ما تزال هناك بعض العوالم المسيحية بإفريقيا حيث سنرى لاحقاً رسالة جريجوار السابع في هذا الشأن، وقد كان الأطباء اليهود والمسيحيون بالمغرب وراء إنشاء مدرسة ساليرنو التي يرتبط بها اسم قسطنطين الإفريقي.

٤ - *Past and Present*, 1954، وهو مقال أعيد نشره في كتابي: *Turcobyzantina*, 2B.

٥ - المرجع نفسه.

٦ - C. Courtois, "Grégoire VII et l'Afrique du Nord", *Revue Historique*, 195, - 1945; Lopez, "Le facteur économique dans la politique africaine des Papes", *Revue Historique*, 198, 1947.

سيكون هناك قرصنة فرنجة لا في الجيوش البيزنطية فحسب بل حتى في بعض الجيوش الإسلامية، وربما حدث ذلك منذ هذه الفترة، وتوحي إحدى الحوليات العبرية بوجودهم فيما يبدو حتى في صفوف التركمان إتسز المقدسي عند هجومه على مصر عام ١٠٧٥.

٧ - انظر آخر معالجة لهذه المسألة من قبل كلود كاهين في:

Islam and the Medieval West, éd. Kh. Semaan, New York, 1980 (Colloque de 1975);

وانظر كذلك: A. Ashtor, dans *Revue suisse d'Histoire*, 1977.

٨ - انظر مسألة «الرهدانين» أعلاه، ص ١٢، هامش ٤.

٩ - انظر كلود كاهين في: *Archivio Storico Napoletano*, 1954، وقد أعيد نشر هذا المقال في:

Turcobyzantina, 2A

١٠ - نعرف من خلال مراسلة الأستاذ جودر أن الفاطميين كانوا يقومون بقيادة البوارج بأمالفي وذلك قبل غزوهم لمصر، وفي المقابل كان الإمبراطور يوحنا تزمسكيس في عام ٩٧١ يمنع رعاياه من بيع الخشب والحديد للمسلمين (لا يتعلق الأمر هنا إلا بمسلمي المغرب)، وكان يعد نظرياً سكان أمالفي والبندقية ضمن رعاياه.

١١ - Armando Citarella "Patterns Of Medieval Trade : the commerce of Amalfi before the Crusade", dans *Journal of Economic History*, 1968, Michel Balard dans *Trauaux et Mèemoites VI*, 1976, Cl. Cahen "Le commerce d' Amalfi avant Pendant et apr`ees la Croisade", Dans *Comptes rendus des s`eances Acad Ins criptions*, 1978
مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب:

Jacob Mann, *Jews in Fatimid Egypt*, 1977, p. XXIII.

ويذكر ج. سطار في كتابه *Jews and the Byzantin empire*, p. 182 أمالفيا مسيحياً بسبب علاقاته مع الشرقيين. وفيما يتصل بالظروف العامة بشأن التواصل في البحر الأبيض المتوسط يمكن الرجوع إلى المؤتمر الذي أقيم بمدينة سبولىتى عام ١٩٧٦، وقد نشرت أعماله عام ١٩٧٧. وثمة شهادة عن العلاقات التجارية بين إفريقيا الشمالية وإيطاليا الجنوبية يثبتها وجود أسماء لعملات «مانكوس» (أى الدينار المنقوش) «هصوى» في هذه المنطقة. وفيما يتصل بالتقدم العام الذى حققت التجارة بالبحر المتوسط، يمكن الرجوع إلى ملاحظات س.ف. بكينغهام حول الخرائط الواردة بمخطوط ابن حوقل الذى تمت مراجعته وذلك فى: "Iran and Islam", *Memorial Minorsky*. وحسب ابن حوقل فإن الاتواب الإيطالية كانت مشهورة فى الشرق ابتداءً من عصره.

١٢ - يلمح ناصر خسرو (حوالى ١٠٤٠)، ترجمة شيفر، ص ٦٦ و ١٠٧ إلى رحلات الحج التى قام بها مسيحيو ويهود روم وغيرها من المناطق إلى القدس.

١٣ - S.D. Goitein, "Mediterranean Trade preceding the Crusades", dans *Diogène*, 1957, et *Mediterranean Society*, I, 1967.

١٤ - "Risâla d'Abu Salt", thèse de Bou Yahya, p. 268; Idris, *Zirides*, II, 714, - note 5 وذلك حسب الفقيه ابن محرز.

١٥ - M. Lombard, "Arsenaux et bois de marine", dans *Le Navire... Colloque* - 1958, Paris *d'histoire maritime*, Paris 1958, . Espaces et reseowx 1978 وقد أعيد نشرها فى

١٦ - Cl. Cahen, "L'alun avant Phocée", dans *Revue d'histoire économique*, - 1963; Dirk Lange, "L'alun du Kavar, une exportation africaine vers l'Europe", Colloque sur *Le commerce caravanier à travers le Sahara*, Tripoli 1979, à paraître, Louis A. Christopher, "L'alun d'Egypte", *Bull. de la Soc. de Géographie d'Egypte*, XXXVII, 1964.

١٧ - يشير المنهاج (انظر قائمة المراجع) إلى مدينة سارديس، وليس بإمكاننا أن نذكر شيئاً آخر بشأن هذه المدينة.

١٨ - انظر ما قيل عن «السيد» ص ٤٢.

١٩ - Julia Gauss, "Toleranz und intoleranz zwischen Christen und Muslimen in der Zeit for der Kreuzzüge", dans *Saeculum*, 19, 1968, p. 362 - 389.

٢٠ - A. Sharf, *Byzantine Jewry*, 1971.

٢١ - مقال :

Levi della Vida, "La corrispondenza di Berta di Toscana col callifo Muktafi", *Rivista Storica italiana*, LZVI, 1954.

(وذلك حسب وثيقة اكتشفها محمد حميد الله).

٢٢ - M. Th. d'Alverny, dans *Settimane di Spolete*, 1964 (publié en 1965); Rodinson, article repris dans *La fascination de l'Islam*, 1981; Norman Daniel, "Islam".

٢٣ - انظر ص ١٩.

٢٤ - لقد كانت الشاعرة الساكسونية هروتسوينا على علم بشهداء قرطبة: انظر:

E. Cerulli, *Studia Islamica*, XXXII, 1970, p. 69 - 76.

٢٥ - Cl. Cahen, "Frédégaire et les Turcs", dans *Mélanges Perroy*, 1973.

لا يهتم س. رونسيومان بهذه المسألة في مقاله:

"Europe and the Turcs" dans "The Early Middle Ages", *Asiatic Review*, 1932.

٢٦ - Hildebert de Lavardun = Embrico de Mayence وبالنسبة لهذا الأخير انظر: Cambier, dans *Latomus*, XVI, 1957.

٢٧ - توجد كلمة «إسبانيا» في رسالة روبرت الفلاندرى وفي *Gesta Francorum* المجهول مؤلفها.

٢٨ - أضف إلى ذلك أن الغربيين فيما يبدو لم تكن لديهم فكرة أوضح عن الكنائس الشرقية وذلك رغم وجود رجال دين أرمن وبيزنطيين بإيطاليا (Dédéyan, Colloque de Dijon, *Occident et Orient* au X^e siècle, 1978) ورغم رحلات الحج.

٢٩ - إنه لفي هذه الفترة بدأت تنتشر خرافة رحلة شرلمان إلى الأراضى المقدسة.

٢٠ - أخف إلى ذلك أننا لا نعرف كثيراً من التجار أو الرحالة البيزنطيين بلوروا الغربية باستثناء عدد قليل جداً من السفراء.

٣١ - لقد قام ت. كوالسكى بإثبات نسبة النصوص المقتبسة لهذا الرحالة الذي تم الاستشهاد به تحت أسماء مختلفة:

T. Kowalski, *Relacja Ibrahima b. Ja'kuba z podróży do krajów słowiańskich w przekazie al - Bekriego*, Cracovie, 1946.

B. Lewis, "The muslim discovery of Europe", *B.S.O.A.S.*, 1957, CC; - ٣٢
Ign. Guidi, "L'Europa occidentale negli Antiqui geografi arabi", *Florilegium M. de Vogué*, 1909, p. 263 - 269.

٣٣ - انظر ضمن قائمة المراجع:

Labande, "Recherches sur les pèlerins dans l'Europe des XI^e et XII^e siècles", *Cahiers de Civilisation médiévale*, 1958, 2/ 3; Françoise Micheau, Communication au Congrès "Occident et Orient au X^e siècle", Dijon 1978, publ. 1979. G. Constable, "Monachisme et Pèlerinage au Moyen Age", dans *Revue Historique*, 523, 1977, p. 328.

M. Canard, "La destruction de l'Eglise de la Résurrection par le Calife - ٣٤
Hâkim et l'histoire de la descente du Feu Sacré", *Byzantion*, 35, 1965, p. 16 - 43.

J.M. Fiey, "Le pèlerinage des: ٣٥
Nestoriens et Jacobites à Jérusalem", *Cahiers de Civilisation médiévale*, XII, 1969, n° 2.

M. Gauderoy - Demombynes. *Le pèlerinage à la Mecque*, 1951. - ٣٦

٣٧ - «سَيِّدُنَا»، انظر أدناه ص ١٦٧، هامش ٢.

Prawer, "Jerusalem in the Christian and Jewish perspectives of the - ٣٨
Early Middle Ages", *Settimane...*, Spolète 1978.

Prawer, *Histoire*, I, 526 sq

٣٩ - أباديا : وثمة تركيب جيد للمعلومات في:

٤٠ - انظر ص ٢٠، هامش ٨.

هوامش الفصل الرابع

١ - Delaruelle, "Essais sur la (انظر المراجع) Carl Erdmann, "Die Entstehung" formation de l'idée de Croisade", *Bull. des Littératures Eccl.*, Toulouse, 42 - 45 - 55, 1941 - 1944 - 1953 - 1954.

ثمة مجال لمقارنة الجزاء الإلهي الذي وعد به الصليبيون والشهداء المسلمون في الجهاد. انظر:

Voir Riley - Smith, *Crusading as act of love*, 1979, E. O Blake, "The formation of the Crusade idea" dans *Journal of Ecclesiastical history*, 21 - 1970, Jean Richard, `ed., *L'esprit de La Croisade*, Paris 1969, Brundage, *Medieval Studies*, (ثمة نقد قام به أ. نوث مذكور في: *The army of the first Crusade* (33, 1971).

٢ - Congrès des Sciences historiques, 1955 تقرير ب ليميرل.

٣ - Courtois, "Grégoire VII et l'Afrique du Nord", *Revue Historique*, 1945.

٤ - Lopez, *Rev. Hist.*, 1947.

٥ - Défourneaux, *Les Français en Espagne au XI^e et au XII^e siècles*, 1949.

٦ - لقد كتب الشيء الكثير في المدة الأخيرة عن أوربان الثاني. انظر:

R. Somerville, "The councils of Urban II: Clarmont", *Annuario de l'Historia Conciliorum*, suppl. I, 1978. H.E.V. Cowdrey, "Pope Yrban II's Preaching", *History*, LV, 1970; "Cluny and the first Crusade", *Revue Bénédictine*, LXXXIII, 1973.

٧ - لقد توسعت في هذه الفرضية في مقال: *Past and Present*, 1954 الذي أعيد نشره في: *Turcobyzantina*, 1974.

٨ - إن فترة ولاية البابا أوربان الثاني تتطابق مع فترة من الانفراج في العلاقات بين النورمانديين وبيزنطة بعد وفاة روبرت جيسكار مما أتاح للبابا أن يحافظ على علاقات سليمة مع كليهما في الوقت ذاته. ويجب أن نلاحظ أن قرار شن الحملات الصليبية قد اتخذ في فترة كانت حركة الاسترداد بإسبانيا تراوح في مكانها على إثر توطد المرابطين.

٩ - قارن مع دراستي:

"Traité d'armurerie composé pour Saladin", dans *Bull. Etudes Or.*, Damas, 1949.

١٠ - انظر أدناه فيما يخص منع هذه التجارة.

Zeki Velidi, "Die Schwerter der Araber", dans *Zeitschrift Deutschen Morganl. Ges.*, 1936, bien supérieur à Nazaheri, "Le sabre contre l'épée", dans *Annales E.S.C.*, XIII, 1958.

١١ - انظر أحدث تأليف في كتاب: Lynn White, *Medieval technology and social change*, Oxford, 1962; trad. franc., *Technique et Société*, 1969.

١٢ - لقد أفضت في الحديث عن هذه الأفكار في مؤتمرين أحدهما بمدينة لندن عام ١٩٧٠ والثاني بالدرسة الفرنسية بروما عام ١٩٧٨؛ وقد نشرت أعمال مؤتمر لندن ١٩٧٥ بعنوان: *War, Technology and society*, éd. Yap et Parrey أما أعمال روما فقد نشرت عام ١٩٨٠ بعنوان: *Structures féodales et féodalisme dans l'Occident méditerranéen (X-XIII^e siècles)*.

وانظر أيضاً: W.E. Kaegi, "The contribution of archery to the Turkish conquest of Anatolia", *Speculum*, 39, 1964, PP. 96 - 108, et D. Sinor, "the inner Asian Warriors", *J. of the Amer Orient. Soc.*, 1981. Lindner, "Nomadism, Horses and Huns", *Past and Present*, 92, 1981.

ومع ذلك فإن هذا المقال الأخير يوضح بحق أن الغزاة الرحل لا يمكن أن يظلوا كما هم في المناطق الصالحة لتربية المواشي.

١٣ - ولو أن مجعاً كتباً بالقرن التاسع قد منع القذافة بوصفها سلاحاً فتاكاً.

١٤ - ويسمونهم «أغولانيين».

هوامش الفصل الخامس

١ - إن أحدث عرض في هذا الصدد قام به ستيفان رونسيومان في كتابه *The First Crusade*, 1981. وفيه يعود لما تناوله في العروض السابقة، للتوجه إلى جمهور أوسع. انظر التأريخات العامة المذكورة في تقديم لائحة المراجع.

٢ - *Past and Present*, 1954. تم نبذ فيليب الأول ملك فرنسا الذي كان ضعيف الشخصية.

٣ - يلاحظ أن دير كلوني الذي ظهرت فيه فكرة الحروب الصليبية على يد غريغوار السابع وأوربان الثاني لم يكن ممثلاً بشكل خاص فيما يبدو أثناء الحملة.

٤ - إذا كان هناك بعض السكندنافيين، فقلما وجد إنجليز وقتذاك، بسبب الخلاف الذي نشب بين أبناء وليام الفاتح.

٥ - ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون الرسالة الموجهة من أوربان الثاني إلى أهل مدينة بولونيا ترجع في الحقيقة إلى إنوسنت الثالث.

٦ - راجع الملحق، الوثيقة الثانية.

٧ - لم يتم التساؤل فيما يبدو عما إذا كانوا متأثرين بمواقفهم الحزبية الغلفية (المناصرة للبابا) أو الجلفية (المناصرة للأباطرة الجرمانيين).

٨ - انظر: *Patrologie grecque*, T. 126.

٩ - انظر ما نقوله عن رسالة الكسيس الموجهة لكونت الفلاندر في الصفحات اللاحقة بالفصل السابع.

١٠ - راجع مقال في: *Mélanges Perroy*, 1973، وكذلك Runciman, "Europe and the Turks in the early Middle Ages", *Asiatic Review*, XXXIX, 1943.

١١ - من المهم أن نشير إلى رواية أحد الشهود الأرمن الذي كان مع ذلك يجهل قضية «الرمح المقدس» التي أثارت مشاعر الفرنجة بشدة. ولاشك أن ثمة تلميح إلى الملكيين واليونان في «نيكون الجبل الأسود»، انظر أبناء، ص ١٧٠، هامش ١٥.

١٢ - لاشك أن عصابات التافور كانت تجند في صفوف الصعاليك الأرمن الذين حاكوا حولهم خرافة أكلهم مسجئاء الحرب، وهي خرافة رهيبة ذائعة الصيت، انظر: Guibert, *R.H. Cr. Occ.*, III, index, et *Chanson d'Antioche*, éd. S. Duparc - Quioc, index.

١٣ - انظر لاحقاً قصة جوفروا الأشي.

١٤ - إن غالبية الفقراء ممن ليس لديهم النية في البقاء لم يكونوا مجازفين في شيء بقيامهم بممارسة أعمال

النهب. انظر: W. Porges, "The Clergy, the Poor and the Non - combattants in the 1st Crusade", *Speculum*, 21, 1946.

١٥ - كان لدى الصليبيين انطباع عن خصوبة البلد.

١٦ - John France, "The crisis of the first Crusade", *Byzantion*, XL, 1971.

١٧ - لقد تم حديثاً تناول كونتيه الرها في أطروحتين قدمتا بجامعة السربون وليون. انظر: بشكل مجمل: J.B. Legal, *Edessa, the blesl city*, 1970

١٨ - انظر: Arch. Lewis, "Northern European Sea - Power and the Staits for Gibraltar, 1031 - 1350 A.D.", dans *Order and Innovation in the Middle Ages*, Essays in Honor of Jos. R. Strayer, Princeton, 1976.

١٩ - وحتى الدول الثلاثة الأخرى اتخذت مظهر إمارات عادية ؟

٢٠ - لم يتم التشديد كثيراً على كون أن الإيطاليين لم يساهموا بتاتاً في النقل البحري إبان الحملات الصليبية وذلك خلافاً لما سيكون عليه الأمر لاحقاً، وهو أمر يمكن أن يكون عسيراً في الحقيقة نظراً لأن هذا البحر لم يكن قد استكشف كثيراً وكذلك لانعدام تجاربهم في السابق.

٢١ - انظر المندرج بقائمة المراجع العامة عن علاقات البيازنة بالفاطميين.

٢٢ - يجب في هذا الصدد دراسة مسلك مختلف الأحزاب بجنوة ذاتها؛ ولاشك أن أكثرها تدخلا كانت توجد في جانب الأرستقراطية الأشرافية، ومنها عائلة أمبرياشي التي حصلت مع منطقة نفوذ جبيل على نوع من المراقبة على المصالح الجنوبية بالشرق. انظر أ. باش الذي ورد ذكره بالفصل الثامن، هامش ١٦.

٢٣ - وبالعكس، إنه لفي هذه الفترة (٥٠٥ / ١١١١) يشير المقرئ في كتابه الاعتاظ إلى قيام السفن الإيطالية باحتجاز أسطول بحري صغير كان به تجار ورحالة دمشقيين فيما يبدو وكانوا راجعين من تينيس، وقد افترقا أنفسهم مقابل فدية باهظة.

٢٤ - Goitein, *Mediterranean Society*, 98.

٢٥ - انظر الامتيازات التي منحت لبودوان الأول عام ١١١٣: Röhrich, *Regesta*. وقد خلفت حملة بودوان الأول على مصر أثراً في الأدب العربي الشعبي:

Clédat, dans *Bull. Inst. Fr. Arch. Or.*, Le Caire, 26, 1926, p. 71 - 79.

٢٦ - Mayer, l'inscription du Saint - Sépulcre انظر ادناه.

هوامش الفصل السادس

- ١ - الشاعر السعدي بالقرن الثالث عشر، ربما حسب ما يذكره بنفسه ؟
- ٢ - والد ابن رشد؛ وقد أبلغ هذه المعلومة م. برونشفيك.
- ٣ - Cl. Cahen, *Syrie*, p. 41.
- ٤ - Cl. Cahen, *Syrie*, p. 41 حسب ما يذكره كمال الدين.
- ٥ - Ed. Amedroz, 1912; trad. angl., H.A.R. Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades*, 1932; trad. franc, R. Le Tourneau, *Damas de 1075 à 1155*, 1952.
- ٦ - Ed. Sami Dahan, 3 vols, Damas, 1951 - 1954 - 1968; trad. franç. dans *R.H. Cr. Or., III*, حتى سنة ١١٢٥.
- ٧ - هذا الجزء من آثار ابن الفترات لم ينشر بعد. انظر: Cl. Cahen, *Syrie*, p. 85
- ٨ - قام بالطبعة والترجمة الفرنسيتين م. دارنبورغ؛ وثمة عدة ترجمات بلغات أخرى، وأحدث ترجمة فرنسية قام بها أندريه ميكيل عام ١٩٨١.
- ٩ - انظر الملحق.
- ١٠ - كان المهاجرون حضريين على الخصوص، ولعل الهجرة القروية المكثفة قد تسببت في إحداث مجاعة لا نجد أثراً لها في النصوص. انظر أدناه، ص ٨٦ وانظر: E. Sivan, "Réfugiés palestiniens au temps des Croisades", *Rev. des Et. Ist.*, 1967.
- ١١ - Ed. et trad. par Emmanuel Sivan, dans *J.A.*, 1966.
- ١٢ - لم يذكر اسمه في «التاريخ الكبير لدمشق» لابن عساكر.
- ١٣ - من نوع ما نجده بعد قرن في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير.
- ١٤ - انظر: موسوعة الإسلام (٢)، مادة الحريري.
- ١٥ - أسامة. انظر قائمة المراجع.
- ١٦ - Cl. Cahen, *Syrie*, p. 293 sq.
- ١٧ - قارن بالصفحات الأولى من كتاب «تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تحقيق صليبي حور وطيبى، بيروت، ١٩٦٩. ربما يمكن تحقيق بعض التقدم من خلال دراسة الأماكن المذكورة بالنسبة لهذه المنطقة في وثائق الحملات الصليبية.

١٨ - Abbé Martin, dans *J.A.*, 1889 et art. de Nau, dans *J.A.*, 1899; قارن بالقلمونة السريانية بالملحق (الوثيقة ١٠).

١٩ - انظر أدناه.

٢٠ - غوايتن، انظر الملحق.

٢١ - التي تتكلم عنه الكتابات القيامية لليهود في هذا العصر؛ انظر أدناه.

٢٢ - ابن القلاسي. انظر قائمة المراجع.

٢٣ - انظر البحث الذي تقدم به هـ. أ. مايرر بأكاديمية التدوين، ديسمبر ١٩٨٠.

٢٤ - قارن بموسوعة الإسلام (٢)، مادة الفاطميين (كنار)

٢٥ - انظر الامتيازات التي حصل عليها الجنوبية، وانظر أدناه، ص ١١٠؛ حسب ما يذكره المقرئ في «الاتعاظ» طبعة أ. حلمي، ج. ٢ ص ٤٦ فإن التجار والرحالة الدمشقيين العائدين إلى أحد الموانئ السورية انطلاقاً من تينيس بمصر تم أسرهم عام ١١١٠/٥٠٤ من قبل أسطول فرنجي وألزموا بأداء مبالغ مالية طائلة.

٢٦ - لقد ظلت العلاقات مع الزيريين الذين أصابهم الخراب فضلاً من ذلك، علاقات فاترة في الظاهر، وإننا نجهل ما إذا كان ثمة علاقات بين الفاطميين والمرابطين.

٢٧ - لاشك أن الاستيلاء على صور كان أمراً ضرورياً، وبالأخص للرد على الهزائم (وقوع بودوان الثاني في الأسر) التي منيت بها السياسة بالشمال التي كانت أشد خطراً، وقد تم ذلك في سياق سياسي داخلي.

٢٨ - Cl, Cahen, *Pre - ottoman Turkey*, 1968

من الممكن أن يكون السلطان محمد قد سعى لأن يتم الكفاح بأسيا الصغرى وسوريا تحت رعايته في الفترة الزمنية نفسها، لكنه لم يفلح في مسعاه، وعلى أية حال فقد كانت تلك آخر محاولة في هذا الشأن.

٢٩ - صحيح أن الفرنجة تعرضوا لعدة حوادث مزعجة على الحدود الشمالية بسبب التركمان، لكن قلما يمكن الكلام عن سياسة متعلقة بالقادة.

٣٠ - انظر الملحق. أحدثت هذه السياسة صدمة كبيرة في الرأي العام إلى درجة أن نتش شَعَرَ بالحاجة إلى السعي لإقامة السلام مع الخليفة.

٣١ - لقد اقترب نتش الدمشقي من مصر في بعض الفترات سعياً لإنقاذ آخر الموانئ الساحلية وطرابلس. لقد لوحظت الجهود التي قامت بها الحكومة الفاطمية لتكوين حلفاء لها بسوريا، ففي بداية القرن، كان خلف بن ملهب الذي ساد على مدينة أفامية بشمال سوريا إسماعلياً موالياً للفاطميين، لكن يبدو أنه تم احتواء الإسماعليين بسوريا من قبل «الحشاشين» فيما بعد. وقد تردد الشيعة الإثنى عشرية مثل أسامة بن منقذ بين خدمة الأتراك المجاورين لهم وبين خدمة المصريين، غير أن أسامة قضى بقية حياته المديدة بمصر في خدمة صلاح الدين الذي كان سنياً.

٢٢ - قارن بالموسوعة الإسلامية (٢) مادة «دياريكر» قام الفازى من جهة أخرى بمقاتلة الجورجيين فى آخر حياته.

٢٣ - كان جزء من الوحدات العسكرية المؤلفة من التركمان هى أيضاً ضمن الوسائل المستخدمة فى سياسة زنجى هاته بسوريا. انظر: Cl. Cahen, *Syrie du Nord*. p.347 sq.

لاحظوا ان المصائب التى اصاب بوهيموند ويولوان الثانى وجوسلين الاول وجوسلين الثانى بل حتى رونو الانتفاكي كانت تُعزى التركمان بالشمال.

هوامش الفصل السابع

- ١ - تم إثبات ذلك على الوجه الأكمل في مقالة تحت الطبع كتبها *H.E. Mayer* لـ *Memoires de l'academie des Inscriptions* حيث يؤكد بشكل خاص أن جودفروا لم يقرر مطلقاً أن يمكث في الشرق ولم يصرف ثرواته في أوروبا وإنما رهنها، وذلك خلافاً للرواية الشائعة.
- ٢ - استدعى ريمون وفقاً لنصيحة فوك الذي كان جاراً له في أوروبا، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم لموازنة إحدى الأحزاب النورماندية وكان ريمون عم (أو خال) أليينور زوجة لويس السابع.
- ٣ - C. Cahen, *Syrie* page 357.
- ٤ - ظهر هذا من فحص سجلات كنائسهم
- ٥ - انظر : «عقد عربي» في 1970 *Claude Cahen, Revue d'etudes byzantines* و Richard dans les *Melanges Dauvillier* من الكنائس اللاتينية والكنائس الشرقية في الدول الصليبية، ١٩٧٩.
- ٦ - 1957 - 355 - 2 *Byzantinische Zeitschrift*.
- ٧ - حافظت مدينة أمالفي على ما كان لها في أنطاكية والقدس قبل الحروب الصليبية.
- ٨ - 367 - 368. I. p. *Prawer*.
- ٩ - لا نعرف في أي أوضاع جاء قائد الأسطول الصقلي المعروف باسم أميرال أنطاكية إلى هذه المدينة.
- ١٠ - 21. XIII *Guillaume de Tyr*.
- ١١ - انظر *Cahen, Syrie* p. 357، وربما تحدد اختيار فوك الأنجي من خلال التقاليد القديمة التي رسمتها رحلات الحج التي قام بها الكونتات الاتجيين في الشرق. وحج فوك ذاته عام ١١٢٠ مع أنه لم يشارك في الحملة الصليبية الأولى.
- ١٢ - ابن ميسر عام ٥١٦.
- ١٣ - القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء السادس، كانت أسرتا روبرت وبيوهيموند متحالفتين، انظر كذلك في موضوع الوزير بهرام حوايات المعهد الشرقي بالجزائر ١٩٥٦، وخطاب الخليفة الحافظ (٥٢٤ / ٥٤٤ - ١١٤٩ / ١١٣٠) إلى روجيه الثاني في: *Canard, Atti del Convegno internazionale di studi Ruggeriani*, avril 1954 *Palerme*.

١٤ - لابد أن نتذكر بأن فترة ولاية أوريان الثاني وبداية القرن الثاني عشر قد شهدت انفراجاً بين النورمانديين والبيزنطيين سمح للبابوية أن تكون على علاقة سليمة مع كليهما. وليس من قبيل المصادفة أن يضطر بوهيموند أثناء رحلته المعادية لبيزنطة للذهاب إلى فرنسا لتجنيد جيشه عوض الذهاب إلى منطقته الأصلية پويا.

١٥ - مقالتي في *Mélanges Abel*. أعلمني الأب نيقولا هويج بيرت (مدينتي بروج ولوفان) أنه لا توجد أية مخطوطة لهذا الخطاب في إيطاليا.

١٦ - المرجع نفسه. نحن نجهل رأي الفلامانديين في غياب كونتاتهم.

١٧ - انظر: John La Monte, "John d'Ibelin, the Old Lord of Beirut 1177 - 1236" *Byzantion* 12, 1937.

١٨ - هذه الأسيرة ممثلة في القدس (بواسطة يوحنا) وفي الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بواسطة جويثيه وكان هذا الأخير وريثاً لتانكريد الذي هو آخر الأمراء النورمانديين بصقلية.

١٩ - حول هذه الأسيرة بشكل عام انظر: L. Usseglio, *I Marchies di Monferrato*, 2 vols, 1926

ومقالتي عن «التجارة الأناضولية» في: *Mélanges Perray (Turcobyzantina)*

٢٠ - ما دام بوسعنا أن نملك الانطباع عنها نظراً لكوننا لا نملك المراسلات البابوية بالقرن الثاني عشر.

٢١ - انظر أعلاه.

٢٢ - في تراث البطريركية البيزنطية بالقدس.

٢٣ - ومع ذلك سيلتمس أرنولف بطريرك القدس تحكيمة حوالى عام ١١٤٠.

٢٤ - Alphandery et Dupront, *la chretienté et l'idée de croisade* 2 vols 1954, 1959.

S. Mahl "Jerusalem in M.A. Sicht" *Die Welt als Geschichte* 22, 1962.

٢٥ - هي رفات قديسين يشكك جيير النوجنتي في صحتها *De pignoribus Sanctorum*

٢٦ - وفي المقابل حدث أن شبائناً لاتين من الشرق ذهبوا للدراسة في الغرب مثل وليم الصوري وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم.

٢٧ - أشهر دليل للحجاج هو دليل روجو فريتولوس ويمكن الرجوع إليه في الطبعة الحديثة التي نشرت بتحقيق ب.س. بويرن إمتردام ١٩٨٠.

٢٨ - انظر كتابي *Syrie* ص ١٢ وحالياً مقدمة سوزان ديوارل لطبعتها عن أنشودة أنطاكية.

٢٩ - من هنا أنشودة «الأسرى» وقارن مع كتابي *Syrie du nord* p. 569 والطبعة الجديدة التي سيصدرها ميرس.

٢٠ - وأحياناً بلهجة متبجحة كانت مثار إزعاج للآلان انظر: *Guibert, R.H. Cr. Occ, III*

٢١ - وذلك بالنظر إلى عدد المخطوطات.

٢٢ - كان وإيام الصوري مع سعة إطلاعه يجهل كتب البرت الأكسى التى ألفت بعد الحملة الصليبية. انظر

فيما يتعلق بالحملة الصليبية الثانية: *G. Constable "Second crusade as seen by contemporaries" Tradition IX, 1953.*

٢٣ - لم يلعب أى منسوب رسولى نوراً حقيقياً.

٢٤ - كان أهل بالبير فى مؤخرة الحملة الصليبية لعام ١١٠١.

٢٥ - لنصف أن الحملة لم يكن لها إلا راوٍ واحد هو أودى نوى علاوة على أنه لم يكمل كتابة آثاره.

٢٦ - نجد عرضاً جيداً لهذه المسائل فى كتاب براوير الجزء الأول، الفصل الخامس.

هوامش الفصل الثامن

١ - كانت فوضى وجشع سفار الأمراء المكدين تضر بما يمكن أن يبقى من التجارة السورية البرية، وهو ما كشفت عنه حادثة مصادرة ممتلكات التاجر الإيراني من قبل رضوان في حلب (ابن الفرات مخطوط فيينا الجزء الأول ص ٥٧ و 97 p. *Sauvaget, Alep, Paris, 1947* الذي يستشهد بكمال الدين).

بالنسبة لحادثة عام ٥٠٤، الاتعاظ، انظر أعلاه. وحتى عام ١١٤٢ كان هناك حديث عن أسر المسلمين لتاجر بندقي (*Morozzo I*) وكان مجلس الشيوخ بمدينة البندقية يمنع رعايا المدينة من الذهاب إلى الشرق في لحظات الخطر. كما حدث على سبيل المثال أثناء أسر بودوان الثاني ملك القدس. وقد ذكر عام ١١٢٢ كعام لم يأت إلى مصر إلا قليل من التجار الروم، قارن: الجنيزة؟ وأنا مضطر للاعتراف بعدم قدرتي على العثور على مرجع هذا الحادث الذي سجلته منذ سنوات عديدة.

٢ - ابن ميسر ص ٦٢، يظهر في كل الأحوال أنه كان لديهم بأواسط القرن تنظيم جماعي لنقل الأموال من مصر لسوريا والعكس (ديوان أسامة بن منقذ ص ١٤٠، وابن رزيق ص ٨٧).

٣ - ويبدو أن الجاذبية التي كانت تمارسها مصر إزاء التجار السوريين والعراقيين قد استمرت برغم الحروب الصليبية. وسيصل إليها في بداية القرن الثاني عشر تقريباً جد المؤرخ المسيحي المكين بن العميد الذي عاش في القرن الثالث عشر.

٤ - انظر أدناه، الأحداث التي وقعت في أواسط القرن.

٥ - انظر أعلاه الخطاب الموجه إلى روجيه الثاني.

٦ - المخزومي «المنهاج» مع تحليل وتعليق لي في: *JESHO*, 1965

٧ - وهي القراءة الوحيدة الممكنة لكلمة سارتانيا ولا نعرف عنها إشارة أخرى.

٨ - الجنيزة انظر الملحق.

٩ - انظر أعلاه.

١٠ - *Famiglia Zusto*, ed. Morozzo, doc. 16 an 1144, no 38

١١ - كنار، «خطاب للخليفة الحافظ، المقال المذكور أعلاه.

١٢ - انظر أعلاه.

١٣ - انظر أعلاه.

١٤ - «المنهاج» في دراساتي: *Douanes et commerce*، وأعيد نشرها في المخزوميات ص ٥٠ و H. E. Mayer et Marie Luise Favreau, *Das Diplom Balduinis I Fur Genua und*

Genuas Goldene Inschrift in der Grabesrkische, *Quellen und Farschungen aus italienischen Archiv* 55/56, 1976, p. 22. 95. Cahen, *Syrie*, p. 492.

R.Röhricht, *Regesta*, Cahen, *Syrie*, p. 487 sq. – ١٥

Heyd, I, 130 sq. E. Bach "la cité de Gênes au XII siècle" dans *Classica – ١٦ et medievalia*, dissertation 5, 1955.

١٧ – أعلاه من ١٢٤.

١٨ – في عام ١١٢١ غرقت سفينة جنوية وهي عائدة من الإسكندرية، وكان اسقف جنوة يحصل على العشور من السفن العائدة من الإسكندرية (Anظر أعلاه) ١١٠٢ (انظر أعلاه) وتشير وثيقة من وثائق الجنيزة إلى أن عام ١١٢٢ كان عاماً استثنائياً حيث وصل القليل من الروم إلى الاسكندرية. انظر الملحق وأيضاً التعريف الجمركية لجنوة عام ١١٤٠. John Day, *Les Douanes de Gênes*, E.P.H.E 1963.

١٩ – ولعل هذه الحملة قد قلصت من اهتمامهم بالشرق بصورة مؤقتة.

٢٠ – Benevenuto, *Storia della repubica di Pisa*, 1968. Herlihy, Rossi - Sobatini انظر المراجع.

٢١ – Silvano Borsari "Il commercio veneziano nell' inpero byzantina nel XII secolo" dans *Rivista Stor, ital.* LXXVI, 1964.

٢٢ – Goitein "Islamic culure vol 37, 1963 p. 188 - 205: letters and documents on the India in Medieval times", *Letters of medieval Jewish Traders*, Princeton, 1973. Yagima (Hikoichi) "the Sirafi Migration in South arabia" dans *Journal of Asia and African studies*, v 1972. p. 119 - 114 en Jopnais résumé en anglais.

٢٣ – Goitein "two eyewitness reports on an expedition of the king of kish (Qais) against Aden" *Bul. SOAS XVI /2 1954. Stern "Ramisht of Siraf" Journal of royal As. soc*, 1967 p.p. 10 - 14. Aubin :le ruine de Siraf et les routes du golfe persique aux XI et XII Stécles" *Cahiers de civilisation medievale*, Juillet - septembre 1959.

انظر أيضاً: *Rèpertoire chronologique d'inscription arabes n 3099*

٢٤ – Goitein, *Journal, Ec, soc. Hist. orient* vol I, 1958 pp. 715 - 184: "New light an the beginning of the karim merchants"

٢٥ – ابن حوقل. طبعة كرامر، وابن مجاور طبعة لوفجرين.

٢٦ – ترجمة إنجليزية Hirh et Rakhell في Chah - Kua. ابن الجوزي سنة ٥٧٠ و. J. P. Lo.dans *IESHO*, 1969.

- ٢٧ - نصوص مدموسة لابن حوقل مادة هُرمز ص ٤٣٤. لابد أن المرسلين إليهم كانوا إيرانيين وليسوا من البحر الأبيض المتوسط.
- ٢٨ - نكاد لا نعرف شيئاً عن قوافل بلاد ما بين النهرين في القرن الثاني عشر.
- ٢٩ - حول وليام الصوري، ويانتظار الطبعة الكاملة لهوجنيس انظر في المقام الأخير *R.H.C* Davis في: *Relations between East and West in the Middle ages* ed. Derek Baker, 1973.
- ٣٠ - Haskins, *studies in the history of medieval science* 1927 (الذي يشير أيضاً إلى أن أديلار الباشي قد زار سوريا أيضاً).
- R.W. Hunt, "Stephen of Antioch" *Medieval and Renaissance studies* 1950.
- ٣١ - تُعدُّ حالياً طبعة ميرس. إن روايات الحملة الصليبية الأولى قد داخلتها بالطبع الخرافات الموروثة.
- ٣٢ - كما إننا لا نتبين دائماً إذا كان الفرنجة المعنيين هم فرنجة الحروب الصليبية بالفعل وليس المرتزقة الذين جندتهم بيزنطة في القرون السابقة. بالنسبة للمراجع انظر أعلاه الفصل الأول، الهامش رقم ١٠، وعلى نحو خاص مواد عنتر ويطال وذات الهمة في موسوعة الإسلام «الطبعة الثانية».
- ٣٣ - مع أنه لم نعرف عنها إلا عن طريق رواية شفوية أحدث. طبعة وترجمة *Frederic Feydit*
- ٣٤ - انظر مادة الف ليلة وإيلة في موسوعة الإسلام (ط. ٢).
- ٣٥ - انظر مقالتي لـ *Memorial Berberian* (تحت الطبع)
- ٣٦ - البوني: قارن بصفة خاصة روايات الحملة الصليبية الخامسة.
- ٣٧ - انظر بصدد الحركات المشابهة في الوسط اليهودي بالشرق كما بالغرب: *Prawer, I, 520, sq*
- ٣٨ - V. Slessarev, *Prestor John*, Univ. of Minnesota Press 1959.

هوامش الفصل التاسع

- ١ - انظر بشأن أغلب جوانب حكم هذا الأمير N. Elisseeff, *Nural - din*
- ٢ - مع أنه كان هناك سعى لجعل مودود الأول سابقاً على صلاح الدين، قارن مع: H.S. Fink "Mawdud 1^{er} of Mossul, Precursor of Saladin" *Muslim world* 1953.
- ٣ - لقد اتفق أن الصحوة الاقليمية لمفهوم الجهاد تزامنت مع فتور فكرة الحروب الصليبية في الغرب بدون أن يكون بين الواقعتين أى علاقة.
- ٤ - كان يجب أن تدار الحرب وفقاً لقواعد الجهاد. وظهر هذا الإنشغال أثناء استعادة معرة النعمان. إذ أن الشريعة تنص مبدئياً على أن توضع الاراضى التى تم غزوها تحت تصرف الدولة. غير أنه فى هذه الحالة فإن فقد المدينة كان قريباً بما فيه الكفاية بحيث أن أعضاء فى الأسر المسلمية كانوا لا يزالون على قيد الحياة. وبالرغم من انتهاء مدة التقادم فيما يتعلق بالملكية فقد أعاد نور الدين لهم ممتلكاتهم القديمة الأمر الذى ضاعف من شهرته.
- ٥ - ظهرت أول مدرسة فى زمن تمرتاش بن إيلغازى. وبالنسبة لاستدعاء المهاجرين الإيرانيين انظر مداخلتى فى: Congrès des Lincei, *la Persia nell' medio Evo* Rome 1971.
- ٦ - *Preottoman Turkey* عامل الأتراك منذ تلك الفترة المسيحيين بصورة سليمة ولا سيما الأرمن الذين يعيشون تحت سيطرتهم. Bornazyar أرمينيا والسلاجقة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. ١٩٨٠ (باللغة الروسية).
- ٧ - نلاحظ أن ملك القدس كان قليل الاهتمام بأنطاكية. وكان البابا يهدد بسحب الفرنجة الذين يعملون فى خدمة جان كومنين إذا قام هذا الأخير بالهجوم على أنطاكية.
- ٨ - كان للفرنجة شعور بأن اليونانيين يتأصبونهم العداء.
- ٩ - كان الأرمني توروس والأمير الانطاكى الجديد رينو الشاتيونى قد قاما بهجوم على قبرص البيزنطية. ولا يبدو أن هناك ما يبرر هذا الهجوم.
- ١٠ - انظر كلود كاهن فى *Byzantion* واعد نشره فى: *Turcobyzantina*
- ١١ - كلود كاهن: *Syrie*, p, 206
- ١٢ - انظر خطاب سنة ١١٣٥ فى الملحق. ونحن نجهل إذا كانت لبيزنطة علاقات مع المرابطين والموحدين.
- ١٣ - لم يعد الفاطميون فى هذه الفترة يجننون الأتراك فى جيشهم إذ كانوا يشتبهون فى علاقاتهم مع أبناء جلدتهم بسوريا.
- ١٤ - البواعث التى أدت إلى الإستيلاء على طرابلس ليست واضحة بما فيه الكفاية. فهل كانت تتمثل فى

التحكم في منافذ القوافل الصحراوية؟ أم في تأمين طرق البحر إزاء القراصنة؟ أم كانت استجابة لنداء حزب محلي؟ انظر إدريسى، الزيريون، الجزء الثاني.

١٥ - ويبدو أن «التاريخ» كتب «بناء على طلب موجه إلى الشاعر ابن قلاّس» (حول هذا الشاعر: انظر أدناه).

Rizzitano "Nuove fonti arabi per la storia dei Musilmani di Sicilia" *Riv. - ١٦*
stu. or., 32 1957.

ومن جهة أخرى فرّ إيتان مستشار مملكة صقلية نفسه حوالي عام ١١٦٨. قارن F. Chalandon, *Normands de sicile* ووفقاً لياقوت، إرشاد، الجزء الخامس، فإن علي ابن جعفر الصقلي، المسمى ابن القطا، كان مريبياً لابن الوزير المصري الفاضل. ولا نعرف شيئاً عن السنوات الأخيرة من حياة الإدريسى التي ربما قضاها في الشرق.

Byrne, "Easterners in Genoa" *Journal Am. Or. Soc.*, 38, 1918. - ١٧

١٨ - كان هناك سوابق لذلك منذ القرن الحادي عشر قارن بما ورد أعلاه.

Atti della Soc. ligura V, 633. Abulafia, *Two Italies*. - ١٩

Udhri, ed. Hadj Sadok, dans *Bull d'etudes orientales*, 21, 1968, p. 72 - ٢.
Benjamin de Tudéle ed. Adler 1907.

Amari, *Diplomi*, III, 4. - ٢١

٢٢ - Schaube. وقد تم التحقق من اعتداءات أخرى على بحيرة تنيس الأعوام ١١٥١ و ١١٥٥ و ١١٧٥ و ١١٧٧ وحمياط عام ١١٥٥. ورشيد عام ١١٥٥، والاسكندرية عامي ١١٥٥ و ١١٧٤ انظر:

Amari III, 507, Manfroni, *Rev. or. lat.*, VIII, 513. H.E. Mayer "Ein Deperditum Kanig Balduin III als Zeugnis..." dans *Deutsche Archiv*, 1980 p. 549 - 66.

٢٣ - سافر ابن قلاّس مع سفير نورماندي في عام ١١٦٣. ونحن نجهل العلاقة التي يمكن أن توجد بين هذه الوقائع وإرسال أحد السوريين ممن عاشوا في اليمن كسفير فاطمي بالاندلس، وهو عماد الدين الخريدا، *Section Syrie, F. 332*.

٢٤ - Röhrich, Heyd, Mayer et Favreau انظر أعلاه.

٢٥ - Grandclaude, Zeller انظر أعلاه.

Heyd, Schaube. - ٢٦

٢٧ - كما صاحب البيازة عموري في حملاته اللاحقة. *Annales Pisani, M.G.S.S XIX*, 25.

٢٨ - انظر بشكل عام *Allmendinger, Die Beziehungen* (انظر قائمة المراجع).

٢٩ - J. Danstrup, "Manuel's I coup against Genoa and Venice in the light of Byzantine Commercial Policy" dans *Classica et Medievalia X*, 1948.

هوامش الفصل العاشر

١ - Morozzo della Rocca et Lombardo, *Documenti del commercio veneziano nei secoli XI - XIII*, 1940.

٢ - Ed. M. Chiaudano et M. Moresco, *Il cartolare di Giovanni Scriba*, 1920 - 1935.

٣ - بمناسبة احتلال مصر من قبل شيركوه وصلاح الدين، قام وليام الصوري بامتداح التجارة بمصر. (قارن مع: (La Monte dans *Byzantion*, XV, p. 200sq).

٤ - بالخصوص «المنهاج» لصاحبه المخزومي، راجع قائمة المراجع.

٥ - وهي مدروسة بشكل تركيبي في: Goitein, *Med. Soc. 1*.

٦ - المجمع الديني لعام ١١٧٩.

٧ - لا يمكننا مقارنة مميزات الأثواب الشرقية والغربية في هذا التاريخ، غير أنه بالنسبة للأثواب الصوفية لابد أن الغرب كان يمتلك منها كميات كبيرة. وحتى في بداية القرن الرابع عشر يوضح بيجولوتى أنه في مدينة أنطاليا بأسيا الصغرى كان يتوجب بيع الأقمشة الصوفية الجاهزة لانعدام الأشخاص المكلفين بعمليات الاتمام في عين المكان.

٨ - محاكم بورجوا، انظر أدناه.

٩ - ابن طوير، في: المقرئى، الخط ج ١، ص ٤٤٤٤، ط. بولاق.

١٠ - ص ٦٢.

١١ - انظر مقالى: "Traité d'armurerie", *B.E.O.*, 1950.

ويعتقد صاحب لسان العرب (بداية القرن ١٤)، م. ١٠، ص ٢٢، أن الكلمة بهذا المعنى كانت موجودة في بداية الإسلام، لكنه لا يعطى المراجع (انظر مقالة باشير عن الجيش الفاطمى في مجلة: *Der Islam*, 1978). وفي المقابل يمكن أن نعتقد أن كلمة «الجزران» وتعنى شبكة من الحلقات المعدنية المشوة التى نتحدث عنها أناشيد البطولة الفربية مشتقة من الكلمة الإيرانية التركية «الخوجاغند» (مقالة أس. مليكان، وهي تحت الطبع).

١٢ - انظر أدناه ص ١٧٤.

١٣ - Jean Richard, "An accout of the battle of Hattin", dans *Spculum*, avril 1952.

١٤ - Misbach, "Genoese Commerce and the alleged flow of gold to the East, 1154 - 1253" *Revue Internationale de la Banque*, 31, 1970, p. 61 - 87.

١٥ - انظر : ما كتبه في: *Douanes et commerce* ومن بين الضرائب المصرية، القوف والعروة اللذان نجد أسماءهما الملبتة في وثائق البندقية.

١٥ مكرر - يظهر أنه كان بجانب كل مالك لاتيني لسفينة شريك مسلم، وذلك ربما لتفادي المشاكل الجمركية (المنهاج).

١٦ - Zeller, *Das Seerecht in den Assisen from Jerusalem*, Heidelberg, 1916.
H. Mitteis, "Schuld - und Handelschreft der Kreuzfahrerstaaten Festschrift Heymann, 1931.

مع مراجعة قام بها لاط في: *Rivista di Storia del Diritto italiano*, 1933

١٧ - ريلي سميث. انظر أدناه.

B. Patterson, dans *Speculum* 1964, 3, "The Early existence of Funda and Catena in the XIIe century Latin Kingdom".

هذا الكاتب يميل إلى الخلط بين الأنواع المادية والمنظمات المؤسساتية.

١٨ - انظر أعلاه الفصل ٨.

١٩ - Heyd, 51; Schaube, 149.

٢٠ - ابن جبير، ترجمة جودفروا ديمومبينز.

٢١ - انظر مقال في: *Mémorial le Tourneau* كما نعرف كذلك حالة قاطن بجزيرة مايوركا توفي بدمشق في نهاية القرن الثاني عشر. وفي بداية القرن الثالث عشر عين الخليفة تاجراً مغربياً في منصب قاض مالكي (وهو مذهب له نسبة تمثيلية قليلة ضمن سكان هذه المدينة) (أبو شامة، الذيل، ص ٦٩، سنة ٦٠٧).

٢٢ - بشأن تاجر مغربي من اليمن وموجود بالمحيط الهندي راجع استين في: *Oriens IV*, 1951, 2, p. 201.

٢٢ مكرر - Sourdel, dans *Revue des Etudes Islamiques*, 1970

٢٣ - انظر أعلاه، ص ١١٢.

٢٤ - بالنسبة للمغاربة بآسيا الصغرى، انظر: *Pre -ottoman Turkey*

٢٥ - Ernoul, éd. Mass - Latrie, p. 236

٢٦ - *Ehrenkreutz*, انظر الفصل الحادي عشر الهامش ١٣.

٢٧ - تشير العقود المكتوبة في عام ١٢٢٨ بمدينة مارسيليا إلى النصاري (مفردتها نصراني) وهي الكلمة

المستخدمة التي تعنى المسيحيين المحليين الذين كانوا ضمن الركاب. وحوالي عام ١٢٦٠ هناك سفينة إيطالية مليئة بالمسافرين الشرقيين. Röhrich, *Regesta*.

٢٨ - Maurice Lombard, *Arsenaux et bois de marine*.

٢٩ - Vismara, *Impium foedus*, Milan, 1950.

٣٠ - انظر أعلاه ابن جبير.

٣١ - انظر فهرست المراجع.

٣٢ - آخر دراسة تركيبيية قام بها أنثرو واطسون ولو أنها مثار جدل بعض الشيء :- "Back to gold and silver", *European Journal of Economic History*, 1967;

وانظر C.C. Patterson, "Silver Stocks and Lesses in ancient and medieval Times", *Ec. Hist. Rev.*, II, 25, 1972;. Annales isl., 1978. : وانظر مقالتي في

٣٣ - M.F. Hendy, *Coinage and money in the Byzantine Empire, 1081- 1261*, - 1969.

٣٤ - التويرى وهو مذكور من قبل سوفير. لا يظهر أن موارد الشرق من الذهب قد تنوعت بشكل ملموس ويجب البحث عن أسباب هذا التطور في الظروف التي كانت عليها التجارة. ولاشك أن سك وبيع الدينار (أو الصودي) يرجع إلى قلة الفضة بإفريقية (تونس والجزائر الشرقية) ويصقلية ابتداءً من نهاية القرن العاشر.

٣٥ - انظر مقالاتي في: Colloque (1979) *Annales du Caire et Studies*, éd. Udovitch, 1981. إن العملات الفضية المزوجة كانت مستخدمة كثيراً ومن ثم كثر استهلاكها وغالباً ما كانت تعاد سبائكها لذا لا توجد ضمن مجموعتنا النقدية المنتخبة.

٣٦ - في بعض الأحيان النمو السكاني.

٣٧ - كانت كلمة ورقة تعنى في السابق العملة الفضية السائلة مثلما تعنى كلمة العين العملة الذهبية السائلة خلافاً للقيم الحسابية. وإن المنفعة من تنويع كسور النقود وتكثيرها قد تؤدي إلى تفضيل القطع النقدية المزوجة ذات الأحكام اللائقة على القطع الصغيرة جداً المصنوعة من المعدن الخالص.

٣٨ - هذا هو الرأي المعبر عنه في مقالاتي في *Annales*, لكن ليس هو رأي باتس الذي يشق عليه الاعتقاد بانعدام وجود أى أثر في المجموعات النقدية المنتخبة. وتسمى النصوص هذه العملة بالقرطاس جمع قراطيس، وتعنى حرفياً الورق (أو الرق البردي) وربما كانت لاتزال لها هذه الدلالة بمصر. لكن من المؤكد (انظر مقالتي ومقال باتس) أن الأمر بسوريا كان يتعلق بتسمية شعبية قديمة للدلالة على العملة المعدنية.

٣٩ - غداة موت نور الدين قام خلفاؤه بسك العملة الذهبية مما يدل على توافرهم عليه، ولاشك أنهم بذلك كانوا يحرصون على إثبات السيادة التي كانوا يُنازَعُون عليها. ولدينا بعض الدنانير التي سكّت باسم نور الدين في

السنوات الأخيرة من حياته، لكن يتعلق الأمر بقطع تم سكها بمصر من قبل صلاح الدين. وتوجد بعض النماذج للزئبقين ببلاد الرافدين في الفترة نفسها.

Cahen, *Annales Islamologiques*, et Bates, communication à la M.E.S.A. – ٤٠.
en cours d'édition.

Yvon et Balog, "Monnaies à légendes arabes de l'Orient latin", *Rev. Num.*, 6, 1958.

٤٢ – بينما لو رجعنا إلى ما اكتشف من عملات، نجد أن الدينار الشرقي لم يدخل إلى الغرب إلا ابتداءً من نهاية القرن الثاني عشر.

Yvon et Balog, *op. cit.* – ٤٣

Ehrenkreutz, "Arabic dinars struck by the crusaders", dans *JESHO*, – ٤٤
1964.

٤٥ – انظر رسالة ابن بعري، ص ٢٣، ط. فهمي. كان اللاتين يعتبرون الدينار إجمالاً مساوياً للدرهم، شأنه في ذلك شأن «التهجان» الأرميني في القرن الثالث عشر. وسمى العرب الدينار الفرنجي بـ «الدينار السوري»، ومن الممكن أن تكون الورشة الرئيسية لسك العملة قد أقيمت بمدينة صور مثلاً هو الأمر بالنسبة للدينار الفاطمي القديم. وقد تم سك الذهب في أنطاكية وطرابلس كذلك، لكن بشكل أقل انتظاماً وبكثافة أقل. لقد سك الفرنجة عملات نحاسية صغيرة، انظر مثلاً : Metcalf, "Billon coinage of the crusading principalities of Antioche", *Num. Chrom.*, 7^e série, 9, 1969, p. 247 - 267.

هوامش الفصل الحادى عشر

- ١ - تحت هذا العنوان انظر كتباً حديثة ذات طابع عام لـ أ.س. إهرنكروتز، ١٩٧١ وليونز وجاكسون، ١٩٧٩. انظر كذلك الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة الأيوبيين.
- ٢ - لاسيما عماد الدين الاصفهاني.
- ٣ - H.A.R. Gibb, "The achievement for Saladin", *Bull of the John Rylands Library*, 1952.
- ٤ - المسمى «السهوردي المقتول» تمييزاً له عن يحملون هذا الاسم. انظر أبحاث هنرى كوريان بشكل أساسى.
- ٥ - يشهد أبو صالح بأن غزو مصر من قبل صلاح الدين كان كارثة بالنسبة للأرمن لا بالنسبة للأقباط. فلا يتعلق الأمر إنن بمناهضة المسيحية الدينية بذاتها وإنما يتعلق بتواطؤ الأرمن سواء مع الفرنجة أو مع الفاطميين : Abu Salih, *Churches and Mohastaries* ed. trad. Evetts, 1895.
- ٦ - لقد قدم نور الدين منبراً إلى المسجد الأقصى بشكل مسبق فى حالة ما إذا تم فيها الاستيلاء على القدس. انظر ما سجل فى: R. C. E. A.
- ٧ - Sivan . قارن مع فرست المراجع.
- ٨ - يعتبر افتداء الأسرى من كلا الجانبين إحدى توابع الجهاد. قارن مع جوايتن وابن جبير إلخ. انظر الملحق.
- ٩ - تم ذلك من طرف أحد أبناء ابن عساكر ضمن آخرين. قارن مع سيفان، ص ٢١٢.
- ١٠ - انظر طبعتى المترجمة للكتاب فى : B . E . O., 1949 .
- ١١ - انظر جانين سورديل فى ترجمتها وطبعها لكتاب على الهوى.
- ١٢ - انظر أعلاه.
- ١٣ - Ehrenkreutz, "The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea", *Journal of the American Oriental Society*, LXXV 2, 1955.
- ١٤ - لا ينبغي الخلط بين قراقوش هذا وبين مملوك صلاح الدين الشهير الذى يمكن الرجوع بشأنه إلى الموسوعة الإسلامية (٢).

- ١٥ - يظهر أن أ. بيل الذي أرخ لبنى غانية كان يجهل المعلومات التي يقدمها أبو شامة عن رواية ابن أبي طي حول حملات قراقوش.
- ١٦ - فرقة الطبيب التي كانت تؤمن باختفاء ابن الأمير وهو قد ولد بعد وفاة والده الذي خلفه الحافظ بعد خلع.
- ١٧ - رغم المحاولة المؤقتة التي قام بها الأيوبي الثاني المحلي لجعل نفسه المهدي المنتظر (وفقاً لعقيدة رعاياه ولاشك).
- ١٨ - المقرئ، السلوك. ولعل مصدر المقرئ هنا هو الجزء المفقود من حوايات ابن الميسر الذي كان المقرئ على معرفة به.
- ١٩ - انظر الموسوعة الإسلامية (٢). جاء ذكر الكارمين كذلك في أبي شامة، ج ٢، ٣٧، ١ و ٢١.
- ٢٠ - مجمع لاتران الديني عام ١١٧٩.
- ٢١ - انظر مقالتي: "Les marchands étrangers au Caire au Moyen Age", dans le volume *du Millénaire du Caire*, 1973.
- ٢٢ - مذكور في أبي شامة ج ٢، ٣٧.
- ٢٣ - انظر مقالتي، هنا حسب رواية بوركاردت الستراسبورجي.
- ٢٤ - Morozzo، انظر فهرست المراجع.
- ٢٥ - انظر مقالتي: "L' Alun avant Phocée", dans *Revue d'Hist, écon.*, 1962.
- ٢٦ - لعلم ساعدوا على الدفاع على الإسكندرية عام ١١٧٤ ضد النورماندين.
- ٢٧ - ومع ذلك نعرف منهم واحداً أو اثنين في نهاية القرن.
- ٢٨ - Goitein, *Med. Soc.*
- ٢٩ - B. Lavignerie, "I Normani di Sicilia a Cipro e a Patmo (1186), *Byzantino-Sicula*, II, 1974.
- وهذا يرتبط بالهجوم الذي شنه غليوم الثاني على بيزنطة (١١٨٥).
- ٣٠ - حول كل هذه الأمور، انظر: Runciman, *History of the Crusades*.
- ٣١ - R.J. Lilie, "Die Schlacht von Myriokephalon und sein Wirkung auf das Byzantinischen Reich" dans *Revue des Etudes Byzantines* 35, 1977 p. 257 - 75.
- ٣٢ - *Pre-ottoman Turkey*.
- ٣٣ - W. Hecht, "Byzanz und die Armenien nach dem Tode Kayser Manuels 1180 - 1196", dans *Byzantion*, 37, 1967.

٢٤ - Syrie Nord... p. 420 sq. Runciman, etc. - ٢٥
Colemborg, "L'Empereur Isaac de Chypre et sa fille", dans Byzantion - 38, 1968.

٢٦ - انظر أدناه.

٢٧ - كان يزعم بعضهم إخراج رفات النبي محمد من قبره انظر: Gary La Viere Leiser, "The Crusader Raid in the Red Sea", dans *Studia Islamica*.

٢٨ - انظر حول المحاولة المزعومة لتتصير الحشاشين: Jerzy Hanzinski, "On alleged attempts at converting the Assassins to Christianity in the light of William of Tyre's account", *Folia Orientalia*, XV, 1974, p. 229 - 246.

٢٩ - حول هذه المعركة انظر هذه الأبحاث: مقال Richard المذكور في الفصل العاشر هامش ١٢.

J. Prawer, "La bataille de Hattin", dans *Israel Exploration Jour.*, 14, 1964;
P. Herde, "Die Kämpfe beiden Hörmern von Hittin" dans *Römische Quartalschrift für christliche Altertumskunde*, 61, 1966.

٤٠ - لنذكر في هذا الصدد المقال الذي نشره حديثاً: J.G. Rowe, "William of Tyre and the patriarchal election of 1180", *Engl. His. Rv.*, janvier 1978.

٤١ - ابن الأثير، الكامل، ٧٠٦ و 461 Runciman, II.

٤٢ - نملك مراتٍ أرمينية وسريانية حول سقوط بيت المقدس، لكن لم يتج عنها شيء، كما نعرف أن طيبيا حصل على امتياز من قبل صلاح الدين في حالة استرداد المدينة وكان من قبل قد عالج ملك بيت المقدس (انظر مقالتي في: *Syria, 1934, "Indigènes et Croisés"*).

٤٣ - لم يتم التوصل بهنري الثاني إلا في عام ١١٨٧.

٤٤ - فلي فترة حكمه كذلك قام خصمه هنري الأسد بالحج إلى الشرق لكن بمعزل عنه، انظر:

M.L. Favreau, "Zur Pilgerfahrt des Grafen Rudolf v. Pfullendorf, 1180" *Z.F. die Geschichte des Oberrheims*, 123 (n.f. 84), 1975.

لدينا خبر مقتضب عن بوركاردت الستراسبورجي الذي كان سفيراً لبريوس لدى صلاح الدين (MGSS XXI, 235 sq.). لا شك أن الأمر بالنسبة لبريوس كان يتعلق بالاستيلاء على بيزنطة من الخلف.

٤٥ - انظر مقالتي في W.Z.K.M (وقد أعيد نشره في كتابي: *Turcobyzantina*). و Ekkhard Eickoff, *Friedrich Barbarossa im Orient*, 1977. Hannes Möhring, *Saladin und der dritte Kreuzzug*, Wiesbaden, 1980.

٤٦ - البطريرك الأرميني - الذي كان يقطن في إحدى الحصون بالمنطقة الوسطى للفرات منذ جوسلان الرهاوي الثاني - هو الذي أبلغ صلاح الدين بهذا النبأ.

٤٧ - وقد كانت صفة رائعة بالنسبة لهؤلاء حيث حصلوا بموجبها على ٨٥٠ ماركاً فضياً، أي ٤٦٨ ليرة.

٤٨ - انظر بصدد قبرص في القرن الثاني عشر : J. Darrouzès " Notes pour servir à l'histoire de Chypre (byzantine)", dans *Spoudai Kypriakai*, 195, 1959,

وهو يظهر أهمية قبرص منذ تلك الفترة بالنسبة لتموين الشرق اللاتيني، وقام كوستاس ب. كيريس بإلقاء بحث له في المؤتمر التاريخي ببوخاريسست عام ١٩٨٠ عن:

"Cyprus as stepping-stone between East and West during the Early Crusades (1099 - 1291)".

٤٩ - وذلك باستثناء ما حصل أثناء الحملة الصليبية ذاتها بطبيعة الحال. فهذه الحالة لم يكن بوسعها إلا أن تقام الخصومات القائمة بين هذه المدن بالشرق اللاتيني على الطرق المؤدية إليه. انظر:

M.L. Favreau, "Die Italienische Levante - Piraterie und die Sicherheit des Seewegs nach Syrien im 12 und 13 J.", *Viertelj. für Social und Wirtschafts Geschichte*, 65, 1978.

٥٠ - لقد كان موقف الملوك وجمهريات التجار بالشرق مرتبطاً بالطبع بالقرار الذي اتخذوه في الغرب.

انظر: M.L. Favreau, "Graf Heinrich von Champagne und die Pisaner im Königreich Jerusalem", *Bolletino Storico Pisano*, XL VII, 1978, p. 97 - 120.

٥١ - لاحظ أن أنطاكية وطرابلس (التي كان ابن بوهيموند الأنطاكي الثالث قد ورثها قبل فترة قصيرة) لم تشارك بالفعل في العمليات العسكرية، حيث أن أنطاكية كانت قد عقدت هدنة مع صلاح الدين.

٥٢ - Godefroy - Demombynes, "Une lettre de Saladin au Calife almohade" dans *Mélanges René Basset*, p. 279 sq.; Sa'ad Saghloul, "Abd al-Hamid", dans *Bull. of the Faculty of Arts, Université d'Alexandrie*, VI - VII, 1952 - 1953.

ويذكر ابن الأثير في نهاية عام ٦٠٢ خبر وفاة سفير بعث من مصر إلى «المبروقى» أمير مايوركا التابعة لبنى غانية.

٥٣ - انظر الدراسة شبه الوافية التي خصصت لهذا الموضوع: Angelica Hartmann, *An - Nâsir li - Din Allâh (1180 - 1225.)*, 1975, Sivan, "Saladin et le Calife al- Nâsir, dans *Scripta Hierosolymitana (Studies in History)*, 1972.

هوامش الفصل الثاني عشر

١ - إن دراسات ه.أ. ماير أدت إلى تدقيق المعرفة بالإدارة، وهي دراسات اعتمدت على المستندات القديمة. انظر كذلك للكاتب نفسه :

"Das Siegelwesen imder Krüzzfahrerstaten", *Bayerisch Ak., Phil-hist. Kl., Abhandlungen N.F.* 83.

٢ - لقد كتبت في هذه المسألة عند إعداد التقرير المقدم لمؤتمر فولاتا عام ١٩٥٦، وقد أعدت نشره في كتابي *Turcobyzantina* ومن جهة أخرى انظر: Riley - Smith, Smail, etc. إلخ.

٣ - *Syrie du Nord...*, p. 465 sq.

٤ - *Chronique d'Ernoul*, éd. Mas - Latrie, 1871, p. 28.

٥ - لا نتبين ما إذا كان في الإمكان طلب اليد العاملة من القرى لبناء القصور وصيانتها (انظر أعلاه، ص 174).

٦ - لقد برهن براوير على أن نص «قوانين ملتقيات البورجوازيين» ينقل في جزء كبير منه ديواناً للأعراف البروفانسية يرجع إلى فترة سابقة بعض الشيء.

٧ - أعطى أحد الخلفاء الفاطميين لأسامة بن منقذ عائد إحدى الصناعات بالقاهرة.

٨ - انظر مقالتي في : "Evolution de l'iqṭā", dans *Annales ESC*, 1951، قد أعيد نشره في *Peuples Musulmans*

٩ - Mayer, *Bistümer, Klöster und Stifter in Königreich Jerusalem*, 1977.

١٠ - Prawer, "Etudes de quelques problèmes agraires et sociaux d'une-seigneurie croisée au XIII^e siècle", *Byzantion*, 1952.

١١ - حول كل المسائل السالفة انظر مقالتي ب: *Bull. de la Fac. des Lettres de Strasbourg*: de 1952 وقد أعيد نشره في كتابي: *Turcobyzantina* والتقرير التي قدمت لجمعية جان بودان، مؤتمر فرسوفيا ١٩٧٥، وهو تحت الطبع، ومقالتي: *JESHO*, 1975: "le régime des impôts en Syrie"، لقد حرز جان ريشارد منذ مدة طويلة لكتاب *History of the Crusade Crusade*, vol. 5 فصلاً سيظهر قريباً، انظر الاستشهاد ببراووير أعلاه.

١٢ - Riley - Smith, "Some lesser officials in Latin Syria", *Engl. Hist. Rev.* - ١٢ janv. 1972.

١٣ - انظر مقالتي "Mouvements Populaires..." في *Arabica*, 1958 وقد نشر منفصلاً

عام ١٩٥٩. وانظر Peter von Sivers, "Military, merchants and nomads in the syrian cities and countryside 780 - 969," *Der Islam* 1979.

١٤ - مؤتمر فولتا.

١٥ - *Syrie du Nord...*, p. 462.

١٦ - قد يكون هذا الاسم ظهر في قبرص البيزنطية التي خضعت للمؤثرات العربية لكن معرفتنا الشديدة النقص بماضى الجزيرة لا تسمح لنا الجزم بالأمر.

١٧ - انظر بالخصوص أبحاث شارل فيرليندن حول الاسترقاق في البلاد المسيحية أثناء القرون الوسطى.

هوامش الفصل الثالث عشر

١ - انظر أعلاه، الفصل الخامس.

٢ - ميخائيل السوري الذي تم استخدامه في *Syrie du Nord...*, p. 562 sq. لقد وجدت بصفة خاصة في جبال لبنان الشرقية حول دمشق مزارات محلية قديمة كان يتردد عليها المسيحيون المحليون والمسلمون على السواء، ويمكننا أن نسلم بأن الفرنجة كذلك كانوا يهتادونها إذ نجد قصيدة لاتينية مخصصة لمزار سَيِّدَتَا (J. Raymond sur N.D. de Sardenay).

Devos, "Les plus anciennes versions occidentales de la légende de Saïdnaya", *Analecta Bollandiana*, 65, 1957. D. Sourdel, "Rûhin, lieu de pèlerinage musulman de la Syrie du Nord au XIII^e s.", *Syria* 30, 1953 pp. 889 - 107.

٣ - *Syrie du Nord...*, p. 561. لا ينبغي أن نبالغ في ذلك، باستثناء الكنيسة الأرمنية لقيليقية، لا يوجد أي أثر لتأثير متبادل.

٤ - *Syrie du Nord...*, loc. cit., لاسيما رواية ابن العبري حول «الإخوان».

٥ - انظر أعلاه، R. Christ. Schuringer, "Kreuzzugeideologie und Toleranz", *Studien für Wilhelm von Tyrus*, Stuttgart, 1977.

٦ - انظر أعلاه، P. Kritzcek, "Peter the Venerable".

٧ - إن الجواب على هذا السؤال يتعلق بالقرن الذين نعتقد أن برتلمي الرهاوي الذي كان مجادلاً يوناني اللسان (انظر مقالاً في *Mélanges Gardet - Anawati*) ويواس الانتاكي الأسقف الملكي لصيدا قد عاشا فيه. شخصياً أميل إلى وضع كليهما في القرن الحادي عشر حيث لا يشيران إطلاقاً إلى الإفرنج، كما أن بواس يذكر أنه كان بمدينة أمالفي وهو أمر ممكن في القرن الثاني عشر وأقرب إلى الصواب في القرن الحادي عشر، والظاهر أنه كان لا يعرف اللاتين ولا الأرمن الشرقيين (لكن قارن مع ما ورد أدناه). وكان يكتب بالعربية وهو أمر ممكن بالنسبة للملكيين منذ القرن العاشر (انظر أدناه)، والشئ الوحيد المؤكد أنه أن يعرف إيلس النيزيبي. وتعزو السيدة لازاروس يافى إلى قبلى تحول إلى الإسلام كتاباً مناهضاً للمسيحيين اعتبر لمدة طويلة من تأليف الغزالي. ونحن لا نتكلم هنا عن إسبانيا حيث أن هذه الفترة كانت حافلة بالجدالات.

٨ - يجعلها قدامة في عهد صلاح الدين كلها في عداد أصناف المسيحية بالشرق.

٩ - H.E. Mayer, *Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem*, 1981.

١٠ - انظر قصة الأسيرة الفرنجية في: J.A., 1850 II.

Arabica, 1978. – ١١

Prawer, I, 308. – ١٢

١٣ – من ضمن ما نشر عن القصور، انظر بصفة خاصة: R.B.G. Huyghens "Monuments de l'époque des Croisades", dans *Biblioteca Orientalis*, 1968.

١٤ – انظر ضمن الدراسات الحديثة: Goitein, *Méd. Soc.*

١٥ – ذاك هو التفسير الذي يعطى بالنسبة للترجمة العربية لنيكون حيث تم التلميح فيها إلى اقتراب الصليبيين. انظر: Graf, *G.A.C.L.*, II, 1947, p. 64 sq.

لقد أظهرت الأحداث التي وقعت في بلدة أنطاكية أنه كان يقطن بها دائماً عدد مهم من السكان الذين ينتمون للمذهب اليوناني في بداية القرن الثالث عشر. *Syrie du Nord.*, p. 590 وانظر الملحق.

١٦ – *Revue des Etudes byzantines*, 1970; Jean Richard, dans *Mélanges-Dauvilliers*, 1979.

١٧ – Ed. Huyghens, II, 344, p. 93.

١٨ – النويري والموسوعة الإسلامية (٢). انظر كذلك ما قلناه في موضع آخر عن «البرجوازيين».

١٩ – انظر مقالتي في: *Mélange Atiya*, 1973.

٢. Prawer, ch. II, 397.

هوامش الفصل الرابع عشر

- ١ - لا يقدم هذا التعريف دائماً، لكن انظر كتابي: *Pre-Ottoman Turkey*.
- ٢ - قلت قبل مدة طويلة أن ذلك تم على النموذج الإسباني، غير أن التسلسل الزمني للمؤسسات لا يتيح الإبقاء على هذا الإثبات. لقد كان ثمة محاولة لزراعة النظام الأسباني للقديس جاك بسوريا. انظر: *Syrie Nord*, p. 510 sq; et Eloy Benito Ruano, "Santiago, Calatrava y Antioquia" (documents), *Anuario de Estudios Medievales*, I, 1964.
- ٣ - نعرف ثمن بناء قصر صنف إبان القرن الثالث عشر (*Studia medievalia*, 1965). فقد تطلب بناء قصر معبر يعقوب ٨٠٠٠٠ دينار. وغالباً ما كان يستخدم أسرى لدى الفرنجة والمسلمين على السواء، لكن من المؤكد كذلك أنه كان يتم طلب كثير من العمال في عين المكان واستئجارهم. قارن مع ما ورد في: R.C.B. Huyghens, *De constructione Saphet*, 1981.
- ٤ - المعروف أن أرشيفات جماعة فرسان ميكل سليمان قد اندثرت، مما لا يسمح بوضع تاريخ لهذه الجماعة (رغم ماحيك من خرافات إثر محاكمتها في عهد فيليب لوييل) شبيه بما يمكن كتابته عن جماعة الاسبتارية. فقد تم العثور على وثائق كان قد جمعها الماركيز الألبوني وانضافت إليها بعض الوثائق الأخرى التي عثر عليها قبل فترة قصيرة. انظر: *F. Benoît et Riley - Smith, English Historical Review*; XXXIV, p. 284 - 8.
- ٥ - Riley - Smith, "A note on Confraternities in the Latin Kingdom of Jerusalem", *Bull. Inst. Hist. Research*, XLIV, 1971.
- ٦ - قارن مع: *Jean Richard* المصدر المذكور في الفصل العاشر هامش ١٢.
- ٧ - انظر: *Marit Kretschmar, Pferd und Reiter im Orient*, 1981.

هوامش الفصل الخامس عشر

١ - Humphreys, *From Saladin to the Mongols*, 1978, وينبغي استكمال هذا الكتاب بمقال لذات الكاتب بعنوان: "The Emergence of the Mamluk Army", *St. Ist.*, XLV, 1977. David Ayalon, "Aspects of the Mamluk phenomenon", XLVI, 1977. dans *Der Islam*, LIV, 1977, 1-2,

وهناك بحث بالغ الجودة لـ H.L. Gottschalk, *Al - Malik al - Kâmil*, 1928. Gary Leiser, *The Restauration of sunnism in Egypt and The Madrasas*, 1980. J. Gilbert, "Institutionalization of Muslim scholarship and professionalization of the Ulamâ in medieval Damascus", *Studia Isl.*, 52, 1980.

كانت السيدة حقي عند وفاتها على وشك الانتهاء من إعداد جرد بالمدارس السورية ويوجد منه مخطوط بالمعهد الفرنسي لدمشق. وبالنسبة للفترة الأيوبية انظر مذكرات سعد الدين التي ترجمتها في : *Peuples musulmans*

٢ - لعل رسالة الحسبة (انظر أعلاه وظيفة المحتسب) للشيرازي وهي نموذج أصلي لعدة رسائل في هذا الموضوع، تثبت السعي لإقامة نظام اقتصادي رغم طابعه الخاص. وثمة رسائل مماثلة كتبت بالاندلس قبل قرن لكننا لا نرى أنها مارست تأثيراً على الشيرازي. أما النصوص التي تكلمت سابقاً بالشرق عن الحسبة فقد كانت ذات طابع نظري أكثر منه تقني. انظر كذلك في الصفحات القائمة رسالة عن العملات لابن بعرة والرسائل الهجائية للنايلسي (انظر الطبقات التي حققتها ضمن *B.E.O.*, XVI, 1958 - 60 et *B.I.F.A.O.*, "Histoires coptes d'un cadi ayyubide", 1960, 133 - 150.

ولا نرى مدى التأثير الذي كان يوسع المجاعة الكبرى لعامي ١٢٠٠ - ١٢٠١ أن تخلقه على سياسة الأوائل الذين خلفوا صلاح الدين، وقد كتب عبد اللطيف البغدادي إثر هذه المجاعة كتابه وصف مصر الذي ترجمه سيلفستر دي ساسي إلى الفرنسية.

٣ - Donald E. Queller et Susan J. Stratton, "A century of controversy on the 4th Crusade", *Studies in Medieval and Renaissance History*, 6, 1969, p. 238 - 252. *A History of the Crusades*, éd. Setton vol II, 1962. Donald E. Queller, *The fourth Crusade, the conquest of Constantinople*, 1977.

٤ - انظر ضمن المقالات الحديثة: Gerd Hagedorn, "Papst Innocenz III und Bizanz am vorabend der 4 stens Kreuzzugs", *Ostkirchliche Studien*, 23, 1974, p. 3-20 et 105 - 136. B. Hendrickx, "Bauduin IX de Flandre et les Anges", *Revue Belge de Philologie et d'Histoire* 1971-72. S. Kindelmann, *Eroberung Konstantinople als politische Forderung des Westens in Hochmittelalter*, 1969. E. Kennan, "Innocent III and the first political Crusades, *Traditio*

XXVII, 1971. J. Ferluga "Aristocrazia bizantina e crociate agli inizi del seculo XII", *Quellen und Studien für Geschichte des östlichen Europa*, IX, Wiesbaden 1977.

٥ - نشير هنا إلى غياب الجنوية والبيازنة.

٦ - نذكر بأن بوبوان الفلاندرى الذى سيصبح امبراطوراً ويونيفاس المونفراتينى كانا موجودين عند المكان.

٧ - لقد قام مكمل سياسة وإيام الصورى باتهام العادل فى إحداث الخطف. لم تمر أية حملة صليبية فى القرن الثالث عشر عبر الإمبراطورية اللاتينية.

B. Hendrickx, "The main Problems of the History of the Latin Empire", - ٨ *Revue Belge Ph. Hist.*, 52 - 54, 1974.

Angold, *Empire in exil*, 1975.- ٩

Pre-ottoman Turkey, p. 135.- ١٠.

Ludger Bernhard, "Die legitimität des lateinischen Keiserreiches von - ١١ Konstantinople in Jacobitischer Sicht", dans *Jahrbuch der österr. byz. Gesellschaft*, XVI, 1967.

١٢ - لقد رأينا أن إنشاء جماعة سيتو الذى حدث فى مرحلة متأخرة يرجع إلى هؤلاء الأساقفة. وحينما جاء الفرنسييسكان والنومينيكان بعد فترة قصيرة كانوا مرتبطين مباشرة بروما وغير ممثلين لرجال الدين المحليين بل وقد حدث أن حلوا محلهم فى بعض الأحيان.

Roncaglia, "Les Frères Mineurs et l'Eglise grecque, *Storia della Provincia di Terra Santa*, 1954.

Lettres, éd. Huyghens; cf. Morgan, "The meanings of old french *Polain*, - ١٣ latin Pullanus, *Medium Aevum*, XLVIII, 1.

١٤ - اهتم السلاجقة كذلك بالبيانات الخاصة بالرحلات البرية ومن ثم أنشؤوا عدة خانات للقوافل التى لا تزال ماثار الدهشة للمسافرين حتى اليوم (*Erdmann, Das anatolische Karavansaraiy des 13 J.*, 1961).

Cl. Cahen, "Notes pour l'histoire de la Province de Qastamuni", dans - ١٥ *Selcuk Arastirmalari*, 1971.

Jay Harris Neirman, "Levantine Peace : هذا الشأن - ١٦ Following the Third Crusade: a new Dimension in Frankish - Muslim Relations", dans *Muslim World*, 1980.

ومن جانب المسلمين انظر أنباء ابن الأثير، فهذا المؤرخ الذي اغتاز من عدم اكتراث أمراء العصر لفريضة الحرب المقدسة عند اقتراب المغول لا يظهر أنه انشغل بالقدر بنفسه بالحرب ضد الفرنجة ولو أنه شارك فيها في شبابه في عهد صلاح الدين ولم يكن يحبه.

١٧ - لما تم في عام الإعلان عن الحملة الصليبية القادمة قام العادل باعتقال التجار الإيطاليين بالإسكندرية على سبيل الحذر.

١٨ - لم تتم الدعوة للحملة الصليبية الخامسة ثم السادسة والسابعة مباشرة بسبب كارثة ما، وإنما برغبة التعويض عن الفشل الذي منيت به الحملات السابقة. ونلاحظ توافق حركة من اللامبالاة من قبل جماهير الناس بالغرب تجاه الحروب الصليبية مع انتشار الدعوة إليها وتطور القواعد القانونية المتعلقة بها، وهو توافق مفهوم وإن كان ينم عن المفارقة.

١٩ - يظهر أن الحملة على مدينة دمياط أثارت نشاط المنجمين. انظر أدناه.

٢٠ - لاشك أن رغبة الإمبراطور في ممارسة السلطة الفعلية قادت إلى إدخال عناصر إيطالية ألمانية (لأسيما جماعة التوتونيين) إلى الشرق اللاتيني الفرنجي أو الفرنج، وقد أصبحت هذه العناصر مصدراً للمصاعب. لكن لا ينبغي الوقوع في المغالطة التاريخية باعتبار هذا المسلك بمثابة تسلط جرمانى كما فعل بعض المؤرخين الفرنسيين، إذ أن تصورات العصر لم تكن تتضمن فكرة قومية من هذا النوع. كما أن فكرة الزواج بوريثة مملكة بيت المقدس صدرت لأول وهلة من قبل البابوية رغبة في إثارة اهتمام فريديريك بالشرق. ثم ألم يكن الكونت الغربي أو الفلاندرى يحملان لقباً تسلطياً مزاحماً للقب القسطنطينية، وألم تكن قبرص من اختلاق الإنجليز ؟ يجب التذكير بأن يوحنا البرينى الذى أصبح ملكاً على بيت المقدس عن طريق الزواج والذي سيتزوج فريديريك ابنته، كان قد عين وريثاً لجزيرة صقلية خلفاً لتكريد الذى كان عدواً لأبى فريديريك.

٢١ - بما أن الإمبراطورية اللاتينية كانت مساندة من قبل البابوية فلقد تحالف فريديريك مع اليونان بنيقيا.

٢٢ - انظر بالخصوص خطب سبط بن الجوزى بدمشق.

٢٣ - انظر: J.A, Septième Centenaire de la mort de Saint Louis, 1970، وهناك ذكر لرسالة قرطاي بملحق المقال الذى كتبه. ظلت الأوساط الإسلامية المتتورة تعتبر فريديريك صديقاً لها حتى مماته. وكان فخر الدين بن حموية المساعد الرئيسى للأيوبيين فى هذه السياسة، وهو ينحدر من أسرة إيرانية مهاجرة، وقد شاء المفكر المعاصر عباس إقبال أن يرى فيه وسيطاً بين الشرق والغرب، وقد تم ذكره فى كتاب اطلاعات، يونيو ١٩٤٨ .

٢٤ - انظر ما يرويه ابن واصل مؤرخ الأيوبيين عن مسعاه إلى هذا الأمير.

٢٥ - استخدام فريديريك فى عبور أسطوله الخاص دون توجيه النداء للمدن التجارية.

Eric Maschko, "Die Wirtschaftspolitik Fried II in Königreich Sizilian", V.j.S.W.G. 1966, 3.

٢٦ - لقد كتب ابن سبعين، الذى كان فريديريك قد سأل عن العلم الإسلامى، بالذهنية نفسها إلى ثيوود

لاسكاريس النيقى. ومع ذلك انظر النص الذى ذكره يروكلمان ج I, 430 (533) وثمة مراسلة من هذه النوع كذلك بين لاسكاريس والكامل سنة ٦١٨ هـ ط. تريت، ١٨٩٧ .

٢٧ - انظر بشأن الأحداث التى أعقبت وفاة الصالح :

G. Schregele, *Die Sultanin von Aegypten*, 1961.

يحتفظ متحف اللوفر (مجموعة منتخبات ريموندن) بوثيقة غير منشورة لهذه الأميرة. انظر كذلك :

Cl. Cahen et Ibr. Chabbouh, "Le testament d'al-Mâlik Ayyub", dans *Mélanges Laoust*, B.E.O. 1978.

٢٨ - تكاد الوثائق تكون ساكنة عن إقامة القديس لويس بالارض المقدسة، وهو سكوت نو مغزى.

٢٩ - كانت الذكرى المئوية السابعة لوفاة القديس لويس عام ١٩٧٠ مناسبة لعدة احتفالات ومن ضمنها من وجهة النظر الشرقية المؤتمر الذى طبعت أعماله فى 1970 *Journal Asiatique*. ومن بين الأبحاث الحديثة التى ترتبط بحملة القديس لويس الصليبية نذكر: B.Z. Kedar, "The passenger list of a Crusade ship 1250: toward the history of the popular element in the 7th Crusade", *Studia Medievalia* 2^e ser., XIII 1, 1972.

ويحكى أبو شامة فى كتاب الذيل، عام ٦٤٨ أن السلطان أرسل إلى دمشق رداء الملك وأمر الحاكم أن يرتديه ليشاهده الناس. وفى بعلبك نظم المسيحيون مائماً بسبب أسر القديس لويس فأصدر الحاكم أمره إلى اليهود لضربهم. وساد الاعتقاد أن لويس التاسع قد مارس بالشرق سلطات عليا لكن لا يوجد نص يثبت هذا الاعتقاد باستثناء وثيقة رسمية تثبت إنشاء اسقفية بمدينة مياط، إلا أن الأمر يتعلق هنا بانتصار للملك لا ببيعة فى الشرق اللاتينى.

٣٠ - لا ينبغي أن نغالى فى دلالة استشهاد يوحنا البتيجو بطى بمصر عام ١٢٠٩. (Amélineau, *Un document copte*, JA 1887, 1, p. 113 sq.) فالواقع أنه بذل كل جهده - إذا صح التعبير ليبلغ هذه النتيجة.

٣١ - حول هذه الأبحاث انظر كذلك أبحاث:

Nallino, "Libri juridici bizantini in versione arabica - cristiana nei sec. XII-XIII", dans *Rendiconti del Accademi Lincei*, Sc. mor., Seria 6, vol. 1, fasc. 3-4, 1925.

٣٢ - انظر: J. Richard, *La papauté et les missions d'Orient au Moyen Age*, (XIII^e-XV^e s.), 1977. *Syrie du Nord...* p. 678 sq.

لا نرى أن المسيحيين الشرقيين (باستثناء بيزنطة) قد أرسلوا قط مبشرين إلى أسيا الوسطى والهند وأفريقيا الشرقية اللهم إلا إذا كان ذلك قد تم فى الزمن الغابر، وعلى أية حال فقد كان ذلك أمراً محظوراً بالبلاد الإسلامية. ومن هذا الجانب لا نجد نشاطاً مماثلاً من طرف المسلمين إلا على الحدود الوثنية (ربما كانت ضمنها بلغاريا لبعض الوقت) ولا نجد لهم ذلك الحشاشون قط لدى أهل الكتاب بالداخل والخارج.

٣٣ - وذلك بواسطة التقريب بين مختلف الطوائف الروحية، بما فيها الحشاشون.

هوامش الفصل السادس عشر

- ١ - قارن مع : Garcin, *Qus*, p. 400.
- ٢ - قارن مع: Cahen, *L'alun*. ويظهر أن السمعة التي كان يتمتع بها نسيج الكتان بمصر قد قلت فأخذ نسيج الكتان بأوروبا في النمو. (قارن مع: Ch. Singer, *A History of Technology*, II, 1956, p. 195). وبعد نهاية القرن الثاني عشر لم نعد نجد أى تاجر يهودى بالمحيط الهندى. لكن يبدو أن الإقباط كان ما يزال لهم دور معين به. انظر فى كتاب مكين بن العميد (الطبعة التى أصدرتها ضمن B . E . O) تاريخ البطريرك المدعو بالملك الكامل والذي تاجر لحسابه.
- ٣ - إن المشاريع الصليبية المتأخرة مثل فيدانس دى بابو الذى نشر ضمن: Golubovitch, *Bibliotheca*, 1906.
- تؤكد أيضاً أن إحراز النصر على مصر يتطلب حرمانها من الخشب. وفضلا عن ذلك فإن صلاح الدين كان قد عمل على دك ميناء تينيس (وهو ميناء بحرى يقع على فرع النيل الأكثر شرقية) حتى لا يتمكن الفرنجة من الإقامة فيه. وقد لزم لنفس السبب القيام بتدمير مدينة دمياط خلال القرن الثالث عشر. وقد كانت الأوراش المهمة لصناعة النسيج فى هاتين المدينتين قد انتهت على مختلف المدن الداخلية الصغرى بالدلتا وبمدينة الإسكندرية. وقد كانت السفن المصرية مازال تتردد من وقت لآخر على جنوب الأناضول.
- ٤ - Pre-ottoman Turkey, p. 125.
- ٥ - لا يظهر أن أية دراسة معمقة خُصصت للعواقب التجارية التى نتجت عن سقوط القسطنطينية.
- ٦ - "Commerce anatolien", dans *Mélanges Halphen*, وقد تم إعادة نشره فى كتابي: *Byzantino-Turcica*.
- ٧ - لا نتكلم إلا عن جنسية السفن، فقد كان كثير من التجار بالداخل يسافرون مع تجار الموانئ حيث كان الفلورنسيون مستقلون سفناً تابعة لمدينة بيزة بينما كان البياسنزيون مستقلون سفناً جنوبية، إلخ، حول مدينة بياسنزيا انظر فى نهاية المطاف الأطروحة التى أعدها بيير راسين بالسريون، وحول الفترة التاريخية اللاحقة: R.H. Bautier, "Relations économiques des Occidentaux avec l'Orient au Moyen Age", *Sociétés et compagnies de commerce en Orient*, 1970.
- وهى الفترة التى كان القادمون الجدد يدعون امتلاكهم لامتيازات قديمة حتى يتمكنوا هم كذلك من اكتسابها.
- انظر: H.E. Mayer, *Marseilles Levante Mandel und ein Akkenisches Fälscheratelier das 13. J.*, Tübingen, 1972. وفى المقابل تم أنتد منع اليهود بمرسيليا من ممارسة التجارة بمصر. (Archives Juives I, 1970 - 1971).
- ٨ - "Commerce anatolien", *Mélanges L. Halphen*, 1951, p. 96.

٩ - *Commerce anatolien*, p. 96. كانوا يتعاملون كذلك مع قبرص.

١٠ - *Syrie du Nord*, p. 688 sq. لعل الأماشي كانوا يأتون قليلاً إلى موانئ الفرنجة

١١ - انظر مقال عن: *l'alun*.

١٢ - في حرب سانت سابا تم حرق ٨٠ سفينة بميناء عكا (*Eretz Israël*, 1954). ومن قبل عند إعلان الحملة الصليبية الخامسة قام التجار الغربيون عند منعهم من ميناء الإسكندرية بالذهاب إلى عكا حيث جنى الملك ربحاً مقداره ١٢٠٠٠٠ دينار (أبوشامة، عام ٦١٢ للهجرة، الذيل، ص ٩٢). ومع ذلك ربما يلزم معرفة طبيعة هذه المداخل بما أن الإيطاليين كانوا معفين فيما يظهر من الرسوم الجمركية. قارن مع ملاحظتنا الواردة أدناه حول سوق عكا. وعلى أية حال فكون أن التجارة أديرت نحو مصر أو الشرق اللاتيني حسب الأعوام فإن ذلك لم يغير حجمها الإجمالي. وورد في: *Martène, Amplissima Collectio*, 5, p. 640

ذكر تاجر تردد على كل من ميناء عكا والمعارض القائمة بمنطقة شامبانيا. ويذكر *Lestoquoy, Les villes de Flandre*, p. 56 عن أن سيداً إقطاعياً بمدينة مالين ربما تاجر حتى في دمشق والإسكندرية، ويبدو أن الأمر لا يتعلق في الواقع إلا بالمشاركة في الحملة الصليبية بدمياط.

١٣ - يبدو أن البيازنة في القرن الثالث عشر قد أدوا بالشرق دوراً متضائلاً كمعاونين بالنسبة لمدينة البندقية، وقد حار هذا الأقول أمراً محتملاً عند نهاية القرن بعد موقعة ملوريا (١٢٨٤) حيث فقدوا أسطولهم البحري الذي دمره الجنوية. لقد عانت مدينة بيزا ولاشك من نمو مدينة فلورنسا ولو أن أهل منطقة توسكان توجب عليهم كذلك أن يبحروا على سفن تابعة لمدينة بيزا. وقد تم تحرير «أقدم كتاب إيطالي في مبادئ التقنية التجارية» (R.S. Lopez, *Rev. Hist.*, 1970-1) بمدينة بيزا وذلك قبل موقعة ملوريا بفترة وجيزة.

١٤ - *Fred. Lane, Economic meaning of the invention of the compass*, يرجع التطورات العملية إلى الثلث الأخير من القرن حيث يسروا عمليات الرحلات الشتوية.

١٥ - انظر مقالات براوير وكلود كاهن في: *Revue Historique du Droit*, 1963.

في: *Assies des Bourgeois de Jérusalem* الفصل ٢٦٢ - ٢٦٣.

١٦ - J. Riley - Smith, "Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants", in D. Baker, éd., *Relations between East and West in the Middle Ages*, 1973.

١٧ - Jean Richard, "Les Mossoulitains", *Orient Syrien*, 1965. أهل الموصل كانوا معروفين كذلك من لدن ماركو بولو.

١٨ - Ibn al - Athîr, Atabek dans *R.H. Cr. Or. III*, p. 281.

١٩ - كمال الدين بن العديم، بقية الطلب في تاريخ حلب، ٤، مخطوط باسطنبول، ٢٦٩ ظهر الصفحة، ٢٧٢ ظهر الصفحة؛ ابن الأسي، نشر أناستاز ماري، انظر فهرست المراجع بداخله؛ الذهبي، التاريخ، عام ٦٠٤ و

٦١٢ و ٦١٤ (مخطوط عربي، باريس ١٥٨٢)، بطن الورقة، إلخ؛ ابن الجاور، ص ٢٢٢؛ الجزري، عام ٦٣٠ في *Oriens* (مراجعة كتاب سوفاجي مذكورة أدناه). ١٩٥١؛ وكذلك: Analyse Sauvaget, n° 124, إلخ. ولتذكر أن الجغرافي ياقوت الحموي الذي كان أسيراً بيزنطياً في السابق تم استخدامه في التجارة على نطاق واسع (في مدينة قيش مثلاً) من قبل سيده المسلم بحماة. أهل حران معروفون ببغداد لكن التجار البغداديين يتم ذكرهم على وجه الإجمال فقط نحو الشرق الأقصى (برا).

٢٠ - خبر لاولج جرابار. انظر مقال سي. النويجي «صناعة الموصل في : Sumer, VII, 1951,

٢١ - إن مناجم النحاس لنيار بكر كانت تقوم بالتصدير في كامل بلاد الرافدين، فهذه المناجم كانت نشيطة في القرن الثاني عشر (ابن الأزدق، تاريخ ميفارقين) وربما قبل ذلك بمدة طويلة.

٢٢ - المقرئزي، رسالة النقود، وهي رسالة معروفة بأوربا منذ سيلفستر دي ساسي، وقام دانييل أوستاش بأخر طبعة لها في مجلة: *Hespéris*

٢٣ - لقد تم سك النقود العربية المسيحية خلال إقامة القديس لويس، وقد تم العثور على عملات عادية للشرق اللاتيني باليونان. وتشير النصوص إلى وجود عملات بجنوة والبندقية (Misbach, "Genovese commerce and the alleged flow of gold to the East 1154-1253", *Rev. Intern.* d'Histoire de la Banque, III, 1970, 67-87), وهي عملات ربما تم إعادة سكها. وكان سعر الدينار السوري زمن ابن بكرة منخفضاً عن السعر القانوني للدينار الإسلامي بحوالي الثلث، ولكن ليس بالنسبة لمختلف الدنانير المتداولة فعلياً.

٢٤ - ابن بكرة، ط. فهمي، ص ٦٠. Cahen, Colloque de Princeton 1974, publié dans. Udovitch, éd., *Studies in Economic and Soc. History*, 1981.

٢٥ - يشير ابن الفواطي ربما حسبما يورده ابن اسعى أنه تم ببغداد عام ٦٤٥ هـ التوقف عن سك الدرهم الذي كان موجوداً بكثرة مفرطة مما أضر بالذهب، فقد كان سعره يساوي ١٢ درهماً بالنسبة للدينار، وصدر أمر بسك الدراهم بسعر ١٠ دراهم للدينار الواحد وانتهى الأمر بسكها بسعر ١١ درهماً ونصف - وهذا يدل في أضعف الأحوال على نوع من الفوضى.

٢٦ - النابلسي، الطبعة التي قمت بها ضمن *B.E.O* لا نرى ما الذي كان ربما سيعيق وصول الذهب من السودان إلى الشرق حوالي عام ١٢٤٠م.

٢٧ - ربما لزم التحقق لمعرفة ما إذا كان الشرق اللاتيني قد واصل سك الذهب بعد منتصف القرن.

٢٨ - يجب الأخذ بعين الاعتبار كذلك العملات الأرمينية لقيليقية. انظر:

Bédoukian, dans *Revue des Etudes arméniennes*, 8, 1971; K.A. Jacob, "The coins of Cilician Armenia", *Numismatic Intern. Bull.*, mars 1981, 69-82.

هوامش الفصل السابع عشر

- ١ - بالنسبة لقائمة المراجع العامة تكفى الإحالة إلى فصل بويل فى كتاب :
Cambridge History of Iran, vol. 5.
- ٢ - J. Richard, "Les Mongols et les Francs", *J. of Asian History*, III, 1969, - p. 45-57; *idem*, "Les causes des victoires mongoles d'après les historiens occidentaux du XIII^e s.", *Central Asiatic J.*, XXIII, 1-2, 1979. C.W. Connell, "Western views of the origin of the Tartars: influence of myth", *J. of medieval and Renaissance Studies*, III, 1973.
- ٣ - انظر: *Syrie Nord*, p. 712.
- ٤ - انظر أعلاه.
- ٥ - انظر: *Jean Richard*.
- ٦ - انظر أعلاه.
- ٧ - لقد لزم أن يقضى المؤرخ القبطى المكين وكان آنذاك مقيماً بدمشق عدة سنوات بالسجن بعد انسحاب المغول وذلك بسبب اتهمه بالاشتراك معهم. انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة المكين.
- ٨ - لقد حدث ارتفاع مؤقت لصالح الجيورجيين والأرمن بأرمينيا الكبرى حيث حصلت عندهم نهضة أدبية حقيقية، كما يجب التنبيه كذلك إلى الأهمية الاقتصادية وبعض الأهمية السياسية التى كانت لمدينة إزنجان الأرمينية بأسيا الصغرى الشرقية. ونلاحظ أن الآمال التى عقدها هؤلاء المسيحيون على المغول تتناقض مع نظرة اللامبالاة التى كانوا ينظرون بها إلى الصليبيين الذين كانوا بطبيعة الحال أقل قوة.
- ٩ - B. Spuler, *Die Mongolen In Iran*, 2^e éd, 1960, et *Die Goldene Horde*, - 1943.
- ١٠ - انظر فى خاتمة المطاف: W.H.C. Frend, "Normads and Christianity in the Middle Ages", *J. Eccles. Hist.*, 26, 1975, pp. 209-221.
- ١١ - حول الطابع القاسى للصراعات، انظر على سبيل المثال حادث تقتيل سكان إحدى القرى المسيحية عقاباً على اختطاف أطفال المسلمين (J.A., janv-mars 1922, p. 76-80).
- وإنه فى هذه الفترة كذلك بدأ تنظيم الجاسوسية، انظر على سبيل المثال حكاية قرطاي فى: J.A. 1937 وهذا لم يمنع الحاذقين من كلا المعسكرين من الانكباب على بعض الأعمال التجارية المربية. انظر الملحق.
- ١٢ - لا نملك هنا سوى التلميح إلى الحملة الصليبية الثانية التى قام بها القديس لويس عام ١٢٧٠ م بتونس حيث مات. لقد كثر النقاش حول النور الذى لعبه شارل الأنجى لكن لم يتم استخلاص نتيجة مؤكدة. ضمن

النصوص الموجودة يمكن الرجوع إلى أعمال المؤتمرات التي أقيمت بمناسبة الذكرى المئوية السابعة على وفاة القديس لويس، ثم: Renato Lefèvre, *La crociata di Tunisi del 1270 nei documenti*; del distrutto archivio angioino di Napoli, Roma 1977; Jean Longnon, "Charles d'Anjou et la Croisade de Tunis", *Jour. des savants*, 1974, 44-61. وحول الحملة الصليبية التي قام بها البارونات الانجليز وهي حملة مرتبطة تقريباً بحملة لويس التاسع، انظر: Be. Beebe, "The English baronale and the Crusade 1270", *Bull. of the Inst. of Historical Research*, XLVIII, 1975.

١٣ - انظر لائحة المراجع حول العلاقات مع القسطنطينية في: Canard, "Un traité entre Byzance et l'Egypte au XIII^e siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans mamluks Baybars et Qalâ ûn", *Mélanges Gauthier-Deleury*, 1937.

١٤ - لا يعني هذا انعدام النشاط الاقتصادي والثقافي حتى النهاية، لكن انظر أدناه، ففي أحسن الأحوال لم يكن الشرق اللاتيني بالنسبة للغربيين سوى سوق للممارسة تجارتهم فيه ضمن أسواق أخرى. أضف إلى ذلك أنهم لم يشعروا إطلاقاً بالحاجة إلى تجديد الامتيازات التي كانت لهم به. ولم يكن سقوط سوريا اللاتينية من تدبيرهم لكن أقل ما يقال أنهم لم يبالوا كثيراً بهذا الأمر. ومن المرجح أن المعلومات الواردة في: *Pratica de la Mercatura* de Pegolotti, éd. Evans, اللاتينية ولو أنها رويت في مجملها حوالي عام ١٣٢٠. وغداة الاسترداد المملوكي نجد في سوريا مناطق نفوذ أو مقاطعات نعتت بأنها «مفسولة». ويخبرنا الأديب النوري الذي عاش في هذه الفترة أن هذه اللفظة لكونه من الجندر «فسل» التي أخذت من الكلمة الفرنجية فسال Vassal. وإن أسهل تفسير لذلك أن صغار المقطعين بالملكة ربما كانوا يخضعون للسادة الجدد كلما تقدمت حركة الاسترداد المملوكي، لقاء الاعتراف بوضيقتهم القانونية التي كانت لهم في ظل النظام الفرنجي.

١٥ - Jean Richard, *La papauté et les missions d'Orient au Moyen Age*, 1977. - G.G. Gusman, "The encyclopedist Vincent of Beauvais and the Mongols", dans *Speculum*, 1974.

١٦ - وإيام الصوري في: Ricardo de Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, 1883. Monte Cruce, éd. Monneret de Villard. وفي الاتجاه المعاكس سنرى أن البطريرك النسطوري مار جابلاً قد زار باريس في عهد فيليب لويس (انظر الكتاب الذي ألفه مار برسوما عن حياته وقد قام بلوشيه بنشره وترجمته).

J.M. Fiey, "Chrétiens syriaques entre Croisés et Mongols", *Symposium Syriacum*, dans *Orientalia Christiana Analecta*, n° 197, 1974, p. 327-341. Francis M. Rogers, *The quest for Eastern Christians, travels and rumors*, Minneapolis, 1962.

١٧ - Thomas A. Noonan, "Suzdalian Eastern Trade in the century before the Mongol", communication at the Southwest Slave Association, Denver,

Colorado 1977. لقد بين هذا الباحث أن الطرق كانت موجودة قبل مجيء المغول، ولا شك أنها لم تقطع قط بشكل كلي.

R.S. Lopez, "European Merchants in the Medieval Indies : the evidence- ١٨ of commercial Documents", *J. of Economic History*, vol. III, n° 2, 1943; "Nuove luci sugli Italiani in Estremo Oriente prima di Colombo", *Studi Colobiani*, 3, Gênes 1952. *Sur Isol le Pisan*, Pelliot, "Mélanges sur l'époque des Croisades", *Mémoires Académie des Inscriptions*, 44, 1951.

١٩ - وقد نتج ذلك عن التتقيات التي قام بها كيركمان، وشيتيك وغيرهما في ساحل أفريقيا الشرقية: Archibald Lewis, "Maritime Skills in the Indian 1368-1500", dans *J.E.S.H.O.*, XVI, 1973. H. Franke, "Westöstliche Beziehungen im Zeitalter der Mongolen Herrschaft", dans *Saeculum*, XIX, 1967, p. 92 sq.

٢٠ - حول الاستيلاء المؤقت الذي قام به البيزنطيون على ميناء سمسون وسينوب، انظر: Marie Nystazopoulou Pelikidès, "La mer Noire du XI^e au XV^e siècles" dans *Thésaurismata*, VII, 1970, p. 15-51.

٢١ - إن العبيد الذي عينوا للذهاب إلى مصر التي كانت معادية للإلخيين لم يكن بوسعهم التوجه إليها إلا بحراً. ولا ينبغي أن نتهم الجنوبية فأهل مرسيليا كانوا قد سلكوا مسلكاً أسوأ مع الحملة الصليبية للأطفال. حول هذه المسائل انظر: Michel Balard, *La Romanie génoise*, 2 vols, 1980.

٢٢ - ومن هنا حدث التجديد العابر للكنيسة اليونانية بالاناضول: *Pre-ottoman Turkey*, p. 327.

٢٣ - لعل البنادقة قد بذلوا بعضاً مجهوداً لتعويض بعض ما فقدوه من جراء تراجعهم داخل البحر الأسود.

قارن مع: Jacobi, "L'expansion occidentale dans le Levant; les Vénitiens à Acre dans la seconde moitié du XIII^e siècle", dans *Journal of medieval History*, 1977; وكذلك: "Crusader Acre in the 13th C...", *Studi Medievali*, XX, 1979. R.S. ذلك لم يمنع بنيديتو زكرياء وهو من أهل جنوة من تحقيق أولى مآثره بشرق البحر المتوسط، قارن مع: Lopez, *Genova marinara nell Duecento: Benedetto Zaccharia*, 1933.

٢٤ - صحيح أنه لم يعد بعضاً جنويون إطلاقاً.

P. Holt, "Qalawn's Treaty Geneva 1290", *Der Islam*, 57, 1980, p. 101-108; وكذلك: "The treaties of the early Mamluks with Frankish States", dans *B.S.O.A.S.* XLIII, 1980, p. 67-76.

٢٥ - ابن عبد الظاهر، الشريف، مترجم في: Michaud et Reynaud, *Bibliotheca*, 560 sq.

أضف إلى ذلك أن هذا لم يمنع بعض الأعيان بدولة المماليك من إقامة علاقات مربية مع بعض الفرنجة في نفس هذه الفترة. انظر الملحق.

٢٦ - إنه لفي هذه الفترة قرر كتاب العدل الجنوبية أن يوازي القيمة للعقود التجارية المحررة في البلاد العربية

Gabriella Airoidi, "Genovesi nel mundo islamico: carta sarracina e carta in arabico", *Critica Storia*, mars 1972.

يجب أن نشير إلى وجود دفتر حسابات لقائد سفينة بمدينة عكا. طبعه نزار ١٨٠٦، ويدرسه حالياً ج. براوير.
H. Buchtal, *Miniature Painting in the Latin Kingdom of Jerusalem*, 1957; - ٢٧
Folda, *The Crusaders Mss. illuminated at Acre, 1275-1291*, 1976.
ونسيمان، ج ٢، ص ٣٦٧، أن المخطوطات التي اعتُقد أنها صقلية هي للفرجة سوريا.

٢٨ - نرى تدخل الكارميين حتى في الإسكندرية ومن ثم في البحر الأبيض المتوسط، انظر على سبيل المثال: Suqâ'il, éd. J. Sublet, biographie n° 218; بل يجب أن نشير إلى وجودهم في بعض الوثائق البندقية في القرن الرابع عشر ولو أنه وجود متأخر بكثير زمنياً. انظر الملاحظة التي سجلها روبرت نورا في: *J.E.S. H.O., 1960*. وإذا صدقنا ما يقوله ابن واصل الذي يذكره ليبب في كتاب: *Handels geschichte* فإن التجار بالمحيط الهندي زمن قطر الذي كان سلفاً لبيرس ربما توقفوا في عدن بسبب المكس الذي فرضه السلطان على ميناء عيذاب وهو المدخل التقليدي للتجارة اليمنية بمصر. وقد تم إلغاء هذه المكس في عهد بيرس.

٢٩ - ومع ذلك تظهر التنقيبات الأثرية الحديثة التي قام بها المعهد الفرنسي بدمشق في رحبة أن هذه المدينة كانت لاتزال موجودة (أو وجدت من جديد) إبان القرن الرابع عشر.

هوامش الخاتمة

١ - ربما لزم أن ندرس طبيعة ما تم نقله من الصين والهند بل ومن ماليزيا والظروف التي تمت فيها هذه العملية. فقد حمل تجار الشرق الأدنى والأوسط من رحلاتهم المواد التي ذهبوا للبحث عنها كما حملوا معهم بعض النباتات التي كيفوا زراعتها في بلدانهم قبل أن يقوموا بنقلها حتى إسبانيا. لكن هل بوسعنا أن نقول إن معرفتهم بالصينيين بلغت درجة جعلهم يستوعبون شيئاً ما من حضارتهم ؟ فحتى على المستوى التقني كانت المصادفات هي التي تقف وراء معرفتهم بالورق من جراء القبض على الأسرى الصينيين. فقبل الإسلام أدخلت إيران وبيزنطة إلى بلدانهم تقنيات النسيج الحريري، لكن لم يتم التعرف على الشاي قبل مجيء المغول. وقد استوحى صناع الخزف بالشرق الأدنى الصناعات الخزفية المستوردة، لكن هل كانت لديهم معرفة بالخزف الصيني؟ وكان بإمكان العلاقات القائمة مع الهند أن تتوثق أكثر نظراً للحدود الإيرانية، وهكذا أصبحت الأرقام الهندية أرقاماً عربية عندنا. وقد تم الكشف كذلك عن بعض المؤثرات البوذية ولكن بشكل افتراضي. كل هذا صحيح لكن لا ينبغي أن نغالي منه.

٢ - ثمة نوع من التطابق بين مقاومة التأثيرات الأجنبية ومحاربة البدع بالداخل، علاوة على أن هذه المحاربة كان لها ما يماثلها في الغرب ابتداءً بالأليبيين وحتى محاكم التفتيش.

٣ - انظر الفصل الثاني.

٤ - يؤكد هذا التطور كثرة البنايات الجديدة ومن ضمنها الخانات، انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادتي دمشق وحلب ولاسيما أبحاث ج. سوما جي التي تحيل إليها هاتين المادتين.

٥ - لنلاحظ على الصعيد الثقافي أن الأمير صاحب «المضمار» والفقيه والمؤرخ ابن أبي الدم والمؤرخين ابن النتيف وابن واصل وأبي الفداء الأمير والمؤرخ والجغرافي الذي عاش في عهد المماليك، كل هؤلاء ولدوا أو عاشوا في حماة. ويشان «المضمار» انظر مساهمتي في *Mèlanges Prawer* (تحت الطبع)؛ وبالنسبة لابن النتيف قام جرايز نفيتش بنشره في طبعة مصورة طبق الأصل، بوسكر ١٩٦٠.

٦ - إن عبارة «حرب الصليب» التي يستخدمها الكتاب العرب المعاصرون للدلالة على الحملات الصليبية هي ترجمة معاصرة مجهولة من الكتاب القدامى.

٧ - لنلاحظ أن اللاتين بالقسطنطينية أو باليونان قلما ترجموا كتباً يونانية آنذاك، فقد انطلقت الحركة من إيطاليا فيما بعد مع مساهمة البيزنطيين المنفيين.

٨ - إن الحادثة التي يرويها جوفانيل حول لقاء القديس لويس بالشاعر المنشد الشامباني الذي اعتنق الإسلام (لعله كان أسيراً في السابق) لا تكتسي سوى قيمة حكاية. أما علاقات فرنجة الشرق بالغرب فيثبتها اعتماد اللغة الفرنسية بوصفها لغة الكتابة من كلا الطرفين في الفترة نفسها. ولعل المشاركة الغالبة للعلمانيين في الأحداث قد فاقمت هذه النزعة.

٩ - من جهة لم يكن من شأن الوجود الفرنجى فى جزء من سوريا إلا أن يفاقم النزعة نحو التجزئة (بعض الجماعات المحلية كالدروز بمنطقة الغرب لم تكن تتساهل بشأن الحدود الساحلية)، وفى المقابل أدى الصراع ضد الفرنجة فالمفول إلى تقوية الاتجاه نحو التوحيد السياسى.

١٠ - ما يثبت هذه الإتصالات على سبيل المثال أن «قوانين ملتقيات روما» متأثرة كثيرة «بقوانين ملتقيات».

١١ - لقد عودنا المدرسون المحدثون على تعداد ثمانى حملات صليبية بغض النظر عن تلك التى تم تصنيفها فى إطار آخر (القرن ١٤ و ١٥) نظراً لأنها لم تكن تستهدف الأراضى المقدسة. هذا التعداد لا مبرر له، فهناك حملات أخرى حظى أعضاؤها أيضاً بامتياز الصليب. وبالعكس من ذلك لا أعلن أن ثمة مجال لتوسيع تسمية الحروب الصليبية لتشمل المشاريع المتميزة مثل حروب الاسترداد بإسبانيا كما يفعل الأب بيرنس Burns فى الأبحاث التى خصصها لها، ويجب أن نضيف إلى أنها أبحاث فذة.

١٢ - انظر بصدد بعض الجوانب المتصلة بالحق الكنسى المرتبط بالحملات الصليبية. انظر على سبيل المثال: J.A. Brundage, *Medieval Canone law and the Crusades*, 1969.

وعلى أية حال فإن إعداد هذا الحق جاء فى فترة متأخرة نسبياً.

١٣ - إن الأبحاث الرئيسية حول الدور الثانى من الحملات الصليبية هى من تأليف السيدة بوبارك والأمريكين ر.ف. كوك ول.س. كريست. ومن الممتع أن نلاحظ أن الاتصالات لم تحل قط دون ظهور روايات قصصية حول محمد (الكسندر البونتى وجوتيه الكومبيينى) أو حول الأبطال المسلمين مثل صلاح الدين. وفى المقابل لا توجد أى رواية ملحمية بالشرق حول الحروب الصليبية ولا عن بطل من أبطال الكفاح ضد الصليبيين مثل صلاح الدين. أما سيرة بيبيرس فقد ألفت بعد هذه الفترة بمدة طويلة لإلهاب حماس المماليك ضد العثمانيين.

١٤ - *Syrie du Nord*, p. 572 sq وفى: *Le Moyen Age*, 1950.

أما انشودة الأسرى فإن مييرز يقوم حالياً بنشرها.

١٥ - لعلنا نستخلص الاستنتاجات من براستا لمنحنيات الأثمان. انظر:

Ashtor, *Histoire des prix et des salaires dans l'Orient musulman médiéval*, 1970. (ويجب التدقيق فى هذا الكتاب).

١٦ - M. Spinka, "The effect of the Crusades upon Eastern Christianity", - *Environmental Factors in Christian History*, éd. V.T. Mac Neill, Chicago 1939, p. 252-272. فإن *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*

البطريارك الذى تم انتخابه فى عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م كان يعارض إحدى الأعراف الشعائرية ظناً منه أنها أعراف لاتينية وذلك عن خطأ.

١٧ - غالباً ما يُنسب احتفال المسلمين بالمواد النبوى وانتشاره إلى مبادرة أحد أمراء إربيل فى بداية القرن الثالث عشر رداً على المسيحيين الذى كانوا يتهمونهم بالتشكك هم أنفسهم فى مناقب الرسول ماداموا لا يحتفلون بشخصيته، وعلى أى حال فإن اللاتين لم يدخلوا إلى الشرق الاحتفال بعيد ميلاد المسيح.

١٨ - إن ابن قدامة من القلائد الذين ذكروا الفرنجة في رسالته الفقهية العظيمة بوصفهم أحد أصناف المسيحيين بجانب السامريين وغيرهم ولكن بإيجاز. كما لا نرى أن التجاور اللاتيني قد غير العلاقات القائمة بين المسلمين والمسيحيين أو بين المسيحيين المنتمين لمختلف الكنائس الشرقية، كما لم يغير مناخ الجهاد من وتيرة التحول إلى الإسلام.

١٩ - تم الإيحاء بأن الأفكار الشائعة عن الجنة في الإسلام صادرة عن حكايات «الحشاشين».

٢٠ - انظر أبحاث سيرولي على سبيل المثال فيما يتعلق بنشر قصة هوريم، وبالنسبة لتأثر دانتى بمعراج النبي كما أثبت سيرولي انظر أحدث بحث ظهر وهو:

Peter Wunderli, dans *Romanica Helvetica*, 77, 1966.

٢١ - Meyerhof, "Von Alexandrian nach Bagdad", Sitzb. Pr. Ak. 1930. في:

٢٢ - انظر أعلاه. الفصل ١٥ .

٢٣ - لقد سمع الإدريسي عن أوروبا عن طريق النورمانيين، لكن لا شيء يتبع الاعتقاد بأن آثاره قد عرفت بأوروبا حيث ظلت المعارف الجغرافية محافظة على طابعها التقليدي المحض.

٢٤ - انظر سلسلة المنشورات التي قامت أنيتا إينجل بطباعتها تحت عنوان:

"A glass in history", Jerusalem, depuis 1975, Phoenix publications.

٢٥ - لا علم لي بـ:

K. Weitzmann, "XIII th cent. Crusader icons in Mount Sinai", *Art Bulletin*, 45, 1963.

٢٦ - انظر الموسوعة الإسلامية (٢)، مادة قبالة.

٢٧ - انظر الدراسات الخاصة بالمفردات التي قام بها كونيتش، لاسيما *Are there oriental elements in the Tristan Story?*", dans *Romanica*, 39, 1980, p. 73-85.

التقنيات التجارية عموماً، انظر: Ashtor, "Banking instruments between the Muslim East and the Christian West", *Journal of European Economic History*, 1, 1972, p. 553-573.

٢٨ - لقد ورث الشعراء العرب بالاندلس بعض التقاليد الشعبية الإسبانية الفيزيقوطية قبل أن يؤثرها بأنفسهم في شعراء التروبادور، غير أنهم لم يكونوا يكثرثون بهؤلاء.

٢٩ - ينبغي أن نشير هنا للإشاعات التي انتشرت بمناسبة محاكمة جماعة فرسان ميكل سليمان : لاشك أن بعضهم كان يعرف اللغة العربية، ولعل بعضهم كان منحدرًا من المنطقة نفسها، وما عدا ذلك كله هو من قبيل الخرافات المفترضة.

٣٠ - لا نرى أن العرب عامة قد سعوا لتعلم اللاتينية أو الفرنسية، على أنه في الوسط القبطي كان ثمة امتلاك

للمفردات الفرنسية وذلك راجع ولاشك إلى العلاقات التجارية. انظر: Gaston Maspéro, "Le vocabulaire français d'un copte du XIIIe s.", *Romania*, XVII, 1888, p. 481-512. ولا يظهر أن المسلمين المشتغلين بالمنمنمات أو الخزف قد رسموا صوراً للفرنجة في آثارهم (لكن ربما هناك أنية خزفية بالمتحف البريطاني حسبما أخبرني بذلك أوليج جريار). لقد تم العثور بدمشق على بعض المخطوطات العربية التي كتبت على ظهر المخطوطات اللاتينية، وهي غنيمة ضمن السلع التي تم استرجاعها ولا يمكن أن نستخلص بشأنها أى طرفة.

٢١ - إنه لفي فجر الحركة التبشيرية تمت الترجمة التي قام بها فيليب الطرابلسي لسر الأسرار وهو مجموعة من الحكايات والنصائح التي تعزى لأرسطو والإسكندر وقد كانت شهرتها كبيرة في الشرق ومستكون لهما نفس الشهرة بالغرب لكن بعد فترة طويلة بعض الشيء، وتمثل هذه الترجمة نموذجاً فريداً فيما يبدو. وكانت «سيرة الإسكندر» معروفة منذ القدم في الغرب والشرق على السواء (حيث بلغت الصين وماليزيا)، لكن لم يتم التساؤل فيما يبدو عما إذا كان هناك تأثير وتأثر بين الروايات الشرقية والغربية. وكانت حكايات ألف ليلة وليلة متداولة بالشرق وإن لم يكن قد وصل حجمها إلى ما نعرفه عليه اليوم، لكن لا نرى أنها قد وصلت إلى الشرق اللاتيني ولا إلى أوريا. أما مجموعة القصص الهندية الإيرانية التي ترجمت إلى العربية تحت عنوان كليله ودمنة فقد دخلت الغرب لكن عن طريق إسبانيا. ولا يظهر أن الشرق اللاتيني ولا الغرب قد عرفا شيئاً من السير الفروسية العربية حتى تلك التي يتم فيها الحديث بعض الشيء عن الفرنجة (انظر أعلاه).

٢٢ - يقال إن شخصاً يدعى بيانفوني المقدسى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) كان يمارس مهنة الطب بإيطاليا وفرنسا والبلاد العربية. قارن مع: *Mémorial Bossuat*, p. 50 sq.

٢٣ - انظر ترجمة هذا الجزء من آثار رشيد الدين بقلم ك. جاهن. لقد زار ابن العبري - وهو من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح - مدينة طرابلس في شبابه، وقد أتم تأليف كتابه الضخم في التاريخ في المناخ نفسه، لكننا لا نرى أن ذلك لم يترك أثراً في كتاباته.

٢٤ - انظر بالنسبة لبعض المؤرخين المحليين الآخرين في هذه الفترة ولاسيما الملكيين منهم : Graf, 71 sq.

٢٥ - ربما هناك مجال لإدماج المشاكل الموازية التي طرحتها الاتصالات اللاتينية البيزنطية في هذا النقاش. غير أن الظروف مختلفة جداً، إلى جانب الفارق الزمني وذلك إلى درجة لا نجرؤ معها حتى على إجراء مقارنة مجاملة. ويمكن أن نستعين في ذلك بـ: Geanakoplos D.J. *Medieval western civilization and the byzantin and islamic world*, 1979. ولنذكر أن إنجلترا استعارت القديس جورج على الأرجح من مسيحي الشرق وبيزنطة، وقد كان لهذا القديس عدة تناسخات بالشرق.

٢٦ - لاسيما جيرار الكريموني. انظر: N. Daniel, 272.

٢٧ - من بين المقالات ننكر: M.J. Jensen et R.L. Reynolds, "European colonial experience, a plea for comparative studies", *Studi in honore Luzzato*, 1950; يحمل كتاب Josuah Prawer, *The Latin Kingdom*, العنوان الفرعى التالى: "European Colonialism in the Middle Ages".

٢٨ - قامت عدة أسر غربية نبيلة إبان العصر الوسيط أو فى عهد لويس الرابع عشر بإبخال اسم أحد أجدادهم فى الحوايات التاريخية أو الروايات بفرض أن يضمّنوا نسبته للحروب الصليبية. كما أراد أهل المدن التجارية أن يرجعوا علاقاتهم بالشرق إلى فترة تسبق أحياناً الحملة الصليبية بفترة تاريخية طويلة كما حدث على سبيل المثال لمدينة مونبيليه فى علاقتها بعسقلان.

هوامش الوثائق

الوثيقة الثانية

(١) المصادر التي استقى منها ابن الأثير رواية الأحداث الخاصة بالحملة الصليبية على برابرة تامة بمختلف القادة الفرنجية غير أنه في التراث الذي أدخله هنا لاحقاً لتفسير الحملة الصليبية صار بوبوان نمونجا أصلياً للأمير الفرنجي وقد تسمى باسمه أربعة آخرون من ملوك القدس ممن أتوا بعده . وغنى عن البيان أن بوبوان الأول لم يكن سوى أحد القادة مثل غيره ولم يذهب قط إلى إيطاليا، وإذا كانت لديه صلات قرابة مع النورماندين . فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنورماندى إيطاليا .

(٢) تخلط كتابات ابن الأثير بين الأسماء المختلفة لروجيه الصقلى : لروجيه الأول الفاتح كان قد مات (في هذا الوقت) وروجيه الثانى لم يكن قد ولد بعد .

(٣) استولى القائد التركى غير السلجوقى اتسز على القدس عام ١٠٧١ وعلى دمشق عام ١٠٧٤، وغزا مصر فى عام ١٠٧٥ . وقد أتمجت هذه الدول فى الإمبراطورية السلجوقية لاحقاً .

(٤) إذا كان هذا التفسير مستبعداً هنا فلربما تم اعتماده فعلاً أثناء ظهور الفرنجة فى شمال سوريا .

(٥) من الممكن أن يكون لهذه الرواية فى جزء منها ، مصدر صقلى أو مغربى على أية حال فإنها تعبر تماماً عن السياسة النورماندية إزاء مسلمى الجنوب . وفى المقابل لا يوجد بالطبع شيء يمكن الإبقاء عليه من فكرة أن الحملة الصليبية نشأت من إرادة تحويل السياسة الفرنجية نحو الشرق، إن لم يكن قد سعى بعضهم لتفسير الحملة على هذا النحو، كما فعل البعض فى بيزنطة عبر مبادرة الكسيس كومننين .

الوثيقة الثالثة:

- ١- إنجيل لوقا الإصحاح السابع الآية ١٦ .
- ٢- رسالة إلى العبرانيين الإصحاح ١٣ الآية ٥ .
- ٣- أعمال الرسل الإصحاح ١١ الآية ٢٦ .
- ٤- المزمور، المزمور ٧٨ الآية ١٩، المزمور ١١٣ الآية ٢ .
- ٥- المزمور ، المزمور ٢٨ (٥) الآية ١١ .
- ٦- الملوك (١٤) الإصحاح ٧ الآية ١١ .
- ٧- المزمور، المزمور ٢٩ الآية ٢ .
- ٨- سيلاحظ المرء أن الراهب الطيب لم يسمع حديثاً فيما يبدو عن سانت لانس .

(*) حدث خطأ فى النص الفرنسى، فالنص المذكور فى الوثيقة الثالثة يوجد بالمزمور ٢٩ وليس ٢٨ (المترجم) .

الوثيقة الرابعة

- (١) أمير من الأسرة الحاكمة لبنى عمار كان قد قام بجولة بحثاً عن دعم ضد الفرنجة .
- (٢) قلعة فى منطقة نهر العاصى الأوسط تنتمى لأسرة منقذ المعروفة من خلال الكاتب أسامة بن منقذ وهو شيعى فى تلك الفترة مثل بقية بنى عمار .
- (٣) أحاديث منسوبة إلى النبى .
- (٤) علم الأدب .
- (٥) أى الشيعة الإثنا عشرية فى مقابل الإسماعيليين الفاطميين .
- (٦) صيدا

الوثيقة الخامسة

- ١ - (١) أفريقيا (تونس) .
- (٢) لا نتيين فى النص التالى إذا كان أفراد العصابات المعنية هم الأتراك الذين غزوا فلسطين أو الصليبيون الذى سنعود للحديث عنهم فيما بعد .
- (٣) لعل الأمر يتعلق بتلميح تاريخى إلى تمرد نزار ابن الخليفة المستنصر الذى استبعد لصالح شقيقه المستعلى . الذى ظل الإسماعيليون من الفرع الذى أطلق عليه «الحشاشون» أوفياء له .
- (٤) كانت كلمة سلطان تعنى آنذاك الوزير والقائد الفعلى للحكومة والجيش، فى تلك اللحظة كان «السلطان» هو بدر الجمالى الأرمنى الذى اعتنق الإسلام .
- (٥) لم يشر كاتب الرسالة إلى حريق المعبد اليهودى كما شهدت به المصادر الإسلامية .
- (٦) يتعلق الأمر فى هذه الفترة بالأفضل ابن بدر الجمالى .
- (٧) يبدو إذن أن الرسالة كتبت أثناء المحاولة الأخيرة للأفضل من أجل استعادة فلسطين فى عام ١١٠٢ .

- ب - (١) موقع حدودى ظل فى أيدي المصريين .
- (٢) نظراً للمشاركة المحدودة للألمان فى الحملة الصليبية فمن المحتمل أن يكون الأمر متعلقاً باللوريين التابعين لجودفروا البويونى وهم رعايا الإمبراطورية .
- (٣) ذلك هو الثمن التقليدى العادى لعبد ذكر لا تتوفر لديه مؤهلات خاصة .

الوثيقة السادسة

- (١) كان جوسلين الكورتيناى سيد تل البشير عام ١١٠٨ ووصيا على عرش الرها أثناء أسر بوهوان البورجى .
- (٢) حاكم سابق للموصل .
- (٣) أمير حلب .
- (٤) قبل أن يعاد نشر الرواية هنا .
- (٥) تقع مرعش المتنازع عليها بين أنطاكية والرها فى أقصى شمال سوريا وكان حاكم مرعش آنذاك هو بوهوان المعروف جيداً .
- (٦) أعيد نشر هذا النص فى هذا الموضع لأنه يمثل أحد الشهادات النادرة لرواية عربية مأخوذة مباشرة من مبلّغ فرنجى . ربما كان المصدر هو تاريخ الفرنجة لحمدان بن عبد الرحيم (انظر، أعلاه - الصفحة الأولى من الفصل السادس)

الوثيقة السابعة

- (١) إذا كنا لا نعرف فى هذا التاريخ أفراد أسرة الأمبرياكو الذى يبدأ اسمه بحرف ج فإن منزلة هذه الأسرة لدى التجار الجنوبيين بالشرق أمر مؤكد .

الوثيقة الثامنة

- (١) يتعلق الأمر فى هذا التاريخ، بالهجوم الذى شنه عمورى شقيق ملك القدس بوهوان الثالث على مدينة عسقلان .
- (٢) بشأن كل ما سبق أنظر مقالتي «جمارك وتجارة» فى مجلة YESHO و «مخزومات» والفصل التاسع أعلاه .

الوثيقة العاشرة

- (١) لم يتم التعرف عليها جيداً .

الوثيقة الحادية عشر

- (١) هذا الخطاب المرسى فيما يبدو من قبل شخص ينتمى لوسط متواضع، وعمل لأحد الأعيان غير

المعروفين أيضا وهو معز النوله ، لابد أنه قد كتب بعد هزيمة صلاح الدين من قبل الفرنجة وربما تعلق بهزيمة عام ١١٨٣، في الواقع لم ترسل أى قوات مصرية إلى سورية قبل صلاح الدين، وبعد عام ١١٨٨ لم تعد مدينة نابلس تابعة للفرنجة .

(٢) حتى في القاهرة . .

(٣) كون هذه الرسالة التي كتبت من قبل شخص مسلم قد عثر عليها بين أوراق الجنيزة يوحى أن أسيرة السجين قد وقعت عقد افتراض من أحد اليهود لإفدائه .

الوثيقة الثانية عشر

(١) هذه الرسالة، في صيغتها العامة، هي رسالة يهودية غير أنها لا تتميز بشئ يهودى على نحو خاص، لابد أن يوجد لها ما يناظرها داخل كل الطوائف . واكتشاف الجنيزه جعلنا نذكرها هنا فقط، دون غيرها، بوصفها رسالة نمونجية بالنسبة لكل الرسائل الأخرى .

(٢) تعنى الكلمة هنا غير السورى .

(٣) اليهود .

(٤) ريمون الثالث الطرابلسى، موضوع الحديث هنا عاد من الأسر في عام ١١٧٣-١١٧٤، وقد ظلت زوجته إشيف حاكمة لطبرية حتى استيلاء صلاح الدين على المدينة في عام ١١٨٧، فلا بد أن تكون هذه الرسالة قد كتبت بين هذين التاريخين . قارن براور ص ٥٣١ و ٥٨٢ و ٥٨٦ و ٦٤٩ .

(٥) لا تصح لنا الرسالة عن نوع النّين الذي من أجله وضعت المرأة والطفل المشار إليهما بالسجين فلربما حدث تلخر في دفع ضريبة .

الوثيقة الرابعة عشر

(١) عن هذه الكومونة التي تأسست في عام ١١٩٧ قارن كلود كاهن في «سوريا» ص ٥٩٠ و ٦٥٢ .

(٢) أنظر أعلاه الفصل السادس .

الوثيقة السادسة عشر

(١) أو السمسار، وتعنى كلمة المورد المتخصصين الذي يجلبون المعدن الذي حصلوا عليه من التجار للمك .

(٢) يتعلق الأمر بتحويل معدن عملات مختلفة إلى قطع للتداول الرسمى .

(٣) من المحتمل أن تكون الدينارات الفرنجية .

(٤) ربما كان المقصود العملة الصقلية .

الوثيقة السابعة عشر

- (١) كاتب .
- (٢) مراقب مالي .
- (٣) أثارت فرانسواز ميشو انتباهي إلى هذا النص .

الوثيقة الثامنة عشر

- (١) حول «الزيارة» وهو نوع من القذافات الضخمة، انظر رسالتي عن فن التسليح .
- (٢) كان فخر الدين المنحدر من عائلة بنى حموية الإيرانية المستعريه (انظر موسوعة الإسلام - أولاد الشيخ)، الملازم القوى للملك الصالح أيوب، وقدمات بعد سيده بقليل في معركة المنصورة ضد سان لويس .

الوثيقة التاسعة عشر

- (١) التذكير بحملة فريدريك الصليبية .
 - (٢) استعاد المسلمون القدس في عام ١٢٩٤ .
 - (٣) في الحقيقة لم يتقابل القائدان قط وإنما تراسلا فقط .
 - (٤) الملك الصالح، أمير أيوب مات في صبيحه وصول حملة سان لويس إلى مصر .
 - (٥) يبدو أن هذه الرسالة التي حُرِّفَت بالطبع أثناء نقلها إلى اللغة العربية صحيحة في محتواها .
- وحول سياسة الملك الصالح المحتضر انظر أيضاً وصيته التي نشرها إبراهيم شبره وكلود كاهن في نشرة الدراسات الشرقية بمشق ١٩٧٨ .

الوثيقة العشرون

- (١) لإدراك مغزى هذه الشروط، انظر أعلاه رسالة العباس إلى البيازنه ومقاتلي «جمارك وتجارة»

البيبلوجرافيا

- (١) انظر البيبلوجرافيا التالية .
- (٢) ابن واصل، ابن أبي طىء الخ . انظر بيبلوجرافيا المصادر .

(٣) على سبيل المثال : الإقطاع، انظر الفصل الرابع .

(٤) تمت بفحص نقدي مقتضب لأغلب المصادر الخاصة بالشرق الأدنى في فترة الحروب الصليبية في رسالتي عن «سوريا الشمالية» وأكملت ذلك ونفحته في مادة «الحروب الصليبية» بموسوعة الإسلام أعطيت إرشادات حول المصادر الشرقية الصادرة حديثاً وذلك في مجلد «متفرقات مهداة ليوشع براور»، (١٩٨١) . يوجد في تونس بالأحمدية رقم ٤٩١٥، مخطوط حولية صغيرة لابن حجي (نهاية القرن الثالث عشر .) بالطبع ثمة فائدة من دراسة طبيعة الشهادات وعقلية مختلف المؤلفين، ولا يوجد إلا القليل من الدراسات التي تمت من هذه الزاوية . وهناك فحص لمعظم مصادر الروايات المسيحية قام بها زابودوف في «مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية» ، موسكو ١٩٦٦ .

(٥) «المنهاج» على سبيل المثال، وقد ذكر فيما بعد .

(٦) لقد تمت الإشارة منذ فترة إلى أهمية الإضافات الملحق بالمخطوطات ولا سيما الأرمنية والسيريانية . انظر على سبيل المثال ف. أكوبيان في Armyankya kniga kanonov إيرفان، ١٩٦٤ (باللغة الأرمنية) .

(٧) لقد تم البدء في تكملة مجموعة المؤلفات الوثائقية، فيما يتعلق بالعصر الوسيط المتأخر، في مختلف البلاد الإسلامية، غير أن ذلك يظل دون المؤلفات الإيطالية والغربية الأخرى، ولا تمس هذه المؤلفات إلا إستثناءً المسائل الدولية، ونفس الشيء يقال كذلك بالنسبة لأوراق البردي بمصر فيما يتعلق ببدايات العصر الوسيط . والإستثناء الوحيد، لا سيما بالنسبة للقرن الحادي عشر والثاني عشر، هو الوثائق اليهودية - العربية المسماة بجنيزة القاهرة . التي أخذنا فكرة عنها من خلال أعمال جواتين (انظر الجيولوجرافيا) .

(٨) على سبيل المثال لم يدرك جيداً الدور الذي لعبته أمالفي لأن أرشيفات هذه المدينة قد احترقت في

القرن الرابع عشر . أما أرشيفات الشرق اللاتيني فقد فهرست في كتاب د . روهي يشت :

R.Rohricht, Regesta Regni Hierosolymitani, Ivol at additamentum 1893-1904 .

(٩) تم إحياء جمعية الشرق اللاتيني والتي تأسست في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين، وكانت قد أصدرت أرشيفات الشرق اللاتيني ومجلة الشرق اللاتيني .

(١٠) انظر داسو «طوبوغرافيا» (قارن مع الجيولوجرافيا) والمثال المقدم أعلاه في الملحق .

المؤلف في سطور

يُعدُّ كلود كاهن (١٩٠٩ - ١٩٩١) من أبرز المتخصصين الغربيين في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي في العصر الوسيط. وهو من المؤرخين المتشددتين في مراعاة الشروط العملية الدقيقة لكتابة التاريخ، ترجمت أعماله إلى عدد من لغات العالم. مع نهاية الحرب العالمية الثانية عمل أستاذًا في جامعة استراسبورج ثم باريس. كما ترأس منذ عام ١٩٥٧ النشرة الاقتصادية والاجتماعية لتاريخ الشرق حتى وفاته في عام ١٩٩١. ومن أشهر أعماله :

- سوريا الشمالية في فترة الحروب الصليبية والإمارة الفرنجية بأنطاكية (١٩٤٠).
- الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية بآسيا خلال القرون الوسطى (١٩٥٨).
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية (١٩٧٠).
- مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي بالعصور الوسطى : منهجية وعناصر بيلوجرافية (١٩٨٢).

المترجم في سطور

أحمد الشيخ كاتب وصحافي مصري مقيم في العاصمة الفرنسية منذ عام ١٩٧٨. وهو باحث في مجال الفكر العربي الحديث، عمل في اليسار العربي (١٩٧٩ - ١٩٨١) والوطن الكويتية (١٩٨١ - ١٩٨٦). ومجلة الفرسان (١٩٨٦ - ١٩٨٨) والمؤتمر (١٩٨٩). كما شارك بالكتابة في عدد من الصحف والمجلات العربية مثل : العربي (الكويت)، شؤون عربية (تونس). اليوم السابع (باريس). وحاليًا يشارك مع بعض الباحثين العرب في تأسيس مركز عربي للدراسات الغربية في باريس.

الفهرس

٥	تقديم المترجم
١٧	تقديم
٢٣	الفصل الأول : الشرق حتى بداية القرن الحادى عشر
	الفصل الثانى : الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر أفريقيا
٢٩	القسرية
٥٢	الفصل الثالث : الغرب وعلاقاته بالشرق
٧٥	الفصل الرابع : الغرب عشية الحرب الصليبية بدايات الحملة
٩١	الفصل الخامس : الصليبيون فى آسيا
١٠٩	الفصل السادس : الاتصالات الأولى
	الفصل السابع : الشرق اللاتينى، الأوضاع السياسية حتى الحملة
١٢٣	الصليبية الثانية
	الفصل الثامن : النصف الأول من القرن الثانى عشر :
١٢٩	التجارة والتطور الروحى
١٥٣	الفصل التاسع : تطورات أواسط القرن الثانى عشر
١٦٧	الفصل العاشر : التجارة فى القرن الحادى عشر تنظيمها، العملة
١٨٣	الفصل الحادى عشر : صلاح الدين
١٩٧	الفصل الثانى عشر : مؤسسات الشرق اللاتينى
٢١٣	الفصل الثالث عشر : السكان المحليون
٢١٩	الفصل الرابع عشر : الجيسوس
٢٢٧	الفصل الخامس عشر : الفترة الأيوبية
٢٤٥	الفصل السادس عشر : التنظيم التجارى والنقدى
٢٥٣	الفصل السابع عشر : الفترة المغولية
٢٦٥	الخاتمة
٢٨١	وثائق الكتاب
٣٠٩	جدول زمنى عام
٣١٢	المراجع
٣٢٢	الهوامش

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية

يبدأ كلود كاهن كتابه «الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية» باستباق دهشة القارئ من صدور كتاب جديد في هذا الشأن، غير أنه يقدم مبررات محضّة لصدور كتابه بالإشارة إلى أن نسبة الكتب القيمة ضئيلة ضمن هذا العدد الهائل من الكتابات المكرّسة للحروب الصليبية وتاريخها، وأن أغلب هذه الكتابات لا تتوافر بها الشروط العلمية الدقيقة للتأليف العلمي، حيث صدرت في أغلبها في مناخ غلبت فيه الأهواء، وبالتالي ثمة حاجة ملحة لمزيد من الأبحاث الجديدة لتصويب الدراسات السابقة، وإضاءة بعض الجوانب المعتمدة في تاريخ هذه الفترة، الأمر الذي يسمح بعقد مقارنة بين المجتمعين اللذين وضعتهما الحروب الصليبية وجهاً لوجه ومن أجل أن تكون هناك نظرة متبادلة من كلا الطرفين لدراسة أوجه الالتقاء والتأثير انطلاقاً من نظرة شاملة للتاريخ.

فالكتاب يؤرخ لفترة تاريخية من علاقات الشرق بالغرب في شتى جوانبها الثقافية والتجارية والعسكرية، وذلك استناداً لقراءة فاحصة ومدققة لأرشيفات ومن خلال هذا التأريخ نجد العلاقة بين الشرق والغرب والمقارنة الدائمة بينهما صفحات الكتاب، فالمؤلف يبحث في طبيعة هذه العلاقة على أكثر من صعيد غير بشكل أساسي على نوعية الوعي المتوفر لدى كل طرف عن الآخر، ومصادر والتأثير والتأثر بينهما وشروط ذلك والمناطق التي تم عبرها هذا التبادل، كما لا أن يقارن بين القدرات العسكرية وإجراءات المعركة لدى الطرفين.